ساعدت جامعة بغداد على نشره

تاريخ الأدب العباسي

تأليف

البروفيسور رينولد ا. نكلسن

ترجمة وتحقيق

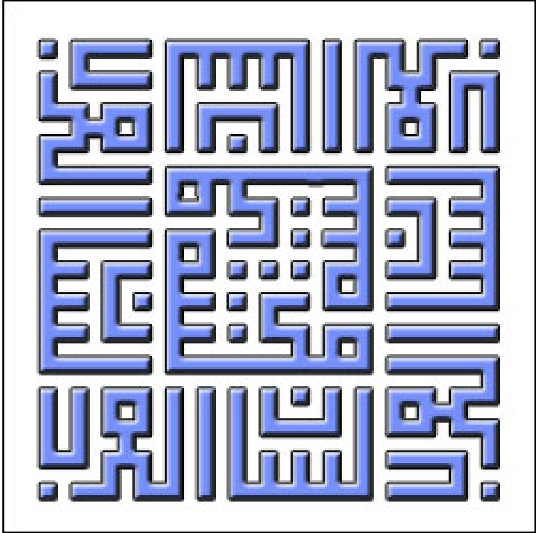
الدكتور صفاء خلوصي

الاستاذ في جامعة بغداد

الناشر المكتبة الاهلية في بغداد

مطبعة اسعد - بغداد

١٩٦٧



ساعدت جامعة بغداد على نشره

تاريخ الأدب العباسي

تـأليف

البروفيسور رينولد ا. نكلسن

ترجمة وتحقيق

الدكتور صفاء خلوصي

الأستاذ في جامعة بغداد

(كلية التربية)

منشورات

المكتبة الأهلية

صاحبها : السيد شمس الدين الحيدري

بغداد

مطبعة اسعد

١٣٨٧هـ/١٩٦٧م

نبذة عن مؤلف الكتاب

المستشرق رينولد آلن نكلسن[1]

ولد المستشرق الانكليزي رينولد آلن نكلسن Reynold Allen Nicholson في ١٩ آب (اغسطس) من سنة ١٨٦٨م ؛ ودرس في جامعة ابردين التي صار فيها فيما بعد استاذاً للعربية والفارسية ، وكذلك في ترنتي كوليج Trinity College بكمبرج ؛ وله كثير من المؤلفات والمترجمات التي تتعلق بصورة خاصة بالآداب العربية والفارسية ومن أهمها :

(١) **مختارات من ديوان شمس تبريزي** (١٨٩٨) .

(٢) **تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار** « جزءان » (١٩٠٠) .

(٣) **مبادىء العربية** « ٣ أجزاء » (١٩٠٧ ؛ ١٩٠٩ ؛ ١٩١١) .

(٤) **تاريخ العرب الأدبي** A Literary History of The Arabs
[وقد ترجمنا القسم الثاني منه في الكتاب الذي بين يديك تحت عنوان : « تاريخ الأدب العباسي »] طبع لاول مرة سنة ١٩٠٧ وطبع للمرة الثانية سنة ١٩٣٠ وظهرت اعادة لنفس الطبعة في فترات مختلفة كان آخرها سنة ١٩٦٦] .

(٥) **ترجمان الأشواق لابن العربي** : مع ترجمته الانكليزية وتعليقات بقلمه (١٩١١) .

(٦) **كتاب « في التصوف الاسلامي ومتصوفة الاسلام »** (١٩١٤) .

(٧) **نظرات في التصوف واسرار الروح** « عن محمد اقبال » (١٩٢٠)

(٨) **دراسات في الشعر الاسلامي ، وكتاب كشف المحجوب** : مع ترجمة وتعليق بقلمه (١٩١١) .

(٩) **أشعار عمر الخيام** « ترجمة وتعليق » (١٩٠٩) .

(١٠) **المسعودي** وغير ذلك من المؤلفات والبحوث .

وكانت له معرفة تامة بالفرنسية والالمانية والايطالية واليونانية واللاتينية والسريانية والعبرية والفارسية والعربية فضلاً عن الانكليزية التي كان يؤلف فيها كأديب بارع ويترجم اليها الشعر نظماً بمهارة فائقة .

---

(١) اقتبسنا هذه النبذة بشيء من الزيادة والتحوير عن مجلة الرسالة المصرية لصاحبها الاستاذ احمد حسن الزيات (المجلد ٤ العدد **١٧٢** المؤرخ في ١٩ اكتوبر « تشرين الاول » ١٩٣٦ ؛ ص ١٧١٧-١٧١٨)

الفهرست العـام

[لكيما يتأكـد القاريء من صـحة الترجمـة وضـعنا ارقام النص الانكليزي جنباً إلى جنب مع أرقام الترجمة العربية تسهيلاً له في المراجعة، مع العلم بأننا اخترنا لترجمتنا طبعة ١٩٣٠ من النسـخة الانكليزية تلك التي لم تتغير الى يومنا هذا رغم اعادة تصويرها في طبعات متتالية] ٠

Page	الصفحة	
283	٥٥	صدر العصر العباسي ملائم للتفكير الحر
284	٥٦	انتصار السنّة
CH. VII		**الفصل الثاني** : الشعر والآداب والعلوم في العصر العباسي
285	٥٧	اعتبار الشعراء الجاهليين كلاسيكيين
286	٥٨	أبو نواس ناقداً
287	٥٩	رأي ابن قتيبة في القدامى والمحدثين من الشعراء ــ الثورة على الكلاسيكية
288	٦٠	النقّاد المناصرون للمُحْدَثين
289	٦١	شعبية الشعراء المحدثين
289	٦٢	خصائص الشعر المُحْدَث
291	٦٣	خمسة شعراء عباسيين أصيلين: مطيع بن إياس
292	٦٦	أبو نواس
296	٧٠	أبو العتاهيه
303	٧٩	ثناء الثعالبي على سيف الدولة
304	٧٩	أبو فراس الحمداني
304	٧٩	المتنبي
313	٩١	أبو العلاء المعري :
314	٩٢	زيارته لبغداد
324	١٠٦	أبو تمّام والبحتري
325	١٠٧	ابن المعتز
325	١٠٩	عمر بن الفارض
326	١١٠	الطّغرائي
327	١١١	البوصيري
328	١١٣	السّجع
328	١١٤	بديع الزمان الهمذاني
329	١١٥	الحريري
331	١١٧	نقد المقامات على أنها مفسدة للاخلاق ــ شخصية أبي زيد
337	١٢٤	الأدب الديني لهذه الفترة ــ مالك بن أنس
337	١٢٥	البخاري ومسلم
338	١٢٦	الماوردي

Page	الصفحة	
360	١٥٨	الكندي ـ الفارابي ـ ابن سينا
361	١٥٩	**الطب والفلك والرياضيات :**
361	١٦٠	البيروني
362	١٦٠	الفهرست
	CH. VIII.	**الفصل الثالث** : السنة والزندقة والتصوّف
365	١٦٣	العباسيّون والاسلام
366	١٦٤	تأثير الفقهاء
367	١٦٦	**الاعتزال والتفكير الحر :**
367	١٦٧	المعتزلة وخصومهم
369	١٦٨	المأمون يتبنى الاعتزال ويطبّقه
		عودة المتوكل الى مذهب اهل السنة
369	١٦٩	ـ نهاية المعتزلة
370	١٧٠	**اخوان الصفا :**
		مبادىء اخوان الصفا مماثلة للفلسفة
371	١٧٢	الباطنية عند الاسماعيلية
372	١٧٣	**الزنادقة :**
373	١٧٣	اضطهاد الزنادقة
373	١٧٤	بشار بن برد
374	١٧٥	صالح بن عبدالقدّوس
375	١٧٦	رأي أبي العلاء في الزنادقة
376	١٧٧	**ردّة الفعل السنيّة :**
377	١٧٨	أبو الحسن الاشعري ـ قصة الاخوة الثلاثة
378	١٨٠	عودة الأشعري الى احضان السنة
378	١٨٠	الاشعري مؤسساً للفقه الكلامي
380	١٨٣	الترجمة الذاتية للغزالي :
383	١٨٥	أعمال الغزالي وتأثيره
383	١٨٦	**التصوّف في العصر العباسي :**
385	١٨٩	معروف الكرخي
386	١٩١	أبو سليمان الداراني
386	١٩١	ذو النون المصري
388	١٩٣	الاصل الثيوصوفي للتصوف
389	١٩٦	التصوّف مؤلف من عدة عناصر مختلفة

تاريخ الأدب العباسي

تأليف

البروفيسور رينولد ا. نكلسن

ترجمة وتحقيق

الدكتور صفاء خلوصي

الاستاذ بجامعة بغداد

من منشورات

المكتبة الأهلية - بغداد

مطبعة أسعد - بغداد

١٣٨٥هـ/١٩٦٦م

مقدمة

بقلم المترجم

الكتاب الذي بين يديك ايها القارىء فصول خاصة بالادب العباسى من « تاريخ العرب الادبى » للبروفيسور رينولد نكلسن .

والكتاب كما هو واضح دراسة علمية على الاسلوب الغربى لتاريخ فترة تعد من اهم فترات تاريخنا الادبى فالعصر الاموى (الذى يحتل هو والجاهلى القسم الاول من كتاب « تاريخ العرب الادبى » لنكلسن) يكاد يكون عقيما ادبيا بالمقارنة مع العصر العباسى – على راى نكلسن – فهو لايمثل الادب العربى بالمعنى الحقيقى كما يمثله الادب العباسى الذى تنوعت اغراضه وتعددت مذاهبه الادبية وتطورت اساليب التعبير فيه ففيه شىء اكثر من الشعر والخطب التى نجدها في الفترة الاموية. فيه العلوم والمعارف الموضوعة والمترجمة والدراسات المتباينة الجوانب .

والواقع اننى انظر الى الادب العباسى كثورة على الادبين الجاهلى والاموى ويمكننا ان نعتبر الادبين الاخيرين ادبا واحدا لان الفترة الاموية لم تكن غير امتداد للعصر الجاهلى ، من وجهة نظر الادب ، واننا حين ندرس تاريخ الادب العباسى يجب ان ندرسه كأدب رومانتيكى ثائر على الادب الكلاسيكى الجاهلى ، فمعركة الزاب الكبرى[1] سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م لم تكن لتحدد سقوط دولة وقيام دولة فحسب ، وانما ازاحت نظاما سياسيا واقتصاديا واجتماعيا لتحل محله سواه ، وكان لكل هذا انعكاسه الادبى .

الثورة العباسية والثورة الفرنسية :

فالثورة العباسية سنة ٧٥٠م في نظرنا اشبه ماتكون بالثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م التى جاءت بعدها بألف عام ونيف ، فالاولى وضعت الامور

---

(١) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك (القاهرة ، ١٩٣٩) ج ٦ ص ٨٨ – ٩١

فى نصابها فى القرون الوسطى وهـذه فعلت نفس الشيء فى القرون الحديثة ، فكما ان الاخيرة دكت معالم قديمة لتحل محلها أخرى جديدة فى كل شيء فكذلك هـذه ، وكالثورة الفرنسية التى حطمت معاقل الكلاسيكية فى الادب الفرنسى قامت الثورة العباسية بعمل مماثل ونقلت الادب العربى من الكلاسيكية الى الرومانتيكية واتجهت صوب التجديد في المعاني والاساليب[١] ونادت بمذهب التخير[٢] اى تخير احسن ما فى الحضارات القديمة غير العربية وهو نفس ما فعلته اوربا في عصر النهضة في القرن الخامس عشر يوم قامت جماعة الانسانيين باحياء العلوم الاغريقية القديمة ، وكانت النتيجة ان شاعت اربع ثقافات الى جنب الثقافة العربية الاصلية القائمة على القرآن وما اشتق منه من علوم النحو والبلاغة والفقه والتفسير : (اولا) الثقافة اليونانية وكانت قد وصلت الى الشرق من عهد الاسكندر المقدوني وانتقلت الى العرب على يد الفرس • (ثانيا) الثقافة الهندية وكان من نتاجها ابو عطاء السندى[٣] الشاعر وابن الاعرابى • (ثالثا) الثقافة الفارسية • (رابعا) ثقافة سائر الامم السامية التى كانت منبثة في ارجاء العراق •

الانقلاب الرومانتيكى :

واذا انفرد بزعامة الانقلاب الرومانتيكى في الادب الفرنسى جان جاك روسو بدعوته الى الرجوع الى الطبيعة وبصيحته المشهورة : خلق الانسان حرا ولكنه مكبل بالاصفاد فى كل مكان ! فان الادب العباسى اخرج اكثر من زعيم واحد ، اخرج ابن المقفع الذى وضع دستور الدولة الجديدة فى كتابه « رسالة الصحابة » وهو كتاب اشبه ما يكون بكتاب « العقد

---

(١) اشهر من جدد في المعانى بشار وابو نواس وابو العتاهية وابن الرومى •

(٢) حنا الفاخورى ، تاريخ الادب العربي ، ١٩٥٣ ص ٣٥٤ •

(٣) نجد شيئا من شعره في الطبرى ، ج ٦ ص ١٠٩ (في اخبار سنة ١٣٢هـ) •

الاجتماعي » لروسو وأخرج مطيع بن اياس[1] الذى اولع الشرارة الاولى للثورة الادبية التى جاءت مكملة للثورة السياسية يوم قال (من الطويل) :

لاحسن من بيد يحاربها الفتى ومن جبلي طي ووصفكما سلعا
تلاحظ عينى عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى

هذه هي الصرخة الرومانتيكية الاولى في وجه الكلاسيكية اعقبتها صرخات من بشار وابى نواس ، فاذا بنا نسمع نغمات جديدة في الادب من نمط قول الحكمى [من الكامل] :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقوله [من البسيط] :

يبكى على طلل الماضين من اسد لادر درك قل لي من بنو اسد ؟
لاجف دمع الذى يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصبو الى وتد

وقولـه [من البسيط] :

ياربع ، شغلك انى عنك فى شغل لاناقتي فيك لو تدرى ولا جملي

وهي دعوة للخروج على التقاليد الادبية الموروثة والاتجاه نحو الأدب الذاتى لا الموضوعي ، وبوسعنا ان نراها بمنظار آخر فنقول انها ثورة الحضارة على البداوة[2] فهي اذن بداية ثورة ادب امتد خمسة قرون

---

(١) مطيع بن اياس شاعر مخضرم ولد بالكوفة واختص بمدح جعفر ابن أبى جعفر المنصور .

(٢) يمكننا ان نقارن بين الادبين الجاهلي ــ الاموي والعباسى على الوجه الآتي :

العصر الجاهلي ــ الاموى	العصر العباسى
١) ادبه عربى محض	١) أدبه ادب شعوب واجناس مختلفة .
٢) وثني .	٢) اسلامى .
٣) مركزه دمشق على حدود البادية .	٣) مركزه بغداد على حدود الحاضرة .

(١٣٢هـ/٧٥٠م – ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) (وعرف بالادب العباسى) على الادبين الجاهلي والاموى اللذين يضمان ادب قرنين ونصف القرن على وجه التقريب • فالادب الجاهلي يمتد من ٥٠٠م الى ٦٢٢ ويليه الادب الاسلامى من ٦٢٢ – ٦٥٨ ويختم بالادب الاموى من ٦٥٨ – ٧٥٠م •

الشعوبية في الادب :

وقد اعترت هذه الثورة ملابسات اتسمت في بعض الاحيان بسمة العنصرية وذهبت الى ابعد مما يجب ، فلم تفضل الادب الاسلامى على الجاهلى فحسب ، بل اخذت تفضل العجم على العرب وكل ماهو اعجمى على كل ماهو عربى ، واصبح الادب الذى يمثله مزيجا من الفخر والهجاء : الفخر

٤) القومية العربية جلية فيه •	٤) الصيحات الشعوبية هى الجلية •
٥) خلوه من العناصر الاجنبية •	٥) دخول العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية فيه •
٦) عدم اتصاله بالمدنية الآرية الاقليلا •	٦) اتصاله التام بالمدنية الآرية •
٧) التعصب فى الانساب والزيجات والاحساب العظامية •	٧) اطلاق حرية الزواج والاديان والمذاهب وشيوع المقالات المختلفة فى الالحاد والسياسة والفخر بالعصامية •
٨) قلة الخلاعة والمجون •	٨) كثرة الجوارى والغلمان وما يستتبعان من خلاعة ومجون•
٩) البساطة في العيش والطعام والشراب والايجاز وعدم التأنق فى الكلام •	٩) التأنق فى الطعام والشراب واللباس والتنافس فى البناء والرياش والاسهاب في الكلام ولاسيما في العهود والرسائل واستعمال الجمل المترادفة •
١٠) تسمية خلفاء بنى امية باسمائهم •	١٠) تسمية خلفاء بنى العباس بالالقاب على النمط الفارسى•

راجع احمد حسن الزيات : تاريخ الادب العربي (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، ١٩٣٩ ص ٢٠٤ – ٢٠٦ •

بالاصل الفارسي والهجاء للعرب[1] ومن هذا الضرب قول بشار[2] زعيم المولدين في هجاء ابي عمرو بن العلاء (من البسيط مقطوع الضرب) :

ارفق بعمرو اذا حركت نسبته ... فانه عربي من قوارير

وكذلك قوله (من الوافر) :

سأخبر فاخر الاعراب عني ... وعنه حين تأذن بالفخار
احين كسيت بعد العرى خزا ... ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراع ... بني الاحرار حسبك من خسار
وكنت اذا ظمئت الى قراح ... شركت الكلب في ولغ الاطار

وعرفت هذه الحركة بالشعوبية والقائمون بها بالشعوبيين أو أهل العدل والتسوية ، ويبدو لي ان التعبيرين ليسا شيئا واحدا وانما الشعوبيون هم الذين يفضلون غير العرب على العرب مع الانتقاص من شأنهم في حين ان « اهل العدل والتسوية » ساووا بين العرب وسائر الشعوب دون ذم او انتقاص ، وهكذا تداخلت النزعتان فاتهم الكثيرون من انصار الحركة الجديدة بالشعوبية وعلى رأس هؤلاء بشار بن برد وابو نواس •

والظاهر ان اللجوء الى هذه المفاضلة والى هذه الدعوى العريضة منشؤه الشعور بمركب النقص ومحاولة ايجاد مكانة اجتماعية للمسلمين من غير العرب في المجتمع الجديد[3] فليس بوسع المرء ان يتوقع من اعمى قبيح مجدور كبشار غير هذا الموقف ومباهاته بانه « من قريش العجم » •

---

(١) يراجع كتاب حنا الفاخوري : تاريخ الادب العربي (الطبعة الثانية ١٩٥٣) ص ٣٨١ •

(٢) ٩٦ ــ ١٦٨هـ وكان حلقة الوصل بين القديم والجديد •

(٣) لم يكن المسلمون من غير العرب ليعاملوا معاملة العرب فما كان ليجوز لغير العربي ان يتزوج من عربية واذا ما قاتل في الجيش العربي قاتل راجلا لا راكبا ، ولم يتخلص من الجزية بعد اسلامه ولم يكن له اسم في ديوان الجراية انما يعد من المرتزقة [يوليوس ولها وزن ، الدولة العربية وسقوطها ، ترجمة الدكتور يوسف العش ، دمشق ، ١٩٥٦ ، ص ٣٩٣] •

اما فيما يتعلق بابى نواس فالامر يختلف بعض الشيء ، لان ابا نواس لم يكن شعوبيا بالمعنى الذى توحيه الينا شعوبية بشار فقد كان والد ابى نواس عربيا يمانيا حارب في صفوف الجيش الاموى بقيادة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى امية[1] ولم يأته الدم الفارسي الا من امه جلبان الاهوازية ، على حين ان بشار كان فارسيا صلبية لا اثر للدم العربى فيه اطلاقا ، وثمة نقطة اخرى تسترعى انتباهنا فى ابي نواس وتخفف عنه تهمة الشعوبية وهى انه التزم فى الحرب الاهلية التى قامت بين ابنى الرشيد سنة (١٩٨هـ) جانب الامين الذى تزعم العرب ضد المأمون (١٧٠ - ٢١٨هـ) الذى تزعم بدوره جانب اخواله الفرس ، ولم يعش ابو نواس طويلا بعد مقتل الامين فقد قيل انه مات سنة ١٩٨هـ اى قبيل دخول المأمون بغداد كما انه التزم قبل ذلك جانب الفضل بن الربيع في مناهضة البرامكة الفرس[2] ، الا ان الذى لاينفى عن ابى نواس تهمة الشعوبية تمام النفي مقاطع من شعره قد تكون مجرد نزوات شاعر وهي مع ذلك ليست صريحة في كرهها للعرب بل يمكن تأويلها وتخريجها بوجه آخر وتفسيرها كمجرد عداء الحياة المتحضرة المترفة التي كان يمثلها العهد الجديد للبداوة الجافة التى يمثلها العهد المندثر او مناوأة للعدنانيين البدو من عرب الشمال ومناصرة القحطانيين المتمدنين من عرب الجنوب الذين ينتمى اليهم ابو نواس .

الادب الكلاسيكي وثني :

ولسنا نخطىء حين نقول ان الادب الجاهلى كلاسيكى وكذلك الادب الاموى الذى قلده وحاكاه ، في حين ان الادب العباسى رومانتيكى ذلك لان

---

(١) يرجح الاستاذ عباس محمود العقاد في كتابه القيم : «ابو نواس الحسن بن هانىء ، دراسة فى التحليل النفسانى والنقد التاريخى » (ص ٩٧) ان اباه هانىء من سلالة زنجيـة تنتمى الى مولى من اليمن اذ كان اسود شديد السواد وقد قال فيه ابان [من مجزوء الرمل] :

هانىء الجون ابوه زاده الله هوانا

(٢) الدكتور محمد مهدى البصير : في الادب العباسى (الطبعة الثانية ، مطبعة السعدى ، بغداد ، ١٩٥٥) ص ١٦٦ .

الادب الكلاسيكي كما هو واضح عادة وثني بينما الادب الرومانتيكي ادب ديني فالادب الاغريقي والروماني كلاهما كلاسيكي لانه كان وثنيا قائما على فكرة آلهة متعددين اسطوريين وكذلك شأن الادب الجاهلي المنعكس عن مجتمع يؤمن بالاصنام والاوثان ويقدسها ، ولعل ايمان الناس في العهد الاموي بان الشعراء يتبعهم الغاوون وان لكل شاعر شيطانا يلهمه جعلهم يتركون الشعر متجها وجهته الوثنية اي الكلاسيكية حتى اذا ما جاء العباسيون ودالت دولة الشعر من العرب الى الفرس مع ما دالت من امور السياسة والقيادة والوزارة اتخذ الشعر وجهة دينية وترك ارتباطه القديم بالوثنية واساليبها ، فكان التحول الجديد نحو الرومانتيكية ، نحو الذات ، نحو « الانا » الضخمة مفتاح سر الرومانتيكي ، وهذه ظاهرة جد واضحة حتى في الآداب الافرنجية فقد كان الملحوظ عند بعض ادباء الانكليز انهم عندما كانوا يتحولون الى الرومانتيكية كانوا بغير دافع خارجي واضح يعتنقون الكثلكة ويغوصون في اعمق اعماق الدين، وهو عين مانلحظه في انتقال ابن المقفع ومهيار الديلمي من المجوسية الى الاسلام وان هو في الحق والواقع الا انتقال من الكلاسيكية الىالرومانتيكية وقدساعد هذا التحول فيالادب منالاتجاه الوثني الىالاتجاه الديني على ظهور شعر الحكم والزهد عند صالح بن عبدالقدوس وابي العتاهية وشعر التصوف عند ابن الفارض .

انعكاسات العنف في الادب العباسي :

وكما ان الثورة الفرنسية كانت عنيفة عارمة ذهب ضحيتها ما لايقل عن ١٨٫٦٠٠ رجل وامرأة ، فكذلك كانت الثورة العباسية اذ ابادت الامويين عن آخرهم او كادت وذهب ضحيتها ٦٠٠٫٠٠٠ شخص[(١)] ولم ترع الا ولا ذمة حتى للاموات فقد نبشت قبور الخلفاء واحرقت رممهم ووجدت جثة هشام بن عبدالملك متكلسة لم يعترها من التفسخ الا القليل فضربت ثمانين سوطا واحرقت ولم يستثن من هذا العمل اللا انساني الا قبر عمر بن عبدالعزيز ، ولم ينج

(١) الطبري : ٦/١٣٧ (اخبار سنة ١٣٢هـ) .

من هذه المجزرة الا القليل ومنهم عبدالرحمن الداخل الذي اقام دولة في الاندلس فيما بعد في حين ان اخاه الذي كاد يعبر معه النهر خدع بوعود العباسيين فعاد ادراجه ليقتل في الحال دون شفقة او مراعاة للعهود ، وكان للعنف – مع الاسف – انصار من الشعراء الذين يذكروننا بالقاضي الفرنسى الارعن الذي حكم على العالم الفيزياوي لافوازييه بالموت فلما استمهله بضعة ايام ريثما ينهي تجربة فيزياوية في مختبره ، رد عليه بكلمته المشهورة التى مازال العالم المتمدن يسخر منها :

« ان الجمهورية ليست بحاجة الى العلماء » . هذا الجاهل الارعن لا يختلف في لهجته الثورية عن سديف بن ميمون حين خاطب السفاح (١٣٢ – ١٣٦هـ) في مقابلة دعى اليها سليمان بن هشام بن عبدالملك قائلا (من الخفيف) :

لايغرنْكَ ما ترى من رجال ... ان تحت الضلوع داء دويا
فدع السوط وارفع السيف حتى ... لاترى فوق ظهرها امويا

فكان سببا فى مصرعه أو قول شاعر انتهازى آخر [من الخفيف ايضــا] :

اصبح الملك ثابت الاســاس ... بالبهاليل من بنـى العبـاس
طلبـوا وتـر هاشـم فشـفوها ... بعد ميـل من الزمـان وياس
لا تُقيلَنَّ عبـد شمسٍ عثارا ... واقطعن كلَّ رقلةٍ وغراس[1]

فالدولة الجديدة ليست بحاجة الى الامـويين الذين شـرقوا في فتوحاتهم وغربوا وركزوا راية العرب في اسبانيا وجنوب فرنسا !

الثورة تأكل ابناءها :

واكلت الثورتان ابناءها ، ففي الثورة الفرنسية قتل مارا في حمّامه بخنجر شارلوت كورداى ومات دانتون وروبسبير على المقصلة وفي الثورة

---

(١) المسعودى ٥/٤٧١ وما بعدها ، فيلها وزن (الترجمة العربية) ص٤٣٧ ، الفخرى ، مراجعة محمد عوض وعلى الجارم (القاهرة ، ١٩٢٣) ص ١٣٥ (والرقلة : النخلة الطويلة) .

العباسية قتل ابو مسلم الخراساني زعيم الثورة(١) دون منازع على يد المنصور(٢) الخليفة العباسي الثاني (١٣٦-١٥٨) الذي صعد الى دست الحكم على اكتافه كما قتل ابن المقفع فيلسوف الثورة بان قُطع اجزاء ورمي به في التنور عضوا عضوا وهو ينظر ، وحُبس عمه بطل معركة الزاب الحاسمة في بيت اقيم على اسس من ملح فاجرى فيها الماء لينقض السقف على رأسه فيقتله ويكون الخليفة بذلك فى حل من العهد الذى قطعه على نفسه بالابقاء على حياته « والا فالخليفة نفي من العباس ونساؤه طوالق وعبيده احرار والمسلمون فى حل من بيعته ! » ونكل العباسيون كذلك بحلفائهم العلويين(٣) حتى قال قائلهم (من البسيط) :

ياليت جور بني مروان دام لنا   وليت عدل بنى العباس فى النار

المعتزلة :

وظهرت في الثورة الفرنسية « عبادة العقل » وظهرت في الثورة العباسية عبادة العقل كذلك ممثلة في مذهب الاعتزال والقول بخلق القرآن من ايام المأمون الى ايام المتوكل الذى نكل بالمعتزلة ورجع الى

---

(١) ويبدو ان أبا مسلم هذا كان الى جنب حنكته السياسية والحربية ذا ذوق ادبى واليه ينسب البيت الاتى الذى ارتجزه ساعة هرب اصحابه فى بعض المواقع :

من كان ينوى أهله فلا رجع   فر من الموت وفى الموت وقع

(الطبرى : ١٣٧ هـ) .

(٢) وينسب اليه البيتان الاتيان يخاطب بهما ابا مسلم عند مقتله [من السريع] :

زعمت ان الدين لا يقتضى   فاستوف بالكيل أبا مجرم

سقيت كأساً كنت تسقى بها   امر فى الحلق من العلقم

(٣) وفى هذا يقول غالب الهمدانى [من المنسرح] :

اصبح آل الرسول احمد في الذ   ناس كذى عُرّةٍ به جرب

بؤسا لهم ماجنت اكفهم   واى حبل من امة قضبوا

واى حبل خانوا المليك به   شد بميثاقٍ عهده الكذب

الطبرى ح ٦ ص ١٧٩ سنة ١٤٤هـ

مذهب أهل السنة على نحو ما فعل نابليون فيما بعد حين ابطل مذهب عبادة العقل •

وعصر الثورة الفرنسية هو العصر الذهبي في تاريخ اوربا اذ جاء بفكرة الحرية والعدالة والمساواة ، وكذلك كان شعار الثورة العباسية فقد بشرت ارهاصاتها ايام كان العلويون والعباسيون جبهة واحدة « بظهور رجل يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا » والعصر العباسى هو العصر الذهبي للاسلام دون منازع وقد اتسع نطاق اللغة العربية في هذا العصر بدخول الفاظ غريبة فيها حتى لجأوا الى وضع معاجم وقواميس خاصة بها ككتاب التعريفات للجرجاني ٨١٦هـ وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (١١٥٨هـ) فمن الالفاظ المنقولة :

الكوز والجرة والابريق والطشت والخوان والطبق والخز والديباج والياقوت والفيروز والبلور والكعك والفالوذج والفلفل والزنجبيل والنرجس والنسرين والمسك والعنبر والبستان والقرمز والجوز واللوز والدولاب والطيلسان والفرسخ • • الخ (عن الفارسية) والبقدونس والزيزفون والمصطكي والقيراط والانبيق والصابون والهيولي والفلسفة والمغناطيس والاقليم والقانون (عن اليونانية)[١] •

مظاهر الادب العباسي :

وزالت عن اللغة خشونتها واصبحت رقيقة سلسة نتيجة تأثرها بالحضارة وتكلّم العناصر المتحضرة الجديدة بها تلك التي كانت تدرسها دراسة منظمة ولا تأخذها من الافواه اعتباطا •

وكان من آثار العصر الجديد استحداث البديع الذي ظهر اول ما ظهر في شعر مسلم بن الوليد وتطور عند ابي تمام ووضعت له قواعد على يد ابن المعتز[٢] •

---

(١) الزيات : تاريخ الادب العربى : ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧هـ ١

(٢) الزيات : ص ٢٤٣ •

واستُهجن الاستهلال بذكر الاطلال وغدا الاتجاه الى وصف الخمرة والنسيب بنوعيه المؤنث والمذكر وذكر القصور والبرك والنافورات .

واشتدت حركة الترجمة ودخلت الافكار الفلسفية والعلمية والحكمية المترجمة في شعر ابي تمام والمتنبي وابي العلاء[1] .

وضبطت العلوم في منظومات شعرية كالفية ابن مالك ومنظومة ابن عبد ربه العروضية .

وبولغ في وصف الخمرة وادواتها ومجالسها وظهر شعر الصيد (الطرديات) والرياض والبساتين والغزل المتعهر .

وشاعت البحور القصيرة المغناة في الشعر العربي وظهر الموشح على يد ابن المعتز في بعض الروايات وعكست بعض البحور فظهر المستطيل والممتد وفي العصر العباسي هذا عرف الزجل والدوبيت وتنوعت القوافي فكان المسمّط والمزدوج .

وتبقى هذه الموجات التجددية المتتابعة في صعود عبر ثلاثة قرون فكان القرن الرابع للهجره/العاشر الميلاد الذروة السامقة والقمة الباذخة وبتدهور بني بويه وظهور بني سلجوق (٤٤٧هـ) يتغير المشهد ويرتفع الستار عن مأساة الادب وانهيار دولة الشعر .

تفضيل الخلفاء للنثر تاره وللشعر اخرى :

وللسياسة أو بالاحرى للملوك والامراء اثر لا ينكر في علو نجم الادب وهبوطه وفي شيوع انماطه المختلفة ولعل اجمل ما يصور هذه الحقيقة ما ذكره اسامة ابن معقل اذ قال :

« كان السفّاح راغبا في الخطب والرسائل يصطنع اهلها ويثيبهم عليها ، فلم يبق شيء من الخطب والرسائل الا حفظته طلبا للقربة منه وكان المنصور بعده معنيا بالاسمار والاخبار وايام العرب يدني اهلها ويجزيهم عليها ، فلم يبق شيء من الاسمار والاخبار الا حفظته طلبا للقربة منه

(١) الزيات : تاريخ الادب العربى ، ص ٢٤٤ .

فظفرت بها ، وكان موسى مغرما بالشعر يستخلص اهلـه ، فما تركت بيتاً نادراً ، ولا شعراً فاخراً ، ولا نسيباً سائراً الا حفظته ، واعانني على ذلك طلب الهمة في علو الحال ، ولم ار شيئاً ادعى الى تعلم الآداب من رغبة الملوك في اهلها وصلاتهم عليها • ثم زهد هرون في هذه الاربعة فأنسيتُها حتى كأني لم احفظ منها شيئا » اهـ •

لا يخلو هذا القول من مبالغة فقد كان هارون الرشيد ذواقة للادب محباً للشعر والواقع ان خلفاء بني العباس السبع والثلاثين ان لم يكونوا شعراء انفسُهم ، لم يكونوا ليخلوا من تذوق للشعر ورغبة فيه ، وربما كان بعضهم يفضل النثر على الشعر كالسفاح والمنصور والمأمون ، آما ان يكرهوا الشعر فلا ! •

وكان المنصور بصورة خاصة نقادة للادب وعاملا من عوامل التجديد فى الشعر العباسى فقد رفض ان يمدح على الطريقة القديمة بأن يشبه بالاسد او البحر أو ما أشبه ذلك وكان كثير الاعجاب بالشاعر ابن هرمة (الطبرى سنة ١٤٥هـ) وكان كثير التمثل بالشعر بل ان تذكره لبيت جرير المشهور :

لا تطلبن خؤولة فى تغلب فالزنج أكرم منهمو اخوالا

حال دون زواجه من آخت هشام بن عمرو التغلبي (الطبري سنة ١٥١ هـ) فناهيك بسلطان الشعر من سلطان على العباسين !

مدارس الثقافة اليونانية :

وكانت للثقافة اليونانية في العصر العباسي مدارس اهمها مدارس جند يسابور (ونبغ فيها النساطرة وأحرزت شهرة في الطب) والرها ونصيبين وحران (وقد نبغ فيها الصابئة بصورة خاصة) ومع ان العرب نقلوا الكثير من كتب الطب والفلسفة والهندسة والرياضيات ، فقد اعرضوا عن كتب الادب والتاريخ والجغرافية فما نقلوا الياذة أو اوذيسا أو ميروس ولا تاريخ

هيرودوتس ولا جغرافية استرابون[١] .

على ان العرب اخذوا التحليل من اليونان والتأمل الشعري من الهنود والزخرف والاطناب والمبالغة في الكلام من الفرس .

وبظهور الثقافات الاجنبية المتنوعة ظهرت الفرق الاسلامية المختلفة .

ونحن حين نتحدث عن الادب العباسي فانما نعني الادب العربي في ظل الخلفاء في بغداد ، وبني بويه في فارس ، وبني حمدان في حلب والشام ،والفاطميين في مصر والمغرب وبشيء من التوسع في التعريف ، الادب العربي في الاندلس . وهي رقعة جغرافية واسعة على انها تتمركز في حواضر معينة هي بغداد والبصرة والكوفة وحلب والشام ونيسابور وقرطبة .

واذا كانت ثم اغراض للشعر جديدة قد استحدثت واخرى قديمة قد انتعشت في هذه الفترة فهناك اغراض ضعفت منها شعر الفخر والحماسة والشعر السياسي الذي كان يمثل صراعا بين بني امية وخصومها فاصبح صراعا اضعف من ذي قبل بين بني العباس وخصومهم من العلويين وظهرت خصومة سياسية جديدة كما قلنا بين العرب والاعاجم (الحركة الشعوبية) وتدهور الغزل العذري أو كاد وكان المتوقع ان يجد تشجيعا نتيجة التحول الرومانتيكي ، مع ذلك فلا نزال نجد له أثرا في شعر العباس بن الاحنف وابيات متناثرة من قصائد المتنبي الذي يصرح فيها عن ميله العذري بقوله (من الطويل) :

عواذل ذات الخال في حواسد ... وان ضجيعَ الخَوْد مني لماجدُ

وقوله [من الكامل][٢] :

وترى المروةَ والفتوةَ والابـ ... ـوةَ فيّ كل مليحة ضراتها
هن الثلاث المانعاتي لذتي ... في خلوتي لا الخوف من تبعاتها
ومطالب فيها الهلاك اتيتها ... ثبت الجنان كأنني لم آتها

(١) الفاخوري ، ص ٣٦٠ .

(٢) ديوان المتنبي ، شرح العكبري ، تحقيق مصطفى السقا جـ ١ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

وظهر الشعر الرسائلي والصوفي والفلسفي والتعليمي[1] والقصصي والتهكمي[2] وانفصل الزهدي والخمري والطردي عن سائر الالـــوان وقوى المدح والرثاء والهجاء وازداد الشعر الحكمي عمقا والغزلي تعهرا •

وضعفت الخطابة وقويت اغراض نثرية معينة كالرسائل والتصانيف والمقالات والمناظرات والعهود والقصص والمقامات ، وظهرت آثار الحضارة العباسية في النثر اكثر من الشعر[3] ، ومع ان الخطابة كانت قوية في صدر الدولة العباسية الا أنه بسبب دواعي التحول النثري اعطى مجال اللسان فيما بعد الى القلم لابتعاد الناس عن السياسة واقبالهم على العلم وانحصرت الخطابة في موضوعات دينية تسمع من على منابر المساجد والجوامع ايـــام الجمع والاعياد •

هذا استعراض عام للادب العباسي من وجهة نظري الشخصية البحته اوردتها ليقارن القارىء بينها وبين ما سيورده الاســتاذ نكلسن في تضاعيف الكتاب الذي بين يديه •

صفاء خلوصي

---

(١) نظمت كليلة ودمنة شعرا ونظمت كذلك قصائد فى الفقه •
(٢) مانظمه ابن حجاج وابن سكره وصريع الدلاء •
(٣) الفاخــــورى : ٣٦٩ •

من هنا تبدأ الترجمة
تقابل صفحة 248

المدخـــــل

ارهاصات الثورة العباسية :

كان لاعتقاد المسلمين العام في ظهور مسيح منقذ تأثير خـارق عـلى تاريخهم الديني والسياسي ، فلا عجب ان ينغمر آلاف الناس المتذمريـن تمام التذمر من الحياة كما وجدوها في الفترة الشقية من حكم الامويين في احلام « زمان طيب مقبل » توقعوه مطابقاً لنهاية القرن الاول للهجرة، وطافت التنبؤات الغامضة والاقوال العتماء المنسوبه الى محمد (ص) نفســه ونبؤات الحرب والخلاص جائية ذاهبة هنا وهناك ، وعكف النـاس على كتب الغيبيّات وتساءلوا ما اذا لم تكن فترة التشوش والـهَـرْج التي تسبق ، كما هو معلوم ، ظهور المهدي قد بدأت فعلاً •

وكان الصراع قصيراً وحاسماً ، وعندما اختتم كان الامويون ومعهم سلطان العرب قـد مضوا وانقضوا ، واثبت الجنس الفارسي سـيطرته في السياسة والادب على حد سواء ، وسنروى قصة هذه الثورة باقتضاب جهد الامكان مرجئين الالتفات الى النتائج الى فصل جديد •

العباسيون :

بينما كان دعاة الشيعة مشغولين بصورة فعالة في كسب التأييد لحزبهم الذى وجد في علي وذريته ، كما رأينا ، الخلفاء الشـرعيين الوحيـدين لمحمد(ص) فان فرعا آخر من آل النبي(ص) ـ وهم العباسيون ـ دخل الميدان وهو يضمر قلب اعمال العلويين لصالحه ، وقد ورثوا من جدهم الاعلى ، العباس عم النبي (ص) ، صفات الحذر والظهور بمظهرين والحكمة الدنيوية ، وهي الصفات التي تضمن النجاح في التآمر السياسي ، وقد كرّس عبدالله بن عباس مواهبه للفقه والتفسير فهو من اقوى اركان التقاليد الدينية ، ولكنه في نظر البحث الاوربي غير المتحيز كذاب اشر ليس غير ، وقد عاش احفاده في عزلة مطبقة في الحميمة ، وهي موضع صغير جنــوب البحر الميت ، منعزل ظاهرياً كل الانعزال عن العالم ، ولكنه بسبب قربه من الطريق

الذي يسلكه حجاج الشام الى مكة كان يوفر فرص الاتصال مع افاصي بلاد الاسلام •

الدعاية العباسية في خراسان :

ومن هذا المركز قاموا بدعاية لانفسهم بمنتهى البراعة • وكان لهم من النبوغ ماجعلهم يرون ان افضل تربة لمحاولاتهم هي خراسان النائية ـ اي الاقاليم الشمالية الشرقية الواسعة للامبراطورية الفارسية القديمة »[١] فقد كان يسكن هذه المناطق شعب شجاع قوى المعنويات متلهف للاشتراك في اى مشروع مستميت يمنحه امل الخلاص وذلك نتيجة آلامه التى لاتطاق تحت الطغيان الاموى وتخريب دورهم وما يشبه منزلة الرق التي احلوا فيها ، والى ذلك فقد كان عرب خراسان قد اصبحوا فرسا الى حد بعيد ، فقد تزوجوا بفارسيات وارتدوا السراويل وشربوا الخمـــور واحتفلوا بعيدي النيروز والمهرجان[٢]، في حين انهم كانوا يفهمون اللغة الفارسية بوجه عـــام وحتى ان بعضهم كان يتكلم بها[٣] ، وفي كتاب فان فلــوتن الرائع تفاصيل ممتعة عديدة عن اساليب دعاة العباسيين[٤] ، فقد كانوا يتجولون جيئة وذهوباً في زي تجار او حجاج بادئين من الكوفة ، مقر داعى الدعاة الذى كان يوجه الشعب ، ملائمين مبدأهم بمهارة لذكاء اولئك الذين كانوا يرغبون في الحاقهم بصفوفهم ، وكانوا كالشيعة يدعون لآل البيت وهو تعبير مبهم يمكن تطبيقه على احفاد علي او العباس على حد سواء ، كما هو مبين في الجدول الآتي :

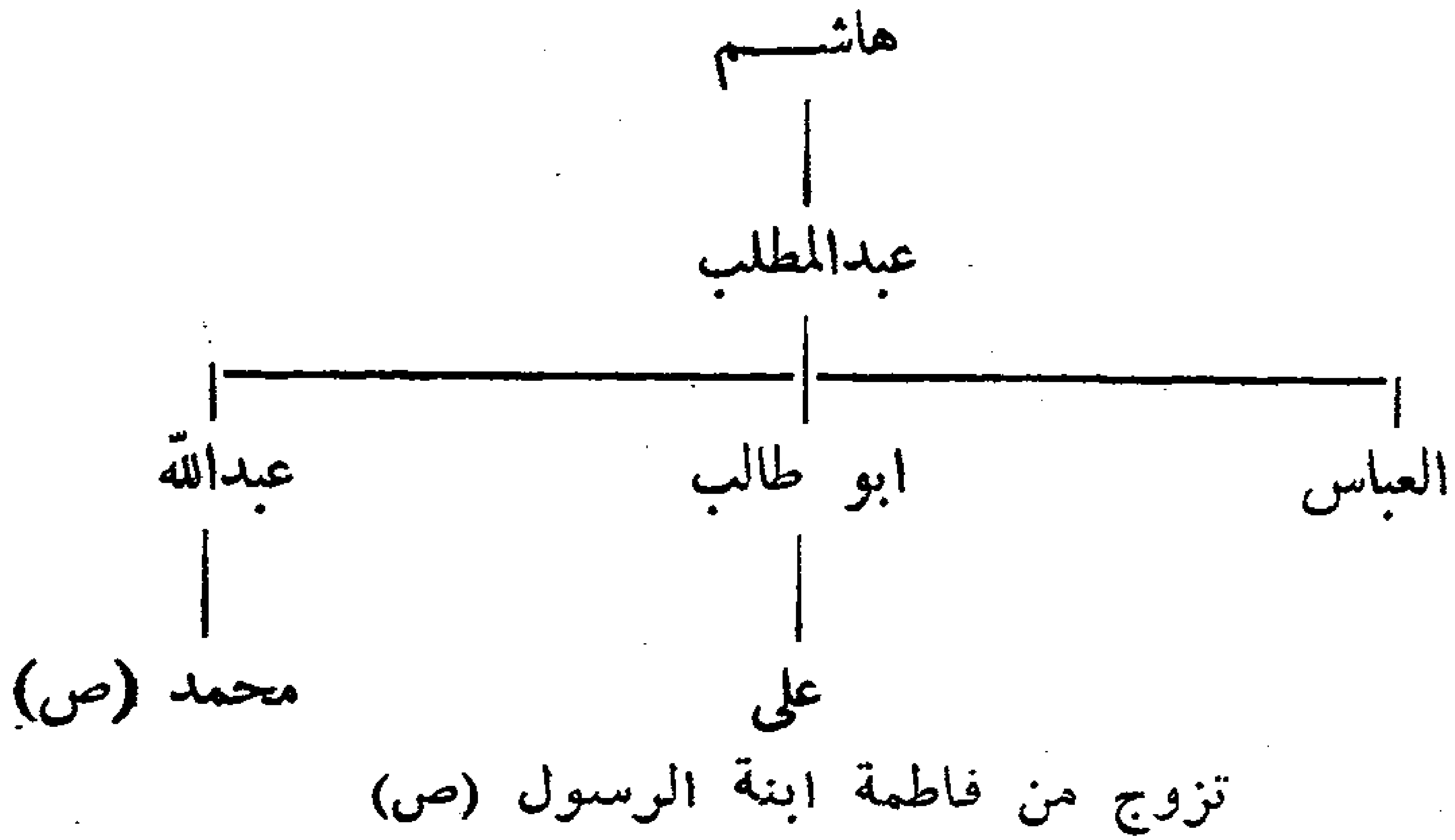
---

(١) نولدكه : صور تخطيطية من تاريخ الشرق (ترجمة جي•اس• بلاك « بالانكليزية ») ص١٠٨ وما بعدها •

(٢) الاول عيد الربيع والثانى عيد الخريف •   « المترجم »

(٣) فيلهــاوزن : الدولة العربية وسقوطها (النسخة الانكليزية) ص٣٠٧ وما يليها •

(٤) « دراسات في السيــادة العربيــة » (بالفرنســية) : ص ٤٦ وما بعدها •



الشيعة يحالفون العباسيين :

لقد كان بطبيعة الحال من الامور الاساسية بصورة مطلقة بالنسبة للعباسيين ان يتمكنوا من الاعتماد على مساندة التنظيم الشيعى المتين الذي اجتذب منذ الثورة القصيرة الامد التي تزعمها المختار (انظر ص٢١٨ من النص الانكليزي « لتاريخ العرب الادبي » لنكلسن) اعدادا هائلة من الموالى الفرس الى صفوفه والآن فان من بين الحزبين الرئيسين للشيعة الهاشمية او اتباع محمد بن الحنفية ، والامامية الذين وضعوا ايمانهم فى احفاد النبى (ص) من ابنته فاطمة ، كان الاول هو الذى تمثل فعلا بالعباسيين ، ذلك لان الامام ابا هاشم الذى توفى سنة ٩٨هـ/٧١٦م اوصى بحقوقه الموروثة الى محمد بن على رأس الاسرة العباسية ، ولم يبق الا مخادعة الامامية ، وعلى ذلك فقد أُفهم الدعاة العباسيون ان يقوموا بدعايتهم باسم هاشم الجد المشترك للعباس وعلى ، وبهذه الخدعة استطاعوا ان يطلقوا ايديهم في خراسان وتقدموا بحيث ان نصر بن سيار عامل الاقليم كتب الى الخليفة الاموى مروان طالبا منه الامدادات ومنبئا اياه بان مائتى الف رجل قد اقسموا يمين الولاء لابى مسلم ، الداعى العباسي الاول واضاف في ختام رسالته الابيات الآتية (من الوافر) :ـ

اری خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها ضرام

فان النــار بالعودين تُــذكى   وان الحرب اولهــا كــلام
اقول من التعجب ليت شعرى   أ أيقاظ اميــة ام نيام ؟[1]

ولدينا ابيات اخرى لهذا العامل الشجاع المخلص يتوسل فيها بالجيوش العربية المرابطة في خراسان والتي شلتها العصبيّات القبلية ان توجه سيوفها الى « الرهط الخليط الذي لا دين له ولا حسب » :

فمن يكن سائلى عن اصل دينهم   فــان دينهم ان تقتــل العرب[2]

اعلان الحرب :

على ان هذه التحذيرات كانت بدون طائل ، ففى شوال ١٣٠هـ/٩ حزيران سنة ٧٤٧م رفع ابو مسلم راية العباسين السوداء في « سقدنج » بالقرب من مرو المدينة التى احتلها بعد اشهر قلائل .

ابو مسلم :

ويذكرنا التقدم الظافر لجيوش الثورة صوب دمشق بالحملة المشهورة ليوليوس قيصر الذى زحف على روما بعد عبوره نهر الروبيكون Rubicon وليس ابو مسلم ـ وان كان عبدا معتوقا من اصل غامض ، اذ لم يكن عربياً بالتاكيد ـ غير جدير بالمقارنة مع الرومانى العظيم . لقد جمع ـ كما يقول نولدكة ـ الى مهارة الثوروى وعدم التقيد التام في اختيار الوسائل الطاقة والنظرة الواضحة للقائد ورجل الدولة وحتى الملك[1] . كان صارما عديم الرحمة يحتقر ملاذ الرجال الاعتياديين وكان يمتلك القابلية التى امتاز بها يوليوس قيصر لالهام الطاعة العمياء والاخلاص الحماسي وبوسعنا لكيمانتم

---

(١) الدينوري :طبعه گويرگاس Guirgass ، ص ٣٥٦

(٢) نفس المصدر ، ص٣٦٠ س١٥ وقد ترجم البروفيسور براون القصيدة برمتها في كتــابه : « تــاريخ فارس الادبي » جا ص ٢٤٢ (النسخة الانكليزية) [= الاخبــار الطوال ، طبعة نعمان الاعظمي ، ص ٣٠٧] .

(٣) صور تخطيطية من تاريخ الشرق ، ص ١١١

الموازنة ، ان نذكر هنا ان ابا مسلم قتل غدرا بأمر من المنصور ، الخليفة الثاني للاسرة التي رفعها الى العرش بدوافع تشبه تمام الشبه تلك التي وضعها شكسبير في فم بروتس :ـ

ان في قيصر شخصاً هائلا | فلنحُلْ دون الذي يبغى بنا
ولئن قيل صراع قد بدا | دون لون فجوابي ههنا
فهو ان ينمُ وينمو عاجلا | كان هولا بالغا اقصى الدنا
بيضة الافعى مثال رائع | ان تُفقّس انتجت كُلَّ عنا
فلنمتها وهى في قشرتها | قبل ان تدرك غايات المنى[1]

بيعة ابي العباس السفاح :

وقد عجل بسقوط الدولة الاموية خيانة العرب الذين اعتمدت عليهم وانانيتهم : فقد قامت المنازعات القديمة بين مضر واليمن من جديد ، وفي حين ان المجموعة الشمالية بقيت على ولائها للدولة ، فان اولئك الذين يمتون الى الاصل اليماني القوا بسهامهم بصورة مكشوفة مع الثورة ، ولسنا بحاجة لتتبع مجرى النزاع غير المتكافيء ، ففي كل مكان وقع العرب ، اليائسون المنقسمون على انفسهم ، فريسة سهلة لخصومهم ، وضاع كل شيء عندما اصيب مروان الخليفة الاموى الاخير باندحار ساحق على نهر

---

(١) في الطبري (أحداث سنة ١٢٩هـ) ابيات لنصر بن سيار بعث بها الى يزيد بن عمر بن هبيره شديدة الشبه بابيات شكسبير التي ترجمناها في اعلاه ، يقول [من البسيط] :

ابلغ يزيد وخير القول اصدقه | وقد تبينت ألا خير في الكذب
ان خراسان ارض قد رايت بها | بيضا لو أفرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين الا انها كبرت | لما يطرن وقد سربلن بالزغب
فان يطرن ولم يحتل لهن بها | يلهبن نيران حرب أيما لهب

الزاب في العراق[1] (جمادي الثاني ١٣٢هـ/كانون الثاني ٧٥٠م) وفي الوقت ذاته كان ابو العباس ، راس الاسرة المنافسة ، قد تلقى البيعة بالخلافة في ربيع الثاني سنة ١٣٢هـ/تشرين الثاني ٧٤٩م) وتلقب في الخطبة الاستهلالية التي القاها في المسجد الكبير بالكوفة « بالسفّاح » (أي سفاك الدماء)[2] وقد لصق به هذا اللقب باستحقاق ، ولو انه كان بوسع اخيه المنصور وافراد اسرته الآخرين ، ان يتسموا به بما ليس دون ذلك من جدارة واستحقاق ، فقد قبض على الامويين جميعا بدون رحمة وقتلهم صبرا ـ حتى اولئك الذين لم يستسلموا الا على اوثق العهود بأنهم لن يجدوا ما يخشونه، وقد نجت بقية ضئيلة او وجدت ملاذا تحتمي فيه حتى تمر زوبعة الغضب والانتقام التي لم ينجَ منها حي ولا ميت ، وهرب فرد من سلالتهم اسمه عبدالرحمن الى شمال افريقيا ، وبعد مجابهة مغامرات خطرة عديدة اسس أسرة اموية جديدة في اسبانيا .

---

(١) في الاصل : « فى بلاد بابل » وقد رأينا الاصوب استعمال لفظة «العراق» في هذا المجال (المترجم)

(٢) لقد ابان البروفيسور بيفان الذي انا مدين له بالملاحظات الآتية ان هذا التفسير لكلمة «السفّاح» مشكوك فيه جدا رغم ان الاوربيين قد اخذوا به بصورة عامة ، وعلى رأي البرفيسور دي غوية ان كلمة السفّاح تعني: (الكريم او الذي يغدق عطاياه الخ ..) ومن المهم على اي حال ان نلاحظ ان التسمية كانت قد اطلقت على بعض الشيوخ الجاهليين فسلمة بن خالد الذي تزعم بني تغلب في معركة الكُلاب الاولى (ابن الاثير ، طبعة تورنبرغ ، ج ١ ص ٤٠٦ السطر الاخير) قيل انه لقب بالسفّاح لانه «سفح» مزادات جيشه قبل معركة من المعارك (ابن دُريد ، طبعة وستنفيلد ، ص ٢٠٣ س ١٦) ونجد ذكراً لشاعر اسمه « السفّاح » بن عبد مناة (نفس المصدر ، ص ٢٧٧ السطر ما قبل الاخير)

الفصل الأول

خلفاء بغداد

يؤلف تاريخ الاسرة العباسية منذ بيعة السفّاح (١٣٢هـ/٧٤٩م) الى موت المستعصم ودمار بغداد على ايدي المغول (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) مجموع خمسة قرون ونيف ، واننا لنروم ان نخطط تاريخ هذه الفترة الطويلة في ثلاثة فصول ، يقدم اولها نظرة عامة لاهم التطورات الادبية والسياسية قدر الامكان في المجال الضيق الذي تحت تصرفنا ، ويتحدث ثانيها عن اعظم الشعراء والباحثين والمؤرخين والفلاسفة والعلماء الذين عاشوا في هذا العصر ، العصر الذهبي للادب الاسلامي ، في حين ان ثالثها يعرض بعض المعلومات عن الحركات الدينية الرئيسة واتجاه التفكير الديني •

النتائج السياسية للثورة :

كانت الامبراطورية التي اسسها الخليفة عمر وادارها الامويون ، في جوهرها ، كما تبين للقاريء ، تنظيما عسكريا لمنفعة الجنس الغالب ، وكان جميع المسلمين نظريا ، بلا شك ، سواسية ، ولكن فعليا كان العرب وحدهم الذين يحكمون ــ وهو امتياز تآمرت الكبرياء القومية مع المنفعة الشخصية للابقاء عليه ــ ولقد رأينا كيف ان المسلمين الفرس اكدوا حقهم في قسط من الحكومة وقد حددت الثورة التي اجلست العباسيين على العرش بداية امبراطورية اسلامية بدلا من امبراطورية عربية ، ولم يكن بوسع الاسرة الجديدة التي كانت مدينة بصعودها لشعب فارس ، ان تحيا بأقامة توازن قوى بين الفرس والعرب ، ولن يدهش كون هذه السياسة غير ناجحة على الدوام احداً من الذين يأخذون بنظر الاعتبار الخصائص المتباينة تمام التباين عند الجنسين ، غير ان الفريقين المتنافسين عملا معاً خلال الخمسين

سنة التالية بانسجام محتمل مقبول ، والفضل في ذلك يعود الى عبقرية المنصور والى تأثير البرامكة ، الجانح الى المصالحه ، اولئك الذين انفرط بسقوطهم عقد التحالف فعلياً ، وقد قاتل العرب في الحرب الاهلية التي شبت بين ابني هارون الى جنب الامين ، في حين ان الفرس ساندوا المأمون وشرع كلا الجنسين منذ ذلك الحين فصاعدا باتباع نهج مستقل ، على ان عملية الانفصال كانت تدريجية تماما وقبل ان تتم بمدة طويلة كانت الحياة الدينية والعقلية لكلتا القوميتين قد امتزجت بشكل لا يقبل الانفصام في تيار الحضارة الاسلامية العارم .

اختيار عاصمة جديدة :

وكان مركز هذه الحضارة اقليم العراق (بلاد بابل) بعاصمته الشهيرة بغداد (مدينة السلام) فهنا فقط استطاع العباسيون ان يشعروا بارتياح ، فدمشق المأهولة بمعتمدى الامويين ، كانت خارج الصدد ، فمن ناحية كانت بعيدة جداً عن فارس حيث كان العباسيون يستمدون قوتهم بصورة رئيسة ، ومن ناحية ثانية كانت قريبة بصورة خطرة من الحدود الاغريقية التي بدأ منها التغلغل المعادي من جانب النصارى خلال العهود المضطربة للامويين المتأخرين ، وذلك للانتقام من اجل اندحارات سابقة، وكان قد بدأ كذلك يتضح ان الفتوحات الاسلامية في المستقبل ستتجه نحو الشرق ، صوب آسيا الوسطى اكثر منها صوب الغرب على حساب البيزانطيين ، بقدر اكبر ، وكانت دمشق فوق هضبة سوريا ، تقع مسيطرة ، اذا جاز التعبير ، على البحر الابيض المتوسط ، وترنو نحو الغرب ، غير ان العاصمة الجديدة التي كان يجب ان تقوم مقامها ينبغي ان تجابه الشرق وتكون قريبة من فارس وان تكون لها اتصالات مائية مع البحر لتطمين احتياجات التجارة .

تأسيس بغداد :

فكل شيء لذلك كان يشير الى بقعة اما على الفرات او دجلة ، ولم يتردد العباسيون في اتخاذ قرار اختيارهم هذا[1] ، فبعد ان فحص الخليفة المنصور مختلف البقاع بدقة عيّن قرية فارسية صغيرة على الشاطيء الغربي لدجلة ، تسمّى « بغداد » وتعني هبة الله او مؤسسة من قبل الله وفي سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م بدأت اسوار المدينة الجديدة ترتفع ، وقد وضع المنصور اللبنة الاولى بيده واندفع العمل الى الامام بسرعة مدهشة تحت اشرافه الشخصي على ايدي بنائين ومهندسين معماريين ومساحين جمعهم من مختلف الاقطار بحيث ان « المدينة المدوّرة » كما خططها ، انجزت بالفعل خلال فترة الاربع سنوات القصيرة .

الطابع الاستبدادي للحكم العباسي :

ان نفس الظروف التي سببت انتقال حاضرة الامبراطورية الى بغداد أحدثت تغييراً مماثلا في نظام الحكومة بأسره ، وفي حين ان الامويين لم يكونوا اكثر من شيوخ اريستوقراطية عربية مشاغبة مضطربة الا بقدر ضئيل ، فأن خلفاءهم رجعوا الى النمط القديم من الاستبداد الشرقي الذي كان مألوفاً عند الفرس منذ ايام دارا وكسرى ، وقد حكم العباسيون، الذين احيطوا بحرس خاص قوي من جند خراسان الذين كانوا يعولون على اخلاصهم ، بسلطة مطلقة على حياة رعاياهم واموالهم على نحو ماحكم الملوك الساسانيون قبلهم ، فقد حوكيت الاساليب الفارسية في البلاط الذي كان يعج بأقارب الخليفة وعبيده الطلقاء (فضلا عن زوجاته وجواريه) الى جنب صف كبير من الموظفين بحللهم الرسمية ونياشينهم وعلى رأس هؤلاء شخصيتان تبرزان ظاهرتين في الف ليلة وليلة هما الوزير والجلاد ، ومن المحتمل ان منصب الوزير ذو اصل فارسي ، ولو ان اللفظة

---

(١) جي . لسترانج : بغداد تحت الخلافة العباسية (بالانكليزية) ص ٤ وما بعدها .

ذاتها على رأي البروفسيور دي غويه عربيه[1]. وكان اول من تلقب بهذا اللقب في ايام العباسين أبو سلمة وزير السفّاح وكان يعرف بـ « وزير آل محمد » (اي وزير اسرة محمد «ص») وكان واجب الوزيران يقوم وسيطا بين العاهل المتنفذ وشعبه ويقدم له المشورة في امور الدولة وفوق ذلك كله ان يحتفظ بجلالتـه في مزاج لطيف وكـان يمارس قوة هائلـة غير انـه كان عرضة لكل انواع التآمر ولم يـكن يعلم متى سيعتقل في زنزانة ، او يقضى عليه في لمحة بصر الموظف الصارم الذي يترأس النطع ، أو البساط الجلدي المستدير والذي يوضع الى جنب العرش ويستخدم لتنفيذ الاعدام .

فترتان في التاريخ العباسّي :

بوسعنا ان نميز بين عهدين في تاريخ الاسرة العباسية : احدهما عهد رخاء مزدهر دشَّنَهُ المنصور ويشمل حـكم المهـدي وهرون الرشـيد والمأمون والمعتصم والواثق - اي ما يقرب من مائة سنة بمجموعه (١٣٦هـ/٧٥٤/م-٢٣٣هـ/٨٤٧م) والآخر اكثر من اربعة اضعاف الاول مسـتهلا بالمتوكل (٢٣٣هـ/٨٤٧م-٢٤٧هـ/٨٦١م) وهو عهد منحدر بعد فترة قصيرة

(١) لقد تفضل علي البروفسور دي غوية بالمصادر الاتية : الطبري، جـ٢ ص٧٨ س١٠ حيث يلقب زياد بوزير معاوية ؛ ابن سـعد ، جـ٣ ص ١٢١ س ٦ (ابو بكر وزير النبـي « ص ») وتظهر اللفظـة في الشـعر الجاهلي (ابن قتيبة : كتاب الشعر والشعراء ، ص ٤١٤ س ١) ويضيف البروفيسور دي غوية ان الخلفاء العباسيين منحوا اسم الـوزير كلقب للوزير الذى كان يسـمى فى السابق بـ « الكاتب » (اى السـكرتير) وهكذا يبدو ان لقب « وزير » العربى (ومعناه الحرفى : حامل الوزر أو العبء) الذي كان صاحبه أول الامر مجرد مساعد أو خادم اصبح فيما بعد ممثل (دپير) Dapir ملـوك آل ساسان (الكاتب الرسـمى أو السكرتير) وخليفته .

من امل بتحسن الامور ، الى تفسخ لا يرجى له صلاح[1].

عهد المنصور : (١٣٦هـ/٧٥٤-١٥٩هـ/٧٧٥م)

ربما كان ابو جعفر المنصور القاسي الغدار كمعظم افراد اسرتهأعظم حاكم انجبه العباسيون[2] . كان عليه ان يقاتل بشدة من اجل عرشه ، فقد رفع العلويون الذين اعتبروا انفسهم الورثة الحقيقيين للنبي (ص) لانحدارهم من فاطمة ، لواء الثورة ضد الغاصب وفاجأوه في لحظة عدم تأهب وضايقوه بحيث انه لم يغير ملابسه لسبعة اسابيع الا لصلاة الجماعة، ولكن مرة اخرى برهن العلويون علىانهم غيرقادرين على اقتناص فرصتهم ، فقد سقط الزعيمان محمد المعروف بالنفس الزكية ، واخوه ابراهيم في ساحة القتال ، واستمر افراد من آل علي على الخروج ايامالمهدي وهرون ولكن بغير نجاح افضل .

ثورات في فارس :

وجابه العباسيون فيشرقي فاس ، حيثحيكت المشاعر القومية بالافكار الدينية التي شاعت قبل الاسلام ، كالمزدكية والزردشتية بصورة خاصة، معارضة هائلة توجت حيويتها ومتانتها بثورات سنباذ المجوسي المتتابعة (١٣٨هـ/٧٥٥-١٣٩هـ/٧٥٦م) واستاذ سيس (١٤٩هـ/٧٦٦م - ١٥١هـ/٧٦٨م) ، والمقنع ، نبي خراسان (١٦٤هـ/٧٨٠م - ١٧٠ هـ/٧٨٦م)

---

(١) ان هذا التقسيم ملائم ويمكن ان يبرر باسباب عامة ، وتبدأ فترة الانحلال بالمعنى السياسي الدقيق قبل التاريخ الذي عيناه بثلاثين سنة ، بخلافة المأمون (١٩٨هـ/٨١٣م - ٢١٨هـ/٨٣٣م) ويحدد المؤرخ ابو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩م) تاريخ انحلال الخلافة من بيعة المكتفي سنة ٢٩٠ هـ/٩٠٢م (النجوم الزاهرة ، طبعة جو ينبول ، جـ٢ ص ١٣٤)

(٢) انظر مقالة نولدكه : « الخليفة المنصور » في كتابه صور تخطيطية من تاريخ الشرق (الترجمة الانكليزية) لـ « جي. اس . بلاك» ص ١٠٧ ومابعدها .

وبابك الخرّمي (٢٠١هـ/٨١٦م- ٢٢٤هـ/٨٣٨م)[١]

نصيحة المنصور للمهدي :

قال المنصور لابنه المهدي : « يا ابا عبدالله ، عندما تجلس مجلسك ، ليكن معك على الدوام فقهاء تتحدث اليهم لان محمد بن شهاب الزهري قد قال : الحديث مذكر لا يحبه الا الفحول ولا يكرهه الا المخنثون ، وقد صدق »[٢] .

المنصور والشاعر :

وحضر ذات مرة شاعر عند المهدي في الري ، وكان يومها وليا للعهد وانشده مديحا فمنحه الامير ٢٠٫٠٠٠ درهم ، فأخبر صاحب بريد الري المنصور بالامر فكتب الى ولده يعذله ويلومه على مثل هذا الاسراف ويقول له : « انما كان ينبغي لك ان تعطي الشاعر بعد ان يقيم ببابك سنة اربعة آلاف درهم » ثم أمر بأن يقبض على الشاعر ويوجه اليه . قال : « هيه اتيت غلاما غراً فخدعته » قال فقلت : « نعم اصلح الله امير المؤمنين اتيت غلاما غرا كريما فخدعته فانخدع » فكان ذلك اعجبه فقال انشدني ما قلت فيه فأنشده:

هو المهـدى الا ان فيه   مشابه صورة القمر المنير

ولم يفت الشاعر ان يختم قصيدته بمدح للمنصور ، فقال والله لقد احسنت ولكن هذا لا يساوي عشرين الف درهم وقال لى : اين المال ؟ قلت: هو ذا قال : يا ربيع انزل معه فأعطه اربعة الاف درهم وخذ منه الباقي[٣]

البرامكة :

بالرغم من وجود احزاب غير قابلة المصالحة ـ من علويين ومتطرفين فرس (ويمكننا ان نضيف) خوارج ـ فقد كانت سياسة التقارب على العموم

---

(١) لقد اورد البروفيسور براون معلومات ممتعة عن هؤلاء الثوار الشيعة المتطرفين في كتابه « تاريخ فارس الادبي » ج : ١ الفصل ٩

(٢) الطبري : ج ٣ ص ٤٠٤ س ٥ وما بعده .

(٣) الطبري ، ج ٣ ص ٤٠٦ س١ وما بعده (ج ٦ ص ٣١٨-٣١٩ طبعة محمود حلمي) . لم يذكر نكلسن مطلع القصيدة .

فعالة بشكل خارق ، وقد تلقى الخلفاء في تنفيذها مساعدات قوية من اسرة فارسية نبيلة قديمة ، البرامكة المشهورين ، وكان برمك في الاصل على ما يقول المسعودي[١] ، لقباً يحمله سادن معبد النار المجوسي العظيم وأشغل في بلخ خالد ابن احد هؤلاء الاشراف (وبسببه سمّي هو واحفاده بالبرامكة) ـأهم مناصب الدولة على عهد السفاح والمنصور .

يحى بن خالد :

وقد عهد الى يحى بن خالد بتربية هارون الرشيد وعند ارتقاء الامير الشاب عرش الخلافة عين وزيراً اعظم ، وقد قال لـه الخليفة : والـدي العزيز ، انه ببركاتك وحسن الحظ الذي يواتيك وتدبيرك الممتاز انني اجلس على عرش الخلافة[٢] ، لذلك فأنا اعهد اليك بـأدارة الامور ، ثم ناوله خاتمه ، وقد امتاز يحى (كما يقول مترجمه) بحكمته ونبل تفكيره واناقة لغته[٣] ، ومع انه كان يبتهج على سجيته الفارسية الصادقة بالمناقشات الفلسفية التي من اجلها اعتاد العلماء المتسمون بحرية التفكير والملحـدون البارزون ان يلتقوا في غالب الاحيان في بيته ، فقد كان حذراً في مراعـاته الخارجية للتقى ، وبوسعنا ان نقول عن العباسيين بصورة عامة انـه مهمـا كانت افعالهم وافكارهم في حياتهم الخاصة فقد لبسوا ـ متظاهرين ـ الشعار الرسمي للاسلام على أكمامهم ، والابيات الآتية التي خاطب بها يحى ابنـه الفضل ذات دلالة خاصة جدا[٤] :ـ

انصب نهـاراً في طـلاب العلى   وأصبر عـلى فقـد لقـاء الحبيب
حتـى اذا الليـل بـدا مقبـلا   واستترت فيـه وجـوه العيـوب

(١) مروج الذهب ، طبعة باربييردي ماينـار ، جـ ٤ ص ٤٨ ومـا بعدها (اخطأ نكلسن بذكر الصفحة ٤٧ بدلا من ٤٨ « المترجم »)

(٢) عندما رغب الهادى في ان يعهد بولاية العهد لابنه جعفر بدلا من هارون ابان يحى خطر هذا الاجراء واقنعه بالعدول عنه (الفخرى ، طبعة ديرنبرغ ، ص ٢٨١) .

(٣) ابن خلكان ، ترجمة دى سلان الانكليزية ، جـ٤ ص١٠٥ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب : جـ ٦ ص ٣٦٤ .

فكايد الليل بما تشتهي | فأنما الليل نهار الاريب
كم من فتى تحسبه ناسكاً | يستقبل الليل بأمر عجيب
القى عليه الليل استاره | فبات في لهو وعيش خصيب
ولذة الاحمق مكشوفة | يسعى بها كل عدو رقيب

سقوط البرامكة : (١٨٨هـ/٨٠٣م)

بقى يحى وولداه الفضل وجعفر سبعة عشر عاماً موضع ثقة هارون العميقة وحكام الدولة الفعليين ، الى ان عزم الخليفة لدوافع فسرت تفسيرات متباينة ، على ان يتخلص من الاسرة كلها والقصة اشهر من أن تحتاج الى اعادة[١] ، وجعفر وحده الذي قُتل ، وبوسعنا ان نستنتج انه هو الذي اثار غضب الخليفة بصورة خاصة ولعل اولئك الذين ينسبون الكارثة الى علاقة غرامه الرومانتيكي بالعباسة اخت هارون هم على صواب[٢] ، ويبدو ان هارون نفسه تبين بعد فوات الاوان كم هو مدين لهؤلاء السادة الفرس العظام الذين القوا بادارتهم الحذرة وسخائهم الذي لا يحد ، ورعايتهم الكريمة للادب ألقاً خالداً على عهده •

وكان بعد ذلك اذا ما تحدث امامه أي شخص بسوء عن البرامكة قال (متمثلا ببيت الحطيئة) من الطويل[٣] :

اقلّوا عليهم لا أبا لابيكم[٤] | من اللوم او سدوا المكان الذي سدوا

هارون الرشيد : (١٦٩هـ/٧٨٦-١٩٢هـ/٨٠٩)

لقد رفعت استقامة هارون وسماحته وانتصاراته على نقفور امبراطور البيزانطيين ، واخيرا وليس آخراً الألق الادبي لعهده ، مكانته

---

(١) انظر مثلا « هارون الرشيد » تاليف اى • ايج • بالمر (بالانكليزية) في سلسلة بلوتارك الجديدة ص ٨١ وما بعدها •
(٢) قارن أ• مولر : « الاسلام » (بالالمانية) جـ١ ص٤٨١ وما بعدها
(٣) ابن خلكان ، ترجمة دى سلان جـ ٤ ص ١١٢
(٤) هذا شكل معتاد من اللعن في الادب العربي •

في تقدير الناس عامة فوق مستوى سائر الخلفاء جميعا بمدى بعيد : فهو شارلمان الشرق ، في حين ان صفحات الف ليلة وليلة المذهلة جعلت اسمه معروفا في كل بيت في اقطار اوربا ، غير ان طلاب التاريخ الاسلامي سرعان ما يكتشفون ان « هارون الرشيد الطيب » كان في الحقيقة طاغية غدارا لا ينثني عن عزمه ، ولا تؤهله نوبات لطافته وذوقه الحقيقي للموسيقى والادب لان يوصف كعاهل عظيم او رجل طيب ، على انه يجب ان نعترف بأنه فهم تمام الفهم فن الرعاية النبيل ، فالشعراء ابو نواس وابو العتاهية ودعبل ومسلم بن الوليد والعباس بن الاحنف ، والموسيقار ابراهيم الموصلي وابنه اسحق ، واللغويون ابو عبيدة والاصمعي والكسائي ، والواعظ ابن السمّاك والمؤرخ الواقدي كل هذه مجرد اسماء قليلة في مجرة المواهب والعبقريات التي احاط نفسه بها في بغداد .

الامين والمأمون : (١٩٢هـ/٨٠٩-٢١٨هـ/٨٣٣)

أدى سقوط البرامكة الى انتعاش الروح العرقية التى عملوا جهدهم على تهدئتها ولم يعد ثم مهرب من انشقاق مكشوف بسبب سياسة هارون القصيرة النظر فيما يتعلق بولاية العهد ؛ وكان له ابنان بالغان : الامين من زوجته وابنة عمه زبيدة والمأمون الذى كانت امه جارية فارسية ، فقد تم ترتيب قيام الامين بالخلافة ومن بعده اخوه المأمون ، ولكن الامبراطورية يجب ان تقسم بينهما فيكون العراق والشام من نصيب الامين وللمأمون الاقاليم الشرقية حيث الناس يرحبون بسرور بحاكم من دمهم بالذات ، وكان الصراع الذى بدأ من اجل السيادة بعد موت هارون مباشرة تقريبا هو فى اساسه صراعا بين الفرس والعرب وبانتصار المأمون اخذ بثأر البرامكة بشكل واف .

ميول المأمون الالحادية :

كان الخليفة الجديد كل شيء عدا كونه سنيا ، فقد جنح الى الحزب الشيعي الى حدانه عهد بولاية العهد الى العلوي على بن موسى بن جعفر الرضا

وهي خطوة نفرت اعضاء اسرته منه وافضت الى خلعه موقتا ، وتبنى كذلك آراء مذهب المعتزلة واقام ديوان تفتيش لوضعها موضع التنفيذ ، ولذلك عدد المؤرخ السني ، ابو المحاسن ، ثلاثة مواقف الحادية رئيسة كان المأمون متهما بها : (الاول) لبسه الخضرة[١] والتحبب الى العلويين وابعاد العباسيين (الثاني) تشريعه « المتعة » وهو نوع من الزواج غير المضبوط سائد بين الشيعة[٢] وسوف نرى في الموضع المناسب كيف ان المأمون اهتم اهتماما شديدا بالادب والعلم مع التوصل الى نتائج مثمرة ، على انه لا يمكن ان يعزب عن بالنا ان علائم مشؤومه للانحلال السياسى تظهر في هذا العهد الممتاز •

ظهور الدول المستقلة :

ففى سنة ٢٠٧هـ/٨٢٢م ترك طاهر ، احد قادة المأمون ، الذى كان قد ولى خراسان ، الذكر المعتاد لاسم الخليفة من خطبة الجمعة ، مؤسسا بذلك الدولة الطاهرية التى كانت مستقلة تقريبا رغم انها كانت تدين بالولاء للخلفاء ، ولم يكن طاهر الا الرائد الاول في سلسلة طويلة من الحكام الطموحين والمغامرين الجريئين الذين افادوا من تضاؤل سلطة الخلفاء لينتزعوا ممالك لانفسهم ، والى ذلك فان مسلمى العراق فقدوا روحهم الحربية القديمة : فقد كانوا علماء وتجارا ممتازين غير انهم كانوا جنودا ضعافا •

---

(١) كانت الخضرة شعار العلويين والسواد شعار العباسيين

(٢) النجوم الزاهرة ، طبعة جوينبول ، ج ١ ص ٦٣١

[نحن لا نقر المؤلف على تسمية هذه المواقف بالالحادية لانها امور فرعية لا تمس جوهر الدين فى شيء ، راجع كتاب محمد الحسين آل كاشف الغطاء : « اصل الشيعة واصولها » مطابع دار العلم للملايين ، ١٩٦٣ ، وتوفيق الفكيكي : « المتعه واثرها فى الاصلاح الاجتماعى » ، النجف ، ١٩٣٧ والمتعة نوع من الزواج الموقت له شروط معينة وشائع في اسكنديناфيا ، راجع فريزر : الغصن الذهبي] « المترجم »

ادخال مرتزقة الاتراك :

وهكذا حدث ان قام خليفة المأمون المعتصم (٢١٨هـ/٨٣٣م - ٢٢٨هـ/٨٤٢) باتخاذ الخطوة القاتلة باحاطة نفسه بحرس امبراطوري مؤلف بصورة رئيسة من مجندي الاتراك من بلاد ما وراء النهر ، ونقل في نفس الوقت بلاطه من بغداد الى مبعدة ستين ميلا في اعالي دجلة ، الى سامراء التي اصبحت فجأة مدينة قصور ومعسكرات ممتازة - فرساي شرقية[1] . وهنا يمكننا ان نختم استعراضنا القصير للدور الاول المزدهر من الخلافة العباسية .

تدهور الخلافة :

وخلال الاربعة القرون التالية كان الخلفاء يأتون ويذهبون سراعا وكانت سلطتهم في اكثر الاحوال قلقة ، ان لم تكن اسمية فحسب ، وفي اقاليم الامبراطورية ، في الوقت ذاته ، نهضت دويلات لتحقق وجودا غامضا ومتعبا ، او تكونت دول قوية تستأنف تقاليد الثقافة الاسلامية وقد يكون ذلك لعدة اجيال وتعيد الى حد ما بركات السلم والحكومة المستقرة لعصر متخم بالفوضى وسفك الدماء ، وعلينا الآن ان نتحدث عن هذه الامبراطوريات الاقليمية بصورة رئيسة مقتصرين في اكثر الاحوال على الخطوط السياسية محتفظين بالمظاهر الادبية والدينية للفترة لبحث اوسع في موضع آخر .

الدور العباسي الثاني (٢٣٣هـ/٨٤٧-٦٥٦هـ/١٢٥٨)

ان حكم المتوكل (٢٣٢هـ/٨٤٧م - ٢٤٧هـ/٨٦١م) وخلفائه الذين اعقبوه مباشرة يظهر مظاهر الحكم البريتوري المشهورة ، وقد اغدقت مبالغ هائلة على الجند التركي الذي كان ينتخب الخليفة ويجعله كما يشاء ويفرض طلباته التي لا تنتهي بالتمرد والاغتيال ، ولفترة قصيرة

---

(١) بقي البلاط في سامراء لست وخمسين سنة (٢٢٢هـ/٨٣٦م- ٢٧٩هـ/٨٩٢م) وكانت التهجئة الرسمية للاسم سر من رأى التي يمكن ان تفسر بـ « بهجة الرائي » [وكان خصومها يسمونها بـ « ساء من رأى » « المترجم »]

(٢٥٦هـ/٨٦٩م - ٢٩٥هـ/٩٠٧م) تحسنت الامور تحت حكم المهتدى الكفء النشيط والخلفاء الاربع الذين اعقبوه ، ولكن سرعان ما استعاد الاتراك اليد العليا ، ومنذ هذا التاريخ يتركز كل اثر من اثار القوة الحقيقية في (امير الامراء) الذى يقف على رأس الجيش ، في حين ان الخليفة الذي كان يوما ما ذا سلطان اصبح حتما عليه ان يكتفى بتكريم فارغ بنقش اسمه على العملة وتمجيده في صلاة الجماعة ، وقد وضع حد لارهاب الحرس التركى الخاص على يد البويهيين وهم اسرة مالكة فارسية حكمت بغداد (من ٣٣٤هـ/٩٤٥م الى ٤٤٧هـ/١٠٥٥م) ثم بدأت سيادة السلاجقة بدخول طغرل بك العاصمة ودامت قرنا كاملا حتى موت سنجر (٥٥٢هـ/١١٥٧م) وانهى المغول الذين استولوا على بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م مهزلة الخلافة المؤسفة •

دويلات العصر العباسى الاول :

يقول ستانلى بول في ايضاحاته الممتازة عن الاسر الاسلامية المالكه « امتدت امبراطورية الخلفاء في اوج اتساعها من المحيط الاطلسى الى نهر « الاندوس » ومن بحر قزوين الى شلالات النيل ، ولم يكن لمثل هذا السلطان ان يبقى متماسكا طويلا ، وبدأت الخطوة الاولى لانحلاله في اسبانيا حيث اعترف بعبدالرحمن ، احد اعضاء الاسرة الاموية المضطهدة ، عاهلا مستقلا سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م ونبذت الخلافة العباسية الى الابد ، واسس بعد ثلاثين عاما ، ادريس احد احفاد الامام علي ، فهو لذلك على نفس الدرجة من الاختلاف مع العباسين والامويين ، دولة علوية في مراكش ، وفقدت بقية ساحل الشمال الافريقي تقريبا بالنسبة للخلافة عندما وطد العامل الاغلبى سلطته في القيروان سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م » •

دويلات العصر العباسى الثاني :

بين الممالك التى لاتعد ولا تحصى ، تلك التى احتلت مكان الخلافة المنحله ، لا يمكننا ان نفرد اهتماما خاصا الا للقليل من الخطيرات جدا بسبب

اهميتها الادبية والدينية[1] ، ونبدأ بايران : في سنة **٢٥٩هـ/٨٧٢** سقطت خراسان ، التي كانت آنذاك بحوزة الطاهريين ، على يد يعقوب بن ليث الصفار ، مؤسس الدولة الصفارية ، التي مدت سلطانها لثلاثين سنة على قسم كبير من ايران الى ان جردها السامانيون من ممتلكاتها •

السامانيون : (٢٦١هـ/٨٧٤م–٣٩٠هـ/٩٩٩م)

وكان مقر سلطة هذه الدولة الاخيرة في بلاد ماوراء النهر ولكن خلال النصف الاول من القرن العاشر ، خضعت ايران كلها تقريبا لسلطة اسماعيل وخليفتيه المشهورين : نصر الثاني ونوح الاول ، ولم يكتف هؤلاء الامراء بتشجيع ادب قومي في اللغة الفارسية بحرارة وتغذية تطوره الذي بدأ مقدما – اذ يكفي ان نتذكر هنا اسم روداگي المغني والشاعر الاعمى ، ودقيقي الذي أدخل الفردوسي فيما بعد قطعته من ملحمة فارسية في شاهنامته ، والبلعمي ، وزير المنصور الاول الذي الف مختصرا لتاريخ الطبري العظيم ، ذلك المختصر الذي يعد من اقدم الاثار النثرية التي وصلتنا في الفارسية – بل مدوا جناح عطفهم نفسه على شعراء وعلماء فضلوا (وان كانوا في الاغلب من اصل فارسي) استعمال اللغة العربية وهكذا فان الرازي المشهور (ابا بكر) اهدى الى الامير الساماني ابى صالح منصور ابن اسحق رسالة في الطب وسمها بـ « الكتاب المنصوري » تكريما لسيده ، ويروى الطبيب والفيلسوف العظيم ابو على بن سيناء انه بعد اذ دعاه الملك نوح ، الثاني في هذه التسمية **(٣٦٦هـ/٩٧٦م – ٣٨٧هـ/٩٩٧م)** ، حصل على اذن بزيارة المكتبة الملكية ويقول : «فدخلت دارا ذات بيوت كثيرة ، في

---

(١) ان حديثنا عن هذه الدويلات هو بالضرورة ذو طابع من اوجز ما يكون ، وسيجد القارىء تفاصيل وافية عن معظمها في كتاب البروفيسور براون : «تاريخ فارس الادبى» فالصفاريون او السامانيون فى الجزء الاول ، ص ٣٤٦ وما بعدها ، والفاطميون في ج ا ص ٣٩١–٤٠٠ و ج ٢ ص ١٩٦ وما بعدها ، والغزنويون في ج ٢ الفصل : ٢ ، والسلاجقة ، نفس المكان ، الفصول ٣ –٥

كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض ، في بيت منها كتب العربية والشعر وفي آخر الفقه ، وكذلك في كل بيت علم مستقل بذاته ، فطالعت فهرست كتب الاوائل وطلبت ما احتجت اليه منها ورأيت من الكتب مالم يقع اسمه الى كثير من الناس قط وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته ايضا من بعد »[1]

البويهيون (٣٢٠هـ/٩٣٢م-٤٤٧هـ/١٠٥٥م)

وسرعان ما وصلت قوة السامانيين ذروتها وفي نحو منتصف القرن العاشر للميلاد اقتصروا على خراسان وبلاد ماوراء النهر ، في حين ان البويهيين اخذوا مكانهم في غربى فارس ، وكان ابو شجاع بويه شيخ الديلم ، وهو الاقليم الجبلي الواقع على السواحل الجنوبية لبحر قزوين ، احد الجنود المحظوظين الذين كثيرا ما نجابههم في تاريخ هذه الفترة ، وقد ركب ابناؤه الثلاثة على واحمد وحسن متن نفس السيرة المغامرة بقوة ونجاح بحيث انهم خلال ثلاثة عشر عاما لم يخضعوا اقليمى فارس وخوزستان فحسب بل انهم في سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م دخلوا بغداد على رأس جيوشهم الديلمية وتسنموا القيادة العليا وتلقوا من الخليفة المستكفى القاب الشرف : عماد الدولة ، ومعز الدولة ، وركن الدولة ، وكان ابرز امراء هذا البيت الذين حكموا فارس والعراق خلال المائة سنة التالية هو عضد الدولة الذى قال عنه ابن خلكان انه لم يملك احد من البويهيين رغم سلطانهم العظيم وسلطتهم امبراطورية واسعة وبسط نفوذه على العديد من الملوك والممالك على نحو ما فعل هو ، وقد زار بلاطه في شيراز اكابر شعراء زمانه بما فيهم المتنبى وأنشدوا اماديحه في قصائد فخمة ، وقد بنى كذلك مستشفى عظيما في بغداد ، هو البيمارستان العضدى الذى كان مشهورا لمدة طويلة كمدرسة للطب ، وقد اسهم وزراء الاسرة البويهية بدرجة غير معتادة في شهرتها الادبية ، فقد فاق ابن العميد وزير ركن الدولة في اللغة وانشاء

---

(١) ابن أبي أصيبعة : « طبقات الاطباء » ، طبعة أ. مولر ، جـ٢ ص ٤ س٤ وما يليه ، ولم يكد ابن سينا فى هذا الوقت يبلغ الثامنة عشرة من عمره .

الرسائل جميع معاصريه فلقب « بالجاحظ الثانى » حتى غدا قولا سائرا ان « الكتابة بدئت بعبدالحميد وختمت بابن العميد »[1] وكان صديقه ، الصاحب اسماعيل بن عباد ، وزير مؤيد الدولة وفخر الدولة عالما مبرزا ولم يغط على علمه شيء سوى كرم رعايته ، وفي هذا المجال الاخير تبارى سابور بن اردشير ، رئيس وزراء ابن نصر بهاء الدولة ، مع « الصاحب » الشهير ، وكان المادحون له كثر بحيث ان الثعالبي يخصص لهم فصلا كاملا في اليتيمه ، وكانت الاكاديمية التي اسسها ببغداد ، في جانب الكرخ واغدق عليها المال بسخاء مجتمعا محبوبا عند رجال الادب ويبدو ان اعضاءها تمتعوا بنفس الامتيازات التى يتمتع بها زملاء أي كلية من كليات اوكسفورد او كمبرج تماما[2] .

حماسة البويهين لمبادىء الشيعة :

كان البويهيون كمعظم ابناء وطنهم على مذهب الشيعة واننا لنقرأ في تاريخ ابى المحاسن في حوادث سنة ٣٤١هـ = ٩٥٢م[3] :

« فيها ظفر الوزير المهلبى بقوم من التناسخية ، وفيهم شاب يزعم ان روح على بن ابى طالب رضى الله عنه انتقلت فيه ، وفيهم امرأة تزعم ان

---

(١) عاش عبدالحميد في اواخر ايام الدولة الاموية ، راجع ابن خلكان ، ترجمة دى سلان ، جـ ٢ ص ١٧٣ المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٦ ص ٨١ [وذكر ان مروان قال لكاتبه عبدالحميد حين ايقن بزوال ملكه قد احتجت ان تصير مع عدوى وتظهر الغدر بى فان اعجابهم بادبك وحاجتهم الى كتابتك تدعوهم الى حسن الظن بك فان استطعت ان تنفعنى في حياتي والا لم تعجز عن حفظ حرمى بعد وفاتي فقال له عبدالحميد ان الذى اشرت به على انفع الامرين لك واقبحهما بى وما عندى الا الصبر حتى يفتح الله عز وجل او اقتل معك ثم قال :

اسر وفاء ثم اظهر غدرة   فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره]

« المترجم »

(٢) انظر مقدمة البروفيسور مار غوليوث « لرسائل ابى العلاء المعرى» (ص ٢٤ من المقدمة) .

(٣) جـ ٣ ص ٣٠٧ ــ ٣٠٨ [طبعة دار الكتب المصرية] « المترجم »

روح فاطمة رضي الله عنها انتقلت اليها ، وفيهم آخر يزعم انه جبريل ، فضربوا ، فتعزوا[1] بالانتماء لاهل البيت ، فأمر معزالدولة باطلاقهم لتشيع كان فيه • قلت : والمشهور عن بني بويه التشيع والرفض[2] •

الغزنويون : (٣٦٦هـ/٩٧٦-٥٨٢هـ/١١٨٦م)

لابد من ذكر ثلاث دول اخرى معاصرة للبويهيين : الغزنوية في افغانستان ، والحمدانية في الشام ، والفاطمية في مصر ، وكان سبكتكين مؤسس الدولة الاولى عبدا تركيا ، وقصر ابنه محمود الذى خلفه على غزنه ، اجل الدولة السامانية التى كانت قد تضعضعت مقدما وبعد ان اكتسح شمال الهند طولا وعرضا بدأ سلسلة فتوحات امتدت قبيل وفاته سنة ٤٢٢هـ /١٠٣٠م من لاهور الى سمرقند واصفهان ، ومع انه سرعان ما انتزع السلاجقة اقليمي ايران وماوراء النهر من امبراطوريته الواسعة فان غزوة محمود للهند التى كان الغرض منها كسب تلك البلاد لحظيرة الاسلام قد رسخت بصورة دائمية التأثير الاسلامي على كل حال في البنجاب ويقف الغزنويون الاتراك في تناقض تام مع اسرتى سامان وبويه الفارسيتين فيما يتعلق بوجهة نظرهم الدينية وقد قيل بصدق ان عبقرية الاتراك الحقيقية في الاعمال لا في التأملات فعندما صادفهم الاسلام في طريقهم وجدوا عقيدة بسيطة وعملية مما يحتاج اليه الجندى فتقبلوه بدون مزيد من نقاش ، وقد بقي الاتراك دوما على ولائهم للاسلام – اسلام ابى بكر وعمر (رض) وهو يختلف جد الاختلاف عن اسلام شيعة ايران[3] وقد برهن محمود على سنيته بنفي معتزلة الرى وحرق كتبهم مع كتب الفلسفة والفلك التى وقعت تحت يده ولكنه في نفس الوقت حمل مائة بعير من الادب العديم الضرر على

---

(١) يقال تعزّى فلان لفلان اذا انتسب اليه حقا او باطلا •

(٢) ابو المحاسن ، طبعة جوينبول ، ج ٢ ص ٣٣٣ والرافضة الاصليون هم اولئك المذهبيون الذين (رفضوا) الخليفتين ابا بكر وعمر ، غير ان التعبير يستعمل بصورة عامة مرادفا للفظة « الشيعة » [هذا ليس بصحيح لان التعبيرين يستعملان فى معنيين مختلفين « المترجم »]•

(٣) قد يصدق هذا فى الفروع لا فى الاصول فجوهر الاسلام عند السنة والشيعة شيء واحد •   « المترجم »

ما يلوح الى عاصمة ملكه • اما انه لم يكن فيه حماس عميق للادب فظاهر مثلا من معاملته السيئة للشاعر الفردوسى ، مع ذلك فقد رغب بحرارة في المجد والامتيازات التى يجنيها العاهل الذى يكون بلاطه نقطة الالتقاء لكل ماهو في ثقافة العهد السائد الادبية والعلمية ، وكذلك كانت غزنة في القرن الخامس للهجرة الحادى عشر للميلاد وبوسعنا ان نذكر فضلا عن جماعة شعراء الفرس اللامعين وعلى رأسهم الفردوسى ، من بين المؤلفين الذين كانوا يكتبون بالعربية وعاشوا تحت حكم هذه الدولة المؤرخين العتبى والبيرونى •

الحمدانيون (٣١٧هـ/٩٢٩م-٣٩٤هـ/١٠٠٣م)

على حين ان الجناح الشرقى لامبراطورية الاسلام كان في طريقه الى ايدى الفرس والترك ، نجد ان العرب كانوا ما يزالون صامدين في الشام والعراق حتى نهاية القرن العاشر للميلاد ، ولكن قلّما كانت هذه الدويلات العربية ، والبدوية بصورة عامة ، ذات اهمية كبيرة ، والحمدانيون في حلب وحدهم الذى يستحقون الذكر هنا ، وذلك بصورة رئيسية من اجل سيف الدولة المنقطع النظير الذى كان سليل قبيلة تغلب بحق وحقيق ، القبيلة التي انجبت ايام الجاهلية الشاعر المحارب عمرو بن كلثوم ، ولقد ولى الخليفة المكتفي سنة ٢٩٣هـ/٩٠٥م عبدالله بن حمدان عاملا على الموصل ، وفي سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م منح ولداه الحسن وعلي لَقبيْ ناصر الدولة وسيف الدولة على التوالى ، وبعد سنتين احتل سيف الدولة حلب وجعل شمال سوريا برمته تحت سلطانه وكان خلال حكم دام ثلاثا وعشرين سنة منشغلا على الدوام فى مناوشة البيزنطين على حدود آسيا الصغرى ، ومع انه احرز بعض الانتصارات المجيدة التى خلدها شاعر بلاطه المتنبى فان نتائج الحرب سارت في المدى البعيد تدريجيا ضده ، ولم يستطع خلفاؤه الحفاظ على دولتهم الصغيرة من التحطيم بين فكى البيزنطين في الشمال والفاطميين في الجنوب ، وللحمدانيين حق خاص باهتمامنا وعطفنا لانهم انعشوا لفترة من الزمن روح القومية

العربية المتفسخة بسرعة والتي كادت تنكسر وتخذل مقدما • انها هذه الروح التي تنطق بصوت جهوري على لسان المتنبى وتفصح عن ذاتها في ابيات من نحو الابيات الآتية مثلا [وهي من بحر المنسرح][1] :

وانمـــا الناس بالملـــوك ومـا تُفلح عرب ملوكهـــا عجــم
لا ادب عندهـــم ولا حســب ولا عهـــود لهم ولا ذمـــم
في كـل ارض وطئتهـــا امـم ترعى بعبـد كأنـــم غنـم[2]

حلقة سيف الدولة :

لقد قويت سمعة انجازات سيف الدولة الحربية وانتصاراته المتكررة على اعداء الاسلام تلك التى اكسبته كسبا رائعا في اعين معاصريه ، بالطاقة العظيمة والسخاء اللذين نمى بهما فنون السلم ، ويحق لنا ان نتعجب لدى تاملنا المجتمع الفريد للمواهبالأدبية التي التأم شملها آنذاك في حلب وذلك نظرا لقصر مدة حكمه وقلة موارده نسبيا ، فقد كان هناك قبل كل شيء المتنبى الذى هو في نظر مواطنيه اعظم شعراء الاسلام ، وكان هناك ابن عم سيف الدولة الفارس ابو فراس الذى تتسم اغانيه الحربية بلمسات عديدة من الشعور الرقيق الصـادق ، وكـان هنـاك ابو الفرج الاصفهانى الذى تلقى عند تقديمه لسيف الدولة كتاب الاغانى احد الكتب الاكثر شهرة واهمية في الادب العربى باسره ، الف قطعة ذهب مشفوعة باظهار الاسف لان الامير مضطر الى ان يكافئه على هذا الشكل غير اللائق ، وكان هناك ايضا الفيلسوف العظيم ابو نصر الفارابى الذى كانت احتياجاته المتواضعه

---

(١) المتنبي : طبعة ديتريشى ، ص ١٤٨ البيت الاخـــير وما بعـــده [= ديوان أبي الطيب المتنبي بشـــرح ابى البقاء العكبري المســـمى بالتبيان في شرح الديوان ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبدالحفيظ شلبى القاهرة ١٩٣٦ ، جـ ٤ ص ٥٩]• « المترجم »

(٢) الابيات من قصيدة يمدح فيها المتنبى علي بن ابراهيم التنوخى وهي من المنسرح والقافية من المتدارك وقبلها مباشرة المطلع وهو :

احَقُّ عـاف بدمعِكَ الهِمَمُ احدثُ شيء عهدا بها القِـدَمُ

مطمنة بجراية يومية قدرها اربعة دراهم (حوالى الشلنين)[1] من بيت المال ، وهذا بالتأكيد سجل حافل لايمكن التفوق عليه حتى في اوج الرعاية العباسية • اما الكتاب الاقل اهمية الذين اجتذبهم سيف الدولة الى حلب فعددهم هائل ، ويجب ان نجد هنا مكانا لذكر شعراء كالسري الرفاء وابى العباس النامى وابى الفرج الببغاء ، ولخطيب كابن نباته الذى كثيرا ما كان يثير حماسة مستمعيه وهو يحثهم على اداء واجب توجيه الجهـــاد ضـــد بيزنطية المسيحية بحماس ، وللغوي كابن خالويه الذي كان يحضر محاضراته طلاب من جميع ارجاء العالم الاسلامى ، وكانت النهضة الادبية التى بدأت في هذا الوقت في سوريا لا تزال تظهر تأثيرها عندما كتب الثعالبى يتيمته في قريب من ثلاثين سنة بعد موت سيف الدولة ، فأنجبت في شخص ابى العلاء المعري (المولود سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م) شخصية أصيلة وممتعة غايــة الامتاع وسنعود اليه في مناسبة اخرى •

الفاطميون : (٢٩٧هـ/٩٠٩م—٥٦٧هـ/١١٧١م)

كانت الدويلات التى وصفت حتى الآن سياسية في اصولها اسسها بصورة عامــة حــكام او تابعون طموحــون • هؤلاء المتوثبون لــم يزعموا لانفسهم السلطة الاسمية التى تركوها بايدى الخليفة حتى عندمــا كانوا يجبرونه على رؤوس الحراب على أن يعترف باستقلالهم السياسى،فالسامانيون والبويهيون ، رغم انهم كانوا شيعة ، قدموا نفس الولاء الذي قدمه للخليفة في بغداد الغرنويون السنة ، غير انه في مستهل القرن العاشر للميــلاد ظهرت في افريقيــا قــوة شــيعية عظيمــة هي قـــوة الفاطميين الــذين اصطنعوا لانفسهم لقب الخلافة وامتيازاتها التى اكدوا انها لهم بالحق الالهى ، ولم يكن هذا الحادث الا ذروة مؤامرة عميقة الجذور نظمت بمهارة ـ احدى المؤامرات الخارقة جدا في التاريخ كله ، وقد وضعها موضع التطبيق قبل

---

(١) اى مائة فلس ويظهران الدرهم كان يساوى خمسة وعشرين فلسا بعملتنا الحاضرة [المترجم] •

هذا بنصف قرن رجل يدعى عبدالله بن ميمون ، وهو قداح فارسى ادرك باحتقار المفكر الحر[1] للاسلام ، فكرةجمعية سريةواسعة تكون كل شيء بالنسبة لكل انسان وبتلاعبها باقوى العواطف وباغراء اعمق نقاط ضعف الطبيعة البشرية توحد المتذمرين من كل صنف في مؤامرة لقلب نظام الحكم القائم ، وقد يجد القراء العصريون شبيها موازيا لهذا المشروع الرومانتيكي في صفحات دوماس ولو ان « آراميس » في قصة « بعد عشرين عاما » ساذج بالنسبة لعبدالله ٠

الدعاية الاسماعيلية :

لقد رأى عبدالله انالحركة يجب انتبدأ علىقاعدةدينية اذا ما اريد لها النجاح لذلك فقد مثل نفسه في مذهب شيعى غامض ، هو المذهب الاسماعيلى الذيسمى كذلكلان أشياعه اعتبروا محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق الامام السابع ، وقد طور الاسماعيليون تحت تأثير عبدالله مبادئهم الصوفية والباطنية التى اورد عنها البروفيسور براون معلومات ممتازة في الجزء الاول من كتابه تاريخ فارس الادبى (ص ٤٠٥ وما بعدها) وليس بوسعنا هنا الا ان نشير الى الاساليب البارعة الغدارة المميتة التى اخترعها لكسب الاشياع على مقياس ضخم وبنجاح جد مذهل بحيث انه منذ هذا الوقت والى الغزو المغولى ـ وهى فترة تقرب من اربعة قرون ـ حكم الاسماعيليون (الفاطميون والقرامطة والحشاشون) او عاثوا فسادا في جزء كبير من الامبراطورية الاسلامية ، وليس من الضرورى ان نبحث مسألة ما اذا كان عبدالله بن ميمون ، كما يعتقد البروفيسور براون ، متحمسا دينيا في الدرجة الاولى ، اوما اذا كانت دوافعه الحقيقية ، حسب الرأى السائد ، وطنية وطموحا شخصيا ، فالتاريخ الاسلامى يرينا بوضوح كاف ان الثائر هو على وجه التقريب متنكر دائما كزعيم دينى وعلى العكس فان كل مؤسس مذهب

---

(١) لعل نكلسن يقصد بالمفكر الحر هنا ترجمة لفظة « زنديق » والا فان المفكر الحر الحقيقي لا يحتقر الاسلام بأى حال من الاحوال ٠ « المترجم »

محارب هو في قرارة نفسه رئيس دولة وربما كان عبدالله متعصبا دينيا بادىء بدء وسياسيا بعد ذلك ، والاحتمال الاكبر هو انه كان الاثنين معا في نفس الوقت منذ البداية ، وكانت خطة اجراءاته باختصار كما يأتي :ــ

كان الداعي او المبشر المكلف بمهمة كسب اشياع للامام المخفى (انظر ص٢٦١ وما بعدها من النص الانكليزي «لتاريخ العرب الادبي» لنكلسن) الذي كانت تطلب البيعة باسمه ، يستقر في مكان ما مدعيا بانه تاجر او صوفي او ما اشبه ، وكان من السهل عليه ان يظنه القوام قديسا لنبذه ملاذ الدنيا واظهار منتهى التقى وانجاز خوارق ظاهرة ، وحالما كان يتأكد من ثقـــة جيرانه واحترامهم كان يشرع باثارة الشكوك في اذهانهم ، وانـــه ليقترح معضلات فقهية صعبة او يطيل الوقوف عنـــد المعنى الغامض لبعض الآيات القرآنية ، وانه ليسأل : الا يمكن ان يكون في الدين ذاته معنى اعمق مما يظهر على سطحه ؟ ثم بعد ان يثير فضول سامعيه يسكت فجأة ، وعندما يلح عليه بالاستمرار في تفسيره يصرح بان مثل هذه الغوامض لا يمكن أن تقدم الا لاولئك الذين يقطعون على انفسهم عهدا ملزما بالسرّ والطاعة ويوافقون على دفع مبلغ معين من المال رمزا لاعتقادهم الصحيح ، فاذا قبلت هذه الشروط دخل المنظم الجديد في الدرجة الثانية من الدرجات التسع من التنظيم ، ويلقن ان مجرد ملاحظة قواعد الاسلام لا يرضى الله الا اذا اخذ المبدأ الصحيح بطريق الائمة الذين يحتفظون به ، وهؤلاء الان (كما يعلم بعد هذا) عدتهم سبعة واولهم علي ، وسابعهم وآخرهم محمد بن اسماعيل. وعندما يصل المرتبة الرابعـة لا يعود مسلما بالتأكيد ففيها يلقن نظـــام الفقه الاسماعيلي الذي يقف فيه محمد بن اسماعيل فوق مؤسس الاسلام كاعظم وآخـر نبي بين الانبيـاء جميعا وقليلون هم نسبيا المنظمون الذين تقدموا وراء هذه المرتبة الى نقطة حيث كل شكل من الدين الثابت يصبح رمزا ولا يترك غير الفلسفة ، وواضح اى سلاح هائل او بالاحرى ايـة ماكنة هائلة خلقت على هذه الصورة ! فكل واحد كان يُعطى قدرا من النور الذي يتحمله ويلائم تحيزاته ، وكان يُحمل على الاعتقاد بان نهاية العمل

كله الحصول على ما كان يعتبره اقصى ما يرغب فيه[1] ،ولما كان الامام محمد بن اسماعيل قد اختفى منذ عهد بعيد فان التقديس الذي يهدف الى غرض برىء ينتقل بطبيعة الحال الى خليفته وممثله على الارض عبدالله بن ميمون الذي يقوم بالنسبة اليه بما قام به هرون بالنسبة لموسى وعلي بالنسبة لمحمد ٠

وحوالي منتصف القرن التاسع للميلاد كانت حالة الامبراطورية الاسلامية ، اسوأ ، اذا جاز ذلك ، مما كانت عليه في اواخر ايام الحكم الاموى ، فالفلاحون العراقيون كانوا في حالة فقر بسبب الخراب الذى أخذ ينحدر اليه ذلك الاقليم المزدهر نتيجة الحروب الاهلية الطويلة العديدة ففي سنة ٨٦٩م ثار الزنج المستخدمون في معامل نترات البوتاس التي كانت البصرة مشهورة بها ، وذلك بدعوة من المهدي العلوي واعملوا خلال اربع عشرة سنة النار والسيف في خوزستان والمنطقة المجاورة ، وبوسعنا ان نتخيل ان كل هذا الشقاء كان هبة من السماء الى الاسماعيلية والصرخة القديمة : « منقذ من آل البيت » تلك التى اجدت العباسين غاية الجدوى ضد الامويين كانت الآن ترتفع بتأثير لايقل عن ذى قبل ضد العباسين انفسهم ٠

عبيدالله المهدى يؤسس الدولة الفاطمية (٢٩٧هـ/٩٠٩م)

مات عبدالله بن ميمون سنة ٢٦٢هـ/٨٧٥م غيران اثارة الشغب استمرت وجمعت حولها قوة بسرعة وكان احد الارواح المتزعمة هو حمدان قرمط الذى منح اسمه للفرع القرمطى من الاسماعيلية ، وقد انتشر هؤلاء القرامطة (والمفرد : قرمطى) في جنوب فارس واليمن وفى القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد هددوا بغداد وقطعوا الطريق على قوافل الحجاج مرارا وتكرارا ونهبوا مكة واخذوا معهم الحجر الاسود كتذكار انتصار وباختصار اقاموا حكم ارهاب حقيقي ، بيد انه يجب علينا ان نعود

---

(١) دى ٠ بى ٠ ماكدونالد ، « الفقه الاسلامى » (بالانكليزية) ص ٤٣ وما بعدها ٠

الى الحزب الاسماعيلي الذى كان يرأسه احفاد عبدالله بن ميمون ، فقد اكتشف دعاتهم حقلا للعمل مشجعا في شمال افريقيا بين البربر السذج المتصبين ، وعندما نضج كل شيء ترك سعيد بن حسين حفيد عبدالله بن ميمون السلمية في سوريا ، المركز الذى كانت منه حتى الآن توجه التوجيهات واخذ سمته عبر افريقيا حيث ظهر مهديا كان يتوقع ظهوره منذ عهد بعيد تحت اسم عبيدالله ، واعلن انه حفيد الجيل الثانى من سلالة الامام محمد بن اسماعيل فهو لذلك منحدر انحدارا مباشرا من على ابن ابي طالب وفاطمة ابنة النبي (ص) • لسنا بحاجة لأن نقف فنناقش هذا النسب الذى يثير التساؤل والجدل الى حد بعيد والذى تستمد منه الدولة الفاطمية اسمها وفي سنة ٢٩٨ هـ/٩١٠م دخل عبيدالله الرقادة ظافراً وتسمى بامير المؤمنين ، وقد كانت تونس حيث حكم الاغالبة منذ سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م مهد السلطة الفاطمية وهنا انشأوا عاصمتهم المهدية بالقرب من ثبسوس (Thapsus) القديمة ، وبعد ان تقدموا بالتدريج شرقا ، فتحوا مصر والشام حتى دمشق (٣٥٩هـ/٩٦٩م - ٣٦٠هـ/٩٧٠م) وفي هذا الوقت انتقلت حاضرة الدولة الى مدينة القاهرة المنشأة حديثا والتي بقيت لقرنين عاصمة الامبراطورية الفاطمية[١] •

الدولة الايوبية (٥٦٧هـ/١١٧١ - ٦٤٨هـ/١٢٥٠م)

بقى الشيعة من خصوم الخلفاء صامدين في مصر حتى سنة **٥٦٧هـ/١١٧١م** عندما استولى صلاح الدين الشهير (صلاح الدين بن ايوب) على ذلك القطر واعاد اليه العقيدة السنية • وسرعان ما اضاف الشام الى ممتلكاته • وحمل سقوط القدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م اوربا على القيام بالحملة

(١) يؤسفني ان يرغمني ضيق المجال على حذف ما تبقى من تاريخ الدولة الفاطمية ، وبوسع القراء الذين يتوقون الى معلومات في هذا الموضوع مراجعة كتاب ستانلي لين بول : « تاريخ مصر فى القرون الوسطى » (بالانكليزية) وكتاب وستنفيلد : « تاريخ الخلفاء الفاطميين » (بالالمانية) گوتنگن ، ١٨٨١ وكتاب البروفيسور براون : « تاريخ فارس الادبى » جـ٢ ص ١٩٦ وما بعدها (بالانكليزية) •

الصليبية الثالثة » . وكان الايوبيون من السنة المتشددين وكان هذا جديرا بحماة الاسلام الذائدين عنه ضد المسيحية ، وقد بنوا ومولوا عدة كليات فقهية ، وقد قُتِلَ شهاب الدين يحي السهروردي المتصوف المؤمن بوحدة الوجود في حلب بامر من ابن صلاح الدين الملك الظاهر ، سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م .

السلاجقة : (٤٢٩هـ/١٠٣٧م - ٧٠٠هـ/١٣٠٠م)

شهد القرنان الاخيران اللذان سبقا انقراض الخلافة العباسية على ايدى المغول قيام السلاجقة الاتراك وانهيارهم اولئك الذين « اعادوا توحيد آسيا الاسلامية مرة اخرى من الحدود الغربية لافغانستان الى البحر الابيض المتوسط تحت عاهل واحد وكان سلجوق بن دقاق[١] شيخا تركمانيا ، وبعد ان دخل بلاد ماوراء النهر استقر بالقرب من بخاري واعتنق هو وقومه جميعا الاسلام وغزا حفيداه طغرلبك وچگربك خراسان وأضافا اليه الاقاليم الغربية للامبراطورية الغزنوية واخيرا امتصا الممتلكات المتبقية بحوزة الدولة البويهية ، واحتل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ، وقد قيل ان السلاجقة ماكادوا يسهمون بشيء في الثقافة غير ان هذا القول قد يحتاج الى تحديد ، ومع ان الب ارسلان الذى خلف طغرل وابنه ملك شاه ، كرسا قواهما في الدرجة الاولى للامور العسكرية ، فان الاخير على الاقل كان ملكا كاملا مستنيرا اذ عمل جهده لتعميم فوائد الحضارة فقد حفر عدة قنوات واحاط الكثير من المدن بالاسوار وشيد القناطر وانشأ الرباطات في المواقع الصحراوية[٢] .

وكان مولعا بالفلك اشد الولع ، وشمل برعايته الدراسات العلمية فضلا عن الفقهية ، وان اية نواقص في الب ارسلان وملك شاه في هذا الشأن قد تلافاها الى ابعد حد وزيرهما المشهور الحسن بن على او نظام الملك اذا شئنا ان نلقبه باللقب الذى اختاره لنفسه ، وكان ككثيرين من الوزراء العظام ، فارسيا ، غير ان انجازاته يجب الا تؤخرنا هنا ، مع ذلك

---

(١) رسم اللفظة عند نكلسن « تقاق » والصحيح « دقاق » راجع ابن خلكان ١٥٩/٤ .

(٢) ابن خلكان : ترجمة دى سلان ، ج ع ص ٤٤١

يمكننا ان نذكر انه اسس في بغداد ونيسابور[١] الاكاديميتين المشهورتين اللتين سميتا تكريما له بالنظامية •

بلاد العرب واسبانيا :

لقد اخذنا الآن نظرة عامة ، وان كانت بالضرورة مقتضبة غاية الاقتضاب وعديمة الترابط ، عن الاوضاع السياسية في معظم ارجاء الامبراطورية الاسلامية على عهد العباسيين عدا بلاد العرب واسبانيا ، فقد هبطت ارض الاسلام الام الى مستوى اقليم ثانوى منذ عهد بعيد ، واذا ماترك الانسان المدينتين المقدستين جانبا ، امكنه ان يقارن مصيرهما المؤسف تحت حكم الخلافة بمصير مقدونيا في الامبراطورية التي اورثها الاسكندر خلفاءه من البطالسة والسلوقيين اما فيما يتعلق بالتاريخ السياسى لاسبانيا فسنذكر بضع كلمات بشكل ملائم في فصل تال حيث يتطلب الادب الذى انتجه المسلمون الاسبان اهتماما منا ، وفي الوقت ذاته سننتقل الى التطورات الادبية البارزة لهذه الفترة ، وهي تماثل الخطوات التاريخية الاساسية عن كثب نوعا ما •

والشيء الاول الذى يلفت نظر دارس الادب العربى في القرون الوسطى هو ان نسبة كبيرة جدا من زعماء الادب هم من غير العرب ، او في افضل الاحوال نصف عرب ، فهم رجال آباؤهم او امهاتهم من اصل اعجمى وعلى الاخص فارسى ، وقد كتبوا باللغة العربية لان تلك اللغة كانت الى قريب من سنة ١٠٠٠م الوسيلة الادبية الوحيدة للتعبير فى العالم الاسلامى وهو احتكار احتفظت به في التاليف العلمية حتى الغزو المغولى فى القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد ، ولقد اشرنا مسبقا الى مسألة ما اذا كان رجال من امثال بشار بن برد وابى نواس وابن قتيبة والطبرى والغزالى ومئات آخرين يجب ان يذكروا فى تاريخ للادب العربى وقد قدمنا اسبابا لا حاجة بنا الى اعادة ذكرها هنا[٢] لاعتبار قبولهم كأمر ليس

(١) تسمى نيسابور ونيشابور بالسين المهملة أو الشين المعجمة •
[المترجم]

(٢) يراجع الجزء الخاص بالجاهليين والامويين من « تاريخ العرب الادبي » لنكلسن • [المترجم]

مرغوبا فيه فحسب بل مبررا كل التبرير على اسس منطقية ، فسخافة اعتبارهم فرسا – وليس لنا سبيل آخر اذا لم نعتبرهم عربا – تبدو لنا واضحة للعيان •

تفسير ابن خلدون لحقيقة ان التعلّم كان ينمّيه الفرس المسلمون بصورة رئيسية :

يقول ابن خلدون : « من الغريب الواقع ان حملة العلم في الملة الاسلامية اكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا في القليل النادر ، وان كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته ، مع ان الملة عربية وصاحب شريعتها عربي »[1] ويستمر المؤرخ ليفسر سبب هذه الظاهرة في مقطع ممتع يمكن تلخيصه فيما يلي :

« والسبب في ذلك ان الملة في اولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى احوال السذاجة والبداوة ، وانما احكام الشريعة التي هي اوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع واصحابه ، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا امر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا اليه ولا دعتهم اليه حاجة وجرى الامر على ذلك زمن الصحابه والتابعين وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله بـ « القُرّاء » اي الذين يقرأون الكتاب ••• فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتيج الى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ثم احتيج الى معرفة الاسانيد ، وتعديل الرواة للتمييز بين الصحيح من الاسانيد وما دونه ••• وفسد مع ذلك اللسان فاحتيج الى وضع القوانين النحويه وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس واحتيج الى علوم اخرى هي وسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الايمانية بالادلة لكثرة البدع والالحاد فصارت هذه

---

(١) ابن خلدون : طبعة كاترمير ، باريس ١٨٥٨ ، ج ٣ ص ٢٧٠ « فصل في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم » [المترجم] •

الامور كلها علوما ذات ملكات محتاجة الى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع ، وقد كنا قدمنا ان الصنائع من منتحل الحضر ، وان العرب ابعد الناس عنها فصارت العلوم كذلك حضرية وبعد العرب عنها وعن سوقها ، والحضر لذلك العهد هم العجم او من في معناهم من الموالي واهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة واحوالها من الصنائع والحرف لانهم اقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس (فكان) صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في انسابهم وانما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم (وكذلك) حملة الحديث الذين حفظوه على اهل الاسلام اكثرهم عجم او مستعجمون باللغة والمربى لاتساع الفن بالعراق وما بعده (وكان) علماء أصول الفقه كلهم عجما كما تعرف (وكذا) جملة علماء الكلام (وكذا) اكثر المفسرين[1] ، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم فظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : « لو تعلّق العلم باعناق السماء لناله قوم من فارس » (واما العرب) الذين ادركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا اليها عن البداوة فشغلتهم الرياسة [في الدولة العباسية][2] وما دفعوا اليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه فانهم كانوا اهل الدولة وحاميتها واولي سياستها مع ما يلحقهم من الأنفة بانتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع ، والرؤساء أبدا يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر اليها ، ودفعوا ذلك الى من قام به من العجم والمولّدين ومازالوا يرون لهم حق القيام به فانه دينهم وعلومهم

---

(١) اختصر نكلسن هذه الفقرة بحذف الاسماء فلم نر موجبا لحذفها فاثبتناها لتقوية البرهان الذى ارتآه ابن خلدون [المترجم] .

(٢) هذه العبارة غير موجودة في ترجمة نكلسن [المترجم] .

ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار »[1] اهـ

وحتى في العصر الاموي ، كما رأينا ، كان شعار « العلم قوة » موضحا بشكل بارز بالتأثير الاجتماعي الهائل الذي كان للفقهاء الفرس في المجتمع الاسلامي[2] ؛ مع ذلك فقد نظر العرب الحقيقيون من النمط القديم الى هؤلاء الموالي وعلمهم باحتقار غير خفي ؛ وبدت للاكثرية العظمى من العرب الذين كانوا يفتخرون بنسبهم النبيل وبقناعتهم بالا يعرفوا شيئا خارج التقاليد المجيدة للجاهلية والفضائل التي كان يمارسها اسيادهم كل ثقافة ادبية تافهة تحط من شأن الانسان ؛ وقد قوبل موقفهم المتعالي من الموالي ، ذلك الموقف الذي صور تصويرا رائعا في الجزء الاول من كتاب كولدتزيهر « دراسات اسلامية » ، برد فعل حيّ ؛ ولقد لجأ غير العرب وتقاة المسلمين على حد سواء الى السلطة العليا ـ وهي القرآن ولما كانوا يحتاجون الى حكم اكثر وضوحاً وتاكيدا مما كان موجودا في ذلك المصدر فقد وضعوا في فم النبي (ص) اقوالا من نحو : « من نطق بالعربية فهو عربي » و « من اعتنق الاسلام من اهل فارس فهو عربي كأي قرشيّ » ولم يؤثر هذا المبدأ على الاريستوقراطية العربية ، ولكن بسقوط الدولة الاموية اصبحت مساواة الموالي السياسية ، والاجتماعية حقيقة واقعة ، لا لأن العرب كانوا يجنحون اطلاقا الى التخفيف من ادعاءاتهم فقد استنكروا بمرارة حسن المعاملة التي تمتع بها الاعاجم والتأثير الذي مارسوه ، .ويجد الاشمئزار القومي صدى له في عدة قصائد من صدر الدولة العباسية من نحو :ـ

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة (بيروت ١٩٠٠) ، ص ٥٤٣ وما يليها = ترجمه دى سلان الفرنسية ، جـ ٣ ص ٢٩٦ وما بعدها = [نسخة كاترمير جـ ٣ ص ٢٧٠ – ٢٧٣ « فصل في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم » والغريب ان نكلسن لم يستعمل طبعة المستشرق كاترمير بل فضل عليها طبعة بيروت « المترجم »] .

(٢) قارن گولدتزيهر ، دراسات اسلامية ، جـ ١ ص ١١٤ وما بعدها

أما تراهم وقـد حطّوا برادعَهُمْ عن أُتنِهِم واستبدوا بالبراذين(١)
وأَفرجوا عن مُشارات البقول الى دور الملوك وأبواب السـلاطين(٢)
تغلي على العرب من غيظٍ مراجلهم عداوةً لرسـول الله في الدين(٣)

الشـعوبيّون :

وقد تبنى جانب غير العرب في هذا النزاع الادبي بكل حماسة وشدة فريق تسمّى « بالشعوبية »(٤) في حين ان خصومهم اطلقوا عليهم اسـم (اهل التسويه) لانهم دافعوا عن المساواة بين المسلمين جميعا دون النظر الى التفاوت الجنسي ؛ ويجب علينا ان نحيل القارىء الذي يبغي معلومات عن

(١) البرادع : ج بردعه وهي بالدال وبالذال ، والاتُن (بسكون التاء وبضمها) جمع اتان وهي الحماره والبراذين من الخيل : ما كان من غير نتاج العراب ·

(٢) افرجوا عن المكان : تركوه · مُشارات المزرعه : مجاري مائها وسواقيها ، جمع مشارة او هو « مشاراة » بمعنى مبايعه ، وقد قرأهـا نكلسن : مَشارات البقول (اي مزارع الخضروات) بدلا من مُشـارات في ترجمته وليس في التغيير الا اختلاف بسيط في المعنى ، ولكن لما كـانت مشارات لفظة آرامية فهي ملائمة هنا بشكل خا ص ·

(٣) الاغاني : ج١٢ ص١٧٧ البيت الخامس وما يليه [=ج١٤ ص ١٣٧ ــ ١٣٨ س ٦ ــ ٨ طبعة دار الكتب المصـرية] ؛ فون كريمر معالم تاريخ الحضارة (بالالمانية) ص٣٢ وهذه الابيات موجهة على نحو مالاحظ ص · خدابخش (« مساهمات في تاريخ الحضارة الاسلامية » (بالانكليزية) كلكتا ، ١٩٠٥ . ص٩٢) ضد النبطيين الذين ادعوا زورا انهـم فرس * «نكلسن» والقصيدة ٢١ بيتا لابي الاسد نباته بن عبدالله الحماني من اهل الدينور من اعمال الجبل بفارس واخباره في الاغـاني ١٤/١٣١ ــ ١٤٣ ويقول في مستهلها :

صنع من الله اني كنت اعرفكم قبل اليسار وانتم في التبابين
فما مضت سنة حتى رأيتـكم تمشون في القز والقوهي واللين

(٤) اشتق الاسم من القرآن ، السورة : ٤٩ الآية : ١٣ « يا ايهـا الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا · ان اكرمكم عند الله اتقـاكم » وهـكذا فتسمية الشعوبية تؤكد ان العرب المسلمين ، حسب تعاليم محمد ، ليسوا خيرا من اخوانهم من غير العرب ·

تاريخ الحركة على دراسة كولدتزيهر الرصينة[١] حيث اوضحت اساليب الخصومة التي اتبعها الشعوبيون بتفاصيل وافية ؛ فهو يرينا كيف ان افرادا اكثر جرأة بينهم لم يكتفوا بادعاء المساواة ، بل جادلوا في ان العرب اقل مكانة من الفرس والشعوب الاخرى بصورة مطلقة ؛ وقد نوقشت القضية بحرارة واشترك في المعركة عدد كبير من الكتاب البارزين ؛ وجدير بالذكر من جانب الشعوبيين ابو عبيده والبيروني وحمزة الاصفهاني ؛ وكان الجاحظ وابن دريد ابرز المدافعين عن قوميتهم العربية ، غير ان فريق المناصرين للعرب تضمن كذلك عدة رجال من اصل فارسي من مثل ابن قتيبة والبلاذري والزمخشري ، وقد وجه الشعوبيون هجماتهم بصورة رئيسة ضد الكبرياء الجنسية للعرب الذين كانوا مولعين بالمباهاة بانهم انبل البشرية جميعا وانهم يتكلمون بانقى لغة في العالم واغناها ؛ وعلى ذلك لم يضيع النسابون وعلماء اللغة من الفرس فرصة لالقاء الضوء على ظروف فاضحة مخزية تتعلق بتاريخ القبائل العربية او باسر معينة ؛ وقد قدم الشعر العربي ولاسيما شعر « المثالب » مادة غزيرة من هذا القبيل فادعى الشعوبيون بانها برهان مقنع على ان ادعاءات العرب بالنبل الفائق مضحكة ؛ وفي الوقت ذاته تلقت النظرة القومية القائلة بان اللغة العربية فريدة منقطعة النظير في تفوقها انتقادا فظاً .

تمثيل العرب والفرس :

وقد كانت الاختلافات الجنسية بين العرب والفرس حادة لا تقبل المصالحة ، بحيث ان الانسان يستغرب كيف ان الفرس استعربوا استعراباً كاملا في فترة اجيال قليلة ، وكموالٍ ملحقين بقبيلة عربية اتخذوا اسماء عربية وحاولوا اخفاء اصلهم الاعجمي باساليب مشروعة وغير مشروعة ؛ وقد تزود الكثيرون بانساب اسطورية واعتبروا على اساسها عربا ؛ ولم يكن هذا التظاهر ليخدع احداً ان لم يدعمه تمثُّل كامل في اللغة والسلوك وحتى الى حدما في الخلق ؛ وقد وضعت العداوات جانبا فوق الارض

---

(١) دراسات اسلامية (بالالمانية) جـ١ ص١٤٧ وما بعدها .

المحايده للعلوم الاسلامية واشتغل رجال من كلا العنصرين بحماسة من اجل القضية المشتركة ؛ وعندما وجدت الاكثرية العظمى من المسلمين اخيرا بعد مضى قرن من الصراع الدامي والشغب السياسي الشاغل ، انها قد حيل بينها وبين الاشتراك في الامور العامة ، لم يكن الا طبيعيا ان ترمي الالوف المؤلفة من المتحمسين الطموحين قواها المكبوتة في سبيل تعقب المال او التعلم ؛ ولا يهمنا هنا التطور الخارق للتجارة تحت حكم الخلفاء العباسيين الأوائل ، ذلك التطور الذي يقدم عنه فون كريمر وصفاً كاملاً وممتعا في كتابه : « تاريخ الشرق الثقافي » على انه يمكننا ان نتذكر ان كثيراً من التعابير التجارية من نحو « تعريفه (Tariff) واسماء المنسوجات من مثل (الموصلي (Muslin) والعتّابي Tabby الخ ...) التي نجدها في الانكليزية بالاضافة الى معظم اللغات الاوربية هي ذات اصل عربي وقد جاء بها التجار الى اوربا من بغداد والموصل والبصرة ومدن اخرى في آسيا الغربية .

الحماسة للتعلم في صدر الدولة العباسية :

ولقد صحب هذا التوسع المادي انفجار فعالية عقلية لا عهد للشرق بها من قبل ابدا ؛ وبدا كما لو ان العالم جميعا من الخليفة الى اوضع مواطن قد اصبحوا فجأة طلابا او على الاقل ، حماة للادب ؛ وفي طلاب المعرفة كان الناس يسافرون عبر ثلاث قارات ويعودون الى اوطانهم كنحل مثقل بالعسل ، لينقلوا المكتنزات القيمة الثمينة التي اختزنوها الى جماهير المريدين المتلهفة ويؤلفوا بجهد لا يصدق المؤلفات ذات النطاق والاطلاع الموسوعي ، تلك التي استمد منها العلم الحديث ، باوسع معانيه ، اكثر مما يُظن بصورة عامة .

تطور العلوم الاسلامية :

ان الثورة التي حققت للاسرة العباسية حظها في الملك كانت انتصارا للاسلام ولحزب الاصلاح الديني ؛ وعلى حين ان دراسات الشريعة والحديث لم تقابل تحت حكم الامويين بتشجيع عام ، وانما أبقت عليهما حماسة التقى

للفقهاء المضطهدين ، فان الدولة الجـــديدة استمدت قواها من الافــكار الاسلامية التي اعلنت انها جاءت لتثبت دعائمها وحورت سياستها بمهــارة لتطمين متطلبات الدين المتزايدة ، وعلى ذلك فان العلوم الاسلامية التي ظهرت في هذا الوقت انبثقت لاول وهلة من القرآن والحديث ، وتمثلت صعوبات عديدة في الكتب المقدسة امام العرب الاقليميين وعـلى الاخص امام الفرس وغيرهم من المسلمين الاعاجم ولكيما يحرزوا الادراك الصحيح كان لزاما عليهم تعلم قواعد اللغة العربية وفقهها ، وكان هـذا يتضمن دراسة الشعر الجاهلي الذي كان يقدم اكثر النماذج صحة للكلام العربي في نقائه الاصيل، وافضت دراسة هذا الشعر الى تتبعات في الانساب والتاريخ اللذين أصبحا بتمادي الزمن فرعين من المعرفة مستقلين ؛ وعلى نفس الشاكله تطور علم الحديث تطورا نظامياً ليزود المسلمين بقواعد عملية لتسيير الحياة في كل جانب ملحوظ ، فقفزت مدارس التشريع المختلفة الى الوجود •

تصنيفهـــــا :

يميز الكتاب المسلمون عادة بين العلوم المرتبطة بالقرآن وتلك التي تعلمها العرب من الاعاجم فيضعون في الصنف الاول (العــلوم النقلية او الشــرعيّة) و (علوم اللســان العربي) ، وفي الثـــاني (العلوم العقليه او الحكْميَّة)[1] التي تُسمَّى احيانا ب (علوم العجم) او (العلوم القديمة) •

وبوسعنا ان نوضح النطاق العام لهذا التقسيم في الجدول الآتي :ـ

أ ـ العلوم المحليّة

١ ـ علم التفســير
٢ ـ علم القراءات
٣ ـ علم الحديث
٤ ـ الفقــه
٥ ـ علم الــكلام
٦ ـ النحـــو

(١) المقصود بها الفلسفية [المترجم]

٧ ـ اللغـة
٨ ـ البيـان
٩ ـ الادب

ب ـ علوم العجم[1]

١ ـ الفلسفة[2]
٢ ـ الهندسة[3]
٣ ـ علم النُجوم
٤ ـ الموسيقي
٥ ـ الطب
٦ ـ السحر والكيمياء

صدر العصر العباسي ملائم للتفكير الحر :

سنبحث الظواهر الدينية للعصر في فصل مستقل وليس بوسعنا هنا الا ان نومىء باقتضاب الى صفاتها العامة . لقد رأينا خلال العصر الاموي باكمله ، باستثناء فترة حكم عمر بن عبدالعزيز القصيرة ، ان دار الخلافة لم تكن لتعطف على علماء الدين فانسحب العديد منهم من كل اسهام في الامور العامة واصبح الامر عكس ذلك عندما ترسخ العباسيون في السلطة ، فقد اوى اللاهوت الآن الى ظل العرش ووجّه سياسة الحكومة واغدقت شارات الشرف والتكريم على الفقهاء وعلماء الدين البارزين الذين كثيرا ما تسنموا وظائف حكومية ذات خطورة كبيرة واصبحوا على علاقات ثقة وتماس وثيق مع الخليفة ، والمثال الكلاسيكي على ذلك صداقة القاضي ابي يوسف وهارون الرشيد وقد ولد القرن الذي أعقب الثورة

---

(١) المقصود بها العلوم الاجنبية التي اقتبسها العرب من الاعاجم.
[المترجم]

(٢) تتضمن لفظة « الفلسفة » بمعناها الصحيح المنطق وعلم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية .

(٣) بوسعنا ان نضيف هنا الفروع المختلفة للرياضيات كالحساب والجبر والميكانيك الخ ...

المدارس الاربع العظيمة للشريعة الاسلامية التي لا تـزال تسمى باسماء مؤسسيها ـ مالك بن أنس ، وابي حنيفة والشافعي واحمد بن حنبل وقـد اطلق في هذا الزمن للحركة العلمية والعقلية عنان الحرية ؛ وقد شجـع الخلفاء الاوائل عادة التأملات ما دامت لا تهدد نظام الحكم القائم بالخطر ؛ واصبحت الحركة العقلية الاعتزالية تحت حكم المأمون وخلفائه دين الدولة الرسمي وبدا الاسلام مستهلا عهد استناره ؛ وخليق بالعصر العباسي الاول (١٣٢هـ/٧٥٠م ـ ٢٣٢هـ/٨٤٧م) بمعارفه الجـديدة وفقهه المتحرر ان يقارن بعصر النهضة الاوربية ولكن بكلمات شاعر فارسي مشهور[١] :

رائعٌ ثوبُ الحيـاة عيْبُهُ هذا القِصَرْ !

انتصـار السنّة :

استهل الخليفة المتوكل (٢٣٢هـ/٨٤٧م ـ ٢٤٧هـ/٨٦١م) ارتقـاءه عرش الخلافة باعلان المبادىء الاعتزاليـة الحاديـة وبالعودة الى العقيـدة التقليدية ، وقد اتخذت اجراءات صارمة ضد المنشقين ولم يبق في الاسلام بعد اليوم الا مجال ضيق للتفكير المستقل واعتبر الجمهور الفلسفة وعلـم الطبيعة ضربا من الكفر واصبح مؤلفو الكتب في هذين الموضوعين في خطر كبير الا اذا نكّروا افكارهم الحقيقية وجعلوا نتائج تتبعاتهم على وفاق ظاهر مع نص القرآن ؛ واتخذت الروح الرجعية حوالي منتصف القرن العاشر للميلاد شكلا مبدئيا في نظام ابي الحسن الاشعري ابي الطريقة التقليديـة في الاسلام التي هي في جوهرها مضادّةٌ للحرية العقلية وقد ابقت تأثيرها الجامد دون تصدع تقريبا الى يوم الناس هذا .

كنت اتمنى ان يكون هذا الفصل اجدر بالعنوان الذي اخترته له ، غير ان الصفحات التي مرت بنا ، تُعدّ موفيةً بغرضها فيما اذا كانت قد اعانت قرائي على تكوين فكرة عن سياسة العصر الـذي نحن بصدده والمميزات العامة التي تحدد مجرى تاريخه الادبي والديني .

---

(١) عبدالرحمن جامي (ت ٨٩٨هـ/١٤٩٢م)

الفصل الثاني

الشعر والآداب والعلوم في العصر العباسي

اعتبار الشعراء الجاهليين كلاسيكيين :

كان الشعر الجاهلي تعبيرا طبيعيا عن الحياة البدوية ، فكان المتوقع من الاوضاع والافكار الجديدة التي جاء بها الاسـلام ان تقوم بثورة عاجلة مماثلة ، في شعر القرن الذى يليه ، غير ان ذلك كان ابعد مما حصل ، فقد تعلق شعراء بني أمية بحرص وقوة بالنماذج العظيمة للعصر البطولي ، بل انهم حصلوا على امتياز لمحاكاتهم البارعة للمعلقات • وتمسك النقاد المسلمون الاوائل ، الذين كانوا لغويين بالدرجة الاولى ، بالمبـدأ القائل بان الشعر الجاهلي وصل درجة من الكمال ليس بوسع اى شاعر معاصر منافستها ولا يمكن الا لمثل الفروسية العليا ، تلك المثل الضائعة ان توحي بها[1] فميلاد الانسان بعد ظهور الاسلام كان بحد ذاته برهانا على الضعف الشعرى[2] وقد دخلت الاعتبارات اللغوية الى مدى بعيد في صميم هـذا التحيز ، اذ درست الاشعار القديمة كمستودعات للغة الكلاسيكية الفصيحة وقد قدرت بصورة رئيسة من وجهة نظر النحاة •

وحظيت هذه الافكار بالرضى والقبول على نطاق واسـع من لـدن الحلقات الادبية وأثرت في الذوق العام تدريجيا الى حد ان المتنطعين من

---

(١) انا مدين الى حـد بعيد بالصفحات التاليـة لمقـالة گولدزيهر الموسومة ب : « الشعر القديم والحديث عند النقاد العرب » في بحثـه عن « الدراسات اللغوية العربية » •

(٢) قارن الملاحظة التي ابداها ابو عمرو بن العلاء عن الاخطل حين ذكر ان لو كان الاخطل قد عاش يوما واحدا في الجاهلية لما فضل عليـه شاعرا آخر •

العلماء ، من امثال الخليل بن احمد واضع علم العروض ، كان بوسعهم ان يباهوا بقدرتهم على ان يرفعوا او يحطوا من سمعةاى شاعر ناشيء كما يحلو لهم • ولما كان روح الابتكار قد حُطَّ من شأنه فان اولئك الذين رغبوا في الحصول على موافقة هذه الاكاديمية المنشأة ذاتيا اضطروا الى اضاعة وقتهم ومواهبهم في استنساخ متقن للقطع الممتازة القديمة وتسلية رجال البلاط والمواطنين بصور مستعارة من الحياة البدوية تلك التي لم يكونوا ليهتموا بها هم ولا مستمعوهم باقل شكل •

أبو نواس ناقداً :

والحق أن بعضهم فضح سخافة هذا الوضع فأبو نواس (المتوفى حوالى ١٩٨هـ/٨١٠م) كثيرا ما كان يهزأ بالوقوف على الاطلال في مطالع القصائد ،ويمطر وابل سخريته واحتقاره على التمجيد التقليدى للقديم ، وقد أشرنا الى ذلك في مكان آخر • وهو في القطعة المقتبسة ادناه يقدم لنا وصفا للصحراء وسكانها مما يعيد الى الاذهان تهجمات الدكتور جونسون على سكوتلندة والاسكتلنديين :

دع الاطلال تسفيها[١] الجنوب ... وتبلى عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء[٢] ارضا ... تخب[٣] بها النجيبة والنجيب[٤]
بلاد نبتها عشر[٥] وطلح[٦] ... واكثر صيدها ضبع وذيب
ولا تأخذ عن الاعراب لهوا ... ولا عيشا فعيشهم جديب
دع الالبان يشربها رجال ... رقيق العيش بينهم غريب[٧]

---

(١) تسفيها : تذرى عليها التراب (٢) الوجناء : الناقة الشديدة (٣)تخب : تسرع (٤) النجيبة والنجيب : الناقة (٥) عشر : شجر جيد القدح من اشجار البادية (٦) الطلح : شجر عظام ترعاه الابل •

(٢) ديوان أبي نواس ، الشاعر الخمري ، طبعة أهلوردت ، رقم ١٠ الابيات ١ ـ ٥ = ديوان ابي نواس الحسن بن هاني ، تحقيق احمد عبدالمجيد الغزالى ، القاهرة (١٩٥٣) ص١١

رأى ابن قتيبة في القدامى والمحدثين من الشعراء :

وكان ابن قتيبة المتوفى في اواخر القرن التاسع للميلاد اول ناقد ذي بال صرح بضرورة موازنة القدامى والمحدثين حسب مكانتهم بقطع النظر عن عصرهم ، وهذا ما ذكره في مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » :[1]

« ولم اسلك ، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له ، سبيل من قلد ، او استحسن باستحسان غيره ؛ ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر (منهم) بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، واعطيت كلا حظه ، ووفرت عليه حقه .

فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده الا انه قيل في زمانه ، او انه رأى قائله .

ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر ، وجعل كلَّ قديم حديثاً في عصره ، وكلَّ شرف خارجية[2] في أوله » .

الثورة على الكلاسيكية :

وازداد رد الفعل المحتوم لصالح الشعر الجديد والادب المعاصر بصورة عامة في اضطراد سرعة بمختلف الظروف التي تضافرت لتزيح النظرية السائدة التي تقول بان الجاهلية والفضائل الوثنية الخاصة ـ كالشرف والشجاعة والسماحة الخ ـ هي وحدها القادرة على انتاج العبقرية الشعرية ،

---

(١) طبعة دى غويه : ص٥ الاسطر ٥ ـ ١٥ = الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢١٣ ـ ٢٧٦) تحقيق وشرح احمد محمد شاكر ، القاهرة ، ١٣٦٤هـ الجزء الاول صص ٦ ـ ٧

(٢) في رواية اخرى : « وكل شريف خارجيا » ؛ والخارجي : الذي يخرج ويشرف بنفسه من غير ان يكون له قديم ، ومنه الخارجية ، وهي خيل لا عرق لها في الجودة ، فتخرج سوابق ، وهي مع ذلك جياد وقد تصرف نكلسن في ترجمته الانكليزية للعبارة .

وبوسعنا ان نلاحظ بين التيارات الرئيسة للتفكير الجانح هذا المنحى ، تلك التي اوضحها گولدتزيهر في مقاله (الصفحة ١٤٨ وما بعدها) : (أ) روح الورع والتقوى التي غذتها الدولة العباسية و (ب) تأثير الثقافات الاجنبية ولا سيما الفارسية • أما الاولى فمن الواضح انه لا يسع المسلمين الورعين الاذعان باى حال من الاحوال لمدعيات الجاهلية او مسايرة اولئك الذين يجعلون « المروءة » فوق « الدين » • أفلم تكن لغة القرآن واسلوبه على جانب من الامتياز لا يقبل المقارنة ؟ والقرآن الكريم موضوع دراسة اليق من الشعر الوثني بالتأكيد ، ولكن اذا ما شرع المسلمون بالشك في المثل العليا للجاهليين فان ارتفاع نجم الفرس بصورة خاصة ، ذلك الارتفاع الناجم عن انتصار العباسيين هو الذى زعزع عقيدة العرب المتغطرسة القديمة وايمانهم بالسمو العقلي لجنسهم ، وقد اعتقد الكثيرون من الناس الذين كانوا بعيدين جدا عن تمجيد تقاليد الوثنيّة انه من الاهانة بمكان ان يجعل الانسان الخليفة العباسى على مستوى واحد مع ابطال الماضى كحاتم الطائي وهرم بن سنان • وقد أنب الفيلسوف الكندي (المتوفى حوالى ٢٣٦هـ ٨٥٠م) شاعرا لجرأته على عقد مثل هذه المقارنات المنكرة ، فقد سأله قائلا : « من هم صعاليك العرب هؤلاء وما قدرهم ؟ » (١) •

النقاد المناصرون للمحدثين :

واذا كان ابن قتيبة قد اكتفى بالحث على منح الشعراء المحدثين اهتماما عادلا وان لاينظر اليهم تاريخيا او لغويا بل فنيا فان فريقا من اعاظم نقاد الادب الذين جاءوا بعده لم يخفوا رأيهم القائل بان الشعر المحدث يسمو على القديم فالثعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ/١٠٣٨م) يؤكد ان الشعراء الجاهليين قد تفوق عليهم من جاء بعدهم من ناحية الرقة والاناقة في التعبير كما ان المعاصرين بزوا الفريقين جميعا ؛ وكان ابن رشيق (المتوفى حوالى سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م) الذي وصف ابن خلدون كتابه «العمدة» (في فن الشعر) بأنه نقطة تحول وبداية

---

(١) قارن القصة التي رواها ابن خلكان عن ابي تمام (ترجمة دى سلان الانكليزية) جـ١ ص٣٥٠ وما بعدها رقم ١٤٣ من النص العربي •

عهد جديد ، يعتقد بامكان الاعتراف بتفوق المحدثين على القـــدامى فيما اذا تركوا التقاليد البالية للقصيدة ، ولا يسع القـــراء الاوربيين الا ان يشعروا بشعوره عندما يطلب الى الشعراء ان يستوحوا الطبيعة والصدق بدلا من ذكر اسفار خياليـة على ظهر جمل لم يمتلكوه في مفازات لم يروها الى سيد يقيم في نفس المدينة التي يقيمون فيها . ويبدو لنا هذا احتجاجا معقولا وضروريا ولكن يجب علينا ان نتذكر ان القصيدة البدوية ليست ممـــا يمكن تحويله بسهولة الى ظروف الحياة المدنية ، فكانت بحاجة الى اعادة تركيب اكثر منها الى تحوير في التفاصيل[١] .

شعبية الشعراء المحدثين :

يقول گولدتزيهر : « يمكن اعتبار مذهب عدم امكان التوصل الى كمال الشعراء الجاهليين مقضيا عليه تماما في القرن الخامس ـ أي من حوالى سنة ١٠٠٠ للميلاد » فمنذ ذلك الوقت فصاعدا كان الذوق في الاتجـاه المعاكس قويا بدلالة كثرة المقطوعات المحدثة الهائلة في المجموعات المنتخبة ـ وهي فرع محبوب وخاص في الادب العربي ـ تلك التي انجزت خلال العصور العباسية وما بعدها وبكثرة الشكاوى من اهمال الشعر القديم ، ومع ان امرأ القيس وصحبه غدوا الى حدما للمسلمين بصورة عامة كشوسر للرجل الانكليزي الاعتيادي ، فالآراء التي اعلنها ابن قتيبة لاول مرة قابلتها طبقة العلماء بمعارضة عنيفة فالكثيرون منهم تشبثوا باصرار بالمبادىء اللغوية القديمة في النقـــد ، وحتى انهم رفضوا الاعتراف بما أنتجه المتنبي وابو العلاء المعري شعرا بحجة انهما لم يراعيا الاساليب الكلاسيكية[٢] ويمكن ملاحظة مثل هذه الحذلقـة

---

(١) راجع نولدكه : (Beitrage) ص٤

(٢) ابن خلدون ، المقدمة (بيروت ١٩٠٠) ص٥٧٣ السطر الحادي والعشرون وما بعده وترجمة دى سلان (الفرنسية) للمقدمة ، جـ٣ ص٣٨٠ وهذا نص ما يقوله ابن خلدون : « وبهذا الاعتبار كان الـكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لانهما لم يجريا على اساليب العرب من الامم عندما يرى ان الشعر يوجد للعرب وغيرهم ومن يرى انه لا يوجد لغيرهم فلا يحتاج الى ذلك ويقول مـكانه الجاري على الاســـاليب المخصوصـة به » كاترمـير ٣/٣٣٥ ـ ٣٣٦ .

في الوقت الحاضر في آلاف القصائد المفعمة بالعبارات البالية القديمة والأيماء الى اشياء منسية نائية ليس لها سوى متعة اثرية ولا مجال لها للاعتبار هنا اكثر من الاشعار اليونانية واللاتينية للعلماء البريطانيين في تاريخ ادبي للعصر الفكتوري •

خصائص الشعر المحدث :

واذ ننتقل الآن الى خصائص الشعر المحدث الذى ظهر على اثر قيام الدولة العباسية ، علينا ان نتذكر انه لم يزدهر منذ بدايته حتى نهايته (باستثناء حالات جد قليلة) الا في رعاية الخلفاء فلم تك ثمة تجارة كتب منظمة ولا ناشرون اغنياء ، فكان الشعراء عادة يعتمدون في معيشتهم على الكرم الجنوني للخلفاء ومدلليهم الذين غمروا بالمديح ، فالمبالغ الطائلة كانت تدفع لقصيدة مديح ناجحة فتنافس الشعراء في الزلفى والملق باسراف ؛ وافضى هذا العهر الفني حتى في ادباء من ذوي العبقرية الحقيقية الى قدر غير يسير من الالق الكاذب والفخفخة الفارغة التي كثيرا ما تعزى خطأ الى الشعر الشرقي عامة [١] ، على ان هذه الصفات غريبة كل الغرابة بالنسبة للشعر العربي في افضل عهوده ؛ فالبدو القدامى الذين امتدحوا الرجل لمجرد مافيه واستقوا اخيلتهم من الطبيعة مباشرة يقفون على النقيض من معاصري الثعالبي ، ولم يحصل ، كما رأينا ، غير تغيير ضئيل تحت حكم الامويين ؛ ولم يسمع لحن جديد لاتخطئه الاذن الا بعد قيام العباسيين ، عندما اشغل الفرس المناصب الرئيسة في دار الخلافة وعندما جرى الدم الفارسى في عروق عدد غير يسير من الشعراء والعلماء المبرزين • وقد يجنح الانسان الى ان يفترض ان الاسلوب المبرقش الفخم الانيق الذى كان المتنبي من اشهر اشياعه والذى اصبح مظهرا جد بارز للشعر الاسلامي المتأخر كان اول من ادخله الفرس والهجناء من ذوي الدماء العربية الفارسية المختلطة الذين التفوا حول الخليفة في بغداد واحتفلوا بانتصار ابناء جنسهم في شخص برمكي نبيل ، غير ان هذا

---

(١) راجع البروفيسور براون : تاريخ فارس الادبي : (النسخة الانكليزية) جـ٢ ص١٤ وما بعدها •

غير صحيح ، فالاسلوب موضوع البحث ليس فارسيا بشكل خاص ، فالشعراء الاوائل الذين كانوا من اصل فارسي ونظموا بالعربية من نحو بشار بن برد وابي نواس (على قدر ما يمكننا ان نرى) ليس فيهم اثر من ذلك ، فما ادخله الفرس في الشعر العربي ليس الاسلوب الفخم بل الخيال الحي الرشيق ، واناقة اللفظ وعمق الشعور وطراوته وذخيرة فنية من الافكار .

وقد ساعدت عوامل اخرى في عملية الانتقال هذه الى جنب تغلغل الثقافتين الفارسية واليونانية : فمن ذلك مثلا ازدياد اهمية الاسلام في الحياة العامة وتسرب روح دينية قوية في المجتمع على نطاق واسع ـ تلك الروح التي وصلت اعلى ما يمكنها من كمال التعبير في شعر ابي العتاهية التاملي والتعليمي ؛ فكل تغير في الحياة المتعددة الالوان مصور في الصفحات المتألقة لهؤلاء الشعراء المحدثين حيث بوسع القارىء ان يجد ، حسب مزاجه ، اكثر الوان المرح جنوناً واشد انواع الطيش تخجيلا ، واختلطت الوان من التأمل السامي بتشاؤم من ارهقته الحياة وضجر منها وبالعاطفة الرقيقة ، والمشاعر الطبيعية غير المقحمه والبلاغة الملتهبة ولكن قلما كانت فيها الثقة الرجولية بالنفس ولا وحشية الحرية المنعشة والطراوة التي لا تجاري للغناء البدوي .

خمسة شعراء عباسيين أصيلين :

من المستحيل بالطبع ان ننصف حتى الشعراء العباسيين البارزين في نطاق هذا الفصل ولكن الخمسة التالين يمكن ان يعتبروا ممثلين تمثيلا معقولا لهذه الفترة وهم : مطيع بن اياس ، وابو نواس ، وابو العتاهية ، والمتنبي ، وابو العلاء المعري وكان الثلاثة الاوائل على اتصال وثيق بدار الخلافة في بغداد بينما عاش المتنبي وابو العلاء على عهد الحمدانيين الذين حكموا حلب .

مطيع بن اياس :

ليس مطيع بن اياس جديرا باهتمامنا الا كأول شاعر للمدرسة الجديدة[١] ، كان ابوه من اهل فلسطين أما هو فقد ولد في الكوفة ودرس

(١) قال صاحب الاغاني (١٣/٣٢٢) : قال مطيع بن اياس جلست انا ويحي بن زياد الى فتى من اهل الكوفة كان ينسب الى الصبوة (اي جهلة =

فيها ، وترعرع تحت حكم الامويين فكان منقطعا الى الخليفة الوليد بن يزيد الذي وجده على مشربه تماما ، « ظريفا ، خليعا ، حلو العشرة ، مليح النادرة ماجنا ومتهماً في دينه »[(١)] .

وعندما جاء العباسيون الى الحكم التحق مطيع بالخليفة المنصور وقد رويت حكايات متعددة عن الحياة المتعهرة التي كان يحياها في صحبة الزنادقة (المفكرين الاحرار) وهم فريق من الناس سنبين خلاصة افكارهم في فصل تال . وتمتاز اغانيه في الحب والخمرة بخفتها ولطافتها واشهرها تلك التي يبكي فيها فراقه ابنة احد الدهاقين (والدهقان عمدة فارسي من اصحاب الاطيان) ويناجي نخلتي حلوان ، وهي مدينة تقع على تخوم منطقة الجبال بين همذان وبغداد ومن هذه المقطوعة جاء المثل : « اكثر صداقة من نخلتي حلوان »[(٢)] .

= الفتوة واللهو والغزل) ويكتم ذاك ففاوضناه واخذنا في اشعار العرب ووصفها البيد وما اشبه ذلك ، فقال :

لاحسن من بيد يحاربها الفتى ومن جبلى طي ووصفكما سلعا
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى

(١) الاغاني ١٢/٨٠ س٣

(٢) فريتاغ ، الامثال العربية (Arabum Proverbia) جـ١ ص٤٦ وما بعدها حيث يجد القارىء النص العربي للابيات المترجمة وقد ترجم روكيرت (Rückert) نفس هذه الابيات الى الالمانية في كتاب (الحماسة) جـ١ ص٣١١ والنص الكامل للقصيدة في الاغاني جـ١٢ ص١٠٧ وما بعدها.

هذا ويراجع مطيع بن اياس عند جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ٢/٩٧ـ٩٨ = طبقات الشعراء لابن المعتز ص٩٤ والحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) جـ٤ ص٤٤٧ وتاريخ بغداد ١٣/٢٢٦ ولسان الميزان ٦/٥٣ وأمالي المرتضى ١/١٤٢ وابن خلكان في ترجمة يزيد بن مزيد وحديث الاربعاء جـ٢ واخباره كذلك في الاغاني ١٢/٧٨ و١٣/٨٥ و٢١/٨٦

[من الخفيف] :

أسعداني يا نخلتي حلوان (١) وابكيا لى من ريب هذا الزمان
واعلما ان ريبه لم يزل يف رق بين الألآف والجيران
ولعمري لو ذقتما الم الفر قة أبكاكما الذي أبكاني (٢)
أسعداني وأيقنا ان نحسا سوف يلقاكما فتفترقان
كم رمتني صروف هذه الليالى بفراق الاحباب والخلان
غير اني لم تلق نفسى كما لا قيت من فرقة ابنة الدهقان (٣)

---

(١) حلوان العراق في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد ٠

(٢) ورد في كتاب الاغاني « قد ابكاكما الذي ابكاني » وهو خارج على وزن الخفيف ويجب حذف « قد » في هذه الحالة أي على الصورة التي وردت في الهامش [المترجم]

(٣) الاغاني ١٢/١٠٧ــ١٠٨ طبعة دار الكتب ١٣/٣٣١

كان خليقا بنكلسن ان يتفصَّل فى دراسة مطيع بن اياس كرائد للثورة الرومانتيكية في الادب العربي ، ولكنه لم يفعل ذلك لان مطيعا لم يكن من فحول الشعراء على ما يقول صاحب الاغاني ؛ مع ذلك فقد رأينا من الضرورة بمكان ان نضيف شيئا هنا في الهامش الى ما ذكره نكلسن معتمدين على كتاب الاغاني في الدرجة الاولى ومن المهم ان نفهم ان اول من ثار على البكاء على الاطلال والد من لم يكن فارسيا وانما كان عربيا صليبة وهو شاعرنا مطيع بن اياس الكناني فقد « ذكر الزبير بن بكار انه من بني الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانه وذكر اسحاق الموصلي عن سعيد بن سلم انه من بني ليث بن بكر والديل وليث اخوان لاب وام ، امهما ام خارجة واسمها عمرة بنت سعد بن عبدالله بن قراد بن ثعلبة بن معاوية بن زيد ابن الغوث بن انمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان » (الاغاني : ١٣/٢٧٤ طبعة دار الكتب) وقد تعمدنا ذكر هذا النسب الطويل لمطيع بن اياس لنثبت ان الحركة ضد الشعر الجاهلي لم تكن شعوبية فارسية كما يتصورها البعض خطأ وانما كانت حركة ادب حضاري ضد ادب بدوي ، ويكفيه فخرا انه من سلالة ام خارجة التي « ولدت عدة بطون من العرب حتى لو قال قائل : انه لا يكاد يتخلص من ولادتها كبير احد منهم لكان مقاربا » ٠ وهو شاعر وابن شاعر فقد كان والده اياس بن مسلم ممن مدحوا نصر بن سيار ؛ وانه =

ابو نواس (المتوفى حوالى ١٩٨هـ/٨١٠م) :

لا يذكر ابو نواس عند الاوربيين الذين لم يعرفوه الا من خلال الف ليلة وليلة نديما ومضحكا في دار الخلافة للخليفة الطيب هارون الرشيد وبطلا لمغامرات مضحكة لا عد لها ونكات مصطنعة ـ كصورة شرقية لـ « هاول كلاس » أو « جوملر » وكثيرا ما ينسون انه كان شاعرا عظيما يقف في نظر افضل النقاد واصحاب الرأي فوق مستوى جميع من جاء قبله او بعده بما فيهم المتنبي ولا يتفوق عليه في النبوغ الشعري اي شاعر قديم(١) .

احرز الحسن بن هاني كنيته من ذؤابتين كانتا تصلان الى كتفيه وقد ولد لابوين فقيرين حوالي منتصف القرن الثالث للهجرة/الثامن للميلاد في الاهواز قصبة خوزستان واسم والدته « جلبان » يدلنا بوضوح على انه لم يكن عربياً صلبية(٢) وفي البيت الآتي برهان كاف على انه لم يكن ليأنف

= لما يلفت النظر انه كان مصاحبا لابن المقفع ووالبه بن الحباب ويحي بن زياد الحارثي « يتنادمون ولا يفترقون ولا يستأثر احدهم على صاحبه بمال ولا ملك وكانوا جميعا يرمون بالزندقة » (الاغاني ٢٧٩/١٣) وقد انكر مطيع ان يكون زنديقا وذلك لعدم اخلاله بصلاة او صوم (نفس المصدر: ٢٩٣/١٣) وشهد المهدي عند ابيه المنصور انه ليس بزنديق وقال : « انا به عارف ، اما الزندقة فليس من اهلها » (نفس المصدر : ٣١٧/١٣) .

(١) هذا رأي نكلسن الذى لا يخلو من مبالغة ولسنا بموافقيه عليه ولا ندري من هم افضل النقاد واصحاب الراي الذين يشايعونه عليه ويجعلون ابا نواس اعظم من المتنبي ! « المترجم »

(٢) راجع في ابى نواس جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ٦٨/٢ ـ ٧٢ = طبقات الشعراء لابن المعتز ص١٩٣ والموشح للمرزباني ص٢٦٣ وأخبار أبي نواس لابن منظور وأبى هفّان ومعاهد التنصيص ٣٠/١ وتاريخ بغداد ٤٣٦/٩ وشذرات الذهب ٣٤٥/١ والاغاني ٢/١٨ و١١٠/٦ و١٧٠ و١٨٦ وجـ ١٦ ص١٤٨ وابن خلكان ١٣٥/١ وطبقات الادباء ٩٦ والشعر والشعراء ٥٠١ والفهرست ١٦٠ والعقد الفريد ٣٣٧/٣ .

من دمه الفارسي :

ومن تميم ومن قيس ولفهما ؟ ليس الأعاريب عند الله من أحد[١]

درس في البصرة التي انتسب اليها[٢] وفي الكوفة حيث درس الشعر واللغة على احد علمائها هو خلف الاحمر وبعد ان امضى سنة تجوال بين البدو على عادة علماء زمانه توجه صوب بغداد وسرعان ما كسف شمس منافسيه في بلاط هارون الرشيد ٠

كان ابو نواس خليعا جد الخلاعه ولم يحاول اخفاء ذلك فاثار بتهتكه الفاضح وعكوفه على الشراب والحاده غضب الخليفة بحيث انه هدده بالموت وفي الواقع حبسه عدة مرات ولكن نوبات القسوة هذه كانت قصيرة فعاش الشاعر بعد هارون وابنه الامين الذى خلفه وجاءت الشيخوخة بالتوبة ــ « فاذا مرض الشيطان ، اصبح راهبا » وقد وجه من سجنه ابياته الآتية الى الفضل بن الربيع الذي قلده الرشيد الوزارة بعد نكبة البرامكة [من الخفيف] :

انت يا ابن الربيع الزمتني النسك وعودتنيه والخير عاده

فارعوى باطلي واقصر حبلي وتبدلت عفة وزهاده

لو تراني ذكرت للحسن البصري[٣] في حسن سمته او قتاده

المسابيح في ذراعي والمصحف في لبتي مكان القلاده[٤]

---

(١) الديوان : طبعة أهلوردت « شاعر الخمرة » رقم ٢٦ البيت الرابع ٠

(٢) ابن قتيبة : كتاب الشعر والشعراء ، ص٥٠٢ س١٣

(٣) راجع عن الحسن البصري الزاهد المعروف الصفحات ٢٢٥ــ٢٢٧ من « تاريخ العرب الادبي » لنكلسن (النص الانكليزي) ٠
وكان قتادة من جلة الفقهاء وهو الآخر بصري معاصر للحسن توفي سنة ١١٧هـ/٧٣٥م ٠

(٤) اورد هذه الابيات ابن قتيبة في « الشعر والشعراء » ص٥٠٧ وما بعدها والمقصود بالمصحف بطبيعة الحال القرآن ، راجع كذلك ديوان ابى نواس الحسن بن هاني (تحقيق احمد عبدالمجيد الغزالي) ص٤٥٩

ويضم الديوان قصائد في اغراض شتى كالمديح والهجاء والطرديات[1] والمراثي والزهديات ، غير ان الحب والخمرة كانا الدافعين القويين اللذين يوحيان الى عبقريته بأبرع شكل وألمعه وقد اعتُرِفَ بخمرياته على وجه العموم بانها منقطعة النظير واليك مقطوعه من قصار خمرياته [من الخفيف] :

عاذلي في المدام لا أرضيكا ان جهلاً ملام من يعصيكا
لا تسم المدام ان لمت فيها فتشين اسمها المليح بفيكا
واسقياني يا ساقيينا عقارا بنت عشر تخال فيها السبيكا[2]
فاذا الماء شجها[3] خلت فيها لؤلؤاً فوق لؤلؤ مسلوكا[4]

ويستهل خمرية أخرى بقوله [من الطويل] :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً اذا أمكن الجهر[5]
فما الغَبن الا أن تراني صاحياً وما الغنم الا أن يتعتعني[6] السكر
فبح باسم من تهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذّات من دونها ستر[7]

وعمل ابو نواس بما كان يعظ به فلا يمكن ان يرمى بالنفاق باي حال من الاحوال . وليست المشاعر الاخلاقية والدينية التي تلوح في بعض قصائده مجرد نفاق ، بل الارجح ان تعد تعبيرا عن عاطفة مخلصة وان كانت متحولة ، وكان في العادة يشعر ويؤكد ان اللذة هي شغله الشاغل في

---

(١) اي ادب الصيد .

(٢) السبيك : الذهب الذي اذيب وافرغ .

(٣) شجّ الشراب : مزجه (٤) مسلوكا : ادخل في سلك ، والابيات في طبعة اهلوردت الموسوم بـ « شاعر الخمرة » رقم ٤٧ = طبعة احمد عبدالمجيد الغزالي ، ص٢٣ .

(٥) يبغي الشاعر استمتاع حواسه بالخمرة فيده تلمسها وانفه يشمها وفمه يذوقها وعينه تراها فعلى الساقي ان يذكر اسمها لتستمتع اذنه كذلك . (٦) يتعتعني : يحركني بعنف (٧) هنا تعبير عن لذة الشعور بالحرية ولذة رؤية تشوّق الآخرين اليها . الأبيات في طبعة اهلوردت رقم ٢٩ الابيات ١ ـ ٣ = طبعة الغزالي ، ص٢٨

الحياة وانه لا يسمح للتحرج الديني بالوقوف في سبيلـه ، بل هو يحث الآخرين على ان لا يحجموا عن اي اسراف لان الرحمة الالهية اعظم من جميع الخطايا التي يستطيع الانسان اقترافها :

تـكثر ما استطعت من الخطايا   فانـــك قاصـــد رباً غفـورا
سيفضي ذاك منك الى نعـــيم   وتلقى ماجدا صمدا شـــكورا
تعض ندامـــة كفيـــك ممـــا   تركت مخافة النار السرورا[١]

يجب علينا الآن ان نودع ابا نواس والشعراء المجان الذين يعكسون بشكل رائع الافكار والتصرفات السائدة في مجالس الخلفـــاء وفي طبقات المجتمع العليا التي كانت متأثرة بصورة رئيسة بدار الخـلافة والحق ان مشاهـــد التحلل المترف والتعهر المتـأنق التي يصفونها ترينا ان الثقافـة الفارسية لم تكن نعمة خالصة للعرب اكثر مما كانت عليه الفنون اليونانيـة بالنسبة للرومان غير ان هذا هو الجانب المظلم للصورة فقصائد شاعر معاصر تزودنا بالبرهان على التذمر الذي اثاره التحلل المتعارف عليه في الاوساط الراقية بين جمهور المسلمين الذين لم يفقدوا ايمانهم بالاخلاق والدين[٢].

---

(١) ابن خلكان ، طبعة وستنفيلد ، رقم ١٦٩ ص١٠٠ ، ترجمـــة دى سلان : حـ١ ص٣٩٣ = ط٠ الغزالي : ص٧٣٠

(٢) من المراجع الحديثة في دراسة ابي نواس : عبدالحليم عباس : ابو نواس (سلسلة اقرأ) ــ مطبعة المعارف بمصر ، وعبدالرحمن صدقي : الحان الحان ــ دار المعارف بمصر (١٩٤٧) ، مجلة الهلال ، السنة ٤٤ ، جـ١٠ « عدد خاص بابي نواس » ، الدكتور عمر فروخ : الطبعة الثالثة ــ بيروت ١٩٤٦ ، وعباس محمود العقاد : « ابو نواس الحسن بن هاني » ، ومحمد النويهي : « نفسية ابي نواس » ، وطه حسين : « حديث الاربعاء » ، جـ٢ ص ٦٢ــ١٧١ ، ومارون عبود : « الرؤوس » ــ بيروت ، ١٩٤٦ ، ص ١٠٨ــ١٢٦ ، وانيس الخوري المقدسي : « امراء الشعر العربي » (بيروت ، ١٩٣٦) ص ٧٥ ــ ١١٠ = حنا الفاخوری ، « تاريخ الادب العربي » ، (الطبعة الثانية، ١٩٥٣)ص ٣٩١ــ٤٢٠ ويطرس البستاني : « ادباء العـرب في الاعصر العباسية » (الطبعة الثانية ، بيروت ، مكتبة صادر ، ١٩٤٠) ص٥٧ــ ٩٢ ، والدكتور محمد مهدى البصير : « فى الادب العباسى » (الطبعة الثانية، مطبعة السعدي ، بغداد ، ١٩٥٥) ص ١٥٨ــ١٩٤ ، « ابو نواس » للسيد =

ابو العتاهية (١٣٠هـ/٧٤٨م-٢١١هـ/٨٢٨م) :

كان ابو العتاهية على نقيض منافسه العظيم ابى نواس من اصل عربي فقد نشأ في الكوفة واكتسب قوت يومه شابا من بيع الخزف ؛ على انه كان على جانب من النبوغ الشعري بحيث شدّ الرحال ليمثل بين يدي الخليفة المهدي الذي اجازه جائزة سنية واغدق عليه هارون الرشيد بعده مرتبا سنويا قدره ٥٠,٠٠٠ درهم (حوالي الفي دينار) فضلا عن العديد من الهدايا التي كانت فوق العادة . وفي بغداد اغرم « بعتبه » احدى جواري المهدي غير انها لم تبادله الحب ولم تعرأي اهتمام للقصائد التي مجد فيها مفاتنها وناح على الآلام التي كابدها من اجلها ، وحمله اعراضها عنه ، على ما قيل ، على لبس الصوف على طريقة زهاد المسلمين[1] وكرس منذ ذلك الحين ملكاته بصورة خاصة للتأملات الخلقية الخالية من المتعة مما حرك وترا خاصا في قلوب مواطنيه نابذا وراءه ظهريا نظم اشعار العبث وقصائد

= محسن الامين العاملي (الطبعة الاولى، ١٩٤٧) ومن المصادر القديمة يراجع : « اخبار ابي نواس » لابن منظور ، الطبعة المصرية ، ١٩٢٤ وابن خلكان : ١/١٣٥ وطبقات الادباء : ٩٦ والشعراء : ٥٠١ والفهرست : ١٦٠ والعقد الفريد ٣/٣٣٧ والاغاني ١٨/٢ و ١٦/١٤٨ و ٦/١١٠ و ١٧٠ و١٨٦ وطبقات الشعراء لابن المعتز ١٩٣ والموشح للمرزباني ٢٦٣ ومعاهد التنصيص ١/٣٠ وتاريخ بغداد ٩/٤٣٦ وشذرات الذهب ١/٣٤٥

وفون كريمر : « حضارة الشرق » (بالالمانية) ٢/٣٦٩ وما بعدها ودائرة المعارف الاسلامية .

وجرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، (دار الهلال ، ١٩٥٧) ج ٢ ص ٦٨ - ٧٢

(١) راجع الديوان (طبعة بيروت ١٨٨٦) والانوار الزاهية في ديوان ابي العتاهية طبعة لويس شيخو اليسوعي (١٩١٤) ص ٢٧٩ البيت التاسع حيث يعاتب بعض اصدقائه السابقين لهجره اياه لانه كما يقول « صرت في زى مسكين » ويعزو الآخرون تحوله هذا الى اشمئزازه من لا اخلاقية ورجس شعراء البلاط الذين عاش بين ظهرانيهم .

الحب ؛ واتهم ابو العتاهية بالزندقة[1] على نحو ما اتهم به ابو العلاء المعري والآخرون الذين اهملوا تعاليم الاسلام الايجابيه من اجل فلسفة اخلاقية قائمة على التجربة والتفكير وقد زعموا انه كثيرا ما يتحدث في شعره عن الموت دون البعث والدينونة ـ وهو اتهام تدحضه مقاطع عديدة في ديوانه ؛ وعلى رأي مؤرخ الادب الصولي (المتوفي سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م) كان أبو العتاهية يعتقد باله واحد انشأ الكون من نقيضين خلقهما من لا شيء • وآمن فضلا عن ذلك بان كل شيء سينتهي الى هذين العنصرين نفسهما قبل فناء المظاهر الكونية جميعا ؛ وفي رأيه ان العلم يكتسب طبيعيا (اي من غير وحي الهي) بطريق التفكير والاستنتاج والتتبع[2] وكان يعتقد « بالوعيد » و « تحريم المكاسب »[3] وأذاع آراء فرقة زيدية هي البَطْرِيّة[4] كما كانت تسمى تلك الفرقة من الشيعة التي كانت تتبع زيد بن علي بن الحسين ابن عليّ بن أبي طالب ؛ ولم يتحدث بسوء عن أحد ولم يوافق على شق عصا الطاعة على الحكومة وكان يؤمن بالجبر[5] •

---

(١) لعله يشير الى هذه الانحرافات في البيت (نفس المكان ، ص ١٥٣ البيت العاشر) :

فسد الناس وصاروا ان رأوا صالحا في الدين قالوا مبتدع

(٢) يصرح ابو التاهية بأن المعرفة تستقي منمصادر ثلاثة : القياس والعيار والسماع (راجع ديوانه ، ص ١٥٨ البيت الحادى عشر)

(٣) راجع فلوغل : «ماني :حياته وكتاباته » ،ص ٢٨١ السطرالثالث وما بعده ولكن ابا العتاهية لم يتخذ هذا الرأى المتطرف (راجع الديوان ، ص ٢٧٠ البيت الثالث وما بعده)

(٤) انظر الشهرستاني ، ترجمة هاربروكر ، القسم الاول ، ١٨١ وما بعدها ويبدو من غير المحتمل جدا ان يكون ابو العتاهية شيعيا راجع ابياته (الديوان ، ص ١٠٤ البيت ١٣ وما بعده) حيث يقول متحدثا عن الانبياء واولياء الاسلام الاوائل :

اعدد أبا بكر الصديق اولهم وناد من بعد في الفضل أبا عمر
وعد من بعد عثمان ابا حسن فان فضلهما يروى ويذكر

(٥) الاغاني : جـ ٣ ص ١٢٨ السطر السادس وما بعده

وربما كان ابو العتاهية يميل سرا الى آراء المانويين المنسوبة اليه في هذه القطعة ، غير ان اشعاره لا تضم الا قليلا او ما دون ذلك مما يمكن ان يثير اكثر المسلمين اتباعا للسنة وفي البيت الآتي الذي يجد فيه گولدتزيهر اشارة الى بوذا[1] يمكن تفسيره بشكل آخر اذ يبدو لي فيه رفع للرجل الزاهد فوق من سواه دون اشارة معينة الى أي شخص [من البسيط] :

اذا أردت شريف الناس كلهم فانظر الى ملك في زي مسكين[2]

وفي حين ان الشاعر يتجنب الالحاد الايجابي ، يصح ان يقال ان الكثير من ديوانه ليس دينيا بشكل دقيق بالمعنى الاسلامي ويمكن ان يسمى بكل نزاهة وانصاف « فلسفيا » وكان هذا كافيا للحكم عليه بالكفر والشرك في نظر الفقهاء المخلصين الذين نظروا شزرا الى التعاليم الاخلاقية ، مهما كانت نقية ، ما لم تكن في قالب ديني معترف به .

ولعل السبب الظاهري لحبس هارون الرشيد له ــ وهو رفضه نظم المزيد من النسيب ــ هو التفسير الشائع على السنة الجماهير ، كما يقترح گولدتزيهر لحقيقة استمراره في نظم القصائد الدينية التي كانت تظن بانها ذات ميل خطر نحو الفكر الحر .

---

(١) مداولات مؤتمر المستشرقين التاسع : ج ٢ ص ١١٤

(٢) الديوان ، ص ٢٧٤ البيت العاشر ، قارن البيت الآتى (ص ١٩٩ البيت ما قبل الاخير) :ــ

لما حصلت على القناعة لم أزل ملكاً يرى الاكثار كالاقلال

فالزاهد « عاش عيش الملك » (نفس المكان ، ص ١٨٧ البيت الخامس) والرجال القنوعون هم انبل الناس جميعا (ص ١٤٨ س ٢) وهكذا يقول المتصوف الفارسى العظيم جلال الدين الرومى فى اشارته الى الصوفى الكامل (ديوان شمس تبريز، رقم ٨ البيت الثالث، في طبعة نكلسن) : «رجل الله ملك تحت معطف درويش » ، وكثيرا ما وصف الروحانيون العظام ب « ملوك الطريقة (الصوفية) » على اننى لا انكر ان هذه الاستعارة ربما اوحتها فى الاصل حكاية بوذا .

وينم شعره عن روح الكآبة العميقة والتشاؤم الذي لا أمل فيـــه ؛ فالموت وما يلي الموت ، وضعف الانسان وشقاؤه ، وبطلان المـــلاذ الدنيوية وواجب العزوف عنها ـ هذه هي الموضوعات التي يحوم حولهـــا بتكرار رتيب ، حاثا قراءه على ان يحيوا حياة النسك ، ويتقوا الله ويختزنوا الاعمال الصالحة ليوم الحساب • أما بساطة أسلوبه وسهولته وكونه طبيعيا فمدعاة للاعجاب بحق ؛ ولم يكن الشعر الديني ، كما يعترف هو بالذات ، ليقرأ في دار الخلافة او من قبل العلماء الذين كانوا يبغون تعابير نادرة وغامضة ، بل من قبل الزهاد واصحاب الحديث والفقهاء وعلى الاخص من قبل العامة: « واعجب الاشياء اليهم ما فهموه »(١) ولقد نظم ابو العتاهية «لرجل الشارع»، فهو اذ أعرض عن الموضوعات التقليدية المتحايل عليها بالتصنع السخيف ، تشبث بالمشاعر المشتركة وما يتعلق بالاختبارات العامة ، ولقد اوضح لاول مرة وربما لآخر مرة في تاريخ الادب العربي الكلاسيكي انه يمكن اصطناع لغة بسيطة تمام البساطة واعتيادية دون فقدان صفة الشاعرية •

ومع ان جمهرة اشعار ابي العتاهية ، كما سبق ان قيل ، فلسفية في طبيعتها ، فهناك ما فيه الكثير من المبدأ الاســـلامي على وجه التخصيص ، ولاسيما ما يتعلق بالمعاد والحياة الاخرى ؛ ويمكن ايضاح هذا الجمع بين الاثنين في القصيدة الآتية التي تعد من احسن ما نظم في موضوع الدين ، او بصورة أدق في الزهد [من الوافر] :

لدوا للموت وابنـــوا للخراب   فكلكم يصـــير الى تبـــاب(٢)

لمـــن نبني ونحـــن الى تراب   نصـــير كما خلقنـــا من تراب

الا ياموت لـــم أر منـــك بدا   أتيت وما تحيف وما تحـــابي

كانك قد هجمت على مشـــيبي   كما هجم المشـــيب على شبابي

---

(١) الديوان : ص ٢٥ البيت الثالث وما يليه وكان ابو العتاهية يعتز « بادخاله لغة السوق في شعره » (نفس المكان ، ص ١٢ البيت الثالث وما بعده) •

(٢) في رواية اخرى : الى ذهاب •

أيا دنيــــاي مــالي لا أراني — أســومك منزلا الا نبـــابي ؟
ألا وأراك تبـــذل يا زماني — لي الدنيــا وتســرع باستلابي
وانك يا زمـــان لذو صروف — وانك يا زمان لذو انقـــلاب
فمــالي لست أحلب منك شطرا — فأحمد منك عاقبـــة الحلاب ؟
ومالي لا ألــح عليــك الا — بعثت الهــم لي من كل باب ؟
أراك وان طلبت بكل وجـــه — كحلم النوم او ظل الســحاب
أو الأمس الـــذي ولى ذهابا — وليس يعود ، أو لمـع السراب
وهــذا الخلق منك على وفاة — وأرجلهم جميعـــا في الركاب
وموعد كل ذي عمل وســـعي — بما أسدى غــدا دار الثــواب
تقلدت [1] العظـام من الخطايا — كاني قــد أمنت من العقـــاب
ومهما دمت في الدنيا حريصــا — فاني لا أوفـــق للصـــواب
سأسأل عن أمور كنت فيهـــا — فما عذري هناك وما جوابي ؟
بأية حجـــة احتـــج يوم ال — حساب اذا دعيت الى الحساب؟
هما امــــران يوضح عنهما لي — كتابي حــين انظـــر في كتابي
فامــــا أن اخلـــد في نعيــم — ومــا ان اخـلد في عــذاب[2]

ونضيف الآن ابياتا قليـلة منتخبـة من الديوان تضـع نظرة الشاعر التشاؤمية الى الحياة في تخطيط اوضح وكذلك بعض الامثلة عن تعاليمـــه الاخلاقية وانتقاداته القاسية التي تعج بها صفحاته والتي اسهمت بقسط غير ضئيل في شهرته :

---

(١) كان الافضل لو جعل ابو العتاهية هذه الابيات بضمير المخاطب فقال : « تقلدت » و « كانك قد امنت » و « ومهما دمت » « **فانك لا توفق** » لكان قوله اعم وابلغ ·

« المترجم »

(٢) الديوان : (بيروت ١٨٨٦) ص ٢٣ س ١٣ وما بعده = الطبعة الرابعة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩١٤ ، ص ٢٣–٢٤

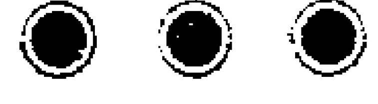
[من الخفيف] :

هي دنيا كحية تنفث السم (م) م وان حية بلمسها لانت(1)



[من الطويل] :

تدير يد الدنيا الردى بين اهلها كأنهمو شرب قعود على كاس ِ(2)

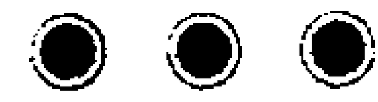


[من الطويل] :

فلا تغبطن الحي في طول عمره بشيء ترى الا بما تغبط الميتا(3)

وقال في اهل زمانه ومما ذمتهم [من الخفيف] :

يا خليلي لا أذم زماني غير أني اذم اهل زماني
لست أحصي كم من اخ كان لي(م) فيهم قليل الوفاء حلو اللسان
لم اجده مؤاتيا فتصدقت(م) بحظي منه على الشيطان
ليت حظي منه ومن مثله أن لاتراه عيني وان لايراني
احمد الله كيف قد فسد النا (م) س وقل الوفاء في الاخوان(4)



[من مجزوء الرمل] :

لو رأى الناس نبيّاً سائلا ما وصلوه
. . . .
أنت ما استغنيت عن صا حبك الدهر اخوه
فاذا احتجت اليه ساعة مجك فوه(5)

---

(1) الديوان : ص ٥١ س ٢
(2) الديوان : ص ١٣٢ س ٣
(3) الديوان : ص ٤٦ س ١٦
(4) الديوان : ص ٢٦٠ س ١١ وما يليه
(5) الديوان : ص ٢٥٠ س ٨ و ١٥ و ١٦ [ذكر نكلسن س ١٤ وما بعده وهو غير دقيق]

« المترجم »

وقال في عاقبة الفساد [من المديد] :

انما الذنب على من جناه لم يضر قبل جهولاً سواه
فسد الناس جميعا فاسى خيرهم من كف عنا أذاه[1]

وقال [من الطويل] :

وصيرني يأسي من الناس راجيا لسُرعة لطف الله من حيث لا أدري[2]

وقال في عمل الاحسان وخلود ذكر الفتى التقي [من البسيط] :

عمر الفتى ذكره لا طول مدته وموته خزيه لا يومه الداني
فأحي ذكرك بالاحسان تفعله يكن كذلك في الدنيا حياتان[3]

وقال في الثقة بالله تعالى [من البسيط] :

الباطل المحض معروف برؤيته والحق يعرف بالأمثال والعبر[4]

وقال يذكر خذلان النفس يوم دينونتها [من الطويل] :

أصون حقوق الود طراً على الملا فان خنت انساناً فنفسي الذي خنت[5]

وقال يبكّت المرء ويزجره عن غفلته وهو من احسن ما جاء في الزهد [من البسيط] :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها[6] ان السفينة لا تجري على اليَبَسِ[7]

وقال [من الطويل] :

تجرد من الدنيا فانك انما سقطت الى الدنيا وانت مجرد[8]

وقال يحث الانسان على عدم الركون الى الزائل والفاني [من الكامل] :

والمرء يمنع ما لديه ويبتغي ما عند صاحبه ويغضب ان منع

---

(١) الديوان : ص ٢٨٧ س ١٠ وما يليه
(٢) الديوان : ص ١١٩ س ١١
(٣) الديوان : ص ٢٥٩ البيتان الاخيران ·
(٤) الديوان : ص ١١٥ س ٤
(٥) الديوان : ص ٥١ س ١٠
(٦) في رواية أخرى : طرائقها
(٧) ص ١٣٣ س ٥
(٨) ص ٧٤ س ٤

ما ضر من جعل التراب فراشه الا ينام على الحرير اذا قنع(١)

وقال [من الكامل] :

واذا تناسبت الرجال فما أرى نسبا يقاس بصالح الاعمال(٢)

وله في الزهد والتمسكن [من البسيط] :ـ

ان كان علم امرىء في طـول تجربة فان دون الـــذي جربت يكفيني(٣)

وقال في من فتن بحب الدنيا فلها عن آخرته [من الخفيف] :ـ

واليقـين الشـــفاء من كل هم ما يثير الهمـوم الا الظنون(٤)



هي المقادير فلمني او فـــذر ان كنت اخطأت فما اخطا القدر(٥)

وقد حظى ابو العتاهية بالقليل من الترحاب من لدن معاصريه الذين اعتبروه على ما يبدو منافقا بخيلا ، وقد توفى شيخا في خلافة المأمون(٦)

(١) الديوان : ص ١٤٩ س ١٢ وما بعده

(٢) الديوان : ص ١٩٥ س ٩ قارن صفحة ٢٤٣ س ٤ ومايليه :

الا انما التقوى هى العـز والكرم وحبك للدنيا هو الذل والعـدم

وليس على عبـــد تقى نقيصـــة اذا صحح التقوى وان حاك او حجم

(٣) الديوان : ص ٢٧٤ س ٦ (٤) الديوان : ص ٢٦٢ س ٤

(٥) الديوان : ص ٣٨٥ س ١١ (وذكر نكلسن ص ٣٤٦ خطأ) قارن ص ١٠٢ س ١١ ، ص ٢٦٢ س ١ وما يليه ، ص ٢٦٧ س ٧

تجد الابيات الآتية :

متى ما يُرد ذو العرش أمراً بعبده يصبـــه وما للعبـــد ما يتخيّر

والمقـــادير لا تنـــاولهـــا الأو هـام ولا تراهـــا العيـــون

سبق القضـــاء بكل ما هو كائن والله يا هـــذا لرزقك ضـــامن

وهذا البيت الاخير مقتبس من القصيدة التعليميـــة المشهـــورة لابى العتاهية وهى من المزدوج وقيل انها كانت تضم ٤٠٠٠ موعظة خلقية وقد ترجم فون كريمر العديد منها فى كتابه : التاريخ الثقافى للشرق (بالالمانية) ج ٢ ص ٣٧٤ وما بعدها .

(٦) يقول فى بعض قصائده (الديوان ، ص ١٦٠ س ١١) انه قد عاش تسعين عاما [من مجزوء الخفيف] :

عشت تسـعين حجة فى ديار التزعزع

فاذا لم يكن هـــذا مجرد مبالغـــة فهو بحاجة الى تصحيح واللفظان « سبعون » و « تسعون » يمكن ان يلتبسا بسهولة فى الكتابة العربية .

ويعتقد فون كريمر انه كان يمتلك عبقرية اصدق في الشعر من ابي نواس وهو رأي لا يمكنني الموافقة عليه ، فكلاهما على كل حال ، كما يوضح هو ، نمط متمايز في زمانه ، فاذا كان أبو نواس يمثل صورة مفزعة لمجتمع متفسخ وطائش عاكف على الملاذ ، فاننا نتبين من ابي العتاهية بعض الشيء عن المشاعر والمعتقدات الدينية التي طغت على الطبقتين الوسطى والدنيا والتي افضت بهما الى ان يتخذا وجهة نظر جدية وأكثر سموا عن الحياة(١) .



وبتدهور الامبراطورية العباسية السريع وانحلالها الذي بدأ حوالى منتصف القرن التاسع للميلاد ظهرت عدة دويلات وتحدى جلال بغداد الذي لم يكن ليضاهى حتى الآن اكثر من بلاط اقليمي واحد ؛ وكان احيانا هؤلاء الامراء المستقلون او شبه المستقلين حماة للعلم متحمسين ــ فالمعروف ، مثلا ، ان ادبا فارسيا قوميا ظهر لاول وهلة تحت اشراف السامانيين في خراسان والبويهيين في العراق ــ ولكن كقاعدة كانت المهمة المليئة باللهفة وهي مهمة صيانة سلطتهم او الطموح لتوسيعها لم تترك الا القليل من أوقات الفراغ لتنمية الآداب حتى وان رغبوا في ذلك ؛ ولم يكن ثم من جمع بين فنون الحرب والسلم ببريق اسطع من سيف الدولة الحمداني الذي جعل

---

(١) من المراجع الحديثة فى ابى العتاهية : سلسلة مقالات لعبدالمتعال الصعيدى فى مجلة الرسالة بعنوان « شاعرنا العالمى ابو العتاهية » السنة الثالثة (١٩٣٥) وأنيس المقدسي أبو العتاهية ، وهو فصل فى كتاب « امراء الشعر العربى فى العصر العباسى » ص ١١١ــ١٤٠ والهلال ١٣٣ (السنة الثالثة عشرة) ومحمد احمد برانق : ابو العتاهية (القاهرة) ١٩٤٧ والاب لويس شيخو : مقدمة ديوان ابى العتاهية (بيروت ١٩١٤) وللاب لويس شيخو أيضا : ابو العتاهية ، فى سلسلة الروائع ، الطبعة الثانية ، ١٩٣١ = حنا الفاخورى : تاريخ الادب العربي ، الطبعة الثانية ١٩٥٣ ، ص ٤٢١ــ ٤٣٥ وأويسترروب دائرة المعارف الاسلامية ، وفون كريمر : حضارة الشرق (بالالمانية) ٢/٣٧٢ وبروكلمان ، ١/٧٨ ومن المراجع القديمة : الاغانى ٣/١٢٦ و ٦/١٨٦ و ٨/٢٤ وابن خلكان ١/٧١ وطبقات الشعراء ٤٩٧ والفهرست ١٦٠ والبيان والتبيين (انظر الفهرست) وتاريخ بغداد ٦/٢٥٠ ومعاهد التنصيص ١/٢٣٧ شذرات الذهب ٢/٢٥ .

نفسه سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٤ م سيد حلب وأسس مملكة مستقلة في شمال سوريا .

ثناء الثعالبى على سيف الدولة :

يقول الثعالبي : « كان بنو حمدان ملوكا وامراء اوجههم للصباحة ، والسنتهم للفصاحة ، وايديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسطة قلادتهم ، وكان رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مأواه غرة الزمان وعماد الاسلام ، ومن به سداد الثغور وسداد الامور؛ وكانت وقائعه في عصاة العرب تكف بأسها وتنزع لباسها ، وتفلُ أنيابها ، وتذل صعابها ، وتكفي الرعية سوء آدابها ، وغزواته تدرك من طاغية الروم الثار ، وتحسم شرهم المثار ، وتحسن في الاسلام الآثار ؛ وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ؛ وقبلة الآمال ، ومحط الرحال ، وموسم الادباء ، وحلبة[1] الشعراء ؛ ويقال انه لم يجتمع قط بباب احد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر ؛ وانما السلطان سوق يجلب اليها ما ينفق لديها ؛ وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر ، شديد الاهتزاز لما يمدح به »[2] .

أبو فراس الحمداني :

وقد كان ابو فراس الحمداني ، ابن عم سيف الدولة ، جنديا شجاعا وشاعرا ذا مكانة ولولا ضيق المجال لافضنا بذكره هنا اكثر[3] ؛ ومع انه

(١) الحلبه : مجال الخيل التى تجتمع للسباق

(٢) الثعالبى : يتيمة الدهر (دمشق ، ١٣٠٤ هـ) جـ ١ ص ٨ ومايليها = دمشق ، ١٩٢٤ ، ص ١١

(٣) راجع فون كريمر : تاريخ الثقافة ، حـ ٢ ص ٣٨١ وما بعدها وأهلوردت : شعر العرب وبلاغتهم « بالالمانية » (ص٣٧ وما يليها) وآر . جفوراك : « ابو فراس شاعر وفارس عربى » . (ليدن ١٨٩٥)

كان متفوقا على الزمرة المعتادة من شعراء البلاط[1] فقد طغى عليه شاعر آخر رغم كل نواقصه ـ وهي ليست باليسيرة ـ وترك انطباعا خارقا في معاصريه وقد قرر بالتأثير المتحكم لشهرته ما ينبغي ان يكون عليه مستوى الذوق الشعري في العالم الاسلامي منذ ذلك العهد فصاعدا •

---

(١) يؤسفنا الا يكون نكلسن قد تناول ابا فراس الحمداني ببحث مفصل فى كتابه ، ومع ذلك فبوسع القارىء ان يراجع المصادر عنه فى كتاب كارل بروكلمان : «تاريخ الاردب العربى» ترجمة المرحوم الدكتور عبدالحليم النجار (دار المعارف بمصر ، ١٩٦١) ج ٢ ص ٩٢-٩٦ ويكفى ان نقول هنا انه الحارث بن سعيد بن حمدان ، ولد سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م وقد اسره البيزنطيون مرتين ودام فى الاسر فى المرة الاولى سنتين وفى المرة الثانية اربع سنوات واكبر الظن انه قضى كل هذه المدة فى القسطنطنيه واطلق على ما نظمه فيها اسم « الروميات » ، وقد حاول بعد وفاة سيف الدولة سنة ٣٥٦هـ/٩٦٧م الاستيلاء على حمص ولكنه قتل سنة ٣٥٧هـ • قتله قرغويه وصى ابن اخيه ابى المعالى وقد قام قبل موته بجمع ديوانه وتبويبه وكان كبير الاعتداد بشاعريته فكان يتصور انه بز جريرا والفرزدق والاخطل (الديوان ١٠٨ س ١) ولكنه يعترف بانه تلميذ ابى تمام فى الخمريات (الديوان ١١١ س ١١) بيد أن الغريب ان سنوات أسره في بلاد الروم لم تؤثر في شعره وكنا نتوقع ان نجد في « رومياته » اشياء أكثر من مجرد سرد مواقع جغرافية بيزانطية (راجع اليتيمة ١/٥٧)• اما فكرة «الالبة» (Alba) ـ التى يذكرها بروكلمان ـ « وهى انذار الحبيب من قبل الحراس من اعالى الابراج بقرب الصباح الذى يفرق بين الحبيبين » الغرض الشعرى الذى شاع فى غزل القرون الوسطى فمعروف عند عمر بن أبى ربيعة (الديوان : ١/٤٠) قبل ابى فراس (الديوان : ٢١ س ١ ـ ٨) وعلى هذا فان ابن قزمان لم يأخذ المعنى من الاوربيين خلافا لما تصوره المستشرق جى• ربيرا (بروكلمان : ٢/٩٤ هـ ١) وكان ابو فراس متشيعا وقد ذكر عداوة العباسيين للعلويين فى قصيدته « الشافية » ومن مطولاته قصيدته البالغة ١٥٠ بيتا فى مناقب آل حمدان وهى تذكرنا بقصيدة ابن المعتز فى مديح ابن عمه •

ولم يعتبره بروكلمان من اعلام التجديد فى الادب العربى ولكنه على كل حال لم يحكم عليه بالقسوة التى حكم بها عليه المستشرق فيلهاوزن •

المتنبى ٣٠٣هـ/٩١٥م ـ ٣٥٤هـ/٩٦٥م :

ولد ابو الطيب احمد بن الحسين المعروف بالمتنبي وترعرع في الكوفة حيث كان ابوه على ما قيل سقاءً ؛ واتباعا لعادة محمودة تقضى بارسال الشباب النابهين الى الخارج لاكمال تعليمهم ، فقد درس في دمشق وزار مدنا اخرى في الشام ، ولكنه أمضى كذلك كيرا من وقته بين البدو الذين يدين لهم بمعرفته الفريدة للعربية وبتملكه لناصيتها على نحو ما يظهر في قصائده ؛ وهنا تقدم كنبي (ولهذا السبب لقب فيما بعد « بالمتنبي » أي مدعي النبوه) وحث جمعا غفيرا من الناس على الايمان به ، ولكن قبل ان يمضى طويل وقت القى لؤلؤ ، حاكم حمص ، القبض عليه وقذف به في السجن ، وبعد اطلاق سراحه طاف في البلاد منشدا اماديح كل من هب ودب الى ان قاده الحظ الى بلاط سيف الدولة في حلب ولتسع سنوات ٣٣٧هـ/٩٤٨م ـ ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م تمتع بمكانة سامية في رعاية ذلك الامير المثقف الذي مجد المتنبي فضائله في سلسلة من الاماديح الرائعة ، والذى عاش معه كصديق جميم ورفيق في السلاح ؛ وتوضح الحكاية الآتية كرم سيف الدولة ووقاحة الشاعر البارعة احسن ايضاح :ـ

لقد قدم المتنبي في بعض المناسبات لاميره نسخة من آخر قصيدة نظمها في مدحه وخرج تاركا سيف الدولة يقرؤها في وقت فراغه ، وشرع الامير يقرأ حتى وصل البيت الآتي :

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعْ احمِلْ عَلِّ أَعِدْ
زِدْ هَشِّ بَشِّ تفضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ (١)

وبدلا من ان يستاء سيف الدولة من غرور الشاعر فانه سُحِرَ بجمعه جمعا بارعا لاربعة عشر فعل أمر في بيت واحد فوافق على كل طلب اذ وقع

(١) المتنبي ، طبعة ديتريصي ، ص ٤٩٣ ويروى الواحدى القصة باكملها في شرحه لهذا البيت [= ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبدالحفيظ شلبي ، القاهرة ١٩٣٦ ، جـ ٣ ص ٨٦] « المترجم »

تحت « أقـل » أقلناك وتحت « انـل » يحمل اليك من الدراهـم ما تحب ، وتحت « أَقطعْ » أقطعناك ضيعة كَذا بباب حلب وتحت « احمـلْ » تحمل اليك الفرس الفلانيه وتحت « عَـلّ » قد فعلنا ، وتحت « سـلّ » قد فعلنا فاسل ، وتحت « أعد » اعدناك الى حالك ، وتحت « زد » يزاد كذا وكذا ، وتحت « تفضل » قد فعلنا ، وتحت « أدن » ادنيناك ، وتحت « سرّ » قـد سررناك[1] ؛ وتحت « صل » قد فعلنا ، وقد حَسَـدَ منافسو المتنبي اياه على ما منح من مال ، فقال احدهم لسيف الدولة : « يامولاى ، هلا قلت له لمـا قال هشّ بشّ : هيء هيء ، تحكي الضحك ، لانك قد وقعت له بمـا اراد فهلا ضحكت ؟ » فضحك سيف الدولة منه وقال « ولَكَ انت ايضـا ما تريد » وامر له بهبة •

وكان المتنبي متعلقا بسيده الكريم باخلاص ، وقد الهمه شعوره هـذا بلحن انقى واسمى مما نجده في الاماديح الفخورة التي خاطب بها فيما بعد كافور الزنجي ، ويبدو انه كان احيانا غير مقرب من الامير ؛ غير انه لم يكن بوسع سيف الدولة ان يمتنع عن تلبية أي رغبة لشاعر قدم له كل الاماديح الفخمة ولم يكن هو الآخر ليحجم باي تواضع زائف عن الفخر بنفسه ، فقد كان شاعرا كل الشعور بقوته وقد تباهى بها ككل شعراء العربية بصورة عامة ؛ ومع ان الشعوذة اللفظية[2] التي هي جد جلية في شعره لا يمكن اظهارها في لغة أخرى فان ترجمة للابيات الآتية يمكن أن تؤخذ كنموذج ملائم وخاص بصورة كافية لاسلوبه :ـ

---

(١) وقيل ان المتنبى فسر لسيف الدولة انه عنى ب « سر » « سريه » فامر له الامير اللطيف المزاج بجارية •

(٢) هكذا يرى القارىء بوضوح ان اغلب المستشرقين لا يستطيعون ان يفهموا المتنبى حق الفهم ، فهـم يتخبطون فى كيل النعوت الغريبة له ولشعره ، وما ذلك كله الا لتقصيرهم فى تذوق النكهة الحقيقيـة لالفـاظه وادراك السحر الخفى لمعانيه •

« المترجم »

[من البسيط] :ـ

واحر قلباهُ ممن قلبُهُ شبِمُ[1] ومن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ

مالي أُكتِّمُ حباًقد برى[2] جسدي وتدّعي حب سيف الدولة الأممُ

ان كان يجمعنا حبٌ لغرته[3] فليت أنا بقـــدر الحب نقتسمُ

قد زرته وسيوف الهند مغمدةٌ وقدنظرتُ اليهوالسيوفُ دمُ[4]

فكان احسن خلق الله كلّهمِ وكانأحسن مافي الاحسنالشيمُ[5]

فوتُ العدوّ الذي يممته[6] ظفرٌ فيطيّه أسَفٌ في طيه نِعَمُ[7]

قدنابعنكشديدُ الخوفوأصطنعت لكالمهابةُ ما لاتصنَعُ البُهَمُ[8]

ألزمتَ نفسَكَ شيئا ليس يلزمها أنْ لايُواريَهُمْ ارضٌ ولاعلمُ[9]

أَكُلّما رُمْتَ جيشا فانثنى هربا تصرفتْ بكَ في آثاره الهممُ[10]

عليكَ هزْمُهُم فيكلمعتركِ[11] وما عليك بهم عارٌ اذا انهزموا

---

(١) الشَبِم : البارد (٢) برى جسدي : انحله وأضناه (٣) الغُرّة : الطلعة والوجه الحسن : الاغر (٤) اي خدمته في حالتي السلم والحرب (٥) الشيم ج شيمة : الخليقة (٦) يممته : قصدته (٧) أي فوت العدو الذي قصدته ففر عنك لاستحكام جزعه ظفر ظاهر واستعلاء بيّن وان كان ذلك الظفر في طيه منك اسف على ما حرمته من ادراكه وفي طي ذلك الاسف نعم بها صرف الله عنك مؤنة الحرب وشدة معاناة اللقاء وحفظ عسكرك منجراح او قتل ففي هذا نعم من الله (٨) البُهَمُ : الابطال الواحدة بُهَمه ·

(٩) يقول : قد الزمت نفسك ما لم يكن يلزمها ، وكلفتها ما لا يحق عليها من ان عدوك لا يواريهم ارض تشتمل عليهم ، ولا يسترهم جبل يحول بينك وبينهم ، وهذا غاية التكلف ·

(١٠) يريد انه متى ما هزم جيشا حملته همته العالية على اقتفاء آثارهم ، وهذا استفهام انكار · يريد كلما فر جيش من جيوش الروم وولى عنك هاربا تصرفت بك همتك في اثره فلم يرضك انهزامهم دون أن ينالهم القتل ويستحكم فيهم السيف ·

(١١) المعترك : ملتقى الحرب ·

أما ترىٰ ظفراً حلوا سوى ظفرٍ تصافحت فيه بيض الهند واللمم[١]
يا أعدل النـاس الا ّ في معـاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها[٢] نظراتٍ منك صادقـةً أنْ تحسـبَ الشَحْمَ فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيــا بناظره اذا استوت عنده الأنوارُ والظُلَمُ
أنا الذي نظـر الأعمى الى أدبي وأسمعت كلمـاتي من به صَمَمُ
أنام ملءَ جفوني عن شـــواردها ويسهرُ الخلقُ جرّاها ويختصم
وجاهلٍ مدَّهُ في جهلهِ ضَحِكي حتى أتته يدٌ فرّاسـةٌ وفَمُ[٣]
اذا نظـــرت نُيوب الليث بارزة فلا تظنن أنَّ الليث يبتســـم
ومهجةٍ مهجتي من همّ صاحبهـا أدركتها بجوادٍ ظهرُهُ حرَمُ[٤]
رجلاه في الركض رجل واليدان يدٌ وفعلُهُ ماتريدُ الكفُّ والقدم[٥]
ومرهفٍ سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت يلتطم[٦]
فالخيل والليلُ والبيـداء تعرفني والضرب والطعن والقرطاس والقلم[٧]

---

(١) تصافحت : تلاقت بالصفاح وهي السيوف واللمم : جمع لمـة ، وهي الشعر اذا الم بالمنكب (٢) الضمير يعود على « نظرات » ٠
(٣) أصل الفَرْس : دق العنق ، ومنه سمي الاسد فرّاسا ٠
(٤) يقول : رب انسان طلب نفسي كما طلبت نفسه ، أدركتها على جواد ظهره حرم ، لامن راكبه ، لانه لا يقدر عليه ، فكأنه في حرم ٠ يقول : ادركت منه ما اراد ان يدرك مني من قتلي ، فقتلته وظفرت به ٠
(٥) وفعله ما تريد الكف بالسوط والرجل بالاستحثاث فهو بجريه يغنيك عنهما ٠
(٦) المرهفَ : السيف الرقيق الشـــفرتين والجحفـلان الجيشـان العظيمان ٠
(٧) البيداء : الفلاة البعيدة عن الماء٠ القرطاس : الكتاب فيه الكتابة٠

راجع الأبيات المدرجة أعلاه في الديوان : طبعة ديتريصي ، ص ص ٤٨١ـ٤٨٤ = العكبرى : جـ ٣ ص‌ص ٣٦٢ـ٣٦٩ ٠

واخيرا قامت وحشة بين المتنبي وسيف الدولة هرب بسببها الى مصر والتحق بكافور الاخشيدي ؛ ولما اصيب بخيبة أمل في حاميه الجديد وهو زنجي كان من قبل عبدا اخذ الشاعر سمته الى بغداد ثم زار بعد ذلك بلاط عضد الدولة البويهي في شيراز وفيما كان مسافرا عبر أرض بابل هاجمه قطاع الطرق وقتلوه سنة ٣٥٤ هـ/٩٦٥ م ؛ وتبدو شهرة المتنبي في الشروح العديدة[١] والرسائل النقـــدية الكثيرة لديوانه ؛ ويعتبره مواطنوه عموما واحدا من أعظم شعراء العرب ، وليسوا قليلين أولئك الذين يعتقدون بانه أعظم شاعر اطلاقا .

وقد اعترف أبو العلاء المعري ، وهو نفسه شاعر واديب شهير ، بانه حاول احيانا ان يغير كلمة هنا وهناك في شعر المتنبي فلم يوفق الى ما هـــو أحسن؛ ويقول ابن خلكان : « وأما شعر فهو في النهاية» على حين أن العلماء الاوربيين، باستثناء فون هامر[٢] ، ابعد ما يكونون عن المشاركة في الاسهام في هذه الحماسة ، كما يمكن أن يرى بالرجوع الى ما قاله في الموضوع كل من رايسكه[٣] ودي ساسي[٤] ، وبوهلن[٥] وبروكلمان[٦] وغيرهم ؛ وليس من شك في ان المتنبي ، يقف حسب مقاييسنا الذوقية دون شعراء الجاهليـة المشهورين بمدى بعيد ويجب عليه في عصر متأخر ان يقدم قصب السبق الى أبي نواس وابي العتاهية[٧] .

---

(١) اكثر الشروح تقديرا شرح الواحدي (ت ٤٤٩ هـ/١٠٧٥ م) الذي نشره فريدريك ديتريصي في طبعته للمتنبي (برلين ، ١٨٥٨–١٨٦١م) .

(٢) المتنبي : اعظم الشعراء العرب (فينا ، ١٨٢٤) « بالالمانية » .

(٣) تاريخ الاسلام لابي الفداء (هافنيا ، ١٧٨٩ الخ ...) ج ٢ ص ٧٧٤ قارن ملاحظاته على معلقة طرفه التي نشر طبعة منها سنة ١٧٤٢ .

(٤) « منتخبات عربية » (الطبعة الثانية) ج ٣ ص ٣٧ وما بعدها ، « مجلة العلماء » (بالفرنسية) كانون الثاني ١٨٢٥ ص ٢٤ وما بعدها .

(٥) « شرح المتنبي » (بون ، ١٨٢٤) .

(٦) تاريخ الادب العربي (فايمار ، ١٨٩٨ الخ ...) ج ١ ص ٨٦

(٧) لانشايع نكلسن على رأيه هذا لان جمهور العرب في كل العصور متفق على عكسه .

« المترجم »

وليس بوسع محبي الشعر ، على نحو ما تفهم اللفظة في اوربا ، ان يستمدوا لذة فنية كبيرة من اشعاره ، بل على العكس انهم ليشمئزون من الجمال قدر ما يشمئزون من النواقص التي يعزوها نقاد العرب اليه ، على انه بعد ان نعترف بان من ولد شرقيا هو وحده الذي يستطيع ان يقدر المتنبي حق قدره ، فلنحاول ان نتبين وجهة النظر الشرقية ونضع جانبا قدر الامكان آراءنا المسبقة عما يؤلف الشعر الجيد والذوق الجيد ، ولحسن الحظ ان لدينا المادة الوافية لمثل هذه المحاولة في كتاب الثعالبي القيم الذي سبق ذكره[1] وكاد الثعالبي (٣٥٠هـ/٩٦١م – ٤٢٩هـ/١٠٣٨م) يكون معاصرا للمتنبي ، وقد شرع بكتابة يتيمته في ما يقرب من ثلاثين سنة بعد وفاة الشاعر ، وعلى حين انه يشهد على شهرة الديوان التي لا تنافس بين جميع طبقات المجتمع يلاحظ انه انتقده بحدة كما اعجب به بابتهاج شديد ؛ ويدعي الثعالبي نفسه انه يمسك بالميزان عادلا[2] ، ويقول : « والان حين أذكر ما ينعى على ابي الطيب من معائب شعره ومقابحه [من الطويل] :

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كُلُّها كفى المرءَ فضلاً ان تعد معائبه

ثم اقفي على آثارها بمحاسنه وسياق بدائعه وفرائده :

فحسْنُ دَراريّ الكواكب أنْ تُرى طوالع في داجٍ من الليل غيهب

وقد اعتبر كمال مطالع القصائد شكلاً ومعنى ذا اهمية قصوى بحيث لاتتضمن أي شيء يحتمل ان يثير الازعاج ويقدم الثعالبي عدة امثلة خرق فيها المتنبي هذه القاعدة باستعمال الفاظ تدل على التشاؤم « كالمرض » و « الموت » او مصطلحات في الموسيقى والحساب تحير السامع وتهيّجه ليس

(١) لقد استعملت بحرية كتاب ديتريصي الممتاز الذي وسمه بـ « المتنبي وسيف الدولة في كتاب يتيمة الدهر للثعالبي » (لايبزغ ، ١٨٤٧) الذى يضم في الصفحات ٤٩–٧٤ خلاصة لنقد الثعالبي في الفصل الخامس من الجزء الاول من اليتيمة .

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج ١ ص ١٢٢ (القاهرة ، ١٩٣٤ بنفقة علي محمد عبداللطيف) .

غير ، بدلا من ان تكسب وده وعطفه في مستهل القصيدة ويشكو كذلك من أن ألطف أفكار المتنبي واخيلته كثيرا ما يُعقبها ما هو منحط وتافه فقد (جمع بين الدرة والآجرة)[١] « فبينما هو يصوغ أفخر حلي ، وينظم أحسن عقد ، وينسج أنفس وشي ويختال في حديقة ورد ، اذابه وقد رمى بالبيت والبيتين في ابعاد الاستعارة أو تغويص اللفظ او تعقيد المعنى الى المبالغة في التكلف والزيادة في التعمق والخروج الى الافراط والاحالة والسفسفة ، والركاكة والتبرد والتوحش باستعمال الكلمات الشاذة » •

لسنا بحاجة الى تتبع الثعالبي في نقاط الضعف هذه وغيرها التي يلوم المتنبي فيها بحق ، مادمنا سنتمكن من تكوين فكرة افضل عن الذوق السائد من تلك النقاط التي يفردها لثنائه الخاص •

فهو يلفت الانظار قبل كل شيء الى مهارة الشاعر في معالجته للنسيب الاستهلالى المعتاد ولاسيما اوصافه البارعة في النساء البدويات اللائي اشتهرن في جميع ارجاء الشرق ويستشهد ، كمثال على هذا الضرب ، بالقطعة الأتية [من الكامل] « وهي ما يُتغنّى به لرشاقتها وبلوغها كل مبلغ من حسن اللفظ وجودة المعنى ، واستحكام الصنعة » :

قد كان يمنعني الحياء من البكا ... فالآن يمنعه البكا ان يمنعا
حتى كأنّ لكل عظم رنّةً ... في جلده ولكلِ عرقٍ مدمعا
سفرت وبرقعها الحياءُ بصفرةٍ ... سترت محاسنها ولم تكُ بُرقُعا
فكأنها والدمع يقطر فوقها ... ذهبٌ بسمطي لؤلؤٍ قد رُصّعا
كشفت ثلاث ذوائب من شعرها ... في ليلةٍ فأرت ليالى أربعا
واستقبلت قمر السَّماءِ بوجهها ... فأرتنيَ القمرين في وقت معا[٢]

ثم يسرد الناقد عدة مظاهر جميلة وأصيلة في اسلوب المتنبي ، من نحو :ـ

---

(١) الثعالبي يتيمة الدهر ، ج ١ ص ١٢٦ •

(٢) المتنبي ، طبعة ديتريصي ، ص ١٨٢ الأبيات ٣ـ٩ بعد حذف البيت الخامس [= الثعالبى ، يتيمة الدهر ، ج ١ ص ١٥١ـ١٥٢] •

١ ـ ترتيبه المتتابع للتشبيهات في عبـــارات مقتضبة متناظرة ، كقوله [من الوافر] :

بدت قمـــراً وبانت غصن بانٍ وفاحت عنبراً ورنت غزالا[١]

٢ ـ ومنها الابداع في سائر التشبيهات والتمثيـلات : كما في قوله في سرعة الأوبة الى حاميه وتقليل اللبث [من الوافر] :

وما انا غـير سهم في هــواءٍ يعود ولم يجد فيه امتساكا[٢]

٣ ـ المدح الموجَّه : كالثوب له وجهان ما منهما الاحسن كما في البيت الآتي الذي يخاطب به سيف الدولة [من الطويل] :

نهبت من الاعمار ما لو حويته لهنئت الدنيا بأنك خـالد

فقد مدح سيف الدولة هنا مديحا مزدوجا بذكر انتصاراته على اعدائه والفرحة التي شعر بها أصدقاؤه كافة بدوام حياته وصعود جده ٠

٤ ـ طريقته في مدح حاميه الأمير كما لو كان يحدث صديقا له ورفيقا وهو بذلك يرفع نفسه من مكانة مادح اعتيادي الى نفس مستوى الملوك[٣]٠

٥ ـ ومنها حسن تقسيم الافكار الى جمل متوازية [من البسيط] :ـ

فنحن فيجَذَلٍ والروم فيوجلٍ والبَرُّ فيشُغُلٍ والبحر فيخجل[٤]

من هذا الموجز لنقد الثعالبي سيدرك القارىء بسهولة ان المزايا الرئيسة للشعر آنذاك كانت في التعبير الانيـــق والجمع بين الالفـــاظ بشكل بارع والاستعارة المليئة بالخيال ، والتشبيهات الفطنة واستعمـــال بارع للصــــور البيانية ؛ هكذا هي في الحقيقة الآراء السائدة الى اليوم في جميع ارجاء العالم الاسلامي ؛ وليس من المعقول تسخيفها لمجرد انها لا تتفق مع آرائنا ٠ ومن

---

(١) الرنو : النظر ، نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٥٣ ٠
(٢) اليتيمة : ٢/١٥٤ ٠
(٣) اليتيمة : ٢/١٦٣
(٤) نفسه : ٢/١٦٦ ٠

الحكم عندما تختلف الامم في الرأي ؟ فاذا ادعى الانكليز بحق انهم خير من يحكم على شكسبير والايطاليون على دانتي فان حكم مواطني المتنبي الاجماعي تقريبا هو بالتأكيد لا أقل صحة ـ وهو حكم يضعه على رأس جميع الشعراء المولدين او المكوّنين في الاسلام ؛ ومع ان المميزات الخاصة التي يبينها الثعالبي لا تستهوينا ، فهناك قلة من الشعراء الذين يتركون مثل هذا الانطباع البارز في العظمة .

وبوسع المرء ان يسمي المتنبي « فكتور هوغو الشرق » اذ له الاسلوب الفخم سواء احلّق متساميا او سفّ الى أغوار المبالغة ؛ وفي الحيوية الرجولية لشعره وفي سلاسة بلاغته وامتيازها ، وفي بذخ وعدم اكتراث جرأة خياله نتبين صفات أوحت بابيات رائيه التي طالما استُشْهِدَ بها [من الخفيف] :ـ

كان من نفسه الكبيرة في جيـ ش وفي كبرياء ذى سلطانِ
كان في لفظه نبياً ولكن ظهرت معجزاته في المعاني (١)

ويجب الا يترك مظهر من شعر المتنبي يثني عليه الثعالبي دون التفات وهو ولعه باستخلاص المغازي الخلقية من موضوعات تتعلق بحياة البشر وهذه ناحية يقارنه فيها رايسكه بيوربيديس ؛ وقد سُمح له أن يكون أستاذ تلك الفلسفة المَثَلِيَّة التي يبتهج بها الشرقيون وهي سمة من سمات المدرسة الحديثة التي تبدأ بأبي العتاهية ، رغم ان بعض الاقدمين قد نمّوها مسبقا بنجاح (قارن أبيات زهير ، ص ١١٨ « من النص الانكليزي » « تاريخ العرب الادبي » لنكلسن) والامثلة الاتية هي من تلك التي يستشهد بها بوهلن (سبق ذكره ، ص ٨٦ وما بعدها) :ـ

---

(١) صاحب هذه الابيات التي اقتبسها ابن خلكان في فصله عن المتنبي هو ابو القاسم المظفر بن علي الطبسيّ [وقد ذكرها صاحب اليتيمة ايضا ، ج ١ اسفل ص ١٨٩] .

[من الخفيف] :

واذا الشيخُ قال أُفٍّ فما ملَّـ(م) ـلَ حياةً وانما الضعْفَ ملاّ[1]

[من الطويل] :

ومن صَحِبَ الدنيــا طــويلاً تقلّبَتْ
على عينــه حتّى يرى صِــدقَهـا كِذْبا[2]

[من الكامل] :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله واخو الشقاوة في الجهـالة ينعم[3]

---

(١) [الديوان (شرح العكبري) ج٣ ص١٣٠ س١] المتنبي ، ط ديتريصي ص ٥٨١ البيت ٢٧ ·

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٧٢ البيت : ٥ ·

(٣) المتنبي : ط· ديتريصي ، ٣٤١ البيت الثـامن [العكبري : ج٤ ص ١٢٤ س٣] ومن شاء المزيد عن المتنبي وشـعره فليـراجع ابن خلكان ١/٣٦ واليتيمة ١/٩٠ وطبقات الادباء : ٣٦٦ والانساب للسمعاني : الورقة ١٥٠٦ والصبح المنبي عن حقيقــة المتنبي للبديعي والوساطة بين المتنبي وخصومه لعـلي بن عبدالعزيز الجرجاني وخزانة الادب ١/٣٨٢ وكتاب ابي الطيب المتنبي لبلاشير ومع المتنبي لطه حسين وبحثا لمحمود شاكر نشره في مجلة المقتطف سنة (١٩٣٦) وبحثا آخر لتوفيق البكري في السنة ١٧٠ ــ من المقتطف ايضا ، ص ٣٦١ وغرانجريه ، المجلة الآسيوية (سنة ١٨٢٤) وفيها بعض اشعار المتنبي مترجمة الى الفرنسية وكتاب شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ، الفصل الثاني من القسم الثاني ودائرة المعـارف الاسلاميــة = جرجي زيدان : تأريخ آداب اللغة العربية ، مراجعة الدكتور شوقي ضيف (دار الهلال ، ١٩٥٧) ج٢ ص ٢٨٥ ــ ٢٨٩ · اما ديوانه فقد شرحه ابن جني (ت ٣٩٣ هـ) في ثلاثة مجلدات ذكرت في كشف الظنون ونسخه الخطيــة في ليننغراد والاسكوريال وشرحه ابراهيم الافليلي (ت ٤٤١ هـ) وأبو العلاء المعري (ت ٤٤٩ هـ) والواحدى (ت ٤٦٨) وطبع في بومبـاي سنة ١٢٨١هـ وفي أوربا سنة ١٨٦١ وشرحه التبريزي سنة ٥٠٢هـ وشرحه العكبري سنة ٦١٦هـ وطبع في بولاق سنة ١٨٦٠ وفي مصر سنة ١٢٨٧هـ وشرحه اليازجي ·

تتجلى ميول الشك والتشاؤم لعصر من الانحلال الاجتماعي والفوضى السياسية بشكل لا يخطئه الانسان في ما كتبه الشاعر والفيلسوف والاديب ابو العلاء المعري الذي ولد سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م في معَرَّة النعمان ، وهي من مدن الشام تقع حوالى عشرين ميلا جنوب حلب في طريق القوافل الذاهبة الى دمشق وقد أصيب في طفولته بالجدري فأفضى الى عمى جزئي وفي النهاية الى عمى تام ، غير ان هذه الكارثة ، على الرغم من انها فظيعة كما قد تبدو بالنسبة للطموح الادبي خُفِّفَت° ان لم تُخفف تماما بقواه الخارقة في الحفظ ، وبعد ان ثقف في البيت تحت اشراف والده وهو رجل على جانب من الثقافة وشاعر ذو مزايا ، قصد حلب التي كانت ما تزال مركزا مزدهرا للآداب ، ولو انها لم تعد تباهي بكوكبة متألقة من الشعراء والعلماء الذين اجتُذبوا الى هناك في أيام سيف الدولة الرَخية الهانئة ؛ ولعل أبا العلاء لم يسلك سيرة مدّاح ممتهن تلك التي يبدو انه قد مال اليها اول الامر فهو يصرح في مقدمة كتابه « سقط الزند » انه لم يمدح أحدا رجاءَ مثوبة بل لممارسة مهارته ، وبعد الانتهاء من تجواله عاد سنة ٣٨٣هـ/٩٩٣م الى المعرة ، حيث قضى الخمس عشرة سنة التالية من حياته بلا مورد خارج نطاق مرتب ضئيل قدره ثلاثون دينارا (اقتسمها مع خادم له) ، محاضرا في الشعر العربي ، وعلوم الاقدمين ، وفقه اللغة ، وهي الموضوعات التي كُرست لها دراسات شبابه بصورة رئيسة ؛ وكانت شهرته في هذه الفترة في تزايد مستمر •

---

(١) يجد القاريء ثلثمائة واثنين وثلاثين نصا مقتبسا من اللزوميات [مع الترجمة الانكليزية] في الفصل الثاني من كتاب : « دراسات في الشعر الاسلامي » ص ٤٣ ـ ٢٨٩ لنكلسن • [الهامش من فصل ملحق بالنسخة الانكليزية] وقد اقتبس المؤلف طائفة منها في كتابه : شعر الشرق ونثره (Eastern Poetry and Prose) (كمبرج ، مطبعة الجامعة ١٩٢٢) ص ١٠٢ ـ ١١٥ وتضم القطع من ٧٤ الى ١١١ •

زيارته لبغداد :

وأخيرا ، اذا جاز لنا ان نستعير ما كتبه « بوزويل » عن « الدكتور جونسون » في مناسبة مماثلة : « فكر في أن يجرب حظه في بغداد ، الحقل العظيم للعبقرية والجهد ، حيث كان للمواهب من كل صنف أوسع نطاق واسمى تشجيع » ؛ ويقدم الاستاذ مارغوليوث في مقدمة طبعته لرسائل ابي العلاء عدة تفاصيل ممتعة عن مجتمع بغداد الادبي الذي تجوّل فيه الشاعر : « كان الانشاد العام في المدن الاسلامية الكبيرة ، كما في روما القديمة ، الوسيلة التي يعلن بها الادباء عن مواهبهم لمعاصريهم ؛ وكان المعتاد من بداية الأمر استخدام المساجد لهذا الغرض ، وفي أيام أبي العلاء كانت القصائد تنشد في جامع المنصور ببغداد » على ان ترتيبا أفضل كان يقدمه أهل البيوتات الذين كانوا يباهون بجمع العلماء والادباء في بيوتهم »(١) ومن أصحاب البيوتات هذه الشريف الرضي ، وهو نفسه شاعر مشهور أسس الاكاديمية التي عرفت باسمه وربما محاكاة لما اسسه قبل ذلك ببضع سنوات أبو نصر سابور بن أردشير وزير الامير البويهي بهاءالدولة • هنا قابل أبو العلاء عددا من الكتاب والعلماء البارزين الذين رحّبوا به كواحد منهم ، ولابد ان عاصمة الاسلام وقد عجت بالرحالين والتجار من جميع ارجاء الشرق محتضنة أشياع كل ملة ونحلة ـ المسيحيين والبوذيين والزردشت والصابئة والصوفية والماديين والعقلين ـ بدت لاهالى الاقاليم عالما جديدا او نحو ذلك ؛ ومن المؤكد ان أبا العلاء ، وهو الملاحظ المتشوق للمعرفة الذي لم يضع حدودا لتعطشه للمعرفة ، استغل هذه الفرصة افضل استغلال ؛ فالافكار الدينية والفلسفية التي اتصل بها الآن لأول مرة أخذت تمد جذورها وتنضج بالتدريج ؛ وقد قررت اقامته في بغداد رغم انها لم تزد على سنة ونصف السنة ، (٤٠٠هـ/١٠٠٩ ـ ٤٠١هـ/١٠١٠م) اتجاه تفكيره للمستقبل بأسره •

---

(١) مقدمة مارغوليوث لرسائل أبي العلاء ، ص ٢٢ •

سواء أكان التعجيل بعـــودته الى المعرة كما يقول هو لحاجته الى المال ومرض والدته التي احبها بشغف أو بسبب اهانة لحقته من شخصيـة متنفذة[١] ، فقد حبس نفسه حال عودته في بيته واصبح نباتيا ومارس مظاهر الزهد الاخرى وامضى بقية حياته الطويلة في عزلة نسبيّة • [من الوافر] :

أراني في الثلاثة من سـجوني   فلا تسأل عن الخبر النبيث[٢]

لفقـدي ناظري ولـزوم بيتي   وكون النفس في الجسد الخبيث[٣]

لا يمكننا الا أن نخمن تخمينا الدوافع التي أحـــدثت هذا التغيير المفاجيء في عاداته ومزاجه ؛ وليس من شك في أن وفاة والدته أثرت فيه تأثيرا عميقا وربما أصيب بخيبة أمل لاخفاقه في الحصول عـلى الاستقرار في العاصمة ، وليس من المدهش ان يشعر الرجل الاعمى الوحيـــد ، وهو يرجع بنظره الى الوراء الى شبابه الذابل ، بتعب من العالم واساليبه ، وان يجد في التأمل الكئيب في الاباطيل الدنيوية مادة طرية ابدا لتطبيـق وتطوير هذه الافكار الفلسفية التي من المحتمل ان تجـاربه الحديثة ، كما رأينا ، هي التي أوحت بها اليه ، وعلى حين انه في مجموعة قصائده الاولى الموسومة بـ « سَقط الزّند » والتي نظمت بصورة رئيسة قبـل زيارته لبغداد لايزال يسلك السبيل المعتادة لأسـلافه[٤] ، فان قصـائده التي نظمت بعد ذلك التأريخ والمعروفة بصورة عامة بـ « اللزوميّات»[٥]

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٧ وما يليها •

(٢) النبيث : الخفي المستتر •

(٣) اللزوميات (القاهرة ، ١٨٩١) جـ١ ص٢٠١ [= طبعـة المطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٣هـ/١٩١٥م ، جـ١ ص ١٦٠ «المترجم»] •

(٤) أي اسـلافه في المدرسة الحديثة ، فهو كالمتنبي يستسخف الاساليب التقليدية التي صب فيها الشعر القـديم ؛ قارن گولدتزيهر [بحث في فقه اللغة العربية] جـ١ ص ١٤٦ وما بعدها « بالالمانية » •

(٥) العنوان الصحيح : « لزوم ما لا يلزم » وهو يشير الى صعوبة فنية الزم الشاعر نفسه بها ، دون ضرورة ، فيما يتعلق بالقافية •

تستوقف الانتباه بجرأتها واصالتها فضلا عن اللهجة الصارمة والجدية التي تسودها ؛ على ان هذا في الحق ، ليس وجهة نظر معظم النقاد الشرقيين الذين يكرهون عدم اهتمام الشاعر بالمقدسات ، ويخفقون في تقدير حقيقة أنه سبق عصره بمدى بعيد ، ولكنه في أوربا قدر حق قدره وربما نال ثناء اسمى مما يستحق ؛ ويصفه رايسكه « بانه موسوعي عربي واسع عميق سام وجريء بشكل بارع »[1] وفون هامر الذي يضعه كشاعر بسوية أبي تمام والبحتري والمتنبي يذكره هو الآخر كفيلسوف بتكريم[2] ، واخيرا فون كريمر الذي قام بدراسة عميقة للزوميات ومحّص محتوياتها في مقالة بارعة[3] اكتشف في أبي العلاء واحدا من أعاظم الاخلاقيين في جميع الازمنة وقد توقعت عقريته العميقة الكثير مما ينسب عادة الى ما يسمى بروح الاستنارة الحديثة ؛ ولعل حماسة فون كريمر هنا قد اشتطت به بعيدا ، لان الشاعر ، كما يقول البروفسور مارغوليوث ، كان شاعراً بقيمة مقترحاته ، وغير قادر على تتبعها ، ولم يكن بوسعه ان يتمسك بها باستمرار ومع انه بنى خيرا مما كان يعلم ، فان الجانب الايجابي البناء من فلسفته طغى عليه الجانب السلبي الهدّام بحيث ان اخلاقيته النقية السامية لا تترك الا انطباعا ضئيلا سرعان ما يتلاشى وسط اصوات أعلى من الشك والقنوط تتكرر باستمرار .

كان أبو العلاء موحدا ثابتا في عقيدته ، ولكن اعتقاده بالله ، على ما يبدو ، لم يَعْدُ فكرة ان كل الاشياء محكومة بقضاء لا ينثني عن

(١) تأريخ أبي الفداء ، طبعة ادلر (١٧٨٩ ـ ١٧٩٤) جـ٣ ص ٦٧٧ .

(٢) تأريخ العرب الادبي (بالالمانية) جـ٦ ص٩٠٠ وما بعدها .

(٣) محاضر جلسات الفلسفة التأريخية للاكاديمية القيصرية للمعرفة جـ ١١٧ المجموعة السادسة (فينا ١٨٨٩) وهناك قطع منقحة ترجمها ترجمة شعرية رائعة الى الالمانية فون كريمر وهي في مجلة جمعية المستشرقين الالمان ، جـ ٢٩ ص ٣٠٤ ـ ٣١٢ وجـ ٣٠ ص ص ٤٠ ـ ٢٥٢ جـ ٣١ ص ص ٤٧١ ـ ٤٨٣ ؛ جـ ٣٨ ص ص ٤٩٩ ـ ٥٢٩ .

مرماه ولا يمكن لاحد أن يسبر غور غوامضه ولا مهرب من سلطانه الواحد الأحد ؛ وهو ينكر بعث الموتى ومعادهم ؛ كما في قوله [من الطويل] :

ضحِكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وَحُقَّ لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنـــا الأيام حتى كأننـــا ... زجاج ولكن لا يعـاد له سبك[(١)]

وما دام الموت هدف البشرية الاخير ، فالحكيم يبتهـــل الى الله أن ينقذه بأسرع ما يمكن من شقاء الحياة ويرفض ان يصيب الآخرين بمـا قضي عليه ان يتحمل دون غلط منه .

على الوُلد يجنـــي والـــدٌ ولو انَّهُـمْ
ولاةٌ عـــلى أمصـارهم خُطَبـاءُ[(٢)]

وزادك بعـــداً من بنيـــك وزادهـــم
عليـــك حُقـوداً أنهـــم نُجبـــاءُ

يرون أبـــاً القـــاهُمُ في مُؤَرَّبٍ
من العَقْـدِ ضَلتْ حـلَّه الأُرباءُ[(٣)]

---

(١) مجلة جمعيـة المستشـرقين الألمـان ، جـ ٣٨ ، ص ٥٠٧ ، مارغوليـــوث ، ســـبق ذكره ، ص ١٣١ س ١٥ من النص العـــربي [= اللزوميات ، جـ٢ ص ١٢٦ وقد ورد منها البيت الثاني على الوجـــه الآتي :

يحطمنا ريب الزمـان كأننـا ... زجاجٌ ولكن لا يُعـاد له سبكُ]

وسبك الزجاج اذابته وافراغه في القالب المعد له وقد انكر المتطرفون على المعري هذا وزعموا أنه انكار منـــه للمعاد وارى انه من الكلام الجيد والاصح ان نتأول منه انكار المعاد وللمعري شعر كثير في الحشـر والنشر والمعاد لا مطعن عليه في ذلك البتـة فليتق الله من يظـن ذلك فانه لشـعره نظرة في المسائل الالهية فرط منه في الحيرة ما فرط .

(٢) الوُلد والوِلد والوَلد بسـكون اللام كالولد بالتحـريك جمع أولاد يطلق على الذكر والانثى والعقد المؤرب : المحكم وضلت حلَّهُ أي في حَلّهِ والأرباء : الدهاة من العقلاء . « أبو العلاء » يرى ان وجود =

وهناك عدة مقاطع بنفس المآل ترينا ان أبا العلاء اعتبر انجاب النسل اثماً وان الفناء الشامل خير أمل للانسانية وقد عمل وفق آرائه اذ لم يتزوج اطلاقا ، وقيل انه رغب في أن ينقش البيت الآتي على قبره [من مجزوء الكامل] :-

هذا جناهُ أبي عليَّ (م)   وما جنيتُ على أَحَد°[٤]

واذ يكره أبو العلاء الحياة الحاضرة مُتْعَباً من اعبائها ولا يرى مع ذلك مظهرا اسعد من العودة الى الفناء لم يمكنه ان يخفي عن نفسه ما يحجم عن اظهاره علناً وهو أنه كان في قرارة نفسه ما لا يمكن تسميته بالالحاد في الواقع ـ بل غير مصدق بأي وحي الهي مطلقاً ؛ فالدين ، كما يراه ، نتاج العقل الانساني ؛ ويؤمن به الناس بطريق العادة القاهرة والتربية دون الوقوف للتأمل ، اذا كان حقاً •

« وقد تجد الرجل حاذقاً في الصناعة ، بليغاً في النظر والحُجَّة ، فاذا رجع الى الديانة أُلْفي كأنه غير مقتاد ، وانما يتبع ما يَعتاد •

والتأله موجودٌ في الغرائز ، يحسب من الأَلجاء[٥] الحرائز ، ويَلْقَنُ الطفل الناشيء ما سمعه من الاكابر ، فيلبَثُ معه في الدهر الغابر ؛ والذين يسكنون في الصوامع ، والمتعبدون في الجوامع ، يأخذون ما هم عليه كنقل الخبر عن المُخَبِّر ، لا يميّزون الصدق من الكذب لدى المُعبِر ، فلو ان بعضهم الفى الاسرة من المجوس لخرج مجوسياً

= الولد في هذه الدار جناية تلحق تبعتها الوالد وهذا مذهب له عدوُّهُ عليه من هناته لمخالفته الحكمة من ايجاد هذا الوجود وبقائه ما شاء الله أن يبقى •

(٣) مجلة المستشرقين الالمان ، المجلد ٢٩ ص ٣٠٨ [= اللزوميات : جـ١ ص ٣١ س١ ـ ٣] •

(٤) مارغوليوث ، نفس المصدر ، ص ١٣٣ من النص العربي •

(٥) الالجاء : جمع لجأ بفتحتين ، وهو الحسن والملاذ •

أو من الصابئة لاصبح لهم قريناً سيّاً[1] .

فالدين [على رأي أبي العلاء] اذن « أسطورة اخترعها الاقدمون » ولا قيمة له الا لأولئك الاشخاص الذين لا يتحرجون من شيء ويعيشون على حماقة البشر وخرافاتهم والاسلام ليس أفضل ولا أسوأ من أي دين آخر ، [من الكامل] :ـ

تاه الحنيفة[2] والنصارى ما اهتدت له
ويهود تغوى والمجوس مضللة
قسمَ الورى قسمين هذا عاقل
لا دين فيه ودينٌ لا عقل له[3]

ولا يرفض الشاعر بكل اصرار ادعاء الاسلام المتعالي بانه يحتكر الصدق والحقيقة فحسب بل انه يهاجم معظم مبادئه بالتفصيل ؛ أما فيما يتعلق بالقرآن فلم يستطع أبو العلاء أن يمتنع بالمرة عن الشك في ما اذا كان في الحقيقة كلام الله ، ولكنه فكر في الاسلوب تفكيراً عالياً بحيث تقبل التحدي الذي قذف به محمد (ص) وانتج كتاباً منافساً هو (الفصول والغايات) الذي يبدو انه محاكاة مضحكة طائشة نوعاً ما للكتاب المقدس

---

(١) هذه القطعة في « رسالة الغفران » لأبي العلاء (انظر ادناه) مجلة الجمعية الاسيوية الملكية لسنة ١٩٠٢ ص ٣٥١ قارن الابيات التي ترجمها فون كريمر في مقالته عن أبي العلاء ، ص ٢٣ [القطعة كذلك في طبعة الدكتورة بنت الشاطيء لرسالة الغفران ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٠ ، ص ٤٠٣ « المترجم »] . وفي طبعة ابراهيم اليازجي (القاهرة ، ١٩٠٧) « من فصل الهوامش » .

(٢) راجع في لفظة « حنيف » ص ١٤٩ [من النص الانكليزي] من كتاب تأريخ العرب الادبي لنكلسن ، وهي هنا مرادفة للفظة « مسلم » . وقد ترجم نكلسن هذين البيتين ترجمة ثانية في فصل الهوامش ، ص ٤٧٣ [من النص الانكليزي] وهي أجود من الترجمة في المتن الاصلي .

(٣) مجلة المستشرقين الالمان ، المجلد ٣٨ ص ٥١٣ [= اللزوميات، ج٢ ص ١٧٥ س٩ و ١٠] وقد ورد البيتان على الوجه الآتي :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضلله
اثنان أهل الارض ذو عقل بلا دينٍ وآخر دينٌ لا عقل لَه

ولو ان عدم وصوله الى مستوى القرآن ، في رأي المؤلف ، يعود لمجرد انه لم تصقله بعد السنة اربعة قرون من القراء ؛ وثمة كتاب آخر لابد أنه آذى السُنَّة من المسلمين بايجاع هو « رسالة الغفران »[1] وفيه تصبح جنة المؤمنين صالة ممجدة يسكنها مختلف شعراء الجاهلية الذين غفر لهم ـ ولهذا عنون بهذا العنوان ـ واستقبلوا مع الصالحين ؛ وقد اخرجت هذه الفكرة بشيء كثير من البراعة وبروح الفكاهة الجريئة بحيث انها تذكرنا بـ « لوسيان » ، ويُقدَّم الشعراء في سلسلة من المحادثات الخيالية مع شيخٍ اسمه علي بن منصور[2] الذي وجّه الكتاب اليه ، منشدين ومفسرين أشعارهم ، متخاصمين مع بعضهم البعض ومتصرفين بصورة عامة كبوهيميّي الأدب ويضم القسم الثاني عدداً من النكات تتعلق بالزنادقة أو مفكري الاسلام الاحرار وقد فصل بعضها عن بعض بشواهد من شعرهم وافكار عن طبيعة عقيدتهم التي يلعنها أبو العلاء في حين انه يعبر عن أمل ورع بانها ليست سوداء كما تصوِّرُ نفسها ، وربما لاءمه في هذا الوقت ـ وقد نيَّفَ على الستين ـ أن يتخذ موقف السني المحب للخير وككثيرين من عقلاء الشرق مارس التقية كفن جميل ـ [من الوافر] :ـ

---

(١) هذا الكتاب الذي له في اوربا نسختان فقط ـ احداهما في الاستانة والأخرى في مجموعتي ـ قد وصف وترجم بعضه في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية لسنة ١٩٠٠ ص ٦٣٧ ـ ٧٢٠ و ١٩٠٢ ص ٧٥ ـ ١٠١ و ٢١٧ ـ ٣٦٢ و ٨١٣ ـ ٨٤٧ [نشر الكتاب بتحقيق الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطيء) وأجيزت عليه بدرجة الدكتوراه] «المترجم» ·

(٢) لقد نشرت رسالة علي بن منصور الحلبي (ابن القارح) التي تعد « رسالة الغفران » ردا عليها في رسائل البلغاء ، طبعة محمد كرد علي (القاهرة ، ١٩٣١) [من فصل الهوامش] · أما كتاب « الفصول والغايات » فلم تعرف نسخة منه قبل سنة ١٩١٩ عندما أُعلن اكتشاف القسم الاول منه [مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ، ١٩١٩ ، ص ٤٤٩] « من فصل الهوامش » ·

اذا قلتُ المُحـــال رفعتُ صــوتي

وان قلتُ اليقـــين أطلتُ همســي[1]

على حين أنه في « اللزوميات » كثيرا مايرفع القناع عن وجهه فيصف عمودي الكعبة والحجر الاسود الذي يقدسه كل مسلم كبقايا للوثنيـة وينعت الحج نفسه بـ « رحلة الجاهلين »[2] ، والعواطف التالية تجعله موضع تكريم ، لكنها تعد الحادا فاضحا في مكة [من الكامل] :

سَبِّحْ وصلِّ وطُفْ بمكة زائراً   سبعين لا سبعاً فلستَ بناسـك

جهِلَ الديانة من اذا عرضت لـهُ   أطماعُهُ لم يُلفَ بالمتماسكِ[3]

لا حاجة بنا لتقديم أمثلة أخرى عن استخفاف الشـاعر بمبادىء العقيدة الاسلامية ولنا ان ندهش من انه رغم تهجمه على الأشخاص فضلا عن المبادىء والهابه بسياط التعزير ، ظهور طبقة العلـماء القـوية ، من ممثلي الاسلام من الفقهاء المشرعين ، فان تهمة الالحاد التي وجهت اليه لم تُعقَّب ولم تنجم عنها نتائج جدية ؛ وقد نوقشت المسألة بحرارة على كلا الجانبين ومع ان الاكثرية قد حكمت على ابي العلاء بأنه مفكـر حر ومادي لم يعوزه المدافعون الذين استشهدوا بالفصول والابيات ليبرهنوا

(١) مارغوليوث ، سبق ذكره ، ص ١٣٢ البيت الأخير من النص العربي [= اللزوميات ، ج ١ ص ٤٠ « المترجم »] .

(٢) فون كريمر مجلة جمعية المستشرقين الالمان (١٨٧٧م) ، المجلد : ٣١ ص ٤٨٣ .

وفي هذا يقول في اللزوميات : ج ٢ ص ٣٢٣ :

كفـاك اللب رحـلة جـاهلي   تزيرك أيلـة وبلاد نخـر

وايلة مدينة على شاطىء البحر في منتصف الطريق ما بين مصر ومكة وقد روي ان أيلة هي القرية التي كانت حاضرة البحر وبلاد نخر : لـم نقف على ذكرها .

(٣) لا نعتقد ان مكة بهذا الضيق من التفكير بحيث تعد البيتين اللذين يشير اليهما نكلسن الحاداً فاضحاً بل انهما في جوهر الدين وصلبه لان الرجل المتفسخ الذى غدا نهبة للاطماع الدنيئة لا يجوز تبرير اعماله بمظاهر التقى الكاذب حتى وان حج سبعين مرة .

« المترجم »

على انه لم يكن من هذا القبيـــل[1] • ويجب ان نتذكر ان مؤلفـــاته لا تحتوي على نظام فلسـفي وان آراءه يجب ان تدرك من الافكار التي ينشرها دون ارتباط وعلى الاكثر في لغة متحفظة بطريق سلسلة طويلة من القوافي المتتابعة ، وقد تعقدت هذه المهمة التي هي بحـــد ذاتها مجهدة ، بوجود عواطف سُنيـَّة لا غبار عليها مناقضة لما عداها بالمرة وهي ليست بالقليلة ، وقد لاحظ كاتب المعي مطّلع على أساليب التفكير الشرقيــة ان ضمير الآسيوي يتألف بصورة عامة من العناصر الآتية : (١) نصّ ديني يكاد يكون مجردا (٢) اعتقاد حي نوعـــاما ببعض مبادىء العقيـدة التي يعتنقها (٣) مناهضة حازمة للعديد من مبادئها ، حتى وان كانت جوهرية (٤) مجموعة من الافكار تتعلق بنظريات اجنبية تمـــاما وهي تحتل مكانا على كل حال (٥) جنوح مستمر للتخلص من هـذه الافكار والنظريات والاستعاضة عن القديم بالجديد[2] •

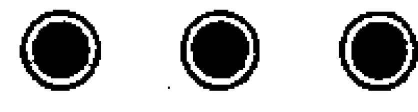
ان مثل هذه المظاهر تعلل القدر الكبير من عـــدم الثبات المنطقي ولكن يجب أن نحذر اللجوء اليها بثقــة أكثر مما ينبغي في هذه الحال ؛ اذ لم يكن أبو العلاء بعقليته الحـادة ومزاجه غير المتعصب بالرجل الذي يدع نفسه تتخبط ، وأكثر تخبطا من ذلك التفسير الذي يقدمه بعض النقاد المسلمين وهو ان أفكاره تقررت تحت وطـــأة الصعوبة العروضية التي كان ينظم فيها • مفهوم أنه ربما شكّ أحيانا في شكوكه وعاد ذلك بالنفع على الاسلام ، غير انه من المحتمل ان اســتنتاج فون كريمر قريب من

(١) راجع : « تعريف القدماء بأبي العلاء » السفر الاول ، جمع وتحقيق لجنة من رجال وزارة المعـــارف العمومية باشـــراف الدكتور طه حسين (القاهرة ، مطبعـة دار الكتب المصـرية ، ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م) ص ٩٩ • « المترجم »

(٢) دي غوبينو : «الاديان والفلسفات في آسيا الوسطى» ، ص ١١ وما بعدها [الواقع ان ما يقوله دي غوبينو ينطبق على كل انماط البشر على وجه البسيطة ولا يقتصـر على الشرقيـين دون سواهم ، فهـذه هي الطبيعة البشرية ومن السخف قصرها على الأسيويين وحدهم « المترجم »] •

الحقيقة وهو انه حينما يتكلم الشاعر كمسلم ورع فان عباراته اذا لم تكن تقليدية تماما فهو قد أدخلها لغرض معين ليعمي الامر على خصومه الثقاة أو ليبعد أفكارهم عن الشبهة ؛ ومع انه لم يكن بلا دين بالمعنى الواسع للفظة ، فان على الباحثين غير المتحيزين أن يتبينوا في قصائده المتأخرة انه قد وسم من وجهة النظر السنيّة بالكفر بحق وحقيق ، وتوضح الامثلة الآتية الجانب السلبي لفلسفته [من البسيط] :

المَيْنُ أهلك فوق الأرض ساكنَها   فما تصادقَ في ابنائها الشِّيَعُ
لولا عداوةُ أصلٍ في طباعِهمُ كانت مساجدُ مقروناً بها البِيَعُ[(1)]



[من الطويل] :

هل الدينُ الا كاعبٌ دون وصلها   حِجابٌ وَمَهْرٌ مُعوِزٌ وحِباءُ
وما قَبِلتْ نفسي من الخير لفظةً   وان طال ما فاهت به الخطباءُ[(2)]



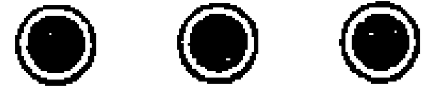
[من الكامل] :

اركان دنيانا غرائز أربع   جعلت لمن هو فوقنا أركانا
والله صيَّر للبلاد واهلها   ظرفين وقتاً ذاهباً ومكانا
والدهر لا يدري بمن هو كائن   فيه فكيف يلام فيما كانا
والمرء ليس بزاهدٍ في عادةٍ   لكنه يترقب الا مكانا
والحي تخلق جسمَه حركاته   فيكل وهو يحاذر الاسكانا
نبكي ونضحك والقضاء مسلطٌ   ما الدهر أضحكنا ولا أبكانا
نشكو الزمان وما أتى بجناية   ولو استطاع تكلماً لشكانا

(1) مجلة جمعية المستشرقين الالمان ، المجلد ٣١ ص ٤٧٧ [= اللزوميات : ج ٢ ص ٧٥] .

(2) نفس المصدر ، المجلد ٢٩ ص ٣١١ والكاعب الجارية الناهد والحباء هدية العرس [راجع اللزوميات ، طبعة المطبعة الجمالية ، مصر ، ١٣٣٣هـ ، ص٣٢] .

متوافقــــين عــلى المظـالم ركبت　　فينـا وقارب شــرّنا أزكانا[1]



[من البسيط] :

جاءَ القِران[2] وأمرُ الله أرسلَهُ　　وكان سترٌ على الأديان فانخرقا

ما أُبرِم المُلْكُ الاّ عادَ منتقضاً　　ولا تألّفَ الاّ شتَّ وافترقا[3]

مذاهبٌ جعــلوها من معايِشِهم مَنْ يُعمل الفكرَ فيها تُعطِه الأرقا

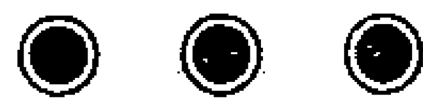
احذر سليلك فالنار التي خرجت مِنْ زندهـا ان أصابت عـوده احترقا

وكُلُّنا قومُ سـوءٍ لا أخصُّ به بعضَ الأنامِ ولكن أَجْمَعُ الفِرَقا

لا تَرجُــوَنَّ أخــاً منهــم ولا ولــداً

وانْ رأيتَ حَيــاء أسـبغ العَــرَقا

والنفس شـرّ من الاعـداء كلهمو　　وان خَلَتْ بك يوماً فاحترز فرَقا

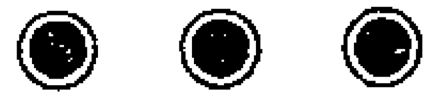


ان رُمت من شيــخ رهـط في ديانتــه

دليــل عقــلٍ عــلى ما قـاله خَرَقــا

وكيــف اجني ولــم يورق لهــم غصني

والغصــن لــم يجــن حتى ألبس الورقـا[4]



لا تبــدؤني بالعــداوة منكُمُ　　فمسيحكم عنــدي نظير محمَّدِ

أيُغيثُ ضــوءُ الصبــح ناظرَ مُــدْلجٍ

أم نحنُ أجمــعُ في ظــلامٍ سَرمــدِ ؟

---

(١)　مجلة جمعية المستشرقين الالمان ، المجلد ٣٨ ص ٥٢٢ ٠

(٢)　القِران عند المنجمين اجتمـاع كوكبين غير الشمس والقمـر في جزء واحد من اجزاء الفلك ٠

(٣)　على رأي دي غويه في كتابه : « مذكرات عن قرامطة البحرين » (بالفرنسية) ص ١٩٧هـ١ ان هذه الابيــات تشير الى نبوءة تنبـأ بها القرامطة وهي ان قران زحل بالمشتري الذي حدث سنة ١٠٤٧م ارهاص لانتصار الفاطميين النهائي على العباسيين ٠

(٤)　مجلة جمعية المستشرقين الالمان ٣٨/٥٠٤ ٠

كُمهُ البصائر لا يبينُ لهـا الهُدى أو مبصـر" ابداً بعيني أرمـدِ

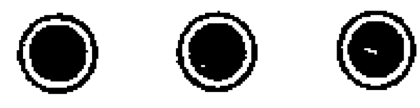
جَسَـد" يُعَـذَّبُ في الحيـاة حَسبْتُهُ
مستَشعراً حَسَـدَ العِظـامَ الهُمَّـدِ

ان السُيـوفَ تُراحُ في أغمـادِهـا
وتظَـل" في تعبٍ اذا لـم تُغمَـدِ

مـن لـي بجسـمٍ لا يُحسُّ رزيَّـةً
لكـن يُعـد" كتُـربةٍ أو جَلْمَـدِ

روح" اذا اتصـلت بشـخصٍ لـم يَزل
هُـوَ وهْيَ في مرض العنـاءِ المكمـدِ

ان كنتِ مـن ريحٍ فيـاريحُ اسـكني
أو كنتِ من لهـبٍ فيا لهبُ اخمُـدِ(١)



ورغم ان أبا العلاء كان متشائما ومتشككا ، فهـو ينكر أكثر مما يثبت ، ومع انه رفض مبادىء الدين الايجابي فانه لم يقع تحت طائلة عدم الاعتقاد المطلق فقد وجد ضمن ذاته قانونا خلقيـا لم يسعـه عـدم الانصياع اليه :

عليكَ العقـلَ وافعـلْ ما رآهُ جميلاً فهو مشتارُ(٢) الشّوار(٣)
ولا تقبـلْ من التـوراة حكْماً فان الحقَّ عنهـا في تواري(٤)

ويصر مراراً وتكراراً على أن الفضيلة هي المثوبة بحد ذاتها :-

فنزّه جميلاً جئتَهُ عن جزايةٍ(٥) تُؤَمَّلُ أو ربحٍ كأنَّك تاجرُ(٦)

---

(١) مجلة المستشرقين الالمان ، المجلد ٣١ ص ٤٧٤ [=اللزوميات ١/٢٣٥ - ٢٣٦] .

(٢) من اشتار العسل اذا استخرجه .

(٣) المشاورة .

(٤) اللزوميات : (طبع مطبعة المحروسة بمصر ، القاهرة ، ١٨٩١) ج ١ ص ٣٩٤ .

(٥) أي مثوبة .

(٦) اللزوميات (القاهرة ، ١٨٩١) ج ١ ص ٣١٢ .

ومذهبه مذهب فيلسوف ناسك وقد قال بعدم ذبح مخلوق حيّ ، ونادى قائلا :

خير لكم ان تنقذوا بقة من أن تقدموا صدقة ؛ مع ذلك فهو يفضل التقى العملي والانسانية الفعلية على الصيام والصلاة . « وزبدة تعاليمه الخلقية ان نلقن كأسمى واقدس واجب تنفيذا واعيا لواجبات الانسان بنفس الحرارة والمودة تجاه الكائنات الحية »[1] .

مات أبو العلاء في سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م في سن الرابعة والثمانين وقد مرّ الشاعر الفارسي الرحالة ناصر خسرو بالمعرة وهو في طريقه الى مصر قبل هذا الوقت بعشر سنوات فوصف لنا أبا العلاء شيخا للمدينة غنيا جدا يحترمه الأهلون ، ويحيط به ما ينوف على المائتي تلميذ جاءوا من مختلف الاصقاع لحضور محاضراته في الادب والشعر[2] . بوسعنا ن نضع هذه

(١) فون كريمر ، نفس المصدر ٢ ص ٣٨ .

(٢) سفرنامة ، طبعة شيفر ، ص ١٠ وما بعدها (من طبع باريس ١٨٨١) = ص ٣٥ ـ ٣٦ من الترجمة ، وناصر خسرو هو أبو معين بن خسرو بن حارث (٣٩٤ ـ ٤٥٣هـ) ولد بمدينة قباذيان من أعمال بلخ ، ويلقبه المؤرخون بالعلوي وكان أبوه من ذوي اليسار فتعلم العلوم ، وكان اول أمره لاهيا ، ثم ترك اللهو الى الجد وعزم على الرحلة الى مكة ومصر وغيرهما ، وتكلم في رحلته على أحوال الممالك الاسلامية التي زارها وكان يعمل على نشر التشيع في بلاده غير ان السلاجقة اضطهدوه فترك بلخ الى يوماجان وأخذ يعمل على نشر مذهبه وله ديوان مطبوع في طهران (١٩٢٨) وأهم كتبه « سفرنامة » ومن المحتمل ان تحريفا وقع فيه . راجع دائرة المعارف الاسلامية (النسخة الانكليزية) واليك نص ما يذكره ناصر خسرو عن المعري في « السفرنامة » (أي الرحلة) :

كان فيها (أي في معرة النعمان) رجل اسمه أبو العلاء المعري ، أعمى ، وهو رئيسها ، وكان واسع الثراء ، وعنده كثير من العبيد والخدم ، وكأنّ أهل البلد كله خدم له ، أما هو فقد تزهد ، فلبس الخشن ، واعتكف في البيت ، وكان قوته نصف مَنّ من خبز الشعير ، لا يأكل غيره . وقد سمعت ان باب قصره مفتوح دائماً ، وأنّ نوابه وملازميه يدبرون أمر المدينة ، ولا يرجعون اليه الا في الامور الهامة ؛ وهو لا يمنع =

الملحوظة المصدّقة ازاء التقرير المحزن الذي يقدمه أبو العلاء عن نفسه في رسائله ومؤلفاته الاخرى ؛ وهو ان لم يكن من أعاظم شعراء المسلمين فهو من أكثرهم اصالة وجاذبية ؛ ويجب ان يبدو بعد المتنبي وحتى بعد أبي العتاهية عصريا بشكل غريب للقاريء الاوربي ، وانه لمن المدهش أن يفكر الانسان في أن روحاً غير تقليدية على هذه الشاكلة وخالية من تحيز المباديء العقائدية ، ومنطقية بالرغم من تشاؤمها ، ومتدينة بعمق بالرغم من هجماتها على الدين الموحى به ، كان لزاما أن تُنهى الحيــاة في مدينــة ريفية في سوريا قبل معركة سينلاك ببضع سنوات ؛ ومع انه لم يتدخل في السياسة ووقف على الحياد من كل نحلة فقد كان بوسعه أن يقــول عن نفسه بحق : «غدوتُ ابن وقتي»[(1)] ، ولا تترك أشعاره مظهراً من مظاهر عصره دون انتنالها بلمسة، وهي تقدم صورة حية للانحطاط والتفسخ حيث يجد الحكام الطغاة والقضاة المرتشون والفقهاء المنافقون الذين لا يتحرجون من شيء والمنجمون المحتالون وحشود من الدراويش المتجولين والقرامطة

= نعمته أحدا ، يصوم الدهر ويقوم الليل ، ولا يشغل نفسه مطلقا بأمر دنيوي ٠

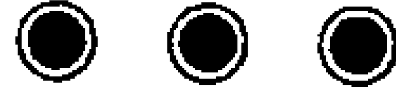
وقد سما في الشعر والادب ، حتى ان أفاضل الشام والمغرب والعراق يقرّون بأنه لم يكن في عصره من يدانيه ولا يكون ٠

وقد وضع كتابا سمّاه « الفصول والغــايات » ، ذكر به كلمـات مرموزة وامثالا ، في لفظ فصيح عجيب بحيث لا يقف الناس الا على قليل منه ، ويفهمه من يقرؤه عليه ، وقد اتهموه بقولهم : « انك وضعت هــذا الكتاب معارضة للقرآن » ٠ ويجلس حوله دائما أكثر من مائتي رجل ، يحضرون اليه من الآفاق يقرؤن عليه الادب والشعر وسمعت ان له أكثر من مائة ألف بيت شعر ٠ سأله رجل « لم تعطي الناس ما أفاء الله تعالى عليك من وافر النعم ولا تقوت نفسك ؟ » فأجاب انى لا أملك أكثر ممـا آكل ٠٠ وكان هذا الرجل حيا وانا هناك [راجــع تعريف القدماء بأبي العلاء ، سبق ذكره ، ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣] ٠

(١) اللزوميات (القــاهرة ، ١٨٩٢) ج ٢ ص ٢٨٠ ولا تعني العبارة « انا ابن عصري » بل « أنا أعيش في الحاضر » ناسيا الماضى وغـير مكترث لما يأتي به المستقبل والبيت هو [من الطويل] :

غدوتُ ابن وقتي ما تَقَضَّى نسيتُهُ وما هو آتٍ لا أُحسُّ له طعمـا

الملحدين لهم مكانا بارزا[1] .



ومع ان القاريء قد يظن ان مجالا واسعا قد اعطي للشعر مقدما ، فقد اجرؤ مع ذلك ، على سبيل انهاء الموضوع ، على أن أذكر باقتضاب شديد بضعة اسماء مشهورة لا يمكن أن تحذف بالمرة من كتاب من هذا النوع .

ابو تمام والبحتري :

كان أبو تمام (حبيب بن أوس) والبحتري ، وكلاهما عاش في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد ، من شعراء البلاط الممتازين من نفس نمط المتنبي ولكن شهرتهما تستقر باطمئنان أكثر على المجموعتين اللتين ألّفاها بعنوان « ديوان الحماسة » (انظر الصفحة ١٢٩ وما بعدها

(١) فون كريمر ، نفس المصدر ، ص ٤٦ وما بعدها ، وافضل مصدر لدراسة أبي العلاء كتاب « تعريف القدماء بأبي العلاء » ، سبق ذكره ، وفيه كل ما ذكره عنه الثعالبي في يتيمة الدهر ، والبغدادي في تأريخ مدينة السلام والباخرزي في دمية القصر والسمعاني في الانساب وابن الانباري في نزهة الالباب وابن الجوزي في المنتظم والقفطي في «انباه الرواة علىأنباء النحاة» وياقوتالحموي في «ارشاد الأريب» وابن الاثير في « الكامل » وسبط ابن الجوزي في « مرآة الزمان » وابن خلكان في « وفيات الاعيان » وأبو الفداء في « المختصر في اخبار البشر » والذهبي في تأريخ الاسلام وابن الوردي في تتمة المختصر في اخبار البشر وابن فضلالله العمري في مسالك الابصار والصفدي في الوافي بالوفيات وفي نكت الهميان واليافعي في : « مرآة الجنان » وابن كثير في : « البداية والنهاية » وابن شحنة في « روضة الناظر » وابن حجر في « لسان الميزان » والعيني في « عقد الجمان » وابن تغري بردي في « النجوم الزاهرة » والسيوطي في « بغية الوعاة » والعباسي في « معاهد التنصيص » وابن العماد الحنبلي في « شذرات الذهب » والعباسي المكي في « نزهة الجليس » .

من النص الانكليزي من كتاب « تأريخ العرب الادبي » لنكلسن)[1] .

ابن المعتز : (٢٤٧هـ/٨٦١ ـ ٢٩٦هـ/٩٠٨)

كان أبو العباس عبدالله ابن الخليفة المعتز شاعراً وأديباً متعدد الجوانب اظهر اصالته بالمؤلفات التي انتجها باسلوبين جديدين من الانشاء ؛ وكثيرا مايذكر ان ليس للعرب ملاحم عظيمة كالالياذة اليونانية والشاهنامة الفارسية بل مجرد قصص نثرية وهي وان كانت ذات لهجة ملحمية احيانا فالافضل

---

(١) من الغريب ان نكلسن اكتفى بهذه الفقرة العابرة عن شاعرين من أعاظم شعراء الدولة العباسية ، لذلك فنحن نحيل القارىء فيما يتعلق بأبي تمام على كتاب «الاغاني» : ١٥/٩٩ وابن خلكان ١/١٢١ و «طبقات الادباء » ٢١٣ ، و « الفهرست » ١٦٥ و « طبقات الشعراء » لابن المعتز : ص ٢٨٣ و « الموشح » للمرزباني ، ص ٣٠٣ وتأريخ بغداد ٨/٢٤٨ وكتاب « اخبار أبي تمام » للصولي (طبع القاهرة) وكتاب : « هبة الايام فيما يتعلق بأبي تمام » للبديعي و « الموازنة بين الطائيين : أبي تمام والبحتري » للآمدي ، « وشذرات الذهب » ٢/٧٢ و « حسن المحاضرة » للسيوطي ١/٢٦٧ (طبع القاهرة : ١٣٢١ هـ) و « مروج الذهب » للمسعودي (طبع باريس) ٧/٦٤٧ « وخزانة الادب » للبغدادي ١/٦٧٢ ومقدمة الحماسة ، والجزء الثاني من الحماسة (طبع فريتاغ) وكتاب شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ، الفصل الخامس من الكتاب الاول ، وكتاب « من حديث الشعر والنثر » لطه حسين و « دائرة المعارف الاسلامية » وبروكلمان ١/٨٤ (جـ ٢/ص ٥٣ ـ ٥٩ « الترجمة العربية ») = جرجي زيدان : « تأريخ آداب اللغة العربية » ٢/ص ٧٧ ـ ٧٩ .

أما فيما يتعلق بالبحتري فليراجع الاغاني ١٨/١٦٧ وابن خلكان ٢/١٧٥ والفهرست ١٦٥ و « طبقات الشعراء » لابن المعتز ص ٣٩٤ و « معجم الشعراء » ٤٦١ ، ٥٠٢ و « الموشح » للمرزباني ص ٣٣٠ و « معاهد التنصيص » ١/٨١ و « تأريخ بغداد » ١٣/٤٧٦ و « شذرات الذهب » ٢/١٨٦ و « معجم الادباء » ١٩/٢٤٨ و « الموازنة بين الطائيين » للآمدي ، و « اعجاز القرآن » للباقلاني و « دائرة المعارف الاسلامية » ، و « من حديث الشعر والنثر » لطه حسين ويراجع في شعره « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » = جرجي زيدان : « تأريخ آداب اللغة العربية » ٢/١٨٤ ـ ١٨٧ .

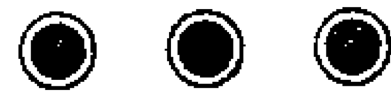
أن توصف بالروايات التأريخية ، وما استطاع ابن المعتز ان يسد النقص ، فقد نظم على كل حال في مدح ابن عمه الخليفة المعتضد ملحمة موزونة ، مصغرة مستهلة بتخطيط للوضع السيء الذي وصلت اليه الامبراطـورية بجشع اجراء الاتراك وطغيانهـــم وقد نظم كذلك الى جنب ديوان من المقطوعات الخمرية أول كتاب مهم في « البديع » اسماه (كتاب البديع) ، بيـد أنه كان قد قيض لهذا الأمير الكامل مصير محزن ، فقد بويع بعـد وفاة الخليفة المكتفي غير ان انصار المقتدر استطاعوا أن يتغلبوا عليه بعـد بيعته ببضع ساعات فأمر به المقتدر فخنق حالما اكتشف موضـــع اختفائه ولا يكاد الانسان يتمالك نفســه وهو يصور لنفسه المشهد من أن يتذكر كلمات نيرون الاخـــيرة وهو يحتضـر : (Qualis Artifex Pereo?) « كم مصطنع هو كل هذا ؟ »[1] .

---

(١) هنا أيضا لم يوف نكلسن الشاعر حقه فليراجـع بروكلمان « الترجمة العربيـــة » (ج ٢ ص ص ٥٣ ـ ٥٩) وهو ، باختصـــار ، أبو العباس عبدالله بن المعتز المتوكل بن المعتصم بن الرشيـد ولي أبوه المعتز الخلافة سنة ٢٥٢ ـ ٢٥٥ وقد حاول ابنـــه عبدالله أن يبتعد عن السياسة ما أمكنه الا انه عندما ولي المقتدر سنة ٢٩٥ وترك تدبير أمور الدولة لامه ولجيش من الخـــدم والعبيد والجواري التف حول ابن المعتز الوزراء والقادة والقضاة والوجهاء وبايعوه بالخلافة ولقبوه بالمرتضى ولكنه لم يبق في الخلافة غير يوم وليلة .

وقد امعن ابن المعتز في محـــاكاة الاسلوب الكلاسيكي ما اســـتطاع ولكنه مع ذلك جعل ابا نواس مثله الاعلى وبوسعنا ان نقول انه أبو نواس العصر العباسي الثاني ويشير ابن رشيق في « قراضة الذهب » الى الكثير من سرقاته وقد كان بطبيعة الحال متحيزا لاسرته من بني العباس ضـد العلويين وظهر ذلك واضحا في شعره وكانت الفكرة السياسية تدور حول تفضيل أبناء عم الرسول (ص) على أبناء بنتـــه وهي فكرة قديمة بدأت بمولى لتمام بن العباس بن عبدالمطلب حين قال هاجيا عبدالله بن أبي رافع كاتب رسول الله (ص) لجنوحه الى العلوية [من الطويل] :

ان شعر التصوف العربي عموما أقل شأنا الى حـــد بعيد من نظيره عند الفرس ، ففيه الحماسة والعاطفة بأسمى درجاتها ولكن يعوزه المدى والمادة ، فضلا عن قوة الخيال والتأمل ؛ ومع أنَّ عمر بن الفارض هـو شاعر التصوف العربي بلا ريب فليس بوســعه أن يقف في مقام مقارنة مع معاصره الفارسي العظيم جلال‌الدين الرومي (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م) فهو لا يتفوق عليه الا بالوهج الشديد لألفـاظه وجمالهـا الأنيق ؛ ومن الملائم أن نرجيء معلومات أوفى عن ابن الفــارض الى الفصل القادم حيث سنناقش تطور التصوف خلال هذه الفترة (١) .



= جحدتَ بني العباس حق ابيهمو ... فما كنت في الدعوى كريم العواقب

متى كان أولاد البنـــات كوارثٍ ... يجوز ويدعي والداً في المناسب ؟

وبلغت الفكرة ذروتها حين قال مروان بن أبي حفصة [من الكامل] :

انى يكـَــون وليس ذاك بكـــائن ... لبني البنات وراثة الاعمـــام ؟

فتلقفها عبدالله بن المعتز فقال [من المتقارب] :

لكم رحــــم يا بني بنتـــه ... ولكن بنـــو العم أولى بهـــا

وقد رد جعفر بن عفان الطائي على مروان بقوله :

لم لا يكـــون وان ذاك لكـائن ... لبني البنات وراثة الأعمــــام

للبنت نصف كامل من مـــاله ... والعم متروك بغـــير سهـــام

(راجع البصير « في الادب العباسي » هـ ٢ ص ٣٢١ - ٣٢٢) ويعد ابن المعتز بين الشعراء العلماء ويعزى اليه اول موشح في الادب العربي .

(١) تراجع ترجمـــة ابن الفارض الكاملة في ابن خلكان ١/٣٨٣ وحسن المحاضرة للسيوطي وشذرات الذهب ٥/١٤٩ وابن كثير ١٣/١٤٢ والنجوم الزاهرة ٦/٢٨٨ و ٧/٢٨٣ و ٣٧٠ وابن أياس ١/٨١ وتأريخ ابن الوردي ٢/١٦١ و « عمر بن الفارض من خلال شعره » لميشال فريد =

وأخيرا هناك كاتبان يسترعيان انتبــاهنا وهما يدينــان بشهرتهما لقصيدتين يتيمتين ـ وهي ظاهرة ليست بالنــادرة في تأريخ الأدب العربي على كل حال • واحدى هاتين القصيدتين المشهورتين بصورة عامة هي لاميــة العجم التي نظمهــا الطغرائي سنة ٥٠٥هـ/١١١١م والأخرى هي قصيدة البردة للبو صيري التي استميح العذر بذكرها في هذا الفصل رغم أن ناظمها توفي بعد الغزو المغولي بنحو أربعين سنة •

الطغرائي (توفي حوالي ٥١٤هـ/١١٢٠م) :

كان الحسن بن علي من أصــل فارسي ومن أهــالي اصفهان[١]

= غريب « وابن الفارض والحب الالهي » لمحمد مصطفى حلمي وكتاب « في التصوف الاسلامي » لنكلسن ، ترجمة أبي العلاء عفيفي ، ص ١٢٠ ومــا بعدها والموسوعة الاسلامية ، =جرجي زيدان : تأريخ آداب اللغة العربية : ١٦/٣ ـ ١٧ وقيل انه ما نظم قصيدة الا وأصابته غيبوبة قد تمتد أحيانا الى عشرة أيام ليستيقظ بعدها فيملي القصيدة التي نظمها في غيبوبتـه ويتسم شعره بكثرة الجناس والبديع وقد ترجمت تائيتــه الى الالمانيــة سنة ١٨٥٤م وترجم شيء من شعره الى الفرنســية ســنة ١٨٨٦م وكان منحاه الشعري صوفيا وأبو حفص عمر بن أبي الحسن على بن المرشد على ـ كما يعرف باسمه الكامل ـ حموي الاصل ، مصري المولد والمنشأ والمدفن فقــد توفي في القاهرة وقبره معروف في سفح المقطم وقــد شــرح ديوانه البوريني (١٠٢٤ هـ) شــرحا ظاهريا وشرحه عبــدالغني النابلسي (١١٤٣هـ) شرحا صوفيا وجمع رشيد بن غالب بين الطريقتين في الديوان الذي طبع سنة ١٢٨٩هـ بمصر •

(١) راجع عن مادة « الطغرائي » ابن خلكان ، ترجمة دي سلان ، ج ١ ص ٤٦٢ [النص العربي : ج ١ ص ١٥٩] والنجوم الزاهرة : ٢٢٠/٥ والشذرات ٤١/٤ ومعجم الأدباء (طبع القاهرة) ٥٦/١٠ وقد ذكر جرجي زيدان في كتابه : تأريخ آداب اللغة العربيــة ، ج ٣ ص ٢٢ أنه العميــد فخرالكتاب أبو اسماعيل الحسين بن علي المنشيء الملقب مؤيدالدين ، في حين ان نكلسن يورد « الحسن » بدلا من « الحسين » ••• ومطلع لاميــة العجم ـ كما هو معروف ـ هو [من البسيط] :

أصالة الرأي صانتني عن الخطــلِ وحِلية الفضل زانتني لدى العَطَلِ

ولها ترجمتــان لاتينيتــان احــداهما لبوكوك (١٦٦١) وأخرى لجولي (١٧٠٧) •

وقد أشغل وظيفة كاتب ومنشيء أو طغرائي تحت حكم السلطانين السلجوقيين العظيمين ملك شاه ومحمد وأصبح فيما بعد وزيرا للأمير السلجوقي غياثالدين مسعود[1] في الموصل ؛ وقد أخذ لقبه الذي يُعرف به بصورة عامة من « الطُغرى » التي كان من واجبه أن يضعها على جميع أوراق الدولة فوق البسملة ، ونعتت لاميته بلامية العجم بالمقارنة مع قصيدة لامية العرب المشهورة ، للشنفري (راجع ص ٧٩ وما بعدها من النص الانكليزي « لتأريخ العرب الأدبي » لنكلسن) وهي من نفس الروي : الصفة المشتركة الوحيدة بين القصيدتين[2] ، ففي حين أن الشنفري يصف مصاعب حياة طريد العدالة في الصحراء ، نجد الطغرائي ، وهو ينظم في بغداد ، يشكو سوء زمانه الذي وصل اليه ، ويتذمر من منافسين شبان وضيعين مداهنين قد فضلوا عليه على حين أنَّه ترك بدون صديق وأهمل في شيخوخته .

البوصيري (توفي حوالي سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٦م) :

وقصيدة البُردة للبُوصيري[3] أغنية دينية في مدح الرسول (ص) وقد ولد ناظمها في مصر سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م ولا نكاد نعرف أي شيء عن حياته التي أمضيت ، كما يقول هو ، في نظم الشعر والتقرب الى العظماء[4] ؛ غير أنَّ مترجميه يخبروننا بأنه كان يعيش من نسخ

(١) ابن خلكان، نفس المصدر [ترجمة دى سلان]، جـ٣ ص٣٥٥ .

(٢) ان روح الحماسة ظاهرة في كلا الشاعرين ولكن بشكل جد مختلف فالشنفري يصف رجلا ذا طبيعة بطولية والطغرائي يتلفع بفضيلته ويستخلص المغازي الخلقية كهوراسٍ مسلم ؛ على ان الصفدي يقول في شرحه لقصيدة الطغرائي (وانا انقل من نسخة خطية في حوزتي) « سميت بلامية العجم على سبيل مقارنتها مع لامية العرب لانها تشبه الاخيرة بحكمها ومواعظها » .

(٣) أي من أهالي « أبو صير » (بوصير) قرية في مصر .

(٤) البُردة (بالانكليزية) طبعة سي . أي رالفز (فينا ١٨٦٠) البيت : ١٤٠ . البُردة (بالفرنسية) ترجمة وشرح رينيه باسيت (باريس ، ١٨٩٤) البيت : ١٥١ .

المَخطوطات وأنه كان من مريدي الصوفي الكبير أبي العباس أحمد المَرْسِي ويقال انه نظم البُردة وهو مصاب بضربة شلّت نصف جسمه وبعد أن ابتهل الى الله أن يشفيه شرع بانشاء القصيدة فأخذته في الحال غفوة" وَحَلَمَ أنه رأى النبي (ص) الذي لمس الجانب المشلول من جسمه والقى ببردته عليه(١) ويقول البوصيري : « ثم استيقظت فوجدت نفسي أستطيع النهوض » ومهما يكن من الأمر ، فان لقصيدة البردة في نفوس المسلمين مكانة عالية من التقديس ، وكثيرا ما يحفظون أبياتها عن ظهر قلب ، وتُكتب بحروف من ذهب على جدران المباني العامة ، ولا يعتبر الناس القصيدة كلها كرقية ضد الشر فحسب بل المظنون أن قوة سحرية خاصة كامنة في كل بيت على انفراد ؛ ومع ان مزايا البردة الشعرية ليست أكثر من كونها محترمة ، فانها مما يمكن قراءته بلذة لاسلوبها السلس الانيق ، وبمتعة لأنها تقدم ضمن نطاق مقتضب أسطورة القرون الوسطى عن النبي (ص) – وهي اسطورة مليئة بكل

(١) يذكرنا هذا بحقيقة ان محمد (ص) وهب بردته لكعب بن زهير عندما أنشده قصيدته المشهورة : «بانت سعاد» (انظر أعلاه ص ١٢٧ من النص الانكليزي « لتأريخ العرب الادبي » لنكلسن) راجع في موضوع البوصيري حسن المحاضرة : ١/٢٤٥ و ٢/١٤٣ وخطط المقريزي ٤/٩٠ و ٢٦٣ وتأريخ مصر لابن اياس ١/١٢٤ وشذرات الذهب ٥/٤٣٢ وفوات الوفيات : ٢/٢٠٦ والموسوعة الاسلامية = جرجي زيدان : تأريخ آداب اللغة العربية ، ٣/١٣٠ – ١٣١ ومطلع قصيدته البردة [من البسيط] :

أمن تذكر جيرانٍ بذي سَلَمِ ... مزجتَ دمعاً جرى من مقلةٍ بدمِ

وعدتها ١٦٢ بيتا ، ١٠ في المطلع ، و ١٦ في النفس وهواها ، و ٣٠ في مدح الرسول و ١٩ في مولده ، و ١٠ في دعائه ، و ١٠ في مدح القرآن ، و ٣ في المعراج ، و ٢٢ في جهاده ، و ١٤ في الاستغفار ، وما تبقى منها في المناجاة ، وله كذلك نونية ينقد فيها بعض موظفي زمانه فيقول [من الوافر] :

نقدتُ طوائف المستخدمينا ... فلم أر بينهم رجلاً أمينا

[راجع زيدان : ٣/١٣٠] .

ما هو هائل وخارق حيث الشخصية التأريخية لمحمد (ص) ممجدة بشكل يكاد لا يُشخَّص .

السجع :

احتفظ السجع لمدة طويلة بالارتباطات الدينية التي كانت له في الجاهلية والتي أصبحت مقدسة للمسلمين جميعا ، باستعماله في القرآن ؛ وقد بدأ حوالي منتصف القرن التاسع للميلاد/الثالث للهجرة بالظهور في خطب الخلفاء وعمالهم ، وقد تطور أكثر على يد وعاظ محترفين كابن نُباتة (ت ٣٧٤هـ/٩٨٤م) وكتاب رسميين من مثل ابراهيم بن هلال الصابي (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م) ومنذ هذا الحين فصاعدا يصبح السجع مظهرا مميزا للنثر البليغ لا يكاد يستغنى عنه[1] .

(١) راجع ما كتبه جرجي زيدان عن « السجع » في : « تأريخ التمدن الاسلامي » ج ٣ ص ٩٦ و « تأريخ آداب اللغة العربية » ج ١ ص ٥٤ ـ ٥٥ ودونك خلاصة ما ذكره في كتابيه : « ألف الناس التلذذ برنة القافية ، فاستحسنوا ادخالها أولا في المراسلات وهو التسجيع وقد كان في أول أمره مقبولا لقلته وحسن وقعه ، حتى ادخلوه في الكتب وكتبوا به المقامات في أواخر القرن الرابع وأول من فعل ذلك بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨ هـ) ولعله اقتبس نسقها من أحمد بن فارس الرازي (ت٣٩٠هـ) « ابن خلكان ١/٣٥ و ٣٩ » وعلى منواله نسج الحريري ، وتكاثر التسجيع في القرون الوسطى حتى مجته الاسماع وعاد الى نحو ما كان عليه في أيام الكهان .

والتسجيع في الكتب انبى على السمع مما في الرسائل ، فمن يطالع كتاب « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان (ت ٥٣٥ هـ) أو « الفتح القسّي في الفتح القدسي » لعمادالدين الاصبهاني أو « حديقة الزوراء في سيرة الوزراء » لعبدالرحمن السويدي ير ثقل الاسجاع على الاسماع في التاريخ وان حسنت أحيانا في الرسائل والخطب .

على أن معظم مشاهير الكتاب لم يكتبوا الا مرسلا كابن خلدون وابن الاثير والمسعودي وقد كتب غير واحد منهم في تقبيح السجع حتى في المراسلات ، ونسبوا ذلك الى ضعف ملكة الانشاء (ابن خلدون ، ١/٤٩٨) وكثرة المترادفات وتعدد المعاني للفظ الواحد هو الذي يسّر السجع في =

بديع الزمان الهمداني (ت ٣٩٨هـ/١٠٠٧م) :

ان فضل اختراع ، أو على كل حال ، اشاعة نمط جديد ملحوظ من الانشاء بهذا الاسلوب يعود الى الهمداني (ت ٣٩٨هـ/١٠٠٧م) الذي أضفت عليه الاجيال التي أعقبته لقب « بديع الزمان » ، وقد ولد في همدان ثم ترك مسقط رأسه شابا وطاف في أرجاء القسم الاعظم من فارس يكسب عيشه من نكاته ويدهش كل من يقابله بعبقريته في الارتجال ويمكن أن تسمي مقاماته حكاية خيالية للبوهيمية الادبية ؛ ونجد في المقامة دنواً من الاسلوب المسرحي الذي لم يطوره الساميون[١] ؛ وقد تخيل الهمداني بطلا صعلوكا فكها غير متحرج من شيء يطوف من مكان لمكان يكسب عيشه من الهدايا التي قلما اخفق عرضه المرتجل للبلاغة والشعر والعلم اجتذا بها من مستمعين معجبين والشخصية الثانية هي شخصية الراوي « الذي يجب ان يلتقي على الدوام مع الشخص الآخر ، ويروي مغامراته ويكرر تراكيبه الممتازة[٢] واصبحت مقامات الهمداني النموذج لهذا الضرب من الكتابة وبقيت الشخوص التي خلقها دون تغيير في كتب خلفائه الاكثر احكاما ، وتؤلف كل مقامة وحدة مستقلة بحيث يمكن

= العربية وكان التسجيع شائعا في الجاهلية (راجع دائرة المعارف الاسلامية ، مادة سجع) والفصل الاول من كتاب « الفن ومذاهبه في النثر العربي » لشوقي ضيف .

(١) « المقامة » وجمعها « مقامات » هي في المعنى الصحيح مكان القيام وبالتالي المجتمع حيث يقف الناس ليصغوا الى المتحدث ولا سيما مجتمع المناقشات الأدبية وقد اطلق في وقت مبكر على تقارير مثل هذه المحادثات والمناقشات اسم المقامات (راجع بروكلمان ، تاريخ الادب العربي ، ج ١ ص ٩٤) واللفظة بمعناها الأدبي تترجم عادة الى الانكليزية بكلمة (Assembly) أو بالكلمة الفرنسية (Séance) .

(٢) « مقامات الحريري » ترجمها عن العربية مع مقدمة وشروح تي. شينيري (١٨٦٧م) ج ١ ص ١٩ ويضم هذا الكتاب الممتاز ذخيرة من المعلومات في أمور متنوعة تتعلق بالتأريخ والأدب العربيين ، ولوفاة المترجم ترك الكتاب غير منجز غير أن جزءا ثانيا (يضم المقامات ٢٧ ـ ٥٠) مترجما بقلم ستاينكاس ظهر سنة ١٨٩٨م .

اعتبار السلسلة الكاملة رواية تضم حوادث منفصلة في حياة البطل وهي مزيج من النثر والشعر حيث الحكاية لا شيء والاسلوب كل شيء[1] .

الحريري (٤٤٦هـ/١٠٥٤ - ٥١٦هـ/١١٢٢) :

وانتج ابو محمد القاسم الحريري البصري الذي كان دون بديع الزمان اصالة وفوقه تنوع علم وغزارة لغة ، اثرا خالدا في مقاماته بقى لثمانية قرون « مقدرا كالذخيرة الرئيسة للسان العربي بعد القرآن » ويقول في مقدمة كتابه ان تأليف المقامات كان « باشارة من اشارته حكم وطاعته غنم » وكان هذا رجل الدولة الفارسي الشهير انو شروان بن خالد[2] الذي اصبح فيما بعد وزيرا للخليفة المسترشد بالله (٥١٢هـ/١١١٨م-٥٣٠هـ/١١٣٥) والسلطان مسعود السلجوقي (٥٢٨هـ/١١٣٣م - ٥٤٧هـ/١١٥٢م) بيد انه في الوقت الذى تعرف فيه على الحريري كان يعيش في عزلة في البصرة عاكفا على الدراسات الادبية ، وقد اعتذر الحريري على اساس ان قابلياته لايسعها أن تضطلع بالمهمة « فالظالع لا يدرك شأو الضليع »[3]،على انه اذ عن في الاخير لرجاء انو شروان وعلى ما يقول هو : « بذلت في مطاوعته جهد المستطيع ، وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة ، وفطنة خامدة ، وروية ناضبة ، وهموم ناصبة ، خمسين مقامة تحتوي على

---

(١) للتوسع في دراسة « بديع الزمان الهمذاني » راجع دائرة المعارف الاسلامية وابن خلكان ١/٣٩ ومعجم الادباء ١/٩٤ ويتيمة الدهر ١٦٧/٤ وتأريخ الادب في ايران ، ص ١٢٨ وما بعدها وبحثا في مقاماته في كتاب « المقامة » للدكتور شوقي ضيف ، وامراء البيان وتطور الاساليب النثرية والفن ومذاهبه في النثر العربي وكتابا نشر في سلسلة نوابغ الفكر العربي التي تصدرها دار المعارف = جرجي زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية ، ج ٢ ص ٣١٩ والدكتور محمد مهدي البصير ، في الادب العباسي ، ص٧٨-٩٩ .

(٢) التفصيل الكامل لسيرته في مقدمة هوتسمان لكتاب : « مجموعة نصوص تتعلق بتأريخ السلاجقة » (بالفرنسية) ج ٢ ص ١١ وما يليها ؛ قارن براون : « تأريخ فارس الادبي » ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٣) هذا تقدير لطيف لعبقرية الهمذاني الرفيعة من المحتمل انه لا ينطوي على اخلاص .

جدَّ القول وهزْله ورقيق اللفظ وجزْله ، وغُرَرِ البيان ودرره ، ومُلَح الأدب ونوادره ، الى ما وشحتُها به من الآيات ، ومحاسن الكنايات ورصَّعْتُه فيها من الامثال العربية ، واللطائف الأدبيــة ، والاحاجي النحوية ، والفتـاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة والخطب المحبَّرة ، والمواعظ المبْكية ، والاضاحيك الملهية مما أمليتُ جميعَه على لسان ابي زيدِ السَّروجي ، واسندت روايته الى الحارث بن همّام البصري[1] » .

ويستمر الحريري بعد ذلك ليقول ان مقاماته ليست مجرد حكايات طائش يمجها المسلم المتمسك بدينــه حسب فقرة مشهورة من القــرآن تشير الى النضــر بن الحــارث الذي ازعج النبي (ص) ازعاجا فظيعـــا بتسلية قريش بلساطير رسـتم واسفنديار الفارسـيّة القديمة (القرآن ، السورة ٣١ « سورة لقمان » الآيتان : ٥ ـ ٦) : (٥) ومن النـــاس من يشتري لهو الحديث ليُضلَّ عن سبيل الله بغير علم ويتخذَها هزُواً أولئك لهم عذابٌ مُهين . (٦) واذا تُتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأنْ لم يسمعها ، كأنَّ في أُذُنيه وقراً ، فبشّرْهُ بعذابٍ اليم . » .

ويؤكد الحريري ان للمقامات غرضـــاً أخلاقياً فيقول ان الجاهل والشرير ربما يلعنان كتابه ولكن القراء الفطنين يدركون ، اذا ما وضعوا التحيز جانبا ، انه نافع ومفيد كاساطير الحيوانات الخ[2] التي لم يعترض

---

(١) الفقرة مقتبسة مع شيء من التحوير (في ترجمتها الانكليزية) من مقامات الحريري التي نشرها ثيودور بريستن ، زميل ترنتي كوليج كمبرج الذي أصبح فيما بعــد استاذ العربية في كرسي اللــور المونر (١٨٥٥ ـ ١٨٧١)[= كتاب المقــامات للشيخ العــالم أبي محمــد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري مع شرح مختار للبـــارون سلوستري دي ساسي ، طبع بباريس بدار الطباعة الملكية سنة ١٨٢٢م ، ص ٦ ـ ٨] « المترجم » .

(٢) عرف المسلمون اساطير بيدبا منذ عهـــد بعيد وقد ترجمهــا من الفهلوية الى العربية ابن المقفع (توفي حوالي ١٤٢هـ/٧٦٠م) .

عليها أحد أبداً .

نقد المقامات على انها مفسدة للاخلاق :

ويتبين لنا ان خوفه من النقد العدائي لم يكن دون أساس بالمرة من الملاحظات الآتية التي يبديها مؤرخ التأريخ المشهور المعروف « بالفخري » (المتوفي حوالي ٧٧٠هـ/١٣٠٠م) اذ يستمر هذا الكاتب بعد ان يدعي بأن كتابه أنفع من ديوان الحماسة لابي تمام فيقول :ـ

« وهو أيضا انفع من المقامات التي الناس فيها معتقدون ، وفي تحفظها راغبون ، اذ المقامات لا يستفادُ منها سوى التمرن على الانشاء ، والوقوف على مذاهب النظم والنثر ، نعم وفيها حكم وحيل وتجارب الا أن ذلك مما يُصغِّر الهمة ، اذ هو مبني على السؤال والاستجداء والتحيل القبيح على تحصيل النزر الطفيف ، فان نفعت من جانب ضرّتْ من جانب ، وبعض الناس تنبهوا على هذا من المقامات الحريرية والبديعية »[1] .

شخصية ابي زيد :

وقبل أن نصدر حكماً على عدالة هذا التقريع يجب علينا ان نتأمل للحظة شخصية أبي زيد ، بطل كتاب الحريري ، الذي يروي مغامراته شخص اسمه الحارث بن همّام الذي يظن انه اسم استعاره المؤلف لنفسه ، وعلى ما تقول الرواية التقليدية بصورة عامة ، كان الحريري يوما ما مع عدد من العلماء في مسجد بني حرام في البصرة عندما دخل شيخ موجع القدمين عليه أهبة السفر وعندما سُئل عن هويته ومن أين هو أجاب ان كنيته أبو زيد وانه من سَروُج[2] وقد

(١) الفخري طبعة ديرنبرغ ، ص ١٨ س ٤ وما يليه [= ص ١٨ ـ ١٩ من طبعة علي الجارم ، القاهرة ، ١٩٢٣م ، «المترجم»] .

(٢) سروج مدينة في بلاد ما بين النهرين لا تبعد عن ايديسا "Edessa" احتلها الصليبيون سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م (أبو الفداء ، طبعة رايسكه ، جـ ٣ ص ٣٣٢) .

وصف بنعوت بليغة تثير المشاعر كيف ان مدينته الاصلية قد أغار عليها الروم ونهبوها واسروا ابنته وحملوه على التغرب والفاقة ، وقد تأثر الحريري بقواه الارتجالية المدهشة بحيث انه انشأ في نفس الامسية « المقامة الحرامية »[1] حيث يُقدّم أبو زيد بشكله الثابت الذي لا يتغير : « كشيخ محتال مليء بالعبقرية والعلم لا يتحرج من الحيل التي يستعملها للوصول الى غرضه غير مكترث لبذل المال الذي احرزه بفطنته أو خداعه ولكن بقوة مشاعر صادقة فيه ، في ملاذٍ ممنوعة ، ويستسلم أبداً الى العاطفة غير المتصنعة ، عندما يتذكر بيته المهدّم وابنته الاسيرة »[2] واذا كان قد عُزي الى مقامات الحريري جنوح لا اخلاقي فلأن المؤلف لا يخفي اعجابه بهذا الصعلوك السيء السمعة الذي لا مبدأ له ؛ والحق ان أبا زيد قد جعل مبهجا ساحرا بحيث يمكننا أن نغفر له خبثه ومكره من أجل لآلىء الفطنة والحكمة التي ينثرها بوفرة ممتازة ـ محادثات سامية ، ومواعظ رفيعة ، ومناجاة شاكية ممزوجة بالاقوال الدارجة المرحة والمداعبات البذيئة ، وليس من المحتمل أن يتفق القراء المحدثون مع المؤرخ الذي أشير اليه في أعلاه ، ولكن لايمكنهم أن ينكروا ما عنده من تبرير رغم أنهم قد يعتبرون نقده غير حُرّ .

ويمكن محاكاة سجع الحريري في الانكليزية بحرية ، ولكن صعوبة ترجمته سجعا بأمانة محتملة جعلتني اتخلى عن محاولة اخراج صورة من احدى المقامات بالشكل الاصلي[3] ، لذلك سأقدم بدلاً عن

(١) المقامة الثامنة والاربعون حسب التسلسل الاخير الذي رتبت فيه المقامات .

(٢) شينيري ، سبق ذكره ، ص ٢٣ .

(٣) لقد قام بمثل هذا العمل الشاعر الالماني فردريش روكرت بمهارة خارقة ، تحت عنوان : (مغامرات ابي زيد السروجي) « بالالمانية » الطبعة الثانية ، ١٨٣٧م على ان كتابه هذا ليس ترجمة بأي معنى من معاني الترجمة ، وللحصول على ترجمة مسجّعة للمقامتين الحادية عشرة =

ذلك ثلاث قصائد وضعت في فم أبي زيد ، الاولى مرثية رقيقة ، تستعيد الايام الغابرة البعيدة للشباب والسعادة في وطنه الاصلي [من مجزوء الكامل المرفل] :-

غسان أسرتي الصميمة وسروج تربتي القديمه
والبيت مثل الشمس اشـ ـراقاً ومنزلة جسيمه
والربع كالفردوس مطـ ـيبة منزهة وقيمه
واهاً لعيش كان لي فيها ولذات عميمه
أيام أسحب مطرفي في روضها ماضي العزيمه
أختال في برد الشبا ب وأجتلي النعم الوسيمه
لا أتقي نوب الزما ن ولا حوادثه المليمه(١)
فلو ان كرباً متلف لتلفت من كربي المقيمه
أو يفتدى عيش مضى لفدته مهجتي الكريمه
فالموت خير للفتى من عيشه عيش البهيمة
تقتاده برة(٢) الصغا ر الى العظيمة والهضيمه
ويرى السباع تنوشها أيدي الضباع المستضيمه
والذنب للايام لو لا شوقها لم تنب شيمه
ولو استقامت كانت الـ أحوال فيها مستقيمه(٣)

وقد جعل مشهد المقامة الحادية عشرة في « ساوه » وهي مدينة تقع بين همدان والري « فالحارث في نوبة من الحماسة الدينية يقصد

= والثانية عشرة راجع كتاب « مترجمات من الشعر والنثر الشرقيين » ص ١١٦ ـ ١٢٤ (لنكلسن) « من فصل الهوامش » .

(١) هذا البيت لم يرد في ترجمة نكلسن الانكليزية للقصيدة وانما أوردناه اتماما للفائدة .

(٢) البرة : حلقة تجعل في انف البعير وهي من صفر وأن كانت من شعر فهي خزام فان كانت من خشب فهي خشاش .

(٣) كتاب المقامات لابي محمد الحريري ، طبعة البارون سلوستردي ساسي ، ص ٦٢-٦٣ وتجد الترجمة الحرفية لهذه الابيات الواردة في المقامة السادسة عند شينيري ، سبق ذكره ، ص ١٣٨ .

المقبرة للتأمل فيرى تشييع جنازة وعندما تنتهي المراسيم يقف شيخ على تل صغير وقد لفع وجهه بمعطفه ويلقي خطبة عن حقيقة الموت والمعاد ، ثم يرقى الى مرتبة الشعر فينشد قصيدة هي من انبل ما انتجه الادب العربي وليس ثم ما يفوق هذه الترنيمة في سموها الاخلاقي وحماسها الديني وجمالها اللغويّ وقوة وزنها ولطافته »[1] [من الهزج] :

أيا من يدّعي الفهمْ ... الى كم يا أخا الوهمْ
تُعبّي الذنبَ والذمْ ... وتخطى الخطأَ الجمّ
أما بانَ لكَ العيبُ ؟ ... أما أنذرك الشيبُ ؟
وما في نُصحهِ ريبُ ... ولا سمعُكَ قد صمّ
أما نادى بك الموتْ ... أما أسمعك الصوتْ ؟
أما تخشى من الفوت ... فتحتاط وتهتمْ ؟
فكم تَسْدرُ في السهوِ ... وتختالُ من الزهوِ
وتنصبُّ الى اللهوِ ... كأنّ الموت ما عمّ
وحتّام تجافيكَ ... وابطاءُ تلافيكَ
طباعاً جمعت فيكَ ... عُيوباً شملُها انضم
اذا اسخطّت مولاكَ ... فما تقلق من ذاكَ
وانْ أخفق مسعاكَ ... تلظّيْتَ من الهمْ
وان لاح لك النقشُ ... من الأصفر تهتشُ
وانْ مرَّ بك النعشُ ... تغامتَ ولا غمّ
تُعاصي الناصح البرّ ... وتعتاصُ وتزورّ
وتنقادُ لمن غرّ ... ومن مان ومن نمّ
وتسعى في هوى النفسِ ... وتحتال على الفلْس
وتنسى ظلمة الرمس ... ولا تذكُرُ ما ثمّ
ولو لا حظك الحظّ ... لما طاح بك اللحظُ
ولا كُنتَ اذا الوعظُ ... جلا الاحزانَ تغتم

(١) نفس المصدر ، ص ١٦٣ .

ستذرى الدمَّ لا الدمع — اذا عاينت لا جَمْع
يقي في عرْصة الجمْع — ولا خالَ ولا عمّ
كأنّي بك تنحط — الى اللحد وتنغطُ
وقد اسلمك الرهط — الى أضيقَ من سَمّ
هناك الجسم ممدوْد — ليستأكله الدّودْ
الى ان ينخرَ العود — ويُمسى العظمُ قدرمّ
ومن بعدُ فلابُدّ — من العرضِ اذا اعتدّ
صراط جسرُهُ مُدّ — على النارَ لمن أمّ
فكم من مرشدٍ ضلَّ — ومن ذي عِزّة ذَلَّ
وكم من عالمٍ زلّ — وقال الخطبُ قد طمّ
فبادر أيها الغُمْر — لما يحلو به المُرّ
فقد كاد يهي العمُر — وما أقلعت عن ذم
ولا تركن الى الدهر — وان لان وان سرّ
فتُلفى كمن اغتر — بأفعى تنفث السمّ
وخفّض من تراقيك — فان الموت لاقيك
وسارٍ في تراقيك — وما ينكُلُ انْ همّ
وجانب صعَرَ الخدّ — اذا ساعدك الجدّ
وزُمّ اللفظ ان ندّ — فما أسعد من زمّ
ونفّسْ عن أخي البث — وصدّقهُ اذا نثّ
ورُمّ العمل الرث — فقد أفلح من رمّ
ورشْ من ريشُهُ انحصّ — بما عمّ وما خصّ
ولا تأس على النقص — ولا تحرص على اللمّ
وزوّدْ نفسك الخير — ودَعْ ما يُعقب الضيرْ
وهيء مركب السّيْر — وخَفْ من لجة اليَم
بذا أوصيتُ يا صاح — وقد بُحت كمن باح

فطوبى لفتى راح بآدابي يأتم[1]

وفي المقامة التالية ـ المقامة الدمشقية ـ نجد أبا زيد مرتديا حلة مبهجة وسط براميل الخمر وزقاقه منادما ومصغيا الى موسيقى الاعواد ومنشدا [من مجزوء المتقارب] :

لزمتُ السّفارْ وجُبتُ القفارْ وعِفتُ النفارْ لاجني الفرحْ
وخُضْتُ السيول ورضتُ الخيول لجر ذُيول الصّبا والمَرح
ومطتُ الوَقار وبعت العَقار لحسو العُقار ورشف القدح
ولو لا الطِماح الى شُرب راح لما كان باح فمي بالمُلَح
ولا كان ساق دهائي الرفاق لارض العراق بحملى السُبح
فلا تغضبنْ ولا تصحبنْ ولا تعتبنْ فعُذري وضحْ
ولا تعجبنْ لشيخٍ أرنْ بمغنى أغنْ ودنٍ طفحْ
فانّ المُدام تُقوى العظام وتَشفي السّقام وتنفي الترح
وأصفى السرور اذا ما الوَقُور أماط ستور الحيا واطّرح
وأحلى الغرام اذا المستهام أزال اكتتام الهوى وافتضح
فبُح بهواك وبَرِّد حشاك فزندُ أساك به قد قَدَح
وداو الكلوم وسلّ الهموم ببنت الكروم التي تُقْتَرح
وخُصّ الغَبوق بساقٍ يسوق بلاءَ المشوق اذا ما طَمح
وشادٍ يشيد بصوتٍ يَميد جبالُ الحديد له انْ صَدَح
وعاصِ النصيحَ الذي لا يُبيح وصالَ المليح اذا ما سمح
وجُل في المِحال ولو بالمُحال ودَعْ ما يُقال وخذ ما صلح
وفارق أباك اذا ما أباك ومُدّ الشباك وصِدْ من سَنَح
وصاف الخليل وناف البخيل وأوْلِ الجميل ووالِ المنح
ولُذْ بالمتاب أمام الذهاب فمن دقّ باب كريم فَتَح[2]

بوسع القارىء ان يحكم من هذه المقتبسات ما اذا كانت مقامات

(١) مقامات الحريري، طبعة البارون دي ساسي : ص١٠٨ـ١١٢ .

(٢) مقامات الحريري، طبعة البارون دي ساسي ، ص١٢٢ـ١٢٤.

الحريري ضعيفة في مادتها كما تخيلها بعض النقاد ؛ ولكن شهرة الكتاب بطبيعة الحال تعود بصورة رئيسة الى شكله الادبي الكامل ـ وهي قضية أضفى عليها العرب دوما اهتماما فريدا ، وقد كان الحريري نفسه نحويا متعمقا في النحو يعيش في البصرة موطن العلوم اللغوية[١] ، ومع انه كتب ليبهج اكثر مما يثقف فالظاهر أنه كان قـد صمم على ان يجعل كتابه موضحا كل مواطن الجمال والروعة في اللغة العربية ولا يمكن للاوربيين الا ان يروا القليل من المزايا او الذوق في الصور اللفظيّة كالتوربه،والتقفيه والجناس التام والجناس الناقص في اول الكلمة الخ ... تلك التي رصعت بها صفحاته ترصيعا كثيفا ، كما في انشاء التفنن الذي يمكن ان يقرأ من اليمين الى اليسار او بالعكس او الذي يتألف من الحروف المعجمه او غير المعجمه ؛ ولكن عدم اصطبارنا على مثل هذه الاشياء يجب ألا يعمي بصائرنا عن حقيقة انها متصلة اتصالا وثيقا بعبقرية اللسان العربي وتقاليده[٢] فهي تقف على مستوى يختلف عن الاسراف الزخرفي الذي يبدو مثلا في الأدب الانكليزي للعصر الاليزابيثي ؛ ويعد مواطنو الحريري المقامات نصبا فريدا او ما يشبه النصب الفريد للغتهم وماضيهم القديم وثقافتهم ، وقد عبر أحد معاصري المؤلف ، وهو الزمخشري الشهير ، الحكْم العام في بيتين مركّزين [من السريع] :

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقاته
أن الحريريَّ حريٌّ بأن تكْتُب بالتبر مقاماته[٣]

---

(١) وصلتنا رسالتان نحويتان للحريري وفي احداهما وهي الموسومة « بدرة الغوّاص » التي حققها توربيكه (لايبزغ ١٨٧١) يناقش الاخطاء اللغوية التي اعتاد المثقفون أن يرتكبوها .

(٢) راجع شينيري ، سبق ذكره ، ص ٨٣ ـ ٩٧ .

(٣) راجع في دراسة الحريري : ابن خلكان ١/٤١٩ وطبقات الادباء ٤٥٣ وفوات الوفيات ٢/٤٢ والانساب ١٦٥ ب ومعجم الأدباء ١٦/٢٦١ وانباه الرواة ٣/٢٣ والبغية ٣٧٨ والفلاكة والمفلوكين ١١٨ وطبقات الشافعية ٤/٢٩٥ وروضات الجنات ٥٢٧ وتاريخ أبي الفداء ٢/٢٣٥ وشذرات الذهب ٤/٥٠ واللباب لابن الاثير ١/٢٩٥ ومرآة

الادب الديني لهذه الفترة :

سنذكر المزيد فيما يتعلق ببعض العلوم الدينية الصرفة كمثل اللاهوت والتصوف ، في الفصل القادم ، في حين انه يجب علينا ان نشير على القارىء ، فيما يخص علم الحديث بمراجعة ما ذكرناه مسبقا ، وكل ما يمكن محاولته هنا هو ان نذكر بصورة عابرة ابرز الكتاب واشهر مؤلفات هذه الفترة في مجال الدين •

مالك بن أنس (٩٥هـ/٧١٣م - ١٧٩هـ/٧٩٥م) :

ومكانة الشرف هنا للامام مالك بن أنس المدني الذي يعد « موطأه » أول مجموعة عظيمة في الشريعة الاسلامية وكان من اشياع العلويين وقد جلده الخليفة المنصور لانه أعلن أن بيعة العباسيين غير مُلزِمة[1] •

الجنان ٣/٢١٣ « والفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ١١٠ - ١٥١ و « المقامة » لشوقي ضيف ، ودائرة المعارف الاسلامية ومقدمة دي ساسي لطبعته للمقامات في باريس سنة ١٨٢٢م وكذلك مقدمة شينيري لترجمته للمقامات = جرجي زيدان : تأريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ٤٠ - ٤١ ومن المراجع الحديثة في موضوع المقامات وكتابتها بصورة عامة ما يلي : الدكتور محمود غناوي الزهيري : « الادب في ظل بني بويه » (القاهرة ، ١٩٤٩) ص ٢٢٢ - ٢٣٩ ومحمود تيمور : نشوء القصة وتطورها ص ٣٥ - ٣٨ وأنيس المقدسي : « تطور الاساليب النثرية في الادب العربي » بيروت ، ص ٣٧٥ - ٤١٤ ، الدكتور محمد جميل سلطان : « القصة والمقامة » دمشق ١٩٤٢ ؛ على الجندي : « بين الخوارزمي والهمداني » الرسالة ٨ (١٩٤٠) ص ١٣٥ ، ١٧٥ ، عبده حسن زيات : موازنة بين مقامات البديع ومقامات الحريري - الحديث ٢ ص ١٣٤ - ١٦٢ = حنا الفاخوري : « تأريخ الادب العربي » (ط ٢ ، ١٩٥٣) ٧٣٨ - ٧٥٠ ، السباعي بيومي : « تأريخ الادب العربي » ، ج ٣ في العصر العباسي بالمشرق (ط ٢ ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٨م) ص ١١٣ - ١٢٥ و ١٩٦ - ٢٠٥ و ٣٢٣ - ٣٤٠ وصفاء خلوصي ، « المقامات أو الفن الاقصوصي المسجع » مجلة المعلم الجديد لسنة ١٩٦٢ و « المقامات كمظهر من مظاهر التدهور الاقتصادي » ، مجلة المعرفة العراقية ، العدد ٤ ، السنة الاولى (١٥ شباط ١٩٦١) •

(١) راجع في مالك كتاب المعارف لابن قتيبة (طبعة وستنفيلد) ص ٢٥٠و٢٩٠ والانساب للسمعاني ٤١ آ وحاشية الزرقاني على الموطأ =

البخـــاري ومسلم :

والمصدران الرئيسان للاحاديث النبوية هما البخاري (ت٢٥٧هـ/٨٧٠م) ومســـلم (ت٢٦٢هـ/٨٧٥م) مؤلفـــا المجموعتين الموسومتين «بالصحيح» وهناك مجاميع ذات نطاق أضيق لاتضم الا تلك الاحاديث التي لها علاقة بالسُنَّة النبوية من مثل سُنَنِ أبي داود السجستاني (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م) وجامع ابي عيسى محمد الترمذي (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م) وسنن النسائي (ت٣٠٣هـ/٩١٥م) وسُنن ابن ماجه (ت٢٨٣هـ/٨٩٦م) وتؤلف هذه مع صحيحي البخاري ومسلم (الكتب الستة) التي تعد في أعلى مكان من التقديس وبين الكتب التي لاعد لها مما انتج في هذه الفترة من نفس النمط يكفي أن نذكر « مصابيح السُنَّه » للبغوي (ت حوالي ٥١٤هـ/١١٢٠م) وكثيرا ما طبع كتاب محور عنه باسم « مشكاة المصابيح » لا يزال محبوبا شائعا أشد الشيوع .

= والمدارك للقاضي عياض والديباج المذهب لابن فرحون وفجر الاسلام وضحى الاســـلام وبحثنا فيه لابي زهـرة وتأريخ التشريع الاســـلامي لمحمد الخضري ودائرة المعارف الاسلامية وما بها من مراجـــع وبروكلمان ١/١٧٥ والملحق ١ ص ٢٩٧ [= ج ٣ ص ٢٧٤ ـ ٢٩١ من الترجمـــة العربية للمرحوم عبدالحليم النجار ، القاهرة ، ١٩٦٢] = جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، جـ٢ ص ١٦٢ ومالك بن أنس هو أبو عبدالله مالك بن أنس بن أبي عامر الاصبحي ويرجع أصله الى ذي أصبح الحميري أحد ملوك حمير وقيل انه كان يصاحب مغنى المدينة فنصحـته أمه بترك المغنين ومصاحبة الفقهاء ففعل ليصبح فيما بعد مؤ سس المذهب المالكي وقد اخذ عن الزهري ، وكان فيه تشيع « فلما خرج محمد بن عـبدالله العلوي بالمدينة على بني العباس سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م افتي بان النـــاس بايعوا بني العباس مكرهـين وليس على مكره يمين (الطـبري ٣/٢٠٠ « الطبعة الاوربية ») ويروى ان الرشيد حضر درسه عندما جاء الى المدينة في الحج وذلك قبيل وفاته سنة ١٧٩هـ » بروكلمان (النسخة العربية) ٣/٢٧٤ وكان مالك بن أنس شديد البياض مع ميل الى الشقرة ، طويلا عظيم الهامة ، أصلع . (زيدان : ٢/١٦٢) .

الـــماوردي (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) :

وبعد ان نحذف كتب التشريع الاسلامي العظيمة التي لا قيمة ادبية لها بالمعنى الواسع بوسعنا ان نقف لحظة عند اسم الماوردي ، الفقيه الشافعي الذي كتب رسالة شهيرة في السياســة ـ « كتــاب الاحكام السلطانية » ووجهة نظره نظرية بحته تقرر أن الخليفة يجب ان ينتخب من قبل العلماء والتقاة وفقهاء السُنّة وعلى الناس ان يتركوا ادارة شؤون الخلافة للخليفة بصورة مطلقة بوصفه ممثلا لها • عاش الماوردي في بغداد خلال فترة علو شأن آل بويه ، الفترة التي وصفها الســر وليم ميــور بالكلمات الاتية : « تكاد صفحات مؤرخينا الان تكون مليئة تماما بالحوادث السياسية لهذه الفترة وقلما كان للخلفاء أن شأن في توجيهها فهي لذلك لاتحتاج الى ذكر هنا »(١)

المصادر العربية في التصوف :

وفي ظل الاسرة العباسية نظّمت مبادىء النسك الصوفية واوضحت ومن أهم المصادر العربية في التصوف كتاب « قوت القلوب » لابي طالب المكي (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م) و « كتاب التعرف لمذهب اهـــل التصوّف » لمحمد بن اسحق الكلاباذي (توفي حوالي ٣٩١هـ/١٠٠٠م) و « طبقات الصوفيّة » لابي عبدالرحمن السُلَمي (ت٤٣٠هـ/١٠٣٨م) و « الرسالة القُشيريّة » لابي القاســم القشيري النَيسْابوري (ت٤٦٧/١٢٣٤م) و « احياء علوم الدين » للغزالى (ت٥٠٥هـ/١١١١م) و « عوارف المعارف» لشــهاب الدين أبي حفص عمــر الســهروردي (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م) وهي قائمة يمكن توسيعها بسهولة •

الغزالي (٥٠٥هـ/ ١١١١م) :

وليس في اصول الفقه من يمكن مقارنته بأبي حامد الغزالي الملقب بـ (حُجة الاســلام) وهــو شخصية ذات اهمية بالغة بحيث يجب درج بعض المعلومات المفصلة عن حياته وآرائه في كتاب من مثل هــذا الذي

(١) الخلافة ، ظهورها وانحلالها وسقوطها ، ص ٥٧٣ •

بين أيدينا ـ الكتاب الذي يجنح الى ايضاح تاريخ الفكر الاسـلامي ؛ على اننا هنا لن نقـــدم غـير خطوط عريضة لسيرته ممهدين الطريق لمناقشة انجازاته العقلية وتأثيره البعيد المدى •

حياة الغزالي(١) كما وردت في « شذرات الذهب » :

وفيها (أي في سنة٥٠٥هـ = ١١١١م) توفي الامام زين الدين حجة الاسلام ابو حامد محمد ••• الطُوسي الشافعي •• توفي في رابع عشر جمادي الاخره بالطابران قصبة بلاد طوس وله خمس وخمسون سنة والغزّالي هو الغزّال وكذا العطّاريّ والخبّازيّ على لغة اهل خَراسان(٢) ، قاله في العِبَر(٣) وقال الاسْنَوِيّ (٤) في طبقاته : الغزالي امام باسمه تنشرح الصدور وتحيا النفوس وبرسمه تفتخر المحابر وتهتز الطروس وبسماعه تخشع الاصوات وتخضع الرؤوس • ولد بطوس سنة خمسين واربعمائة (١٠٥٨-١٠٥٩م) وكان والده يغـزل الصـوف ويبيعه في حانوته ، فلما احتُضِر أوصى به وبأخيه احمد الى صديق له صوفي صالح فعلمهما الخط وأدبهما ثم نفد منه ما خلفه أبوهما ••••قال الغزالي فصرنا الى المدرسة

---

(١) جـ٤ ص ١٠-١٣ وتجد سيرة الغزالي كذلك في مقدمة « احياء علوم الدين » جـ١ ص ١-٣ • « المترجم »

(٢) ومثال آخر على ذلك الخيّامي لعمر الخيـام وكانت تهجئـه الاسم « الغزّالي » بتشديد الزاي مستعملة بصورة عامة عندما كتب ابن خلكان كتابه « وفيات الاعيان » سنة ١٢٥٦م (راجع ترجمة دي سلان ، جـ ١ ص ٨٠)ولكن الاسم مشتق على رأي السمعاني ، من اسم غزالة ، قرية بالقرب من طوس ، والغَزالي في مثل هذه الحال النسبة الصحيحة وقد اتبعت الصورة غـير المشـددة للاسم احتراما لرأي السمعـاني ولكن الذين يكتبون الاسم بزاي مشـدّدة يمكنهم على الاقـل ان يدعوا انهـم يخطئون مع صفوة طيبة من المؤلفين •

(٣) شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) •

(٤) عبدالرحمن الاسنوي (ت ٧٧٢هـ/١٣٧٠م) مؤلف كتاب في تراجم علماء الشافعية ، راجع بروكلمان : « تأريخ الادب العربي » ، جـ ٢ ص ٩٠ •

نطلب الفقه لتحصيل القوت ، فاشتغل بها مـدة ثم ارتحل الى ابي نصر الاسماعيلي بجرجان ثم الى امام الحرمين[1] بنيسابور فاشتغل عليه ولازمه حتى صار أنظر اهل زمانه وجلس للاقرباء في حياة امامه وصنّف ... فلما مات امامه خرج الى المعسكر[2] وحضر مجلس نظـام الملك وكان مجلسه محط رجال العلماء ومقصد الأئمة والفصحاء فوقع للغزالي أمور تقتضي علو شأنه من ملاقاة الائمة ومجاراة الخصوم اللد ومناظرة الفحول ومناطحة الكبار فأقبل عليه نظام الملك وحل منه محـلا عظيما فعظمت منزلته وطار اسمه في الآفاق وندب للتدريس بنظامية بغـداد سنة أربع وثمانين (١٠٩١م) فقدمها في تجمل كبير وتلقاه الناس ونفذت كلمتـه وعظمت حشمته حتى غلبت على حشمة الامراء والوزراء وضـرب بـه المثل وشدت اليه الرحال الى أن شرفت نفسه عن رذائل الدنيـا فرفضها واطرحها وأقبل على العبادة والسياحـة فخرج الى الحجاز[3] في سنة ثمان وثمانين (١٠٩٥م) فحج ورجع الى دمشق واستوطنهـا عشر سنين بمنارة الجامع وصنف فيها كتباً يقال ان « الاحياء » منها ثم صار الى القدس والاسكندرية ثم عاد الى وطنه بطوس مقبلا على التصنيف والعبادة وملازمة التلاوة ونشر العلم وعدم مخالطـة النـاس ثم ان الوزير فخرالملك[4] ابن نظام الملك حضر اليه وخطبه الى نظاميـة نيسـابور والح عليه كل الالحاح[5] فاجاب الى ذلك واقام عليه مدة ثم تركه وعاد الى وطنه عـلى

---

(١) أبو المعالي الجويني فقيه نيسابوري مشهور (ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م) حصل على لقب « امام الحرمين » لانه درّس لسنوات عـديدة في مكة والمدينة ٠

(٢) أي بلاط معسكر الملك السلجوقي ملك شاه بن الب آرسلان ٠

(٣) وبعد ان ترك الغزالي بغداد ذهب ، على ما يقـوله هـو في « المنقذ من الضلال » ، الى دمشق أولا ومنها الى القـدس ومن ثم الى مكة أما ادعاء مكوثه عشر سنوات في دمشق فليس بمضبوط ٠

(٤) في المخطوطة : فخرالدين ٠

(٥) كانت عودة الغزالي الى الحياة العامة سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م ٠

ما كان عليه وابتنى الى جواره خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين ولزم الانقطاع .. الى ان انتقل الى رحمة الله[1] .

كتبه الرئيسة :

كتب الغزالي فضلا عن مؤلفه الخالد الذي سبق ذكره وهو « احياء علوم الدين » الذي يوضح فيه الفقه والفلسفة الاخلاقية للدين من وجهة نظر المدرسة الصوفية المعتدلة عددا كبيرا من المؤلفات الخطيرة « كالمنقذ من الضلال » كنوع من الاعتذار عن حياة شاذة ، و « كيمياء السعادة » الذي كتب في الأصل بالفارسية ، و « تهافت الفلاسفة » (أي انهيار الفلاسفة) وهو رسالة جدلية وضعت لدحض وتحطيم مبادىء الفلسفة الاسلامية وقد حمل هذا المؤلَّف الفيلسوف المشهور ابن رشد (المتوفي في مراكش سنة ١١٩٨ ـ ١١٩٩م) على كتابة رد عليه[2] .

---

(١) ابن العماد الحنبلي : « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » (طبعة مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ) ج ٤ ص ١٠ ـ ١٢ [ويلاحظ ان نكلسن أسقط من ترجمته عبارة : وابتني الى جواره خانقاه الخ ..] .

(٢) راجع في ترجمة الغزالي ابن خلكان ١/٤٦٣ وطبقات الشافعية للسبكي ٤/١٠١ ـ ١٨٢ ومقدمة المرتضى لكتابه : اتحاف السادة المتقفين بشرح اسرار احياء علوم الدين ١/١٠١ ـ ١٨٢ وروضات الجنات ص ٧٥ ولسان الميزان ١/٢٩٣ ومفتاح السعادة لطاشكبري زاده ٢/١٩١ ومقدمة الأب بويج التي قدم بها نشرته لكتاب التهافت (طبع بيروت ١٩٢٧) وتأريخ الفلسفة في الاسلام لدي بور ص ١٩٦ وتأريخ الادب في ايران من الفردوسي الى السعدي ص ٣٦٨ ودائرة المعارف الاسلامية وبروكلمان ١/٤١٩ = جرجي زيدان ، تأريخ آداب اللغة العربية (مراجعة الدكتور شوقي ضيف) ج ٣ ص ١٠٥ ـ ١٠٧ وقد اورد زيدان كتبا أخرى للغزالي أغفلها نكلسن وهي :

(أ) كتاب البسيط : في الفروع على نهاية المطلب لامام الحرمين منه نسخة خطية في الاسكوريال وفي دار الكتب المصرية .

(ب) الوسيط المحيط بأقطار البسيط : في الفقه الشافعي .

(جـ) الوجيز : في الفروع ، منه نسخة خطية في مكتبة باريس =

كتاب الملل والنّحل للشهرستاني :

بوسعنا ان نلاحظ هنا كتابين قيمين في تاريخ الاديان وكلاهما يعرف بصورة عامة بـ «كتاب الملل والنحل»[1] أحدهما لابن حزم القرطبي (المتوفى سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م) والاخر لابي الفتح الشهرستاني (المتوفى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م) وسنذكر ابن حزم ثانية في الفصل الخاص بتاريخ المسلمين في اسبانيا وآدابهم . والشهرستاني كما هو معروف من لقبه المستمد من مسقط رأسه من اقصى الطرف الاخر من الامبراطورية الاسلامية ، فهو من اهالي خراسان ، الاقليم الشرقي الواسع الذي يحده نهرسيحون ، ويقدم كيورتن (Cureton) الذي نشر النص العربي « لكتاب الملل والنحل (لندن ، ١٨٤٢-١٨٤٦)[2] الخلاصة الاتية عن

= وأخرى في دار الكتب المصرية .

(د) مقاصد الفلاسفة : عرف فيه مذاهبهم ومقاصدهم . طبع في ليدن سنة ١٨٨٨م مع شروح وله ترجمة لاتينية طبعت في البندقية سنة ١٥٠٦ .

(هـ) المضنون به على غير أهله : طبع في مصر سنة ١٣٠٩ وبعضهم ينكر نسبته اليه .

(و) كتاب بداية الهداية في المواعظ ، طبع في القاهرة عدة مرات .

(ز) سر العالمين وكشف ما في الدارين : يبحث في نظام الحكومات .

(ح) جواهر القرآن ويشمل زبدة القرآن .

(ط) فضائح الباطنية .

(ي) غرائب الاول في عجائب الدول .

(ك) تنزيه القرآن عن المطاعن [راجع « الهلال » سنة ١٩١٥م صفحة ٣٢٣] .

(١) العنوان الصحيح لكتاب ابن حزم غير مؤكد فقد سُمِيّ في طبعة القاهرة (١٣٢١ هـ) بـ« كتاب الفصل في الملل والاهواء والنحل » .

(٢) وقد طبع الكتاب في مصر سنة ١٢٦١ هـ وعلى هامش طبعة « الفصل » لابن حزم وقد نقله الى الالمانية هاربر وكر وطبع في هال سنة ١٨٥١ ونقله الى التركية نوح بن مصطفى (ت ١٠٧٠هـ) والى الفارسية افضل الدين الاصفهاني .

مضمونه :

« بعد خمسة فصول استهلالية يمضي المؤلف لترتيب كتابه في قسمين كبيرين يضم أولهما المذاهب الدينية وثانيهما المذاهب الفلسفية ويحتوي الاول على معلومات عن مختلف مذاهب المسلمين واتباع الانبياء الذين سبقوا محمد (ص) والذين نزل عليهم وحي مصدق (وهم اهل الكتاب اي « اليهود والمسيحيون ») ومن له شبهة الكتاب كالمجوس والصابئة ، ويحتوى القسم الثاني على معلومات عن الآراء الفلسفية للصابئة تلك التي وضعت بصورة رئيسة على هيئة حوار ممتع بين صابئي ومسلم سني ، وعن معتقدات مختلف فلاسفة الاغريق وبعض آباء الكنيسة المسيحية وكذلك علماء المسلمين ، ولا سيما فيما يتعلق بطريقة ابن سيناء التي يوضحها المؤلف بتفاصيل ضافية ، وينتهي الكتاب بمعلومات عن معتقدات العرب قبل الاسلام وعن ديانة أهل الهند »(١) .

النحو واللغة :

ظهر علم النحو في البصرة والكوفة اللتين أسستا بُعَيْدَ وفاة محمد(ص) وبقيتا المركزين الرئيسين للحياة العربية والفكر العربي خارج شبه الجزيرة الى أن اصابتهما العاصمة العباسية العظيمة بالكسوف وكان السكان في كلتا المدينتين من البدو الذين ينتمون الى قبائل شتى ويتكلمون بلهجات عديدة مختلفة ، في حين أنه كان هناك كذلك الالوف من الصناع والموالي الذين كانوا يتكلمون الفارسية كلغتهم الاصلية بحيث ان اللغة العربية الفصيحة غدت عرضة لتأثيرات الفساد والانحلال بشكل غريب ، فاذا كان كبرياء وابتهاج العرب بلغتهم النبيلة أفضيا بهم الى أن يعتبروا الحفاظ على نقائها واجبا قوميا ، فقد كانوا ملزمين كذلك بموجب معتقداتهم الدينية على حد سواء بان يتخذوا اجراءات حاسمة ليتأكدوا

(١) راجع فيما يتعلق بالشهرستاني ابن خلكان : ٤٨٢/١ وتاريخ الادب في ايران ص ٤٥٩ « ومعجم البلدان » مادة « شهرستان » ودائرة المعارف الاسلامية = زيدان : ١٠٨/٣ .

من التلفظ والتفسير الصحيحين « لتلك المعجزة في البلاغة الالهية » : القرآن العربي الكريم[1] !

اختراع النحو العربي :

والى هذا الدافع تنسب الروايات اختراع النحو ، وقد رُوِيَ ان مخترعه هو أبو الاسود الدؤلي[2] الذي مات في البصرة في العصر الاموي وقيل لابي الاسود : « من أين لك هذا العلم ؟ » يعنون النحو ، فقال : « لقنتُ حدوده من علي بن أبي طالب رضى الله عنه » .

وقيل : ان أبا الاسود المذكور كان لايُخرجُ شيئا اخذه عن علي بن أبي طالب الى أحد ، حتى بعث اليه زياد[3] : ان اعمل شيئا يكون للناس اماماً ويُعرفُ به كتاب الله عزوجل ، فاستعفاه من ذلك ، حتى سمِعَ ابو الاسود قارئاً يقرأ (أَنَّ الله بريء من المشركين ورسولِه)[4] بالكسر ، فقال : « ما ظننت أن أمر الناس آل الى هذا » ، فرجع الَى زياد فقال : « أفعلُ ما أمر به الامير »[5] .

مدرسة البصرة في اللغة والنحو :

ان مدرسة البصرة التي قيل ان أبا الأسود مؤسسها هي أقدم من مدرسة الكوفة المنافسة لها وقد فاقتها في الشهرة ، وأشهر من يمثلها أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ/٧٧٠م) ، وهو من الذين درسوا القرآن بدأب وعمق وما لبث أن احرق جميع ما كان لديه من

---

(١) يراجع في موضوع النحو في العصر العباسي الأول زيدان : جـ٢ ص ١٣٠ـ١٣٧ .

(٢) يراجع « المدخل الى موسوعة العتبات المقدسة » للاستاذ جعفر الخليلي ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٣٧٢ . [المترجم]

(٣) راجع الصفحة ١٩٥ من النص الانكليزي « لتاريخ العرب الادبي » لنكلسن .

(٤) القرآن ، السورة التاسعة ، « سورة التوبة » الآية الثالثة .

(٥) ابن خلكان ، ترجمة دي سلان ، جـ١ ص٦٦٣ [=جـ٢ ص ٢١٦ـ٢١٧ (رقم ٢٩٠) من النص العربي ، طبعة محمد محي الدين عبدالحميد ، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨] .

مجمـوعات الشـعر الجاهـلي وغـيره وعكف على العبادة[1] ؛ والخليل ابن احـمد[2] مخترع عـلم العروض وواضع أول معجم عربي (كتاب العين) ولو ان الاجل لم يطل به ليُتِمَّه ، وسيبويه الفارسي الذي اشتهر عموماً بنحوه الموسـوم بـ « كتـاب سيبويه » والانسانيون[3] العظـام : الأصمعي وأبو عبيـده (اللذين عاشا في عصر الرشيـد) والمبرّد الذي ظهر بعدهما بنحو قرن والذي نشـر له الاسـتاذ وليم رايت اشهر كتبه وهو « الكامل » ، ومعاصره السكّري الجامع والناقـد المشهور للشعر الجاهلي وابن دريـد (ت ٣٢٣هـ/٩٣٤م) اللغـوي والنسابه والشاعر المشهور الذي أجرى عليـه الخليفة المقتدر مرتبـاً شـهريا[4] اعترافا له بخدماته للعلم وتضم اعماله الرئيسة ، بالاضافة الى مقصورته المشهورة ، « الجمهرة في اللغة » ورسالةً في أنساب القبائل العربية بعنوان : (كتاب الاشتقاق) .

مدرسة الكوفة في اللغة والنحو :

وبوسع مدرسة الكوفة ان تضع ازاء هذه الاسماء اسم الكسائي[5] وهو عالم فارسي عهد اليه هارون الرشيد بتربية ولديه الامين والمأمون ؛

---

(١) فوات الوفيات : ١/١٦٤ ويراجـع كذلك طبقات الادباء ٣١ وابن خلكان ١/٣٨٦ والفهرست ودائرة المعارف الاسـلامية = زيدان ٢/١١٤ .

(٢) يراجع فيه ابن خلكان ١/١٧٢ وطبقات الادباء ٥٤ والفهرست ٤٢ وابن خلدون ١/٤٨٢ =زيدان ٢/١٤٠ وكتاب عنه للدكتور مهدي المخزومي .

(٣) المقصود بالانسانيين هنا اولئك الذين اشتهروا بالدراسات الانسانية (Humanities) كاللغة والادب والتاريخ الخ.. « المترجم »

(٤) قدره خمسون دينارا في الشهر ، راجع زيدان : ٢/٢١٩ .

(٥) يراجع فيه ابن خلكان ١/٣٣٠ وطبقات الادباء ٨١ والفهرست ٢٩ و ٦٥ والانساب للسمعاني ٤٨٢ أ وتاريخ بغداد ١١/٤٠٣ وتهذيب اللغة للازهري ١/٧ .

والفرّاء[1] (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) تلميذ الكسائي ومن ابناء جنسه ، والمفضل الضبي[2] الذي كان اثيراً عند الخليفة المهدي فجمع له ديواناً ممتازاً من الاشعار الجاهلية عرف « بالمفضليات » التي اسلفنا ذكرها[3] ، وابن السِّكِّيت الذي افضت به مشايعته الصريحة لآل علي بن أبي طالب الى ان يُداس بوحشية حتى الموت تحت اقدام الحرس التركي للطاغية المتوكل (٢٤٤هـ/٨٥٨م) ؛ وثعلب ، رأس مدرسة الكوفة على عهده (ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م) وقد رويتْ عن منافسته للمبرِّد حكايات

(١) يراجع فيه ابن خلكان ٢/٢٢٨ وطبقات الادباء ١٢٦ والفهرست ٦٦ .

(٢) توفي سنة ١٦٨هـ واخذ عنه ابو زيد الانصاري وله كتاب الامثال ، طبع في الاستانة سنة ١٨٨٢ واخباره في طبقات الادباء ٦٧ والفهرست ٦٨ والعقد الفريد ٣/١٣١ وتاريخ بغداد ١٣/١٢١ وميزان الاعتدال للذهبي ٢/٤٩٨ والانساب للسمعاني ٣٦١ أ ، وبغية الوعاة ٣٩٦ وطبقات الزبيدي ١٣٣ وطبقات القراء ٢/٣٠٧ واللباب في الانساب ٢/٨١ ولسان الميزان ٦/٨١ والمعارف ٢٣٧ ومعجم الادباء ٩١/١٦٤ وانباه الرواة ٣/٢٩٨ وذيل الامالي للقالي ١٣١ = زيدان ٢/١٢١ اما في موضوع الامثال التي توفر على دراستها علماء اللغة في العصر العباسي فيراجع الميداني « مجمع الامثال » والزمخشري : « المستقصى في الامثال » وابو هلال العسكري : « جمهرة الامثال » وابو عبيد البكري الاونبي : « فصل المقال في شرح كتاب الامثال » وهو شرح لكتاب الامثال لابي عبيد القاسم بن سلاّم ، (المتوفى ٢٢٤هـ) « والفاخر » لابي طالب المفضل بن سلمه بن عاصم (المتوفى ٢٩١هـ) وابن عبد ربه : العقد الفريد « طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٦ » « وكتاب الامثال » لابي عبيد القاسم بن سلاّم (غوتنجن ، ١٨٣٦) « وامثال لقمان » (طبعة باريس ١٨٤٧ مع ترجمة فرنسية) وكتب الامالي واللغة والادب والمعاجم ولا سيما لسان العرب لابن منظور وكذلك زيدان ١/٥٦ـ٥٨ واحمد امين : فجر الاسلام ومادة « مثل » في دائرة المعارف الاسلامية و « الامثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الاداب الساميّة الاخرى » (١٩٥٦) للدكتور عبدالمجيد عابدين .

(٣) راجع الصفحة ١٢٨/من كتاب « تاريخ العرب الادبي » لنكلسن (النسخة الانكليزية) .

عديدة ، وقــد قال معــاصر له ، هو أبو بكر بن أبي الأزهر ، في بعض قصائده [من المتقارب] :

أيا طالبَ العــلم لاتَجهلَنْ وَعُــذْ بالمبرّدِ أو ثعلبِ
تجد عنــد هذين عــلم الورى فلاتكُ كالجمل الاجــربِ
عــلومُ الخــلائقِ مقرونة بهذين في الشرقِ والمغربِ(١)

وقد أشرنا في فصلٍ سبق الى بعض أوائــل الانسانيّين كحماد الراوية (ت ١٦٠هـ/٧٧٦م) ومعاصره الأصغر بعض الشيء وهو خلف الاحمر والى جهودهما التي لا تقدر في انقاذ الشعر الجاهلي من النسيان وأساليبهما غير المتحرجة التي استخدماها احياناً(٢) ؛ أما مكانة الشرف بين خلفائهما الذين عاشوا في العصر الذهبي للاســلام تحت حكم العباسيين الاوائل فهي لابي عبيــده (ت حوالي ٢١٠هـ/٨٢٥م) والاصمعي (ت حوالي ٢١٥هـ/٨٣٠م) .

أبو عبيدة :

كان أبو عبيدة معمر بن المثنى من أصل يهودي - فارسي وقد دافع في كتاباته عن قضية الشعوبية ضد المتعصبين للجنس العربي ولهذا نعت خطـأ بالخارجي(٣) ؛ وكانت الموضوعات الغالبة على دراســته غريب اللغة وأخبار العرب وأيامهم ، وقد قال ذات مرة مباهياً : « ما التقى فرَسانِ في جاهلية او اســلام الا عرفتهما وعرفت فارســيهما »(٤) ؛ مــع ذلك ما كان بوســعه دائمــاً ، رغم كل اطــلاعه ، أن ينشــد بيت شعرٍ دون أن

---

(١) ابن خلكان : رقم ٦٠٨ (طبعة محمد محي‌الدين عبدالحميد ، ١٩٤٨) جـ٣ ص ٤٤١ ؛ ترجمة دي سلان (الانكليزية) جـ٣ ص٣١ ؛ وقد طبع الاب لويس شيخو اليسوعي لابن السكّيت « كتاب مختصر تهذيب الالفاظ » المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٨٩٧ (٤٤٢ صفحة) .

(٢) انظــر الصفحات ١٣١-١٣٤ من النص الانكليزي من « تاريخ العرب الادبي » لنكلسن .

(٣) گولدتزيهر : « دراسات اسلامية » (بالالمانية) القسم الاول ، ص ١٩٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص١٩٥ ؛ والمزهر ٢٠٣/٢ .

يكسره ، وقد كان حتى في قراءته للقرآن يخطىء والكتاب أمام عينيه[1] الا أن معرفتنا بأقدم عهود العرب مستقاة الى حد كبير ، من الروايات التي جمعها واحتفظ بها في كتاب الاغاني وفي مظانّ أخرى ، وقد ترك ما يقارب المائتي كتاب مما ورد ذكره في قائمة طويلة ولكنها ناقصة في الفهرست (ص ٥٣-٥٤)[2] .

الاصمعي[3] :

وقد استدعى هارون الرشيد أبا عبيدة الى بغداد حيث تعرّف على

(١) ابن قتيبة : كتاب المعارف ، ص٢٦٩ .

(٢) تراجع اخباره في ابن خلكان ١٠٥/٢ وطبقات الادباء ٣٧ والفهرست ٥٣ وانباه الرواة ٢٧٦/٣ واخبار النحويين البصريين ٦٧ وبغية الوعاة ٣٩٥ وتاريخ بغداد ٢٥٢/١٣ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٣٣٨/١ وتقريب التهذيب ٢٥١/٢ وطبقات الزبيدي ١٢٤والمزهر ٢٠٣/٢ والعقد الفريد ٤٧/٢-٩٣ وشذرات الذهب ٢٤/٢ ومرآة الجنان ٤٤/٢ والمعارف لابن قتيبه ٢٣٦ ومعجم الادباء ١٥٤/١٩ ودائرة المعارف الاسلامية = زيدان : ١١٤/٢-١١٥ ونضيف هنا الى ما ذكره نكلسن عن أبي عبيدة انه معمر بن المثنى التميمي مولى بني تميم من قريش ولد سنة ١١٠هـ وتوفي سنة ٢٩٠هـ . وانتقل الى بغداد سنة ١٨٨هـ بطلب من الفضل بن الربيع في أيام الامين وقد أستدعي في أيام الرشيد كذلك على نحو ما ذكره نكلسن وعنه اخذ ابو عبيد القاسم بن سلام صاحب كتاب الامثال المشهور ، والف ابو عبيدة كتابا في المثالب وكان كابي الفرج الاصفهاني وسخا ، ولعله كان فيه شيء من دم الزنوج لغلظ في شفتيه اتسم به وقد الف بالاضافة الى ما ذكره نكلسن في الامثال والمثالب وبيوتات العرب والتراجم والانساب ولم يصلنا من كتبه الا كتاب : « نقائض جرير والفرزدق » المطبوع في ليدن سنة ١٩٠٥ .

(٣) يراجع في الاصمعي كتاب : « الاصمعي» للدكتور عبدالجبار الجومرد ، ودائرة المعارف الاسلامية وابن خلكان ٢٨٨/١ وطبقات الادباء ١٥٠ والفهرست ٥٥ والدميري ٣١٠/٢ واخبار النحويين البصريين للسيرافي ٥٨ وبغية الوعاة للسيوطي ٣١٣ وتاريخ بغداد ٤١٠/١٠وطبقات النحويين للزبيدي ١١٧ وانباه الرواة ١٩٧/٢ وشذرات الذهب ٣٦/٢ والمعارف ٢٣٦ وتهذيب التهذيب ٤١٥/٦ والانساب للسمعاني ٥١ وخلاصة تذهيب الكمال ٢٠٧ وروضات الجنات ٤٥٨ وطبقات القراء=

الاصمعي وكان ثمة خصام دائم بين الرجلين مرجعه اختلاف في المزاج[١] والى حد ما حسد شخصي ؛ وكان عبدالملك بن قريب الاصمعي بصرياً ، كمنافسه ، ومع ان غيره من معاصريه قد يتفوق عليه في بعض فروع المعرفة فما من أحد اظهر بمثل هذا الكمال الرائع الثقافة الادبية باوجهها المتباينة ، تلك التي كانت تقدر في ذلك العهد أحسن تقدير وتكافأ بأسنى المكافآت على نحو ما فعل هو ، وفي حين ان ابا عبيدة كان يخشى معرة لسانه وسخره اللاذع فقد كانت للاصمعي كل آداب رجل البلاط وشمائله الرقيقة ؛ وقد قال ابو نواس ، وهو اول شاعر عباسي عظيم[٢] ، ان الاصمعي بلبل يسحر من يسمعه بالحانه[٣] ؛ وكان في حلقات دار الخلافة حيث كان الحديث كثيرا ما يدور حول المسائل اللغوية ، ضيفاً محبوباً ، وان الخليفة ليبعث في طلبه ليبدي رأيه في ا يمسألة مغلقة تتعلق بالادب مما لم يسع احداً من الحاضرين الاجابة عليه ، وقد وصلنا الكثير من كتاباته العديدة في القضايا اللغوية ، والموضوعات القديمة ، من نحو (كتاب الابل) و (كتاب الخيل) و (كتاب خلق الانسان) والاخير رسالة ترينا ان اعراب البادية احرزوا معلومات واسعة في تشريح الانسان؛ وقيل ان عمله كمحقق للشعر الجاهلي ومفسر له وناقد يؤلف اساس كل

= ١/٤٧٠ واللباب لابن الاثير ١/٥٦ ومرآة الجنان ٢/٦٤ وتاريخ ابي الفداء ٢/٣٠ = زيدان : ٢/١١٥-١١٦ ٠

(١) ففي حين أن أبا عبيدة كان سيء الصيت بميوله نحو الزندقة كان الاصمعي متين الايمان ورعا ٠ راجع گولدتزيهر ، « دراسات اسلامية » ص ١٩٩ وكتاب « بحث في فقه اللغة العربية » ، القسم الاول ، ص١٣٦ ٠

(٢) هذا الرأي تعوزه الدقة فليس أبو نواس بأول شاعر عباسي عظيم اذ سبقه الى هذه المنزلة بشار بن برد ٠ « المترجم »

(٣) نص كلام ابي نواس عندما قيل له ان الاصمعي قدم بغداد مع ابي عبيدة « اما ابو عبيدة فاذا أمكنوه قرأ عليهم اخبار الاولين والآخرين واما الاصمعي فبلبل يطربهم بنغماته » المترجم

ما كُتِب على وجه التقريب في هذا الموضوع منذ ذلك الحين[1] .

الادب : ابن المقفع

ان الادب وتاريخ الادب ممثلان بسلسلة كاملة من الكتب القيمة وليس يسعنا ان نذكر منها هنا الا القليل البالغ الاهمية وحتى هذا بشكل جد مقتضب فروزبة الفارسي" المشهور بعبدالله بن المقفع[2] الذي قتل بأمر

---

(١) ونضيف الى ما ذكره نكلسن ان كنيته اصبحت مرادفة للفظة « الراوي » وكان حُفَظَة يحفظ ١٢٫٠٠٠ أرجوزة وذكر ابن النديم من مؤلفاته نيفا واربعين كتابا واشهر كتبه (١) الاصمعيات وهي مختاراته للشعراء (طبعة لايبسك ، ١٩٠٢ وطبعة عبدالسلام محمد هارون بدار المعارف بالقاهرة) (٢) رجز العجاج (٣) كتاب الدارات (٤) كتاب الغريب (٥) كتاب النخل والكرم ، بيروت ١٩٠٢ (٦) كتاب النبات والشجر (٧) كتاب الفرق ، طبع في فينا (٨) كتاب الشاء ، طبع سنة ١٨٩٦ (٩) كتاب اسماء الوحوش طبع سنة ١٨٨٨ الخ ...

(٢) تراجع أخبار ابن المقفع في ابن خلكان ١٤٩/١ وابن القفطي : « تراجم الحكماء » ١٤٨ والفهرست ١١٨ وخزانة الأدب ٤٥٩/٣ والجهشياري : « الوزراء والكتاب » (طبع الحلبي) ١٠٣ ومحمد كرد علي : « رسائل البلغاء » و « أمراء البيان » وانيس المقدسي : « تطور الأساليب النثرية » وأحمد أمين « ضحى الاسلام » الجزء الاول وشوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » الفصل الثالث من القسم الاول ، وطه حسين : « من حديث الشعر والنثر » وعبداللطيف حمزة : « ابن المقفع » وكليمنت هيوار : « الأدب العربي » ص ٢١١ (من الترجمة الانكليزية) والمجلة الآسيوية ، المجموعة العاشرة ، المجلد السابع عشر (١٩١١) ص ٥٥٤ ودائرة المعارف الاسلامية = زيدان : « تأريخ آداب اللغة العربية » ج ٢ ص ١٥٢ ــ ١٥٦ وصفاء خلوصي : « ابن المقفع » مجلة العربي ، العدد ٢٦ (١٩٦١) وانعام الجندي : « شعوبية ابن المقفع » مجلة العربي ٥٤ (١٩٦٣) وبطرس البستاني : « أدباء العرب في الأعصر العباسية » بيروت ، مكتبة صادر ، ١٩٤٠ ص ١٤٣ ــ ١٦٣ ومحمد مهدي البصير : « في الأدب العباسي » (الطبعة الثانية ، ١٩٥٥) ص ٧ ــ ٣٩ والسباعي بيّومي : « تاريخ الادب العربي » ج ٣ في العصر العباسي بالمشرق ، الطبعة الثانية (١٣٧٦هـ/١٩٥٨) ص ١٢٦ ــ ١٢٨ والدكتور عبدالسلام سرحان : « دراسات في الادب العباسي » (القاهرة ، =

من الخليفة المنصور قام بعدة ترجمات من الآداب الفهلوية أو الفارسية الوسطى الى العربية ولدينا نموذج من ملكاته في : « كتاب كليلة ودمنة » المشهور الذي يرجع في الأصل الى أساطير بيدبا السنسكريتية والترجمة العربية من أقدم الأعمال النثرية في تلك اللغة وقد اعتبرت بحق نموذجا للأسلوب الرشيق رغم بعده عن الايجاز اللاذع الذي يسم البلاغة العربية الاصيلة .

ابن قتيبة(١) :

كان ابن قتيبة الذي جاءت اسرته في الاصل من مرو ، قد شغل لفترة من الزمن وظيفة قاضي دَيْنَوَر وعاش في بغداد في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة = التاسع للميلاد وقد اقتبسنا أكثر من مرة من مؤلفيه (كتاب المعارف)(٢) و (كتاب الشعر والشعراء) وبوسعنا أن نضيف اليهما هنا (أدب الكاتب)(٣) وهو كتاب صغير في موضوع الاسلوب يبحث

= ١٩٦٥) ص ٤٢٤ ــ ٤٤٦ وبروكلمان : (ترجمة عبدالحليم النجار ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢) ج ٣ ص ٩٢ ــ ١٠٣ .

وخلاصة القول في ابن المقفع انه في مجوسيته روزبه بن داذويه المقفع وكان يتكنّى بأبي عمرو فأصبح في اسلامه عبدالله وتكنّى بأبي محمد ولقب والده بالمقفع لانه اختلس أموال الدولة يوم كان يتولى خراج فارس فضربه الحجاج بن يوسف على يده حتى تقفعت أي تشنجت يده وهو من أصل فارسي نشأ نشأة عربية في الاهواز وهي ولاية استوطنها العرب لخصوبتها وقربها من البصرة ولم يسلم بل مات على المجوسية وولد ابنه روزبه ونشأ في البصرة مجوسيا فكتب وهو في العشرين لداود بن هبيرة وعند انتقال الملك الى بني العباس اتصل بسليمان وعيسى واسماعيل أبناء علي بن عبدالله بن عباس واعمام السفاح والمنصور وترجم للمنصور عدة كتب ولكنه لم يتصل به .

(١) يراجع ابن خلكان ١/٢٥١ وطبعات الادباء ٢٧٢ والفهرست ٧٧ وزيدان : ٢/١٩٧ ــ ١٩٩ وبروكلمان (الترجمة العربية) ج ٢ ص ٢٢١ ــ ٢٣٠ .

(٢) لقد قدم الاستاذ براون خلاصة لمحتوياته في كتابه : « تأريخ فارس الأدبي » ج ١ ص ٣٨٧ وما بعدها .

(٣) قام بطبعه ماكس گرونيرت (Max Grünert) (ليدن ، ١٩٠٠) .

في التهجئة الصحيحة والامـــلاء ، وضبط اللفظ (أو النطق بمفردات اللغة) وتأليف المعاجم وما الى ذلك » و « عيون الاخبار »[1] وهو كتاب يقع في عشرة فصول كرّس كل منها لموضوع خاص كالحكومة والحرب والنبلاء والصداقة والنساء الخ ...

الجاحظ[2] (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) :

كان عمرو بن بحر الجـاحظ البصري مفكرا حـرا مشهورا منح اسمه لفرقة من المعتزلة عرفت (بالجاحظية)[3] وقـد وضع عـــدة كتب طابعها ايراد النكات والتسلية ويفرد ابن خلكان كأحسن كتابيه واكثرهما تثقيفا : « كتاب الحيوان » و « كتاب البيان والتبيين » الذي هو دراســـة

---

(١) قام بطبع الجزء الاول كارل بروكلمان (فايماروستراسبورغ ، ١٨٩٨ ـ ١٩٠٨) .

(٢) الجاحظ نعت يعني ناتيء العينين بارزهما .

(٣) راجع الشهرستاني : الملل والنحل (طبعة كيورتن ، ١٩٢٣) ص ٥٢ حيث يقول « الجاحظية اصحاب عمرو بن بحر الجاحظ كان من فضلاء المعتزلة والمصنف لهم وقد طالع كثيرا من كتب الفـــلاسفة وخلط وروّج بعبارته البليغة وحسن براعته اللطيـــفة وكان في أيام المعتصم والمتوكل وانفرد عن اصحابه بمسائل ومنها قوله ان المعارف كلها ضرورية طباع وليس شيء من ذلك من افعال العبـــاد وليس للعباد كسب سوى الارادة ويحصل افعاله طباعا كما قال ثمامـة ونقل عنه أيضـــا انه انكر اصل الارادة وكونها جنسا من الاعراض فقال اذا انتفى السهو عن الفاعل وكان عالما بما يفعله فهو المريد على التحقيق .. وزاد على ذلك باثبـات الطبائع للاجسام .. ومنها قوله في أهل النار انهم لا يخلدون فيها عـــذابا بل يصيرون الى طبيعة النار وكان يقول النار تجذب أهلها الى نفسها دون أن يدخل أحد فيها ... وحكى ابن الراوندي عنه ان القرآن جسد ... وهذا مثل ما يحكى عن أبي بكر الأصم انه زعم ان القرآن جسم مخلوق وانكر الاعراض اصلا ... ومذهب الجاحظ هو بعينه مذهب الفلاسفــة الا ان الميل منه ومن اصحابه الى الطبيعيين منهم أكثر منه الى الالهيين »ا هـ.

مشهورة في البلاغة[1] .

ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م) :

لقد اتفق – والحقيقة ليست اعتباطية بالمرة – على ان اسهاما غاية في الخطورة لتأريخ الادب العربي قد جاء من كاتبين مرتبطين بالاسرة الاموية ، فابن عبد ربه القرطبيّ المنحدر من عبد معتوق للخليفة الاموي الأندلسي هشام بن عبدالرحمن (١٧٢هـ/٧٨٨–١٨٠هـ/٧٩٦م) وقد ترك لنا مجموعة متنوعة بعنوان : « العقد الفريد » مقسمة الى خمسة عشر كتابا يحمل كل واحد منها اسم حجرة كريمة خاصة و « يضم شيئا عن كل موضوع »[2] .

---

(١) راجع في الجاحظ ابن خلكان ١/٣٨٨ وطبقات الادباء ٢٥٤ [ص ١٣٢ – ١٣٥ من طبعة الدكتور ابراهيم السامرائي ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٥٩] وتاريخ بغداد ١٢/٢١٤ وشذرات الذهب ٢/١٢١ والفرق بين الفرق للبغدادي ١٦٠ والملل والنحل للشهرستاني ٥٢ ومروج الذهب ٤/١٣٦ ومعجم الادباء ١٦/٧٤ وضحى الاسلام ، الجزء الاول ، وتاريخ الفلسفة لدي بور ٦٢ وكتاب ارنولد في المعتزلة ص ٣٨ وما بعدها وكارادي ڤو في كتابه : « مفكرو الاسلام » (Les Penseurs De L'Islam) ج ١ ص ٢٩٥ وشوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ، الفصل الثالث من الكتاب الاول ، وبحثا نشرته دار المعارف في سلسلة نوابغ الفكر العربي وامراء البيان لمحمد كرد علي وتطور الاساليب النثرية لانيس المقدسي ودائرة المعارف الاسلامية وبروكلمان ١/١٥٢=زيدان : « تاريخ آداب اللغة العربية » ج ٢ ص ١٩٣ – ١٩٦ و ٢٠٥ – ٢٠٦ وكتابا للدكتور عبدالحكيم بلبع وآخر للدكتورة وديعة طه النجم . وراجع كذلك « في الأدب العباسي » للدكتور البصير ص ٤٠ – ٦٢ و « أدباء العرب في الاعصر العباسية » لبطرس البستاني (الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٤٠) ص ٢٦٢ – ٢٨٧ .

(٢) راجع في ابن عبد ربه ابن خلكان ١/٣٢ ومعجم الادباء ٢/٦٧ ويتيمة الدهر ١/٣٦٠ و ٤١٢ ودائرة المعارف الاسلامية وبغية الوعاة للسيوطي ص١٦١ = زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٢ ص٢٠١ =

أبو الفرج الاصفهاني (ت ٣٥٧هـ/٩٦٧م) :

ومع ان أبا الفرج علي مؤلف كتاب الاغـــاني ، ولد في اصفهان ، فقد كان من صميم العرب ، اذ كان من قبيلة قريش ، ومنحدرا انحدارا مباشرا من مروان آخر خلفاء بني أمية ، وقد وجّه بعد قدومه الى بغداد كل جهوده وطاقاته الى دراسة عهود العرب القديمة ، ووجد في أواخر أيامه راعيا كريمـا في شخص المهلبي وزير معز الدولـة البويهي الا أن مؤلفاته الصغرى تضاءلت في ظل مؤلفه الضخم « كتاب الاغاني » الذي يمكننا ان ننعته بتاريخ كل الشـعر العربي الذي لحن الى عهـــد المؤلف وهو يستند على مجموعـة من مائة صوت (لحن) أعـد للخليفة هارون الرشيد ولكن أبا الفرج أضاف اليها الحـــانا أو أصــواتا كثيرة أخرى اختارها هو نفسه ؛ وانه ليروى بعد ان يعطي الالفاظ والالحان الخاصـة بها حياة الشعراء والموسيقيين الذين نظموها ولحنوها وينتهز الفرصـــة ليقدم قدرا هائلا من الروايات التاريخية والحكايات مع كثـــير من الشعر القديم والحديث ، وقيل ان الصاحب بن عبّاد(١) اعتاد في سفره ان يصحب معه حِمْلَ ثلاثين جملا من الكتب ولكنه عنـدما حصل على « الاغاني » اكتفى بهذا الكتاب وحده واستغنى عن كل ما عداه(٢) ٠

= ٢٠٣ وقـد اشتهر ابن عبـــد ربه بارجوزته التي قص فيهـا سيرة عبدالرحمن النـاصر حسب السنين وقـــد أوردها في الجزء الثـاني من العقـــد الفريد ٠

(١) راجـع ص ٢٦٧ من النص الانكليزي من كتـاب : « تاريخ العـرب الادبي » لنكلسن [= ص ٣٧ من « تاريخ الادب العبـــاسي » الذي بين يديك] ٠

(٢) ابن خلكان ، ترجمة دي سلان (الانكليزية) ج ٢ ص ٢٥٠ [راجع في الاصـــفهاني : ابن خلكان ١/٣٣٤ واليتيمة ٢/٢٧٨ وتاريخ بغـــداد ١١/٣٩٨ ومعجم الادباء ١٣/٩٤ والنجـــوم الزاهرة ٤/١٥ ودائرة المعارف الاسلامية والمنتظم (وفيات سنة ٣٥٦) وتاريخ اصبهان ١/٢٢ وروضات الجنات ٤٨٧ = زيدان : « تاريخ آداب اللغة العربية » ٢/٣٢٥-٣٢٨] ٠

الثعالبي [ت ٤٢٩هـ] :

والأديب المقدّم في الجيل التالي هو أبو منصور الثعالبي النَيْسابوري ومع ان معظم مؤلفاته مجموعات غير علمية صممت لامتاع الجمهور وايناسه أكثر من تقديم الثقافة المتينة له فان مجموعته المشهورة عن الشعراء المُحْدَثين والمعاصرين - يتيمة الدهر - تقدم برهانا لا شك فيه عن علمه الممتاز وذوقه في النقد ولقد كتبت ملاحق متتالية لليتيمة من قبل الباخرزي (المتوفي سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م) في « دمية القصر » وأبي المعالي الحظيريّ (المتوفي سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م) في « زينة الدهر » والصديق الأثير لصلاح‌الدين عماد‌الدين الكاتب الاصفهاني (المتوفي سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م) في « خريدة القصر »[١] .

ومنذ القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد فما بعد أخذت دراسة العلوم اللغوية بالهبوط وعلى العكس من ذلك فان العلوم التي تركزت سابقا حول علوم اللغة واصبحت الان مستقلة نمت وازدهرت بنجاح متألق وبلغت ذروتها في وقت قصير .

التأريخ :

نجد عناصر التأريخ الاولى في (١) الروايات الجاهلية و (٢) احاديث الرسول (ص) ، ولكن فكرة التأليف التأريخي على نطاق واسع ربما اوحته الى العرب النماذج الفارسية « ككتاب الملوك » (خداينامه) الفهلوي الذي نقله ابن المقفع الى العربية في القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد تحت عنوان : « سِيَر ملوك العجم » .

وتحت الصنف الاول يستحق هشام بن الكلبي (المتوفي سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م) وابوه محمد ذكرا خاصا كمدوِّنيْنِ دؤبين موثوقيْن .

(١) راجع في الثعالبي ابن خلكان ١/٢٩٠ وطبقات الادباء ٤٣٦ وحياة الحيوان للدميري ١/١٦٣ ودائرة المعارف الاسلامية وبروكلمان ١/٢٨٤ = زيدان : ٢/٣٢٩-٣٣٣ .

سِيَر الرسول (ص) وصحابته :

ولقد دونت الروايات الخاصة بالرسول (ص) في وقت مبكر[(١)] ولم تصلنا سيرة رسول الله (ص) الاولى تلك التي وضعها ابن اسحق المتوفي على عهد المنصور (١٥١هـ/٧٦٨م) الا برواية ابن هشام (المتوفي سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م) وقد مر بنا ذكر هذا الكتاب فضلا عن كتب الواقدي (المتوفى سنة ٢٠٨هـ/٨٢٣م) وابن سعد (المتوفي سنة ٢٣١هـ/٨٤٥م) .

اما مشاهير المؤرخين العباسيين الآخرين فهم :

البلاذري :

أحمد بن يحيى البلاذري (المتوفى سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م) فارسي وضع « كتاب فتوح البلدان » عن الفتوحات الاسلامية الأولى ، وقد نشره دي غويه ، و « كتاب انساب الاشراف » وهو تأريخ واسع مستند على مبادىء الانساب ، وقد بقي جزءان منه الى يومنا هذا[(٢)] .

الدينوري :

كان أبو حنيفة أحمد الدينوري (المتوفى سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥م) هو الآخر من أصل ايراني ؛ ويبحث مؤلَّفُه : « كتاب الاخبار الطوال » في أساطير فارس القومية الى حد بعيد ، وقد كتب برمته من وجهة النظر الفارسية .

---

(١) راجع الصفحة ٢٤٧ من النص الانكليزي من كتاب « تأريخ العرب الادبي » .

(٢) طبع احدهما وهو الحادي عشر من أصل الكتاب الكامل اهلورت تحت عنوان : (Anonyme Arabische Chronik) (گرايفزفالد، ١٨٨٣) ويشمل جزءا من حكم الخليفة الاموي عبدالملك (٦٦هـ/٦٨٥م – ٨٦هـ/٧٠٥م) .

اليعقوبي :

لقد أنتج ابن واضح اليعقوبي ، أحد معاصري الدينوري ، خلاصة ممتازة للتاريخ العام الذي يعد قيما بصورة خاصة لان مؤلفه الذي هو من أشياع آل علي قد احتفظ بالتقاليد الشيعية القديمة غير المزيفة ؛ وقد حقق البروفسور هاوتسما (Houtsma) كتابه ونشره بمجلدين (ليدن ١٨٨٣).



وكثيراً ما أشرنا في الصفحات السالفة من كتابنا الى « تاريخ الطبري » الذي حققه دي غويه وعلماء أوربيون آخرون (ليدن ، ١٨٧٩-١٨٩٨) والى « مروج الذهب »[١] للمسعودي الذي نشره يافي دي كورتي (Pavet de Courteille) وباربيه دي مينار (Barbier de Meynard) مع ترجمة فرنسية (باريس ١٨٦١-١٨٧٧)[٢] وما دام هذا المؤلّفان ليسا أعظم مؤرخي الشرق الاسلامي فحسب بل هما (مع احتمال استثناء ابن خلدون) أبرز جميع الذين كرسوا انفسهم لهذا الفرع من الادب العربي، وجب علينا ان نحاول تعريف القاريء بهما بشكل أوثق .

الطبري (٢٢٤ هـ/٨٣٨م - ٣١٠ هـ/٩٢٣م)

ولد أبوجعفر محمد بنجرير الطبري سنة٨٣٨-٨٣٩م فيآمل بطبرستان،

---

(١) عنوان الكتاب في ترجمته الفرنسية هو : (Les Prairies D'Or) وقد أوضح بروكلمان في مختصر كتابه « تاريخ الادب العربي » (ليبزغ ١٩٠١) ص ١١٠ أن الترجمة الصحيحة لـ « مروج الذهب » هي : (Goldwaschen) [أي المموهة بالذهب ، وهذا غير صحيح].
« المترجم »

(٢) وقد أعادت « دار الاندلس » ببيروت طبع هذه النسخة بأربعة مجلدات مع عشرة فهارس قام بترتيبها الاستاذ يوسف اسعد داغر وهي فهرس اعلام الرجال والنساء - والمواقع الجغرافية - والامم والقبائل والدول والاسر والفرق التاريخية - والموضوعات - والحيوان - والنبات - والمعادن والحجارة الكريمة - والفلك وعلم الهيئة - والكتب الوارد ذكرها في الكتاب - وفهرس لغة المسعودي .

في الأقليم الجبلي الواقع على الساحل الجنوبي لبحر قزوين ومن هنا جاء لقبه « الطبري » الذي يعرف به عادة[1] وكان العراق في هذا الوقت لايزال محط الانظار الرئيس للثقافة الاسلامية بحيث كان بوسع الشاعر أن يقول [من الطويل] :

أرى كاتباً جاهُ الكتابةِ بيّنٌ ... عليه وتأديبُ العراقِ منيرُ[2]

فالى العراق قدم الطبري الشاب لاتمام دراسته اذ رحل بطريق الريّ الى بغداد وزار مدناً مجاورة اخرى ووسّع نطاق رحلته الى الشام ومصر ؛ ومع أن أباه كان يبعث اليه بمخصصات سنوية فما كانت لتصل اليه في الوقت المحدد لها دائماً ، وهو نفسه يروي لنا أنه حصل على الخبز ذات مرة ببيع كُمَّيْ قميصه ، ولحسن الحظ انه قُدِّمَ في بغداد الى عبيدالله بن يحي وزير المتوكل الذي جعله مؤدباً لولده ، وليست الفترة التي قضاها في هذه المهمة معروفة ولكنه لم يكن ليتجاوز الثالثة والعشرين عندما فارق مخدومُه الوزارة ؛ ونجده بعد خمس عشرة سنة في القاهرة (٢٦٣هـ/٨٧٦م-٢٦٤هـ/٨٧٧م مُعْدَماً مرة اخرى ؛ على انه سرعان ما عاد الى بغداد حيث أمضى بقية حياته في التعليم والتأليف • لقد كان متواضعاً بعيداً

---

(١) ينبغي للقارىء أن يراجع فيما يتعلق بالطبري ومؤلفه مقدمة دي غويه (المنشورة في المجلد الاضافي الذي يضم الفهارس لطبعة ليدن) وبحثه الممتاز عن الطبري ومؤرخي العرب الاوائل في دائرة المعارف البريطانية [ويراجع فيه كذلك شذرات الذهب ، ٢/ ٦٢٠ ، وابن خلكان ١/ ٤٥٦ وابن الاثير ٨/ ٤٩ الفهرست ٢٣٤ ومعجم الادباء ١٨/ ٤٠ وتاريخ بغداد ٢/ ١٦٢ والوافي بالوفيات ٢/ ٢٨٤ = زيدان ٢/ ٢٣٣] •

(٢) أبو المحاسن ، طبعة جوينبول ، ج ١ ص ٦٠٨ [= أبو المحاسن ابن تغري بردى الاتابكي (٨١٣-٨٧٤هـ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب ، ج ٢ ص ١٩٣ حوادث سنة ٢١٠ هـ] ويبدو من هذا البيت ان الثقافة العراقية كانت لها سمة خاصة في الوجوه على نحو ما يرى الافرنج سمة ثقافة اكسفورد او هارفارد في وجوه اصحابها في ايامنا هذه • [المترجم]

عن الأنانية ، بسيطاً في عاداته ، وقد نشر معلوماته الموسوعية بعمل يكاد يكون خارج الطاقة البشرية وقيل انه كتب خلال أربعين سنة أربعين صفحة في اليوم الواحد ؛ ومؤلفاته هي « تاريخ الرُسُل والملوك » و « تفسيره » للقرآن الكريم ؛ وكلاهما حتى في هيئته الحاضرة كتاب ذو مدى هائـل ؛ ويبدو من المحتمل مع ذلك أن كليهما كان في الاصل على نطاق أوسع بكثير مما هما عليه اليوم فاختصرهما المؤلف للتداول العام ؛ ويُروى ان تلامذته رفضوا قراءة النسخ الاولى معه رفضاً باتاً فما كان منه الا أن صاح : « إنا لله ماتت الهمم ! »[1] • ويمتاز تاريخ الطبري الذي يمتدّ من الخليقة الى سنة ٣٠٢هـ = ٩١٥م «بايفاء التفاصيل حقها وبالدقة وبمعلومات مؤلفها الواسعة حقاً تلك التي تتجلى عبر صفحاته وهذا مما يجعل تاريخه مخزناً واسعاً لمعلومات قيمة للمؤرخين فضلاً عن دارسي الاسلام »[2] وهو مرتب حسب التسلسل الزمني وقد صُنّفتْ الحوادث تحت السنين الهجرية التي حدثت فيها ؛ وفيه الى ذلك وضعٌ جدّ غريب : « فكل حقيقة مهمة يرويها ، ان أمكن ، شاهد عيان أو معاصر تصل معلوماته بطريق سلسلة من الرواة الى المؤلف فاذا كان قد حصل على أكثر من رواية لحقيقة معينة مع تحويرات مهمـة نوعاً ما ، بطريق عدة سلاسل من الرواة ، فهو يقدمها جميعاً الى القـارىء بالتفصيل ؛ وهكذا يكون بوسعنا أن ننظر الى الحقائق من أكثر من وجهـة نظر واحدة ، ونكتسب فكرة حية واضحة عنها »[3] ومؤلَّف الطبري ، حسب الأفكار العصرية ، ليس تاريخاً بقدر ما هو مجموعة وثائق أصلية لاتقدر بثمن وضعت جنباً الى جنب دون أي محاولة لتكوين رواية انتقادية

---

(١) الخطيب : « تاريخ بغداد [الرقم ٥٨٩] ج ٢ ص ١٦٣ السطر الاخير •

(٢) « منتخبات من تاريخ الطبري » تحقيق ايم • جي دي غويه (ليدن، ١٩٠٢) ص ١١ من المقدمة •

(٣) مقدمة دي غويه للطبري ، ص ٢٧ من المقدمة •

مستمرة[1] .

ويصعب على المرء أن يتبين طريقه أول الامر ولكن عند توفره على دراسته بشكل أوثق تبرز الملامح الاساسية بالتدريج وتظهر مجسمة من بين مجموعة من الظروف غير المهمة التي تمنح الكل طراوة وحياة ؛ غير ان مصير جهود الطبري كان المصير المشترك للمؤرخين الذين يعتد بهم ، فقد اختصر كتابه وجعل شعبياً عامـــا وحذفت منه الأسانيد ودَمَجَ الكُتّاب المتأخرون المعلومات المتكررة في رواية واحدة[2] وليس ثمة نسخة كاملة للتاريخ كما خرج من تحت يد المؤلف في أي مكان ولكنّ نسخا متفرقة عديدة قد احتفظ بها في أرجاء مختلفة من العالم ؛ وتستند طبعة ليدن على هذه المخطوطات المتفرقة التي تضم لحسن الحظ الكتاب برمته باستثناء فجوات قليلة ليست خطيرة جداً .

المسعودي (ت ٣٤٥ هـ/٩٥٦م)

عليّ بن الحسين البغدادي سُمّيَ بالمسعودي نسبة الى أحد صحابة رسول الله (ص) : عبدالله بن مسعود الذي كان يرجع بنسبه اليه ؛ ومع أننا لانملك الا بقية ضئيلة من كتاباته الكثيرة فلا يمكن الحصول على برهان أفضل على المعلومات الواسعة المتنوعة التي لم يجمعها من الكتب وحدهـــا بل كذلك من أسفار طويلة في كل بقعة من آسيا على وجه التقريب ؛ فمن البلاد التي زارها أرمينيا والهند وسيلان وزنزبار ومدغشقر ويبـــدو أنـــه أبحر في مياه صينية كما أبحر في بحر قزوين ، ولقد قال : « فَسَيْري في

(١) ذكر لي المستشرق لويس ماسينيون ذات مرة أنه أشد ما يكون ابتهاجاً عندما يقرأ تاريخ الطبري اذ يشعر أنه في محكمة يستمع فيها الى افادات الشهود وكل يدلي بما سمع به أورآه والقارىء هو الحاكم الذي يجب ان يصدر حكمه في القضية موضوعة البحث حسب قناعته .

[المترجم]

(٢) عمل البلعمي وزير المنصور الأول الساماني ملخصاً فارسياً نشر له دوبو (Dubeux) وزوتنبرغ (Zotenberg) ترجمة فرنسية سـنة ١٨٦٧-١٨٧٤ .

الآفاق سرى الشمس في الاشراق كما قال الشاعر [من الطويل] :

فيمَّمَ أقطار البـــــلاد فتارة لدى شرقها الاقصى وطورا الى الغرب
سرى الشمس لاتنفك يقذفها النوى الى افقٍ ناءٍ يقصّر بالركب[1]

وقد امضى السنوات الاخيرة من حياته بصورة رئيسة في الشام ومصر - اذ لم يكن له سكَنٌ ثابت - مؤلفاً الكتب التاريخية العظيمة[2] التـي يُعَدُّ كتاب « مروج الذهب » خلاصة لها •

ويصرّح المسعودي فيما يتعلق بالدوافع التي حملته على الكتابة بانه رغب في ان يتّبع أمثولة العلماء والحكماء وان يخلف بعده تذكاراً جديرا بالحمد وأثراً لايبلى ؛ ويدعي انه قد اتخذ وجهة نظر أوسع من أسلافـه فيقول : « وليس من لزم جمرات وطنه وقنع بما نمي اليه من الاخبار عن اقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ووزع أيامه بين تقاذف الأسـفار واستخرج كل دقيق من معدنه واثار كل نفيس من مكمنه »[3] •

مروج الذهب :

وقد سمّي المسعودي بـ « هيرودتس العرب » وليست المقارنة غـير عادلة[4] فكتابه يظهر نفس التلهف الى البحث والاستقصاء ونفس الذهنية المتفتحة والجنوح بدون تحيّز الى تدوين جميع العجائب التي سمع بهـا او رآها ونفس التجربة الناضجة ووجهة النظر الواسعة التي تسع الحاضر سعتها

(١) مروج الذهب ، طبعة باربييه دي مينار ، ج ١ ص ٥ وما بعدهـا [وقد ورد في الاصل في الشطر الاخير لفظة ناي بدلا من ناء « المترجم »]

(٢) « اخبار الزمان » بثلاثين مجلداً (لا يزال مجلد منها في فينا) والكتاب الاوسط •

(٣) مروج الذهب : ج ١ ص ٩ وما يليها •

(٤) يمكننا ان نلاحـظ كمجرد نقطة اتفـاق أن ابن خلدون ينعت المسعودي بـ « امام المؤرخين » وهذا يضارع « لقب أبي التاريخ » ولو انه لا يماثله تمام المماثلة •

للماضي • والمعترف به انه تاريخ عام يبدأ بالخليقة وينتهي بخلافة المطيع سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م ، غير انه ليس ثم وصف يسعه ان يضم المدى الهائل للموضوعات التي نوقشت والاستطرادات العديدة التي يبهج بها المؤلف قارئه أو يثيره ، على نحو ما قد تكون عليه الحال[١] •

وهكذا نجد ـ اذا ما أخذنا بضعة أمثلة اعتباطاً ـ بحثاً عن حالات المدّ (ج ١ ص ٢٤٤) وشيئاً عن التنين أو أفعى البحر (نفس المكان ، ص ٣٢٨) ووحيد القرن (نفسه ، ص ٣٨٥) وكان المسعودي شديد الاهتمام كدارسٍ وناقد للمعتقدات الدينية التي كتب عنها عدة كتب[٢] ويقدم لنا « مروج الذهب » عدة تفاصيل قيّمة عن المذاهب الاسلامية وكذلك عن الزردشتية والصابئة ؛ وهناك تقرير ممتع بصورة خاصة عن لقاء بين أحمد ابن طولون ، عامل مصر (٢٥٤هـ/٨٦٨م ـ ٢٦٤هـ/٨٧٧م) وشيخ قبطيّ يدافع عن عقيدته (المسيحية) وذلك بعد ان يسرد آراءه عن منبع النيل وتشييد الأهرام ، على أساس الاخطاء الواضحة للعقيدة ومتناقضاتها مبيناً أن قبولها بالرغم من كل ذلك من قبل العديد من الناس والملوك برهان حاسم على صدقها[٣] ومعلومات المسعودي عن الخلفاء حَريَّة" بالملاحظة لما يملؤها من نكات خاصة ؛ وبدلاً من أن يلم شتات رواية منهجية عرض مخططاً بارعاً وان كان غير متسق للشؤون العامة والسلوك الخاص والحياة الاجتماعية والتاريخ الادبي • ولم يمنعني من اغناء هذا الكتاب بعدد غير قليل من صفحات فيها الحيويةوقوة التصوير كأيِّ من صفحاتسويتونيوس (Suetonius)[٤] الا اعتبارات ضيق المجال ؛ وكان قصد كتابه الأخير

---

(١) يقدم المسعودي موجزاً لمحتويات مؤلفاته التاريخية والدينية في مقدمة « التنبيه والاشراف » طبعة دي غويه ، ص ٢ وما بعدها وهناك ترجمة لهذه القطعة بقلم دي ساسي في طبعة باربييه دى مينار « لمروج الذهب » ج ٩ ص ٣٠٢ وما بعدها •

(٢) انظر مروج الذهب ، ج ١ ص ٢٠١ وج ٣ ص ٢٦٨ •

(٣) نفسه ، ج ٢ ص ٣٧٢ وما بعدها •

(٤) مؤرخ لاتيني ومؤلف سيرة « القياصرة الاثنى عشر » • [المترجم]

« التنبيه والاشراف »[1] استعراضاً عاماً للحقل الذي قطعه بشكل اكمل بكتاباته السابقة واتماماً لها كلما اقتضت الضرورة •

مؤرخون ثانويّون :

يجب علينا الآن أن نمر على عجل على المؤرخين وكتّاب السير الثانويين لهذه الفترة ـ كالعُتبي (المتوفي سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦م) الذي خلد بكتابه الموسوم بـ « كتاب اليميني » الحكم المجيد للسلطان محمود الغزنوي ؛ والخطيب البغدادي (المتوفي سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م) الذى وضع تاريخاً للمشاهير من رجال مدينة بغداد ؛ وعماد الدين الاصفهاني (المتوفي سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م) كاتب سيرة صلاح الدين ؛ وابن القفطي (المتوفى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) المولود في قفط (قبط) في الصعيد (او مصر العليا) والذي لم يصلنا ما كتبه عن سير الفلاسفة والعلماء الا في مختصر عنوانه « تاريخ الحكماء » ؛ وابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) الذى كان كاتباً غزير الانتاج في كل فرع من فروع الأدب على وجه التقريب ، وحفيده يوسُف (المتوفى سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م) الذي يعرف بصورة عامة بسبط ابن الجوزي ، مؤلف « مرآة الزمان » ، وابن ابي أصيبعه (المتوفى سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م) الذي حقق تاريخه للاطباء الموسوم بـ « عيون الأنباء » أ • مولر (١٨٨٤) ؛ والمؤرخ المسيحي جرجيس المكين (المتوفى سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م) الواضع لتاريخ عام عنوانه : « مجموع المبارك » الذي ترجم القسم الثاني منه من محمد (ص) الى نهاية الدولة العباسية ايربينيس (Erpenius) سنة ١٦٢٥ الى اللغة اللاتينية •

ابن الاثير (المتوفى سنة ٦٣٢/١٢٣٤م)

وينبغي لنا ان نلفت الانظار في ملاحظة وان كانت قصيرة الى عزالدين

---

(١) يترجم نكلسن العنوان بـ Book of Admonition and Recension
ويترجمه دى ساسي بـ Le Livre de l'Indication et de l'Admonition ou l'Indicateur et le Moniteur.

ولكن انظر طبعة دى غويه للنص (ليدن ، ١٨٩٤) ص ٢٧ من المقدمة •

ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م) فقد نشأ وترعرع في الموصل وبعد ان اتم دراسته في بغداد والقدس والشام عاد الى موطنه وكرس حياته للمطالعة والتأليف الأدبي ؛ وقد أثنى عليه ابن خلكان الذي كان يعرفه شخصياً ، أعظم الثناء كرجل وكعالم فقال عنه : « صنّف في التاريخ كتاباً كبيراً سمّاه « الكامل »[1] ابتدأ فيه من اول الزمان الى آخر سنة ثمان وعشرين وستمائة (١٢٣٠-١٢٣١م) وهو من خيار التواريخ »[2] .

ولم يفعل المؤلف شيئاً الى سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م سوى تلخيص تاريخ الطبري مع اضافات بين آن وآخر من مصادر أخرى ، وقد قدم في المجلد الاول معلومات مستفيضة عن (أيام العرب) أي « معارك العرب في الجاهلية » ، مما لانجده في النص الحاضر للطبري ؛ غير أن دي غويه ، على ما علمت من البروفيسور بيڤان ، يعتقد بأن هذا القسم كان في النسخة الأصلية لتاريخ الطبري ثم حذف فيما بعد ؛ وكان ابن الاثير شديد التعمق في علم الحديث ، ويحتوي كتابه « أُسد الغابة » على تراجم ٧٫٥٠٠ من صحابة الرسول (ص) .

الجغرافيّون :

لقد حُفِظَ لنا قدر هائل من المعلومات عن مختلف اقطار الامبراطورية العباسية وشعوبها من قبل جغرافيّي المسلمين الذين وصفوا لنا في كثير من الأحوال ما شاهدوه وخبروه خلال اسفارهم ولو انهم كثيراً ما استقوا معلوماتهم بحرية وبدون اعتراف من كتب من سبقوهم من المؤلفين .

وبوسع المجموعة الآتية من الاسماء ان تجد لها مكاناً هنا بدون ادعاء

(١) العنوان الكامل : « كتاب الكامل في التاريخ » حققه تورنبرغ (Tornberg) في أربعة عشر مجلداً (ليدن ، ١٨٥١-١٨٧٦) .

(٢) ابن خلكان : ترجمة دي سلان ج ٢ ص ٢٨٩ [= ج ٣ ص ٣٤ « طبعة محمد محي الدين عبدالحميد » رقم الترجمة ٤٣٣] .

الشمول[1] :

ابن خُرْداذ بِه :

١ ـ كان ابن خرداذبه الفارسي (في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد) صاحب البريد في اقليم الجبال[2] اي اقليم ميديا القديمة؛ وكتابه : « كتاب المسالك والممالك » الذي هو اشبه بدليل رسمي، هو أقدم كتاب جغرافي في العربية وصل الينا .

الاصطخري وابن حوقل :

٢ ـ وكتب ابو اسحق الفارسي ، وهو من اصطخر (Persepolis) ـ ولذلك سمّي بالاصطخري ـ كتاباً يعرف بـ « مسالك الممالك »[3] الذي راجعه ابن حوقل فيما بعد ووسّعه ؛ وكلا الكتابين من النصف الثاني للقرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد ويضم « وصفاً دقيقاً لكل اقليم على انفراد في الامبراطورية الاسلامية مع المدن الرئيسية والأماكن الجديرة بالملاحظة ».

---

(١) لقد قدم گاي لسترانج معلومات ممتازة عن جغرافيي العرب في مقدمة كتابه « فلسطين تحت حكم المسلمين » (Palestine Under The Moslems). (لندن ، ١٨٩٠) وقد حقق دي غويه مؤلفات ابن خرداذبه والاصطخري وابن حـــوقل والمقدّسي في « المكتبة الجغرافية العربيـــة » (ليدن ١٨٧٠ وما بعدها) .
(Bibliotheca Geographorum Arabicorum)

(٢) راجع أطلس التاريخ الاسلامي ، تصنيف هاري . و . هازارد وترجمة ابراهيم زكي خورشيد ، ص ١١ ، خارطة العالم الاسلامي في القرن الثالث الهجري . تجد ان منطقة الجبال تشمل اصفهان وهمـذان وقزوين وقرميسين ؛ راجع كذلك الاصخري : كتاب المسالك والممالك (طبعة دي غويه ليدن ، ١٩٢٧) ص ١٩٥ ـ ٢٠٣ حيث ورد ان حدها الشرقي مفازة خراسان وفارس واصبهان وشرقي خوزستان وحدها الغربي اذربيجان وحدها الشمالى حدود الديلم وقزوين والرىّ .

(٣) طبع بتحقيق دي غويه (ليدن ١٩٢٧) « ٣٤٨ صفحة » وهو معوّل على كتاب « صور الأقاليم » للشيخ ابي زيد احمد بن سهل البلخي .

المُقَدَّسي :

٣ ـ ولد المُقَدَّسي (او المَقْدِسِي)[١] في القدس سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م وقد جمع في كتابه المبهج : « أَحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ثمار أسفار عشرين عاماً في الممتلكات الاسلاميّة •

ياقوت :

٤ ـ بعد أن نطوي كشحاً عن العرب الأندلسيين : البكري والادريسي وابن جُبير ، الذين عاشوا جميعاً في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد ، نصل الى أعظم جغرافيّي المسلمين : ياقوت بن عبدالله (٥٧٥هـ/١١٧٩م ـ ٦٢٧هـ/١٢٢٩م) وكان اغريقياً بمولده فاستُرِقّ في طفولته ، وابتاعه ببغداد رجل تاجر ، فوّفر له تعليماً ممتازاً وكثيراً ما أرسله في بعثات تجارية الى الخليج العربي وغيره ؛ وبعد ان أُعتق نتيجة نزاعٍ مع سيده أخذ يقيم أوده بنسخ المخطوطات وبيعها ؛ وفي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م-١٢٢٠م جابه التاتار الذين غزوا خوارزم « فانهزم بنفسه ، كبعثه يوم الحشر من رمسه »[٢] •

وقد دونت التفاصيل الأخرى لحياته المغامرة في الملاحظات الممتعة لابن خلّكان[٣] ؛ وقام وستنفيلد بتحقق مجمعه الجغرافيّ العظيم (معجم البلدان) بستة مجلدات (لايبزگ ، ١٨٦٦) ونعته المستر لسترانج : « بمخزن للمعلومات الجغرافيّة التي لايمكن المغالاة في تقدير قيمتها » ولدينا خلاصة مفيدة له ، أعدت بعد ذلك بحوالي قرن ووسمت بـ « مراصد الاطّلاع » ومن بين مؤلفات ياقوت القليلة الأخرى الباقية يمكن توجيه الانتباه الى « المشتَرِك » ـ معجم لغوي للأماكن يحمل نفس الاسم ـ « ومعجم الأدباء » الذي حققه البروفيسور مارغوليوث « لأمناء وقف ذكرى گب » •

---

(١) اي من بيت المقدس •

(٢) ابن خلكان : (الطبعة المصرية ١٩٤٩) ج ٥ ص ١٧٩ [رقم الترجمة ٧٦١] •

(٣) ترجمة دي سلان ، ج ٤ ص ٩ وما يليها •

علوم الأعاجم :

أما فيما يتعلق بالعلوم الفلسفية والقياسية فان المسلمين بطبيعة الحال استقوا أفكارهم ومادتهم من الثقافة الاغريقية التي استقرت في مصر والشام وغرب آسيا منذ أيام فتوحات الاسكندر وعندما انحلت مدرسة حمص (ايديسا) السريانية بسبب اختلافات كنسية حوالي أواخر القرن الخامس للميلاد[1] لاذ العلماء المنفيون بالبلاط الساساني في فارس فأسس خُسْرَو أنو شروان أو « نُوشيروان » (٥٣١ – ٥٧٨م) – نفس العاهل الذي رحّبَ بفلاسفة الأفلاطونية الجديدة الذين طردهم جستنيان من أثينا – اكاديمية في جنديشابور بخوزستان[2] حيث استمر تعليم الطب اليوناني والفلسفة اليونانية الى أيام العباسيين ؛ وكانت مدينة حرّان في بلاد مابين النهرين مركزا آخر للهلنيّة [الثقافة اليونانية] ، وكان سكانها من وثنيي سوريا الذين يظهرون بصورة عامة في التاريخ الاسلامي باسم « الصابئة » وهم يتكلمون بالعربية بسهولة وقد اسهموا بقسط غير ضئيل في نشر الحكمة الاغريقية •

الترجمة من اليونانية :

وكاد عمل الترجمة يقتصر برمته على السريان اذ ترجمت كتب أرسطو ، وغالين (جالينوس) ، وبطليموس وغيرهم من الاساتذة القدامى بأمانة متناهية في صوامع الشام والعراق وقد أعيد ترجمة هذه المترجمات السريانية فيما بعد الى العربية ؛ وكانت البداية في أيام الامويين الذين لم يهتموا بالاسلام الا قليلاً غير انهم لم يكونوا عديمي اكتراث لمتطلبات الادب والفن والعلم بأي حال من الأحوال وقد دبّرَ أمير أموي هو خالد

---

(١) اي اواخر القرن الثاني قبل الهجرة • [المترجم]

(٢) وتضم جنديسابور والأهواز ، وتحاذي منطقة الجبال • راجع الاصطخري : « مسالك الممالك » (طبعة دى غويه ، ١٩٢٧) ص ٩٢ حيث جاء فيها : وجُنْدَيْ سابُور مدينة خِصْبة واسعة الخير وبها نحل وزروع كثيرة ومياه ونزلها يعقوب بن الليث الصفّار لخصبها واتصالها بالمِيَر الكثيرة فمات بها وبها قبره • [المترجم]

ابن يزيد ترجمة المؤلفات اليونانية والقبطية في الكيمياء وكتب هو نفسه ثلاثة بحوث في الموضوع[1] ؛ وكان قيام الدولة العباسية حافزاً عظيماً لمثل هذه الدراسات التي وجدت حامياً مستنيراً في شخص الخليفة المنصور ، فقد ترجم ابن المقفع (المتوفى حوالي ١٤٢هـ/٧٦٠م) وآخرون كتباً في المنطق والطب من الفهلوية •

تشجيع المأمون للحركة العلمية الجديدة :

على أن حكم المأمون الممتاز (١٩٨هـ/٨١٣م – ٢١٨هـ/٨٣٣م) هو الذي يحدد النشاط الكامل لهذه النهضة الشرقية • لم يكن المأمون رجلاً اعتيادياً ، فقد قذف بنفسه قلباً وروحاً كما يفعل الفرس وسط التأملات اللاهوتية واستعمل سلطة الخلافة ليفرض مستوى حراً من العقيدة السُنّيّة ولم يكن اهتمامه بالعلوم أقل حماسة ، وتنبئنا حكاية رُويت في (الفِهرِسْت)[2] أنه رأى في منامه شخص أرسطو المهيب جالساً على عرش فكان هذا المنام سبباً في ارسال وفد الى امبراطور الروم (« ليو » الأَرمنيّ) للحصول على كتب علمية لنقلها الى العربية ؛ وحاكى الافراد من ذوي اليسار أمثولة الخليفة هذه ؛ فهناك مثلا ثلاثة أخوة : محمد وأحمد والحسن يطلق عليهم بمجموعهم (بنو موسى) « أحضروا النقلة[3] من الاصقاع والاماكن بالبذل السنّي » فأظهروا

---

(١) جاء في الفهرست (ص ٣٥٢) : كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلا في نفس وله همة وصحبة للعلوم ، خطر بباله الصنعة فأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح في العربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي ، وهذا أول نقل كان في الاسلام من لغة الى لغة » • [المترجم] •

(٢) ص ٢٤٣ « طبعة فلوغل الأوربية » [= ص ٣٥٣ « طبعة المكتبة التجارية بمصر »] •

(٣) كان يُرزق النقلة ممن يستخدمهم بنو موسى بمعدل خمسمائة دينار في الشهر تقريبا (نفس المصدر ، ص ٤٣ س ١٨ وما يليه) [قارن ص ٣٥٤ س ٥ ــ ٦ من الطبعة المصرية « المترجم »] •

عجائب الحكمة ؛ وكان الغالب عليهم من العلوم : الهندســـة والحيل[1] والحركات[2] والموسيقى والنجوم وهو الأقل »[3] فوضعهم المأمون مـــع يحيى بن أبي منصور وعلماء آخـــرين في (بيت الحكمة) بغـداد ، المؤسسة التي تضم مكتبة عامرة بالكتب ومرصـداً فلكيـاً ؛ ولا يمكننا ان نذكر من بين مشاهير المترجمين في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد من الذين كانوا هم انفسهم مشتغلين بارزين في الحقـــل الجديد ، غـــير قســطا بن لوقا وحنين بن اسحق المسيحيَّيْن وثابت بن قُرَّه الصابئي ؛ وليس من نطاق هذا الكتاب النظر في انجازات المسلمين في العلم والفلسفة بالتفصيل ويجب أن نعترف بالتأكيد بانهم قدموا اضافات قيمـــة الى بعض مسائل العلم التي اقتبسوها ، غير ان هذه الاكتشافات لا تعـد شيئاً يسـيراً بالمقارنة مع ما نحن مدينون به للعرب كروّاد للعلم وكحاملي مشـــاعل النور الى اوربا في القرون الوسطى[4] وفي الوقت ذاته لا يمكن الا ســـرد

(١) المقصود بها الميكانيك وترجمها نكلسن بلفظة (Engineering)

(٢) أي حركات الاجرام السماوية .

(٣) الفهرست (طبعة فلوغـــل) ص ٢٧١ [= ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣ (الطبعة المصرية) ويلاحظ ان نكلسن ترجم لفظة « الحكمة » « بالعلم » ـ المترجم] ؛ ابن خلكان ، ترجمة دي سلان ، ج ٣ ص ٣١٥ .

(٤) هناك حاجة الى فصـــل على الاقل لايضـاح المنـافع المادية والعقلية الاساسية بصورة معقولة ، تلك التي أفادتها الحضارة الاوربية من العرب ، وبوسع القارىء أن يرجـــع الى كتاب فون كريمر : « التاريخ الثقافي للشرق » (بالالمانية) ج ٢ الفصل ٧ و ٩ وديركس : « العرب في القرون الوسطى »(Die Araber Im Mittelalter) (لا يبزغ ، ١٨٨٢) سيديو : « تاريخ العرب العام » .(Histoire Générale Des Arabes) شاك : « شعر العرب وثقافتهم في اسبانيا وصقليا » (بالالمانية) مُنكْ : « أمشاج الفلسفة اليهودية والعربيـــة » (بالفرنسيـــة) . دى ليسي أوليري : « الفكر العربي ومكانته في التاريخ » (بالانكليزية) « ١٩٢٢ » وكامبيل : « الطب العـــربي وأثره في القرون الوســـطى » (١٩٢٦) و « تراث الاسلام » (The Legacy of Islam). باشراف السـير تي. دبليو. أرنولد . والبروفسور أ. غيوّم [في النص الانكليزي ان =

بضعة اسماء لاشهر الفلاســـفة والعلماء الذين عاشوا في العهد العباسي ؟ وسيلاحظ القارىء انهم – باستثناءات نادرة – من أصل أعجمي •

وزعماء الحركة الفلسفية هم :

الكنـــدي :

١ – يعقوب بن اسحق الكندي المنحدر من اسرة أمراء كندة (راجع ص ٤٢ من « تاريخ العـــرب الأدبي » لنكلسن ، « النص الانكليزي ») وقد تميّز عنـــد معاصريه بلقب « فيلسوف العرب » ، عـاش في النصف الاول من القرن التاسع للميلاد [أي الثالث للهجرة] •

الفـــارابي :

٢ – أبو نصر الفارابي (ت ٣٣٩هـ/٩٥٠م) من أصل تركي ومن مدينة فاراب من بلاد ما وراء النهر[١] وقـــد أمضى السنين الأخـــيرة من حياته في حلب ، تحت رعاية سيف الدولة ، عاكفاً على دراسة أرســطو الذي يتفق المسلمون مع دانتي على اعتباره « الأستاذ المتحمس الذي يعرفونه» (أي استاذ الاساتذة)[٢] •

ابن سينـا :

٣ – أبو على بن سينا (Avicenna) ولـــد من أبوين فارسيـــين في خَرْمَيْثَن[٣] ، بالقرب من بخـــاري سنة ٣٧٠هـ/٩٨٠م وقـد أظهر في شبابه مواهب خارقة بحيث انه « اختلف اليـــه فضلاء هـذا الفن [أي الطبّ] وكبراؤه ، يقرؤون عليه أنواعه والمعالجات المقتبسة من التجربة ، وسنُّهُ اذ ذاك نحو ست عشرة سنة »[٤] •

= الكتاب الاخير لايزال في دور الاعداد ولكنه الان في الحقيقة قد طبع منـذ زمن بعيد وظهرت له ترجمة عربية • « المترجم »]•

(١) أي تركستان الحالية • راجع الاصطخري : « مسالك الممالك » (طبعة دي غويه) ص ٢٨٦ – ٣٤٨ •

(٢) لقد ادخل دانتي أرسطو في الجنة رغم وثنيته على نحو ما فعل المعري مع بعض وثنيي الجاهلية • [المترجم] •

(٣) هكذا ضبطها نكلسن وهي « خرميثنا » في الطبعة المصرية •

(٤) ابن خلكان ، ترجمة دي سلان ، جـ ١ ص ٤٤٠ [= جـ١ ص ٤٢٠ « طبعة محمد محيى الدين عبدالحميد » ، رقم الترجمة ١٨٢]•

ولم يكن طالب علم هادئاً كالفارابي وانما كان محباً للذة ، ورجل دنيا مغامراً ، رحل من بلاط الى بلاط مُقرَّباً تارة مغضوباً عليه أخرى ولكنه كان يكتب دائما دون كلل أو تعب ، وكان نظامه الفلسفي الذي يجمع بين النظريات الأرسطوطالية والافلاطونية الجديدة والتصوف الفارسي ملائمة تمام الملاءمة للذوق العام الشائع ولا تزال مكانة هذا النظام الفلسفي في الشرق عظيمة ؛ وكتاباه الاساسيان هما « كتاب الشفاء » وهو في الفيزياء وعلم ما وراء الطبيعة الخ .. ودائرة معارف طبية عظيمة عنوانها « القانون » . توفي ابن سينا سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م .

٤ ـ أما الفلاسفة الاندلسيون فهم ابن باجَّة (Avempace) وابن طفيل وابن رُشْد (Averroes) وكلهم عاش في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد .

الطب والفلك والرياضيات :

ان أشهر اسم الى جنب ابن سينا في تأريخ الطب العربي هو أبو بكر الرازي (Rhazes) من الرَيّ بالقرب من طهران (وتوفي سنة ٣١١هـ/ ٩٢٣م أو ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) . وقد أحرز جابر بن حيّان الطرسوسي (المتوفى حوالي سنة ١٦٤هـ/٧٨٠م) ـ وهو المسمى ب (Geber) عند الاوربيين ـ شهرة موازية له ككيماويّ .

وسار الفلك يداً بيد مع التنجيم ؛ وبوسع القاريء ان يتبين الفرغاني وأبا معشر البلخي (ت ٢٧٢ هـ/٨٨٥م) والبتّاني وهو صابئيّ من حرّان (ت ٣١٧ هـ/٩٢٩م) تحت اسماء Al Fraganus, Al Bumaser, Al Bategnius. وهي الأسماء الافرنجيّة التي عرفوا بها في الغرب ؛ وكان أبو عبدالله الخوارزمي الذي عاش في خلافة المأمون بداية سلسلة طويلة

من الرياضيين ، وفي هذا العلم كما في علم الطب والفلك نجد تأثير الهند على الحضارة الاسلامية ـ على أنه بقدر ما يعتمد على المصادر الادبية ، كان تأثيراً اكثر ضيقاً وأقل حيوية الى حد بعيد من التأثير اليوناني •

البيروني (٣٦٣هـ/٩٧٣م ـ ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) :

لا يمكننا الا أن نشير اشارة عابرة الى ابي الريحان البيروني فهو من أهالي خوارزم (Khiva) ولم يضارعه أي مسلم في اطلاعه على علوم الهند وآثارها وعاداتها وقد قام الدكتور ساخاو (Sachau) بتحقيق كتابيه الرئيسين : « الآثار الباقية » و « تاريخ الهند » وبترجمتهما الىالانكليزية[١] •

الفهرست :

بوسعنا أن نأخذ فكرة عن الفعاليّة العقلية المذهلة للمسلمين في صدر الدولة العباسية وعن الخسائر الهائلة التي اصيب بها الأدب العربي بتدمير آلاف الكتب التي لا نعرفها باكثر من عناوينها واسماء مؤلفيها من «الفهرست» لمحمد ابن اسحق بن ابي يعقوب النديم الورّاق البغدادي (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ/٩٩٥م) وليس لدينا معلومات عن المؤلف اكثر مما يوحيه النعتان الأخيران الملحقان باسمه : كان نسّاخاً للمخطوطات وذا صلة ببغداد ولادةً أو اقامةً ؛ زد على ذلك أنه كان ، على ما يخبرنا به هو ، (ص٣٤٩ س ١٤ وما بعده) في الاستانة (دار الروم) سنة ٣٧٨ هـ/٩٨٨م نفس السنة التي الّف فيها كتابه ؛ ومن الممكن انه كانت له صلة قربى بالموسيقار المشهور : اسحق بن ابراهيم النديم الموصلي (المتوفى سنة ٢٣٥ هـ/٨٤٩-٨٥٠م) ولكن ذلك لايزال بحاجة الى برهان ؛ على كل حال فنحن مدينون لجهوده بسجل فريد لتاريخ العرب الادبي حتى نهاية القرن الرابع للهجرة، والفهرست ، (كما يوضح المؤلف في مقدمته المقتضبة):

---

(١) تحت عنوان The Chronology of Ancient Nations (لندن ١٨٧٩) و (Al Beruni's India) (لندن ، ١٨٨٨) •

« فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع الى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلثمائة للهجرة »[1] .

ولما كانت محتويات الفهرست (التي تتجاوز الوصف المدرج في أعلاه الى حد كبير) قد حللها جي° فلوغل G. Flügel بالتفصيل (في مجلة جمعية المستشرقين الالمان ، المجلد ١٣ ص ٥٥٩ وما بعدها) ووضعها البروفسور براون بشكل جداول في الجزء الاول من كتابه : « تاريخ فارس الأدبي »[2] فليس لدينا الا ان نبين ترتيب الكتاب العام ونطاقه : فهو مقسم الى عشر مقالات وهي بدورها مقسمة تقسيماً ثانويا الى عدد متباين من (الفنون) ويبحث ابن النديم قبل كل شيء في لغات العرب والشعوب الأخرى وكتاباتهم وكتبهم المقدسة ونزول القرآن وترتيب سوره وجامعيها ومحرريها ومفسريها ؛ وبعد ان ينتقل الى العلوم التي انبثقت ، كما رأينا ، من دراسة القرآن وخدمت بالدرجة الاولى الفقه يبيّن أصل النحو ويوضح مدارس النحاة المختلفة مع البحوث التي الفوها وتضم المقالة الثالثة الأخبار[3] والآداب والسير والانساب ؛ وتعالج الرابعة الشعر القديم والحديث ؛ ويؤلف (الكلام) موضوع الفصل التالي الذي يحتوي على ملاحظة قيمة عن الاسماعيلية ومؤسسها عبدالله بن ميمون وكذلك عن المتصوّف المشهور الحسين بن منصور الحلاّج ؛ ومن هذه الأسماء واسماء اخرى تفوح بالالحاد يعود المؤلف الى مدارس الفقه السُّنيّة ــ المالكية ، والحنفيّة والشافعية والظاهرية ــ ثم يعرّج على فقهاء الشيعة الخ ... وتبحث المقالة السابعة في

(١) ص ٨ من طبعة المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة .

(٢) ص ٣٨٤ من الاصل الانكليزي .

(٣) المقصود بالاخبار « التاريخ » وبهذه اللفظة ترجمها نكلسن . [المترجم]

« الفلسفة والعلوم القديمة » وتحت هذا العنوان نجد بعض التأملات الغريبة فيما يتعلق باصولها ودخولها بلاد الاسلام ، ونجد قائمة بالنقلة والكتب التي نقلوها الى العربية ، ومعلومات عن الفلاسفة الاغريق من طاليس الى بلوتارك مع اسماء مصنفاتهم التي كانت معروفة عند المسلمين واخيرا استعراضا ادبيا للعلوم المتبقية كالرياضيات والموسيقى والفلك والطب ، وهنا وبانتقال مفاجىء ندخل النطاق المسحور للاسطورة الشرقية ـ هزار افسانه ، او الف خرافة، وكليلة ودمنة ، وكتاب السندباد واساطير رستم واسفنديار ومؤلفات في الشعوذة والسحر واصحاب النيرنجيات Conjuring والحيل والطلسمات ونحو ذلك ؛ وقد اعترف العلماء الأوربيون منذ زمن طويل باهمية المقالة التاسعة[1] المخصصة لمبادىء الصابئة وكتاباتهم والمذاهب الثنوية التي أوجدها ماني وبارديصان ومارسيون [مرقيون] ومزدك وغيرهم من زعماء الالحاد ويختم المؤلف مصنفه بفصل عن الكيميائيين •

(١) لقد قام شفولسون Chwolsohn بتحقيق وترجمة الفقرات الخاصة بالصابئة مع شروح وهوامش كثيرة في بحثه الموسوم ب Ssabier und Ssabismus (سنت بطرسبرغ ، ١٨٥٦) ج ٢ ص ١ ـ ٣٦٥ في حين ان فلوغل افاد فائدة مماثلة من القسم المـاني في كتابه « ماني: تعاليمه وكتاباته » Mani, seine lehre und seine schriften. (لايبزغ ، ١٨٦٢) •

الفصل الثالث

السنة والزندقة والتصوف

العباسيون والاسلام :

لقد قدمنا مسبقاً معلومات عن الثورة السياسية العظيمة التي قامت بها الاسرة العباسية وعلينا الآن أن نتبين تأثير العهد الجديد في المجال الديني الذي لا يقل حيوية عن المجال السياسي • اننا لنذكر ان العباسيين تقدموا كمنافحين عن بيضة الاسلام والمؤمنين المستعبدين والمضطهدين وكان انتصارهم انتصارا للفكرة الاسلامية على الفكرة القومية : « لقد رغبوا ، كما قالوا ، في احياء سُنَّة النبي التي ماتت ؛ فجاءوا بالفقهاء من المدينة ، التي كانت حتى الآن موطنهم ، الى بغداد ، وطلبوا موافقتهم دوما باهتمامهم حتى في معالجة المسائل السياسية بشكل فقهي وأصدروا قراراتهم بموجب القرآن والسنة ؛ على أنهم في الحقيقة استغلوا الاسلام لخدمة مصلحتهم الخاصة فحسب • لقد روّضوا علماء الدين في بلاطهم وحفزوهم على المصادقة على اشد الاجراءات المنفرة الكريهة ؛ وجعلوا المعارضة التقيّة دون ضرر بقيادتها الى النصر ، فقد احرزت بسقوط الدولة الأموية غايتها وكان بوسعها الآن ان تنام رغداً وتستقر بسلام »[1] • هناك الشيء الكثير من الصدق في هذه النظرة الى القضية ؛ على أنه بالرغم من المظهر الهيّن لدين الخلفاء العباسيين، فقد كانوا مكرسين أنفسهم باخلاص لقضية الاسلام ومتحمسين للحفاظ على مبادئه في الحياة العامة • لقد اعتبروا أنفسهم أجَلّ المدافعين عن الدين وأضافوا بردة الرسول (ص) الى الشعارين الملكيين لبني أمية وهما الصولجان والختم ، وابتهجوا بالالقاب الفخمة التي أضفاها عليهم المداهنون لهم ، من نحو : « خليفة الله » ، « سلطان الله على الارض » ، « ظل الله » الخ•••

(١) فيلها وزن : « الدولة العربية » (الاصل الالماني) ص٣٥٠ وما بعدها •

والتجأوا الى كل وسيلة ليخلعوا على أنفسهم نعوت الثيوقراطية(١) او الحكم الالهي ويوحوا الى رعاياهم بالاجلال(٢) .

تأثير الفقهاء :

وفي حين أن ملوك بني أمية تجاهلوا أو حطموا العاطفة الاسلامية وقلما حاولوا مصالحة ممثلي الاسلام البارزين ، فان العباسيين ، على العكس منهم ، لم يجمعوا حول عرشهم جميع فقهاء عصرهم المشهورين جداً فحسب بل أظهروا لهم كل تكريم ممكن وأصغوا باحترام لمشورتهم وسمحوا لهم بأن يمارسوا نفوذاً في ادارة الدولة (٣) ؛ وعندما طلب الخليفة هارون الرشيد(٤)

---

(١) تعني لفظة Theocracy « الثيوقراطية » أي الحكومة الالهية التي يديرها الكهنة نواباً عن الله ، فهي في الحقيقة حكومة رجال الدين .
[المترجم]

(٢) انظر گولدتزيهر : دراسات اسلامية : جـ ٢ ص ٥٣ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ، ص٧٠ وما يليها . (٤) روى ابن عماد الحنبلي القصة في « شذرات الذهب » اخبار سنة ١٧٩ هـ (جـ ١ ص ٢٩٠ - ٢٩١) فقال : حدث عتيق بن يعقوب الزبيدي قال قدم هارون الرشيد المدينة وكان قد بلغه ان مالك بن انس عنده الموطأ يقرؤه على الناس فوجه اليه البرمكي فقال : اقرئه السلام وقل له يحمل اليّ الكتاب ويقرؤه عليّ »فاتاه البرمكي فقال : « أقرئه السلام وقل له ان العلم يؤتى ولا ياتي » فأتاه البرمكي فاخبره وكان عنده ابو يوسف القاضي فقال يا أمير المؤمنين يبلغ اهل العراق انك وجهت الى مالك في أمر فخالفك اعزم عليه فبينما هو كذلك اذ دخل مالك فسلّم وجلس فقال له الرشيد « يا ابن ابي عامر أبعث اليك وتخالفني ؟ » فقال [بعد أن روى له حديثاً] يا أمير المؤمنين حرف واحد بعث فيه جبريل والملائكة عليهم السلام من مسيرة خمسين الف عام الا ينبغي لي ان اعزه واجله وان الله تعالى رفعك وجعلك في هذا الموضع بعملك فلا تكن انت اول من يضيع عز العلم فيضيع الله عزك » فقام الرشيد يمشي مع مالك الى منزله ليسمع منه الموطأ فاجلسه معه على المنصة فلما اراد ان يقرأه على مالك قال لي تقرؤه علي قال ما قرأته على احد منذ زمان قال فيخرج الناس عني حتى اقرأه انا عليك فقال : ان العلم اذا منع من العامة لاجل الخاصة لم ينفع الله تعالى به الخاصة فامر معن بن عيسى القزاز ليقرأه عليه فلما بدأ ليقرأه قال مالك لهارون : يا أمير المؤمنين ادركت اهل العلم ببلدنا وانهم ليحبون المتواضع للعلم فنزل هارون عن المنصة وجلس بين يديه وسمعه » .

حضور مالك بن أنس ليستمع الى الأحاديث التي يرويها رد عليه مالك : « العلم يؤتى ولا يأتي » فذهب هارون الى بيت مالك واتكأ على الجدار الى جنبه ، فقال مالك : « يا أمير المؤمنين ، من يكرم الله ، يكرم العلم » فنهض الرشيد وجلس عند قدمي مالك وتحدث اليه واستمع اليه وهو يروى عدداً من الاحاديث المأثورة عن الرسول (ص)[1] ، ثم بعث في طلب سفيان ابن عينية[2] فحضر عنده وروى له الاحاديث؛ فقال الرشيد فيما بعد: «يامالك، لقد تواضعنا أمام علمك فانتفعنا به ، وتواضع علم سفيان امامنا فلم ننتفع به »[3] وبوسعنا ان نقدم عدة أمثلة على الرعاية السامية التي تمتع بها

---

(١) نظم الشاعر محمد اقبال هذه القصة بالفارسية في قصيدة « الله الصمد » من « ديوان الاسرار والرموز » اسرار اثبات الذات ورموز نفي الذات ، ونقلها الى العربية الدكتور عبدالوهاب عزام (دار المعارف بمصر ١٩٥٥ وفيها يقول (ص ١٤٣ ــ ١٤٤) :

« من الرمل » :

قائد الاسلام هارون الرشيدْ — من سقى نقفور من ماء الحديدْ
قال يامالك مولى الأمة — أنتَ يا رونق وجه الملةِ
أنت يا بلبل فردوس الحديث — انني أرغب في درس الحديث
لِمَ يُخفي ذا العقيق اليَمَنْ؟ — اقصدنْ بغدادَ نعم الوطنُ
حبذا زهرة ايام العراق — حبذا حسن به الأعين راقْ
تربةٌ فيه من السقم نجاه — قاطرٌ من كرمه ماءُ الحياه
قال : اني خادمٌ للمصطفى — وبحسبي حبه لي شرفا
انا من قيُدّتُ في حبي له — كيف أنأى عن مكان حلّهُ
لي في يثرب حب واشتياق — اين من ليلي بها صبح العراق ؟
ويقول العشقُ امري إمتثلا — لستُ ارضى بملوك خَوَلا
أنت تبغي أن تُرى لي سيدا — أن تُرى مولىً لحُر عبُدا
التعليمك أغشى بابكا — خادم الأمة لا يعنولكا
ان تَرُمْ في الدين علماً يُقتنى — فاغشيَنْ حلْقةَ درسي ههنا

(٢) ولد سنة ١٠٧ هـ وتوفي سنة ١٩٨ (راجع ابن قتيبة المعارف ، القاهرة ، ١٩٣٤) ص ٢٢١ .

(٣) « مقتبسات تاريخية عربية Fragmenta hitoricorum arabicorum طبعة دي غوية ودي يونغ ، ص ٢٩٨ .

الفقهاء في هذا العهد والاهتمام الحيّ الذي تناقش به الخليفة وحاشيته في الموضوعات الدينية ، وعندما فقد الخلفاء سلطتهم الدنيوية تدريجياً استمر تأثير العلماء ــ علماء الفقه والشريعة ــ في ازدياد ، وقبل ان يمضي طويل وقت كونوا طبقة ذات امتيازات محتلين في الاسلام مكانة لا تختلف عن مكانة القساوسة في مسيحية القرون الوسطى •

ومن الملائم ان نبحث الظواهر الدينية للعصر العباسي تحت العناوين الآتية :ــ

١ ــ الاعتزال والتفكير الحر •

٢ ــ رد الفعل السنّي وظهور الفقه الفلسفي •

٣ ــ التألّه الصوفي •

الاعتزال والتفكير الحر :

١ ــ لقد تميز العصر العباسي الأول ، كما رأينا ، باثارة فكرية عظيمة فقد ظهر مختلف انواع الافكار الجديدة ، اذ كان عصر استكشاف ويقظة ، ففي فترة قصيرة تدعو الى الدهشة بلغت الدراسات المختلفة للفقه والقانون والطب والفلسفة والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية نضجها ، ان لم تصل ذروة تطورها ، ورغم ان بعض المسلمين التقاة نظروا شزراً الى العلوم الاعجمية وشيوخها فان روحاً مستنيرة كانت هي السائدة بصورة عامة ، فقد أخذ الشعب اشارته من البلاط الذي رعى أو على الاقل تسامح[1] مع التتبعات العلمية ، فضلا عن التأملات اللاهوتية •

★ ولقد القي مؤخراً ضوءجديد على طبيعة حركة المعتزلة بنشر «كتاب الانتصار» للمعتزلي الخياط[2] وهو كتاب جدلي من القرن الثالث للهجرة التاسع للميلاد موجّه ضد المفكر الشيعي الحر ابن الراوندي[3] ومن الواضح

(١) هناك بطبيعة الحال بعض الاستثناءات الجزئية لهذه القاعدة ، كحكم المهدي وهارون الرشيد •

(٢) طبعة ايج • ايس « نيبرگ • القاهرة ، ١٩٢٦ •

(٣) قارن ص ٣٧٥ ادناه (من النص الانكليزي) •

الآن ان هذه الجماعة الالحادية لعبت دوراً فعالاً كابطال مدافعين عن الاسلام ، لا في المشادات المبكرة التي قامت بين المسلمين والمسيحيين في الشام فحسب بل ضد الهجمات الأشد خطراً التي استمرت في المائة سنة الاولى من الحكم العباسي آتية من جانب المانويين والزنادقة الآخرين في فارس ، والعراق على الاخص[1] ولكيما يجابه المعتزلة هؤلاء الخصوم على قدم المساواة تفهموا الفلسفة والمنطق الاغريقيين فوضعوا بذلك أسس الفلسفة الدينية الاسلامية [او علم الكلام الاسلامي]*[2] .

المعتزلة وخصومهم :

وقد مكّنت هذه الظروف المعتزلة (أنظر الصفحة ٢٢٢ وما بعدها من النص الانكليزي من « تاريخ العرب الأدبي » لنكلسن) من تنمية ونشر افكارهم الحرة دون عائق وان يحملوا صراعهم ضد السنّة في النهاية الى نتيجة ظافرة ؛ وقد كان نفس الصراع الذي فرّق بين « الاعتباريين » Nominalists « والواقعيين » Realists في ايام توماس أكويناس T. Aquinas ودنز سكوتس Duns scotus وأوكم Occam وكما يحدث في كثير من الاحيان عندما تكون المبادىء الخطيرة في خطر فان المشادة كلها بين العقل والوحي دارت حول سؤال واحد : « هل القرآن مخلوق او غير مخلوق ؟ » او بعبارة اخرى : « هل هو من صنع الله او كلام الله ؟ » وهو بموجب عقيدة السنّة غير مخلوق وقد وجد مع الله منذ الازل ، وهو بشكله الحاضر مجرد كتابة منقولة عن اللوح

(*) الفقرة المحصورة بين نجمتين منقولة من فصل الهوامش الملحق بكتاب نكلسن .

(١) قارن آي . گويدي I. Guidi « الصراع بين الاسلام والمانوية » (بالايطالية) La lotta tra l' Islam e il manicheismo (روما ، ١٩٢٧) .

(٢) قارن ايج . ايج . شايدر : « الشرق والتراث الاغريقي » بالالمانية .

المحفوظ في السماء[1] • ومن الواضح ان هذا المفهوم للقـــرآن ككلام الله المباشر الحرفي لم يترك مجالا لممارسة الفهم وانما تطلب من اولئك الذين تبنوه ايماناً أخرس وتسليماً للقضاء والقدر بشكل أعمى ؛ وقد كان هنـاك الكثيرون ممن لم تبدُ لهم التضحية كبيرة اكثر مما ينبغي ؛ وعلى العكس من ذلك فان المعتزلة أكدوا حريتهم العقلية ، وقد قالوا انه من الممكن معـــرفة الله والتمييز بين الخير والشر دون أي وحيٍ اطلاقا ، وأقرّوا بان القرآن من صنع الله بمعنى انه نتاج نبي موحى اليه سماوياً ولكنهم رفضـــوا تأليهه [اي القرآن] بصورة قطعية ؛ وذهب بعضهم الى حد انه انتقد الاسلوب الذي لا يُحاكى مصرحاً بانه يمكن التفوق عليه في الجمال والبلاغة بفن بشري[2] •

المأمون يتبنى الاعتزال ويطبقه :

لقد اصبحت المشادة الاعتزالية قضية مهمة في حكم المأمون (١٩٨هـ/ ٨١٣م – ٢١٨هـ/٨٣٣م) الخليفة الذي سبق أن ذكرنا حماسته العلميــة واهتمامه العظيم بالامور الدينية فهو لم يرث سُنّيّة ابيه هارون الرشيد ، وكان يُعْتَقَدُ انه زنديق في قرارة قلبه[3] وكان بالامكان ان تكون اتجاهاته الحرة موضع أعجاب تام لولا انها شوهت بعدم تسامح مفرط ازاء اولئك الذين كانوا متمسكين بوجهات نظر معاكسة لما كان يرتئيه وفي سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م وهي سنة وفاته اعلن مرسوماً الزم كافة المسلمين بموجبه بتقبل مبدأ الاعتزال القائل بخلق القرآن والا فقدوا حقوقهم المدنية واخذ الناس في

---

(١) راجع الملاحظة الواردة في الصفحة ١٦٣ من النص الانكليزي من كتاب : « تاريخ العرب الادبي » لنكلسن •

(٢) لقد حاول العديد من الزنادقة في هـــذه الفترة مضاهاة القرآن بتآليفهم • راجع گولد تزيهر : « دراسات اسلامية » (بالالمانية) جـ ٢ ص ٤٠١ وما بعدها •

(٣) هذا حكم لايخلو من قسوة فان اتجاه المأمون الفلسفي ونزعتـه العلمية لاتبرران اتهامه بالزندقة ، وربما جاءت التهمة من مناوئيه الذين كانوا يعارضون القول بفكرة خلق القرآن • [المترجم]

نفس الوقت (بالمحنة) [اي القول بخلق القرآن] للحصول على موافقة الفقهاء والقضاة وعلماء الشريعة ومن لم يشأ الامتحان ضرب بالسياط وهدد بالسيف . واستمر الاضطهاد بعد وفاة المأمون ولو انه وجّه باسلوب اكثر اعتدالا ، وكان الشعور العام قوياً ضد المعتزلة وكان ابرز شخصية في المعسكر السنّي الامام أحمد بن حنبل الذي قاوم المبدأ الجديد بثبات منذ البداية . ويقول المؤرخ السنّي أبو المحاسن : « ولولاه لفسدت عقائد جماعة كثيرة »[1] ولم يستطع الوعيد ولا التوسل ان يزعزع عزمه وعندما ضرب بالسياط بامر الخليفة المعتصم كانت دار الخلافة في خطر أن تُنقض على ايدي جمهور غاضب كان مجتمعاً في الخارج ليسمع نتيجة المحنة[2] [اي المحاكمة] .

عودة المتوكل الى مذهب أهل السُنّة :

بقي مبدأ الاعتزال نافذاً رسمياً الى أن تخلى عنه الخليفة الواثق وجعله المتوكل الخليفة المتطرف القاسي (٢٣٣هـ/٨٤٧) الحادياً مرة اخرى ، ومنذ ذلك الحين حتى اليوم كبت الفريق المنتصر بصرامة كل حركة عقلية في الاسلام .

نهاية المعتزلة :

ظهر الإلحاد الاعتزالي الأصلي ، على رأي شتاينر ، في أحضان الاسلام ، مستقلا عن أي تأثير أجنبي ، ولكن مهما يكن الأمر ، فان تطوره المتأخر كان متأثرا بالفلسفة الاغريقية الى حد كبير ؛ وما بنا حاجة لمحاولة تتبع التأملات والتخمينات العميقة لأبي هُذيل العلاّف (المتوفى حوالى ٢٢٦هـ/٨٤٠م) ومعاصِرَيْه النظّام وبشر بن المعتمر وآخرين ومدارس الفلسفة في البصرة وبغداد التي ماتت فيها الحركة . عبثاً حاولوا الاستعاضة عن فكرة « الله » الاسلامية كارادة بالفكرة الارسطوطاليسية عن « الله » كقانون ، ولم تترك محاولاتهم لتجريد القرآن من « آراء المشبهة » [أو المجسمة]

(١) النجوم الزاهرة ، طبعة جونبول ، ج ١ ص ٦٣٩ (اخبار سنة ٢١٧ هـ) = ج ٢ ص ٢٢١ من طبعة دار الكتب .

(٢) ترجمها نكلسن بلفظة Inquisition تحقيق او استنطاق .

تأثيرا في المؤمنين الذين كانوا يأملون بحماس ان يروا الله في الجنة وجهاً لوجه وما حققوه بالفعل كان بالغ الضآلة ، فقد حولت اسلحتهم المنطقية والدايالكتيكية ضدهم بنجاح ظافر واقيمت أسس الفقه الفلسفي على انقاض « الحركة العقلية »[١] ؛ على ان مبادىء المعتزلة خَمَّرَتْ بصورة غير مباشرة التفكير الاسلامي الى حد كبير ومهدت الطريق لحركات حرة أخرى كحركة اخوان الصفا التي حاولت ان توفق بين السلطة والعقل وبناء نظام عام لفلسفة دينيّة[٢] .

اخوان الصفا :

ان اخوان الصفا[٣] ، كما كانوا يسمون انفسهم ، صنفوا مؤلَّفاً موسوعيا عظيما في خمسين رسالة ، وخمسة من المؤلفين الذين عاشوا في البصرة حوالي اواخر القرن العاشر للميلاد / الرابع للهجرة معروفون عندنا باسمائهم ، وهم : أبو سليمان محمد بن معشر البيوستي أو المُقَدَّسي (أو المَقْدِسي) وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني وأبو احمد المهرجاني ، والعوفي ، وزيد بن رفاعه ؛ « وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة

---

(١) المقصود بالفلسفة العقلية والحركة العقلية في هذا الفصل الحركة القائمة على الايمان بكفاية العقل دون الوحي . [المترجم]

(٢) ذكر نكلسن في فصل الهوامش الملحق بالكتاب (ص ٤٧٤ من النص الانكليزي) ما يلي : « يستتبع مما قيل في الملاحظة السابقة [الفقرة الثانية من « الحركة العقلية والزندقة ».] ان وجهة النظر هذه عن العلاقة بين المعتزلة واخوان الصفا تحتاج الى تحوير كبير ، ومع انه يمكننا ان نصف المعتزلة بالمقارنة مع خصومهم من اهل السنة ب « العقليين » و « الفقهاء الاحرار » فان مبادئهم كانت مناوئة تمام المناوأة لصوفية الاخوان المضادة للاسلام .

(٣) Brethren of purity هذه هي الترجمة الحرفية « لاخوان الصفا » ولكن « أخا الصفا » بالنسبة للمصطلح العربي لايعني غير التقي او المخلص كما اوضح كولد تزيهر في كتابه : «دراسات أسلامية » ج ١ ص ٩ (الهامش) ولا يتضمن التعبير اي نوع من الاخوة .

فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله وذلك انهم قالوا ان الشريعة قد دنّست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة لانها حاوية للحكمة الاعتقـــادية والمصلحة الاجتهادية وزعموا انه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعـة العربية فقد حصل الكمال وصنفوا خمسين رسالة في جميع اجزاء الفلسفة علْميّها وعَمَليّها وأفردوا لها فهرستاً وسمّوها « رسائل اخوان الصفا » وكتموا فيها اسماءهم وبثّوها في الورّاقين ووهبوها للناس وحشّوا هـــذه الرسائل بالكلمات الدينيّة والامثال الشرعيّة والحروف المحتملة والطرق المموّهة »[١] .

وقد ترجم ديتريصي جميع الرسائل تقريباً الى اللغة الألمانية ووضـع كذلك خلاصة للموسوعة باسرها في كتابه : « فلسفة العرب في القـــرن العاشر »[٢] وقد يقتضينا وصف نظام « الاخوان » وقتا طويلا ، ولكن بوسع القارىء ا نيجد معلومات ممتازة في كتاب ستانلي لين پول : « دراسات في مسجد »[٣] وقد طرحت مؤخراً وجهة النظر القائلة بأن اخوان الصفاكانوا مرتبطين بشكل ما بالدعوة الاسماعيلية وان مثلهم الدينية تمثل اسمى تعاليم الفاطميين والقرامطة والحشاشين ؛ وتقدم البرهان القـــوى لتأييد النظرية مخطوطة محفوظة في المكتبة الاهلية بباريس (تحت رقم ٢٣٠٩ في السجل المفهرس لدى سلان) الذي يضم بالاضافة الى أجزاء من الرسائل ، رسالة غير معروفة حتى الآن عنوانها « الرسالة الجامعة (أي الخلاصة)[٤] وتفيد هذه الاخيرة أنها جوهر الرسائل الخمسين وتاجهـــا وهي « اسماعيلية » السمات بوضوح وبوسعنا على ما أعتقد ، اذا ما افترضنا صحتها ، أن نوافق

(١) ابن القفطي : « تاريخ الحكماء » (طبعة الدكتور يوليوس لپرت Lippert) ص ٨٣ س ١٧ وما بعده .

(٢) Philosophie der araber in X jahrhundert

(٣) Studies in a mosgue الطبعة الثانية ، ص ١٧٦ وما بعدها

(٤) « ملاحظة حول مخطوطة عن فرقة الحشاشين » للمستشرق پ. كازانوفا في المجلة الآسيوية (بالفرنسية) لسنة ١٨٩٨ ص ١٥١ وما بعدها

على النتائج التي بيّنها مكتشفها ايم • بي • كازانوفا في الفقرة الآتية :

مبادىء إخوان الصفا مماثلة للفلسفة الباطنية عند الاسماعيلية :

« أعتقد قبل كل شيء أن من الصواب التأكيد على ان المبادىء الفلسفية للاسماعيلية متضمّنة برُمتها في رسائل اخوان الصفاء ؛ وهذا مايفسر « الاغراء الخارق الذي مارسه المبدأ بين صفوف الجدّيين من الرجال »[1] وباضافتها عقيدة « الامام المستور » الذي يجب ان يظهر يوماً ما ليملأ الارض عدلا[2] [كما ملئت جوراً] حققت انصهار كافة المبادىء المثالية للمسيحية والافلاطونية ، وما دام الامام مستوراً فقد بقيت مسحة الغموض التي اجتذبت النفوس السامية جداً ••• وفي كافة الاحوال يخشى المرء ان يؤكد ان القرامطة والحشاشين قد ثُلبوا الى مدى بعيد عندما اتهمهم خصومهم بالالحاد والفجور ؛ وتدّعي فتوى ابن تيميّه التي أوردتُها في أعلاه أن « البلاغ الاكبر » [اي الدرجة الاخيرة في نظامهم] انكار الخالق بالذات ، ولكن (الرسالة الجامعة) التي اكتشفناها هي ، على ما تدل الدلائل كافة ، الدرجة الاخيرة لعلم اخوان الصفاء والاسماعيلية ، فلا أساس من الصحة لمثل هذا الاتهام اذ يبدو المبدأ نقياً جداً ، سلمياً جداً ، بل وحتى بسيطاً جداً ؛ واكرر أنه ضرب من الحلولية[3] الميكانيكية والجمالية التي تضادد تمام المضادة مذهبي الشك للشك والمادية لانه يستند الى الانسجام العام لجميع فرق الدنيا ، الانسجام الذي يريده الخالق ذلك لانه الجمال نفسه ••

فاستنتاجي انه امامنا هنا مثال جديد لتاريخ مبدأ نقي جداً ، سامٍ جداً في نظرياته يغدو في ايدي المتعصبين والطموحين مصدراً لاعمال فظيعة فيستحق السمعة السيئة التي تلصق به على نحو ما الصق باسم (الحشاشين)

---

(١) دي غويه : « مذكرات عن القرامطة » [بالفرنسية] ص ١٧٢ •

(٢) في النص الفرنسي « ليؤسس السعادة الشاملة » •

(٣) المقصود بالحلوليه Pantheism وحدة الوجود اي وحدة الله والكائنات بمعنى ان الله هو الكائنات التي هي الله •

التاريخي »[١] .

الزنادقة :

كثيراً ما نسمع ، بجماعة أخـــرى من الملحدين ، الى جنب المعتزلة ، يحشرون عادة سوية تحت اسم « الزنادقة » .

يقول گولدتزيهر[٢] : « من المعروف أن اقـدم الاضطهادات كانت موجهة ضد اولئك الافراد الذين استطاعوا ان يخفوا بمهارة نوعا ما أفكارا دينية فارسية ، قديمة تحت قناع الاسلام ، والحق انهم احيـانا لم يجـدوا ضرورة لأي تستُّر فأقامـوا جهارا التنوية والمبـادىء الفارسية او المانوية الاخرى والطقوس المرتبطة بها ضد مبادىء الاسلام وطقوسه فسمي مثـل هؤلاء الاشخاص « بالزنادقة » وهي لفظة تضم مختلف ظلال الالحـاد ولا تـكاد تسمح بتعريف بسيط . هنـاك أولا الاسـر الفارسية القديمـة التي احتضنها الاسلام والتي كان لها باتباعها نفس طريق الشعوبية ، مصلحة قومية في احياء الافكار والتقاليد الدينية الفارسية ومن وجهة النظر هـذه تقوم بردَّة فعلٍ ضد الصفة العربية للنظام الاسلامي . ثم هناك مـن الجهة الثانية ، المفكرون الاحرار الذين يعارضون بصورة خاصة مبـادىء الاسلام العنيدة ويرفضون « الدين الايجابي » ولا يعترفون الا بالقـانون الخلقي ؛ وبين الفئة الاخيرة تَطوّرَ تنسكٌ رهبـانيّ ، غريب عن روح الاسلام ، وبالتالي يمكن الرجوع به الى التأثيرات البوذية » .

اضطهاد الزنادقة :

ان الدولة العباسية التي ارتأت فرض نظام عقائدي رسمي كانت أقل مشايعة بكثير للحرية الدينية مما كان عليه الامويون ، فقـد وقـع السنَّة

(١) اقتبس نكلسـن الفقرة التي اوردناها في اعلاه من المستشـرق كازانوفا بالنص الفرنسي الاصلي دون ان يترجمه الى الانكليزية .

(٢) « صالح بن عبدالقدُّوس والزندقة في خلافة المهدي » [بالالمانية]، اعمال مؤتمر المستشرقين التاسع ، ج ٢ ص ١٠٥ وما بعدها .

والملحدون على حد سواء تحت طائلة حظرهم فبينما شدد المأمون النكير على تُقاة السنّة أقام اسلافه المباشرون الدنيا وأقعدوها ضد الزنادقة ، وقد تميز الخليفة المهدي باضطهاد منظم لأعداء الدين هؤلاء ، فقد عهد الى « صاحب الزنادقة » [1] او « عريف الزنادقة » بان يكتشفهم ويلقي القبض عليهم ؛ فاذا لم يتوبوا عندما يطلب اليهم ذلك ، قُتلوا وصُلبوا وقطعت كتبهم [2] بالمُدى والسكاكين [3] ؛ وقد سار على نهج المهدي ، الهادي وهارون الرشيد ، على أن بعض العباسيين كانوا أقل صرامة ، فالخصيب ، طبيب المنصور الخاص ، كان زنديقا يتظاهر بالمسيحية [4] وأصبح « الزي العصري » في خلافة المأمون تبني افكار المانوية كسمة من سمات الأناقة والتهذيب [5] .

بشار بن برد[6] :

ويتضح النمطان الرئيسان للزندقة اللذان وصفا أعلاه ، في الشاعرين

---

(١) الطبري ، ٥٢٢/٣ س ١ .

(٢) اي كتب المانوية المقدسة التي كثيراً ما كانت مزركشة بشكل ممتاز راجع فون كريمر Cultur gesch. streifzüge « معالم تاريخ الحضارة » .

(٣) قارن الطبري ، ٤٩٩/٣ س ٨ وما بعده .

(٤) نفسه : ٤٢٢/٣ س ١٩ وما بعده .

(٥) قابل المثل القائل : « أظرف من الزنديق » (فريتاغ : الامثال العربية ، ج ١ ص ٢١٤) .

(٦) يراجع فيه الاغاني ١٩/٣ ـ ٤٧/٦ وابن خلكان ٨٨/١ والشعر والشعراء ٤٧٦ والفهرست ١٥٩ ؛ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٢١ وتاريخ بغداد ١١٢/٧ والمختار من شعر بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) والموشح للمرزباني ص٢٤٦ ونكت الهميان في نكت العميان للصفدي ١٢٥ ومعاهد التنصيص ٩٧/١ وشذرات الذهب لابن عماد الحنبلي ٢٦٤/١ والبيان والتبيين للجاحظ (راجع فهرس طبعة عبد السلام هارون) وكتاب لابراهيم عبدالقادر المازني فيه وآخر لطه الحاجري وشخصية بشار لمحمد النويهي وحديث الاربعاء لطه حسين ج ٢ وگولدتزيهر : « دراسات اسلامية » ١٦٢/١ والموسوعة الاسلامية وبروكلمان ٧٤/١ = زيدان : ٦٣/٢ ـ ٦٦ والدكتور محمد مهدي البصير : في الادب العباسي ، ص ١٢١ ـ ١٥٧ .

المتعاصرين بشّار بن برد وصالح بن عبدالقدوس ؛ فأما بشار فقد ولد اعمى وهو سليل اسرة فارسية نبيلة رغم أن والده برد كان عبدا ، وكان يتشبث بعواطف قومية عارمة ولم يحاول اخفاء عطفه على (الموالي) الفرس الذين اتُهم باثارتهم ضد أسيادهم العرب ؛ وربما كانت له كذلك ميول الى الزردشتيّه ، غير أن البروفيسيور بيڤان قد لاحظ انعدام أي برهان حقيقي على هذا القول[1] ولو أن الآراء الزردشتيه والمانوية من المحتمل ان تكون موضحة بحقيقة انه اعتاد الجدل مع عدد من مشاهير فقهاء المسلمين في البصرة من مثل واصل بن عطاء الذي استهل حركة الالحاد الاعتزالي ، وعمرو بن عبيد ، وقد قتله الخليفة المهدي كما قتل صالح بن عبدالقدوس في نفس السنة (١٦٧هـ/٧٨٣م) .

صالح بن عبدالقدوس :

كان صالح بن عبدالقدوس عربيا من الأزد بمولده أو ولائه ؛ ولا نكاد نعرف عن حياته الا القليل ما عدا انه كان لبعض الوقت واعظ شوارع في البصرة ، وفي دمشق بعدها .

من الممكن ان مبدأه الشعبي اعتبر خطرا ولو ان الوعاظ كصنف كانوا متفقين مع التنظيم الديني ولم يحتجوا على التصرفات الدينية السيئة كجماعة « اللولارد »[2] ، وليس في ما لدينا من شعره الحاد ، بل هو شعر اخلاقي تعليمي برمته ، على اننا رأينا في أمر ابي العتاهية أن المذهب السني كان مستعدا لربط « العقل الفلسفي » بعدم الايمان الايجابي ويبدو أن صالح بن عبدالقدوس راح ضحية مثل هذا التحيز ، فقد اتهم بالثنويّة أي المانوية ، وقيل ان المهدي هو الذي قام باستجوابه شخصيا وقد اطلق

---

(١) انه مستند كما يوضح البروفيسور بيڤان على مجرد بيت واحد مشهور (الاغاني : ٣/٢٤ س ١١) وصلنا دون منطوق [من البسيط] :

فالأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

(٢) لقد وصف گولدتزيهر هؤلاء الوعاظ الشعبيين (أو القُصّاص) بشكل مثير للاعجاب في كتابه : « دراسات اسلامية » جـ٢ ص١٦١ وما بعدها [« واللولارد » ملحدون عاشوا في هولندة في القرن الرابع عشر [وقد نذروا أنفسهم للعناية بالمرضى] .

سراجه اول الامر غير ان مصيره تقرر باعترافه بانه قائل البيتين الآتيين :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يُوارى في ثرى رمسه
اذا ارعوى عاد الى جهله كذي الضّنى عاد الى نكْسه[1]

رأي أبي العلاء المعرّي في الزنادقة :

يكرّس أبو العلاء المعري الذي كان هو نفسه ناقدا جريئا ومتهكما ازاء المبادىء الاسلامية ، قسما ممتعا من « رسالة الغفران » للزنادقة فيذكر أشياء عديدة قاسية عنهم ، والمقصود منها بلاشك ذر الرماد في عيون الجماعة الشاكّة فيه • ويبدو النطاق الواسع للفظة في حقيقة أنه يجمع فيها شيوخ قريش الوثنيّين والخليفة الاموي الوليد بن يزيد والشعراء: دعبل ، وأبا نواس ، وبشار وصالح بن عبدالقدوس وأبا مسلم الذي أقام الدولة العباسية والثائرين الفارسيّين : بابك ومازيار ؛ والافشين الذي أهلكه الخليفة المعتصم جوعا بعد ان انتصر على بابك وصاحب القرامطة الجنّابي ، وابن الراوندي الذي صُمّم كتابه الموسوم بـ « الدامغ » لانكار أسلوب القرآن المعجز ، والحسين بن منصور الحلاّج ، الشهيد الصوفي ، وبوسع الانسان أن يعترف بان معظم هؤلاء هم ضمن تعريف أبي العلاء للزنادقة : « لا يقولون بنبّوة ولا كتاب » ولاول وهله تبدو لفظة « زنديق » التي يطلقها الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م) على بعض الرهبان المتجولين[2] قد اطلقت على ماني واتباعه وليس من شك

---

(١) البيتان في بحث گولدتزيهر ص١٢٢ س٦ـ٧ [= زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٢ ص ١٠١ والضّنى : المرض والهزال ، ونكِس : عاوده المرض] •

(١) رسالة الغفران : (تحقيق بنت الشاطىء ، القاهرة ، ١٩٥٠) ص ٣٦٢ • [المترجم]

(٢) راجع فقرة في كتاب « الحيوان » اقتبسها البارون ف • روزن في زابيسكي ، جـ ٦ ص ٢٣٧ المترجم الى الانكليزية في كتابي : « مترجمات من شعر الشرق ونثره » ص ٥٣ ولعل هؤلاء الرهبان كانوا مانويين ولم يكونوا بوذيين •

في انها قد اشتقت ، كما يقترح البروفيسيور بيڤان ، مـــن « الزَدّيق » Zaddiq وهم الجماعة الذين كانوا يؤلفون صفوة مختارة في الدرجات الكهنوتية للمانوية(١) .

ردّة الفعل السنيّة :

لقد انتهى الاعتراف الرسمي بالاعتزال كدين رسمي للدولة ببيعـة المتوكل سـنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م فالخليفة الجديد الذي كان مديناً بعرشه للحرس التركي الامبراطوري المتحكم لم يستطع ان يستنبط وسيلة مؤكدة تجعله محبوبا اكثر من ان يتقدم كبطل مناضل جهارا عن عقيدة الجماهير؛ وقد اضطهد بلا تمييز اليهـود والمسيحيين والمعتزلـة والشـيعة والصوفيـة وباختصار ، كـل من حاد عن اضيق لون مـن الوان المـذهب السني . وقـد عُرِّض الوزير ابن ابي دؤاد الذي اظهر حماسة خاصة في توجيهه « المحنة » الاعتزالية ، للمهانة وصودر القسم الاعظم من ثروته ؛ وفي بغداد راح اتباع احمد بن حنبل يتنقلون مـن بيت الى بيت يدخـلون الرعب في قلوب المواطنين(٢) وكان مزاجهم التعصبي قد بلغ حدا لم يسمح باجـــراء

---

(١) لفظة « زدّيق » آرامية وتعني « المحق » ومقابلها العـــربي في الاشتقاقات اللغوية « صدّيق » ولها معنى آخر هو « الصادق » ، وقـــد انتقلت لفظة « زدّيق » الى الفارسية بصورة « زَنديق » التي استعملهـــا الفرس قبل الاسلام و « زنديق » هو الشكل المعرب للفظة الاخيرة وانا مدين ببعض هذه الملاحظات الى البروفسور بيڤان وقد قدم البروفيسور براون تفاصيل اخرى عن اصل ومعنى « زنديق » في كتابه : « تاريخ فارس الأدبي » (ج١ص١٥٩ وما بعدها) « الاصل الانكليزي » حيث يجد القاريء كذلك معلومات واضحة عن مبادىء المانوية .

[وقد اضاف نكلسن في فصل الهوامش الملحق بالكتاب ما يلي] : يعتقد البروفسور شايدر Schaeder ان لفظة زنديق في الفارسية الوسطى لا علاقة لها بلفظة « زَدّيق » الآراميّة (مجلة جمعية المستشرقين الالمان ، المجلد ٨٢ الجزء ٣ ـ ٤ ، ص ٨٠) .

(٢) ابن الاثير ، ج ٨ ص ٢٢٩ وما بعدها (السنة ٣٢٣هـ = ٩٣٤ـ ٩٣٥م) .

مراسيم الدفن المعتادة للطبري الفقيه والمؤرخ المشهور عندما مات سنة ٣٢٤هـ/٩٢٣م[١] وأخيرا أخرج الخليفة الراضي سنة٣٢٤هـ/٩٣٥م توقيعا استهجن فيه اعمالهم بالكلمات الآتية : « انكم تزعمون أنَّ صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته ، وتذكرون الكف والاصابع والرجلين والنعلين المذهبين والشعر القطط والصعود الى السماء والنزول الى الدنيا .

... وامير المؤمنين يقسم بالله قسما جهدا اليه يلزم الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقتكم ليوسعنَّكم ضرباً وتشريدا وقتلا وتبديدا وليستعملن السيف في رقابكم والنار في منازلكم ومحالكم[٢] .

أبو الحسن الأشعري :

الظاهر ان الوقت كان قد حان لقيام نظام يجمع بين مدعيات التقليد والعقل متجنبا « التشبيه » الفج لغلاة الحنبلية من جهة والنزعة العقلية

(١) نفسه ، ص ٩٨ [= ج ٦ ص ١٧٠ « طبعة عبدالوهاب النجار » اذ جاء فيها : « ودفن ليلا بداره لان العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهارا وادعوا عليه الرفض ثم ادعوا عليه الالحاد »] .

(٢) نفسه ، ص ٢٣٠ وما بعدها [= ابن الاثير : « الكامل في التاريخ» تحقيق عبدالوهاب النجار ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ ، ج ٦ ص ٢٤٨ في باب « ذكر فتنة الحنابلة ببغداد » وقد ذكر ابن مسكويه النص بتوسع وقيل ان الذي حمل الراضي على هذا التوقيع وزيره وكان ذلك سنة ٣٢٣هـ وفيها ــعلى ما يروى ابن الاثيرــ عظم امر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون من دور القواد والعامة وان وجدوا نبيذاً أراقوه وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا في البيع والشراء ومشى الرجال مع النساء والصبيان فاذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هو ؟ فان اخبرهم والا ضربوه وحملوه الى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة فأرهجوا بغداد ... واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد وكانوا اذا مر بهم شافعيّ المذهب اغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت » .

وقد اسقط نكلسن من ترجمته لبيان الخليفة الراضي بعض النقاط التي يمكن مراجعتها في الكامل لابن الاثير .

الخالصة للطبقة المتقدمة من المعتزلة (الذين كانوا لا يزالون قوة يحسب لها حساب) من الجهة الثانية ؛ ومن الامور المجرَّبة كثيرا ان الحركات العقلية أو الدينية العظيمة التي تقوم ببطء وبصورة غير مرئيه كما لو كانت استجابة لحاجة لا يمكن التعبير عنها تجد فجأة مفسرا ممتازا تعرف باسمه منذ ذلك الحين والى الابد ؛ وكان الرجل في هذه الحال ابا الحسن الاشعري الذي كان من اسرة نبيلة سُنيَّة بصورة تقليدية ، وذات أصل يماني ، وأحد أجداده أبو موسى الاشعري الذي لعب ، كما يذكر القاري، دورا غير مجيد نوعا ما في التحكيم بين علي ومعاوية بعد معركة صفين[1] ولقد تخلى ابو الحسن الشاب المولود سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣-٨٧٤م في البصرة المدينة المشهورة بخصبها العقلي والعلمي عن عقيدة آبائه والتحق بمدرسة التفكير الحر وكان حتى سن الاربعين التلميذ المحبوب والصديق الحميم للجُبَّائي (المتوفى سنة ٣٠٣هـ/٩١٥م) رأس المعتزلة يومذاك ؛ وقيل انه اختلف مع استاذه بعد مجادلة في مسألة ما اذا كان الله سبحانه وتعالى يفعل دوما ما هو « الاصلح » لمخلوقاته ؛ وقد روى ابن خلكان القصة على الوجه الآتي :[2]

« ان أبا الحسن الاشعري سأل أستاذه الجبائي عن ثلاثة اخوة : احدهم كان مؤمنا براً تقيا ، والثاني : كان كافرا فاسقا شقيا ، والثالث : كان صغيرا ، فماتوا ، فكيف حالهم ؟ فقال الجبائي : « أما الزاهد ففي الدرجات ، وأما الكافر ففي الدركات ، وأما الصغير فمن اهل السلامة » ، فقال الاشعري : « ان اراد الصغير ان يذهب الى درجات الزاهد هل يؤذن له ؟ » فقال الجبائي : « لا ، لانه يقال له : ان اخاك انما وصل الى هذه الدرجات بسبب طاعاته الكثيرة ، وليس لك تلك الطاعات » ؛ فقال الاشعري : « فان قال ذلك الصغير : التقصير ليس مني ، فانك ما أبقيتني

---

(١) انظر الصفحة ١٩٢ من « تاريخ العرب الادبي » لنكلسن « الاصل الانكليزي » .

(٢) ترجمة دي سلان « الانكليزية » ج ٢ ص ٦٦٩ [= ٣/٣٩٨ من النص العربي ؛ رقم الترجمة : ٥٧٩] .

ولا أقدرتني على الطاعة » ؛ فقال الجبائي « يقول الباري جل وعلا : كنت أعلم أنك لو بقيت لعَصيْت وصرت مستحقا للعـــذاب الاليم ، فراعيـت مصلحتك » فقال الاشعري : فلو قال الاخ الكافر : يا اله العالمين ، كمـا علمت حاله فقد علمت حالي ، فلم راعيت مصلحته دوني ؟ [فقال الجبائي للاشعري : انك مجنون ، فقال لا ، بل وقف حمـــار الشيخ في العقبه] وانقطع الجبائي .

عودة الأشعري الى احضان السنّة :

وسرعان ما اعلن الاشعري بعد ذلك ارتداده على رؤوس الاشـــهاد فبينما هو ذات يوم من أيام الجمعة جالس (على ما يروي مترجمه) عـلى الكرسي الذي كان يحاضر منـــه في المسجد الكبير بالبصرة اذ نادى بأعلى صوته : « من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فانا أعَرّفُهُ بنفسي ، أنا على بن اسماعيل الاشعري ، كنت اقول بخلق القرآن ، وان الله لاتراه الأبصار ، وان افعال الشر انا افعلها(١) ، وانا تائب مقلع ، معتقد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم ومعايبهم »(٢) .

الاشعري مؤسساً للفقه الكلامي :

ليس لهذه الطرائف الا قيمة ضئيلة او هي بلا قيمة ولكنها توضح حقيقة ان الأشعري بعد ان تعلم كل ما كان بوسع المعتزلة ان يعلموه اياه وبعد ان اتقن اسلوبهم الجدلي تمام الاتقان وجّه الأسلحة التي وضعوها في يده ضدهم بقوة مميته ، وقد ينفع مبدأه في موضوع حرية الارادة في التمثيل للطريقة « الكلاميّة » التي دعم بهـــا المذهب السنّي(٣) ؛ وهنا ، كما في

(١) ترجمها نكلسن ب « نحن نفعلها »

(٢) ابن خلكان ، طبعة وستنفيلد . رقم ٤٤٠ ؛ ترجمة دي سلان ج ٢ ص ٢٢٨ [= الطبعة المصرية ، رقم الترجمة ٤٠٢] .

(٣) ان اوضح بيان أعرفه عن مبدأ الاشعري مُتَضَمَّن" في المذهب الذي نشـــره سبتّا Spitta عن تاريخ أبي الحسن الأشـــعري Zur Geschichte Abu'l-Hasan AL-Ash'ari.

(لايبزك ، ١٨٧٦) ص١٣٣ س٩ وما بعده ، الترجمة الالمانية ، ص٩٥ =

سائر الحالات ، سلك الاشعري الطريق الوسط بين النقيضين فقد كانت فكرة الاسلام الاولى – وهي فكرة يبررها القرآن والاحاديث النبوية – ان كل شيء قد تقرر مسبقاً ودوّن منـــذ الازل في (اللوح المحفوظ) فليس للناس اختيار الا ان يقوموا بالاعمال التي حتمها عليهم القدر ، وعلى العكس من ذلك رأي المعتزلة فقد انكروا ان الله سبب الشر واصروا على ان افعال الانسان حرة ؛ واعلن الأشعري من جانبه ان جميع الاعمال من صنع الله ومن تقديره المسبق ولكن للناس شيئاً من القوة الثانوية التي تمكنهم من الحصول على الافعال التي سبق خلقها ، ولو انها لا تنتج تأثيراً على الافعـال ذاتها ، فالوساطة البشرية مقتصرة على هذه العملية من الاحراز او (الكسب). اما فيما يتعلق بنصوص التشبيه [أو التجسيم] في القرآن ، فقد وضــع الاشعري قاعدة ان تعابير من نحـــو : « الرحمن على العـرش استوى » و«بل يداه مبسوطتان» الخ... يجب ان تؤخذ بمعانيها الظاهرية (بلا كَيْف) وقد وجد سبِتّا في نظام الاشعري ثورة ناجحة لروح القومية العربية ضد الافكار الاجنبية التي كانت تهدد بأن تغمر الاسلام وتطغى عليه[1] وهي نظـــرية لا تتفق مع حقيقة أن معظم زعماء الاشعرية كانوا فُرْساً[2] ، وقد اقترب فون كريمر من الواقع اكثر عندما قال : « كان انتصار الاشعري مجـــرد انتصار ديني»[3] ولكنه كان كذلك ، كما لاحظ شراينر ، « انتصارا للتفكير على الدين بدون تفكير » .

على ان الانتصار لم يكسب بسرعة او بسهولة[4] وقد كره الكثير من السنة

= وما بعدها وقد ترجمه دي . بي . ماكدونالد الى الانكليزية في كتابه : « الفقه الاسلامي » Muslim Theology ص ٢٩٣ وما بعدها .

(١) نفس المصدر ، ص ٧ وما بعدها .

(٢) شراينر : « حول تاريخ الأشعرية » في اعمال مؤتمر المستشرقين الدولى الثامن (١٨٨٩) ص ٥ من المستل .

(٣) مجلة جمعية المستشرقين الالمان ، المجلد : ٣١ ص ١٦٧

(٤) انظر گولد تزيهر في مجلة جمعية المستشرقين الالمان ، المجلد : ٤١ ص ٦٣ وما بعدها حيث استقيت التفاصيل التي ستلى .

التأله الفلسفي الجديد لا اقل من الاتجاه العقلي القديم ، فليس من المستغرب اذن ان نقرأ في « الكامل » لابن الاثير [المتوفى سنة ٦٣٠ هـ] تحت حوادث سنة ٤٥٦هـ = ١٠٦٣ ـ ١٠٦٤م[١] أنه بعد ان حصل عميد المُلك الكُنْدري ، وزير ألب أرسلان ، على موافقة سيده على لعن الرافضة من على منابر خراسان حشد الاشعرية معهم في اللعن ففارق على اثر ذلك خراسان عالمان أشعريان مشهوران هما ابو القاسم القشيري وامام الحرمين ابو المعالي الجويني ؛ وعمل نظام الملك العظيم جاهدا من اجل الاشعرية ، فصمم جامعة النظامية التي أسسها في بغداد سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م لنشر أصولهم الفقهي ، ولكن الرجل الذي ختمها بطابع عبقريته العظيمة وثَبَّتَ شكلها النهائي واقامها كعقيدة شاملة للاسلام السني هو أبو حامد الغَزَالي[٢] (٤٥٠هـ/١٠٥٨م ـ ٥٠٥هـ/١١١١م) ولقد سبق أن وضعنا الخطوط الخارجيةالاساسية لحياته ولا نحتاج الا ان تتذكر أنه حاضر في بغداد ، في جامعة النظامية[٣] لأربع سنوات (٤٨٤هـ/١٠٩١م ـ ٤٨٩هـ/١٠٩٥م)[٤] وفي نهاية تلك الفترة اعتزل العالم كصوفي وهكذا ختم بنهاية هادئة سعيدة العمل الروحي

---

(١) ج ٨ ص ٩٧ (طبعة مصطفى محمد ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة)

(٢) يراجع فيه حنا الفاخوري وخليل الجر : «تاريخ الفلسفة العربية» (دار المعارف ، بيروت) الفصل الرابع ، ص ٢٣٦ ـ ٣٣٨ وغولدزيهر : العقيدة والشريعة في الاسلام • الترجمة العربية ـ القاهرة ، ١٩٤٦ وعلى سامي النشار: «مناهج البحثعند مفكري الاسلام» القاهرة،١٩٤٧؛الدكتور ابراهيم مدكور : « في الفلسفة الاسلامية » القاهرة ، ١٩٤٧ ، الدكتور محمود قاسم : ، النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والاسلام ـ (القاهرة ، ١٩٤٩) والدكتور احمد فريد رفاعي : « الغزالي » في مجلدين ـ (القاهرة ، ١٩٣٦) ، ابو العطا البقري : « اعترافات الغزالي » القاهرة ، ١٩٤٣ ، المستظهري او كتاب الرد على الباطنية للغزالي ـ طبعة كولدتزيهر (ليدن ١٩١٦) •

(٣) يسميها نكلسن « بكلية النظامية » وكانت تسمى « مدرسة النظامية » •

(٤) راجع صفحة ٣٣٩ اعلاه (من النص الانكليزي) ، ص ١٢٧ ـ ١٢٩ من الترجمة التي بين يديك •

الطويل الذي وصفه هو نفسه في « المنقذ من الضلال »[1] .

الترجمة الذاتية للغزالي :

الحمد لله الذي يفتتح بحمده كل رسالة ومقالة ، والصلاة على محمد المصطفى صاحب النبوة والرسالة ، وعلى آله واصحابه الهادين من الضلالة .

أما بعد : فقد سألتني ايها الاخ في الدين ، ان ابث اليك غاية العلوم واسرارها ، وغائلة المذاهب واغوارها ؛ واحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد ، الى يفاع الاستبصار ، وما استفدته اولا من علم الكلام ؛ وما اجتويته ثانياً من طرق اهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الامام ؛ وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف ، وما ارتضيته آخراً من طريقة التصوف ، وما انجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق [وما صرفني عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة ؛ وما ردّني الى معاودتي « بنيْسابور » بعد طول المدة ؛ فابتدرت لاجابتك الى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ؛ وقلت مستعيناً بالله ، ومتوكلاً عليه ، ومستوفقاً منه ؛ وملتجئاً اليه] [2] .

وفي قطعة ممتعة جداً ترجمها البروفسور براون ، يخبرنا الغزالي كيف انه من ايام شبابه فصاعداً كان قد تملكه ظمأ شديد للعلم حمله على دراسة كل شكل من اشكال الدين والفلسفة ومساءلة كل من كان يقابله

(١) لقد استعملت النسخة القاهرية ١٣٠٩ هـ وقد نشر لها باربييه دي مينار ترجمة فرنسية في المجلة الآسيوية Journal Asiatique

(كانون الثاني « يناير » ١٨٧٧) ص ٩ – ٩٣ [= طبعة المكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٢ ، ص ٥٠ وفيها مقدمة في منطق التصوف وتعليق الدكتور عبدالحليم محمود استاذ الفلسفة بكلية اصول الدين بجامعة القاهرة ، والمنقذ من الضلال نفسه كتاب صغير الحجم لايتجاوز الاثنتين والسبعين صفحة من القطع الصغير « المترجم »] .

(٢) حذف نكلسن العبارات ما بين العضادتين .

فيما يتعلق بطبيعة معتقده ومعناه[1] غير انه عندما حاول ان يميز بين الصحيح والفاسد لم يجد اختباراً اكيداً ولم يستطع الركون الى برهان حواسه فالعين ترى ظلاً وتعلن عنه انه دون حركة او نجماً ولا تعتبره اكبر من قطعة ذهب ، فاذا كانت الحواس تخدعنا على هذه الصورة افلا يمكن للعقل ايضاً ان يفعل نفس الشيء ؟ ولعل حياتنا حلم مليء بافكار خيالية نظنها حقائق ـ حتى تأتي اليقظة ، اما في لحظات الوجد او عند الموت[2] ؛ ويقول الغزالي : « فأعضل هذا الداء [اي داء الشك] ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال » (ص ٥٥) ثم منحه الله النور فاسترد اتزانه العقلي واستطاع ان يفكر بصورة صحيحة ، وقد صمم على ان تقوده هذه الملكة الى الحقيقة لأن الايمان الاعمى اذا مافقد فلن يعود ؛ وعلى ذلك انصرف الى امتحان أسس الايمان في اربعة اصناف من الناس الذين كانوا قد كرسوا انفسهم للبحث عن الحقيقة وهم : المتكلمون والاسماعيلية (الباطنية) والفلاسفة والصوفية ولفترة طويلة كان عليه ان يقتنع بنتائج سلبية تماماً ؛ وقد اقر على ان علم الكلام مطّهر ممتاز للالحاد الا انه لم يكن بوسعه ان يشفيه من المرض الذي كان يعاني منه • أما الفلاسفة ، فكلهم ـ الدهريّون ، والطبيعيّون والالهيّون ـ « يلزمهم وصمة الفكر والالحاد » وهنا تنهار الغريزة الدينية للغزالي كما هو الغالب في مناقشاته للمدارس الفلسفية ، ولا يسعنا ان نتخيله عابداً في معبد العقل

---

(١) « تاريخ فارس الأدبي » ج ٢ ص ٢٩٥ وما بعدها (النص الانكليزي) •

(٢) وهذا نص ما يذكره الغزالي في « المنقذ من الضلال » (ص ٥٣) : « من اين الثقة بالمحسوسات واقواها حاسة البصر ، وهي تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك ، وانه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدريج ذرة ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف ؛ وتنظر الى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الادلة الهندسية تدل على انه اكبر من الارض في المقدار ، هذا وامثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس باحكام ، فيكذبه حاكم العقل ويخوّنه تكذيباً لاسبيل الى مدافعته فقلت قد بطلت الثقة بالمحسوسات ايضا ، فلعله لا ثقة الا بالعقليات التي هي من الأوليات » [المترجم]

الخالص اكثر ممـــا يمكننا ان نتخيل هربرت سبنسـر في « لـوردز »[1] Lourdes • ومن ثمّ التفت الى التعليميّة او الباطنية الذين ادعوا انهم يعرفون الحقيقة وان مصدرها الوحيد الامام المعصوم ولكنه عندما اقترب من اصحاب هذا المذهب اكتشف انهم لا يسعهم تعليمه شيئاً وان امامهم الغامض اختفى في الفضاء فكانت « الصوفية » آخر أمل له ، فدرس كتابات المتصوفة بعناية وفيما كان يقرؤها اتضح له انه الآن على الطريق السويّ ، ورأى انه لا يمكن تعلم المراحـــل العليـــا للصوفية بالدراسة ، بل يجب ان تُحقق بالتجربة الفعلية أي « بالذوق والحال ، وتبدل الصفات » ، وقد صمم بعد صراع مؤلم مع نفسه ان يقذف جانبـــاً كل مطامحه الدنيوية وان يحيا لله وحده ؛ فترك بغداد في شهر ذي القعدة ٤٨٨ هـ (تشرين الثاني « نوفمبر » ١٠٩٥م) وطاف بالشام حيث وجد في النظام الصوفي للصلاة والذكر والتأمل، السكينة التي كانت ترغب فيها روحه •

أعمال الغزالي وتأثيره :

يلخص المستر دنكان بي • ماكدونالد بافضل واوسع ترجمة كتبت حتى الآن ، أعماله وتأثيره في الاسلام تحت عناوين أربعة[2] :ـ

أولاً : أَرْجَعَ الناس عن متاعب الفلسفة الدينية في المبادىء الفقهية الى الاتصال الحيّ ودراسة وتفسير كلام الله والحديث •

ثانياً : في مواعظه ونواهيه الاخلاقية اعاد ادخال عنصر الخوف •

ثالثاً : وبتأثيره احرزت الصوفية مكانة ثابتة وأكيدة في حظيرة الاسلام•

رابعاً : قرّب الفلسفة والفقه الفلسفي من نطاق العقل الاعتيادي •

ويقول ماكدونالد : « ان من بين هذه المراحل الاربع لاعمال الغزالي

---

(١) موضع شهير يحج اليه النصارى في اعالي البيرنه وقد قرن باسم العذراء تبركاً وهو بناء روماني مستطيل في مكان ممتاز •

(٢) « حياة الغزالي » في مجلة الجمعية الاستشراقية الاميركية ، المجلد ٢٠ (١٨٩٩) ص ١٢٢ وما يليها •

تبرز الاولى والثالثة كاهمها جميعاً بلا شك ؛ ولقد تميز باعادة الاسلام الى حقائقه الاساسية والتاريخية وخلق مكانة للحياة الدينية العاطفية ضمن نظامه ، ولكن يُلاحظ انه لم يكن رائداً في اي من المراحل الاربع اذ لم يكن عالماً شق لنفسه طريقاً جديدة ، بل رجلاً ذا شخصية عنيفة سلك طريقا سُلكت من قبله فجعلها الطريق الواسعة المعتادة. أمامنا هنا شخصيّة رجل ربما كان الآخرون ممن سواه مناطقة أحدّ منطقاً وفقهاء اوسع علماً وقديسين اعظم موهبة ، غير انه استطاع بتجاربه الشخصية ان يحرز شعوراً بالحقائق الالهية غامراً بحيث ان قوة شخصيته ـ التي كانت يوماً ما فطنة قلقة واصبحت الان ضيقة شديدة الضيق ـ اكتسحت كل ما وجدته أمامها ودخل الاسلام فترة من حياته جديدة »[1] .

التصوف في العصر العباسي :

٣ ـ لقد تتبعنا تاريخ التصوف في الاسلام من حركة التنسك في القرن الاول ، تلك التي انبثقت منها الى نقطة تبدأ معها الاجتياز الى خارج نطاق التأثير الاسلامي وتدخل طريقاً غريباً لم يحلم به النبي (ص) بالتأكيد ولو ان المتصوفة يزعمون على الدوام انهم وحدهم اتباعه الحقيقيون غير انني لا اعتقد ان بوسعنا الدفاع عن التصوف من النمط « الثيوصوفي » التأملي الذي علينا أن نبحثه الآن بأنه مجرد تطور للزهد والمسكنة القديمين اللذين وصفناهما في فصل سابق ؛ فالتباين بينهما جوهري ويجب ان ينسب الى حدما ، كما يرى فون كريمر[2] ، الى تطفل عنصر اجنبي غير اسلامي ؛ وهناك فيما يتعلق بطبيعة هذا العنصر الجديد عدة نظريات متلاحمة بيّنها البروفسور براون بشكل واضح وتفصيلي في كتابه : « تاريخ فارس الأدبي » (ج ١ ص ٤١٨ وما بعدها « من النص الانكليزي ») بحيث لا ارى حاجة للوقوف عندها هنا ؛ فهي تدعى باختصار :

---

(١) للاستزادة من موضوع « الغزالي » يراجع كولدتزيهر : « العقيدة والشريعة في الاسلام » ص ١٧٦ ـ ١٨١ [المترجم]

(٢) الافكار السائدة Herrschende Ideen ص ٦٧ .

(أ) أن التصوف مدين بوحيه الى الفلسفة الهندية ولا سيما الفيدانتا[١]

(ب) ان اكثر الافكار المميزة للصوفية ذات اصل فارسي •

(ج) ان هذه الافكار مستنبطة من الافلاطونية الجديدة[٢] •

وبدلا من النقاش من اجل او ضد اي من النظريات المدرجة في اعلاه، وكلها في رأيي يتضمن قدراً من الحقيقة ، ارى تخطيط التطور التاريخي للمبدأ الصوفي على قدر ما تسمح به المواد التي اجدها تحت تصرفي[٣] ،

---

(١) الفلسفة الهندوسية القائمة على الفيدا ، والفيدا كتابات هندوسية قديمة معروفة بالشكل السنسكريتي القديم ؛ [ويؤيد ايم • هورتن M. Horten في كتابه : « اصول هندية في التصوف الاسلامي » Indische Strömungen in der Islamischen Mystik.

هايدلبرگ ، ١٩٢٧ – ١٩٢٨ تماثل تصوف القرن الثالث للهجرة مع مبادىء الفيدانتا ؛ غير ان القليلين يقرون هذا ؛ وقد قام بتحويل التصوف الى فلسفة توحيدية ابن العربي (٥٦١/١١٦٥م–٦٣٨هـ/١٢٤٠م) انظر ص ٤٠٢ وما بعدها [من النص الانكليزي « لتاريخ العرب الادبي » لنكلسن]

(٢) ان ما يسمى ب « فقه ارسطو » المترجم من السريانية الى العربية حوالي ٢١٥هـ/٨٠٣م هو في الاساس خلاصة الانياد Enneads التاسوع أي تسعة كتب او تسعة مباحث لفلوطين Plotinus ولها طبعة مع ترجمة المانية لديتريصي •

(٣) لقد تزايدت معلوماتنا خلال العشرين سنة الاخيرة عن العهود الاولى للتصوف ؛ وعلى الاخص تتبعات البروفسور ماسينيون العميقة الى حد ان ما قدم من معلومات في هذه الصفحات اصبح غير وافٍ بالمرة ، ولما كان الموضوع يتسم بالصعوبة العظيمة وبعدم الملاءمة للشرح التفصيلي في كتاب من هذا النوع ، وجب عليّ ان اكتفي بالقليل من الملاحظات الايضاحية والمراجع التي تعين الطالب على احراز معلومات أوفى •

وعلى رأي ماسينيون ان التصوف (حتى القرن الرابع للهجرة) لايقع تحت طائلة التأثيرات الاجنبية الا قليلا اذ كان اسلاميا في جوهره : نتاج دراسة مركزة للقرآن والتأمل الداخلي في معانيه وجوهر طبيعته • هناك قوة عظيمة في نقاشه ولو انني لااتمالك نفسي من الاعتقاد بان تطور التصوف كتطور أي فرع معاصر آخر من التفكير الاسلامي لابد انه قد تأثر تأثرا =

ويلوح لي ان هذه هي الطريقة الممكنة التي يمكننا بها ان نأمل في الوصول الى استنتاج ثابت فيما يتعلق بأصله ؛ ولما كان التصوف في جميع العصور والامصار هو نفس الشيء في جوهره مهما أمكنه أن يتحور ببيئته الخاصة وبالدين الايجابي الذي يتشبث به للصمود تجد انظمة بعيدة وغير مترابطة ترينا تماثلاً متقارباً بشكل خارق بل متطابقاً في عدة مظاهر من التعبير ولا يمكن لهذه التشابهات ان تبرهن الا على شيء ضئيل أو لاشيء الا اذا تأكدت بالبرهان المستند على أسس تاريخية ، وقد اهمل الكثير من الكُتّاب في موضوع الصوفيّة هذا المبدأ ومن هنا كان التشويش والاضطراب الذي شاع طويلاً ؛ وقد اتخذ ادالبرت ميركس Adalbert Merx [(١)] الخطوة الاولى في الاتجاه الصحيح الذي استنبط نتائج قيمة من تمحيص التسلسل التاريخي لاقوال المتصوفة الاوائل ؛ على انه لم يذهب بتتبعاته الى ما بعد أبي سليمان الداراني (ت ٢١٥هـ/٨٣٠م) وكاد يُقصر انتباهه كله على المبدأ الذي ينبغي ان يُدرس ، حسب رأيي ، مع سيرة وشخصية وقومية الرجال الذين قاموا بتعليمه[(٢)] .

ليس من شك في ان اصل التصوف ونموه في الاسلام يعتمد في النهاية كما في سائر الاديان على اسباب وشروط عامة وليس على ظروف خارجية ، فمثلاً ان الفوضى السياسية للعصر الاموي ، واتجاه الشك لصدر الدولة

= حيوياً بالتماس مع الثقافة الهيلينية القديمة للامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية في ارضه الاصلية . قارن أي . جي . ڤينسنك «طوق الحمامة» « بالانكليزية » (ليدن ، ١٩١٩) « ورسائل صوفية لاسحق النينوَيّ » (امستردام ، ١٩٢٣) « من فصل الهوامش الملحق بالكتاب » .

(١) Idee und Grundlinien Einer Allqemeiner Geschichte der Mystik.

« فكرة وتخطيط لتاريخ عام للمتصوفة » .

خطاب اكاديمي القى في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٢ ونشر في هايدلبرگ سنة ١٨٩٣ .

(٢) ان التخطيط التالي مستند على مقالي : « بحث تاريخي في اصل التصوف وتطوره » (بالانكليزية) « مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ، نيسان ١٩٠٦ ، ص ٣٠٣ وما بعدها » .

العباسية ولا سيما المراسيم الجافة للفقه الاسلامي لم تخفق في اثارة حركات مضادة تجاه المسكنة والسلطة الروحانية والايمان العاطفي ؛ ولكن رغم ان التصوف لم يخلقه اي دافع خارجي (وهذا اوضح من ان يحتاج الى نقاش) فان التأثيرات التي انا على وشك التحدث عنها قد اسهمت اسهاماً كبيراً في جعله على ما هو عليه وتلوينه تلويناً عميقاً بحيث لايسع أي دارسٍ لتاريخ التصوف اهمالها[1] ٠

معروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ/٨١٥م)

حوالي نهاية القرن الثامن للميلاد/الثاني للهجـــرة يمكننا ان نتبين تأثير الافكار الجديدة في أقوال معروف الكرخي (٢٠٠ هـ/٨١٥ م) المعاصر لفضيل بن عياض وشقيق البلخي ٠ لقد ولد في اطراف واسط احدى مدن بلاد الرافدين العظيمة ويدلنا اسم والده «فيرُوز» أو «فيرُوزان» على ان فيه دماً فارسياً وكان معروف مولى لامام الشيعة علي بن موسى الرضا وقد اسلم على يده لانه نشأ مسيحياً (هكذا تقول الرواية المعتادة) أو ربما صابئياً وقد عاش في خلافة هرون الرشيد في محلة الكرخ ببغداد حيث احرز سمعة رفيعة كولي من الأولياء بحيث ان ضريحه لا يزال موضع تبجيل في تلك المدينة ٠ وقد وصف بانه كان ذا نشوة الهية ولكن لا يمكن مقارنته في هذا الشأن مع الكثير من الذين جاءوا بعده ؛ مع ذلك فهو يستحق الوقوف على رأس مدرسة التصوف التقشفي كمدرسة مباينة لمدرسة التصوف الحلولي أو الرمزي ٠

---

(١) ان جميع المعلومات السابقة عن تطور المبادىء الصوفية في الاسلام خلال القرون الاولى بعد الهجرة قد طغى عليها تحليل ماسنيون الوثيـــق Essai الفصلان : ٤و٥ ص ١١٦ ــ ٢٨٦ اللذان يضمان تراجم مشاهير الصوفية لذلك العهدويستندان على معلومات واسعةبشكل مذهل عنمصادر اصيله وعلى الاغلب غير منشوره وقـــد قـــدم الاب جوزيف ماريشال J. Marechal خلاصة لهذين الفصلين في كتابه : « دراسات في نفسية المتصوفين » Studies in The Psychology of The Mystics. ترجمة ثورولد Thorold (١٩٢٧) ص ٢٤١ ــ ٢٤٩ [من فصـــل الهوامش الملحق بالكتاب] ٠

وقد عرّف التصوف بأنه : « الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق[١] واليك بعض اقواله :

«المحبة ليست من تعليم الخلق ، انما هي من مواهب الحق وفضله»[٢]

وسئل معروف : « ما علاقة الأولياء ؟ » فقال : « ثلاث : هومهم لله ، وشغلهم فيه وفرارهم اليه »[٣] .

« ليس للعارف[٤] نعمة ، وهو في كل نعمة » .

« اذا كانت لك حاجة الى الله فأقسم عليه بى »[٥] .

يتضح من هذه الكلمات الأخيرة التي خاطب بها معروف تلميذه سريّ السقطي [المتوفي سنة ٥٢٣هـ] انه كان يعد نفسه في اتصال وثيق مع الله[٦] .

---

(١) هذا على ما اعلم اقدم تعريف للصوفية [وقد ورد في ص ١٢٧ من « الرسالةالقشيرية طبعةمطبعة التقدم العلمية بمصر ١٣٤٦هـ»وص١٤٩ من النسخة المطبوعة في مصر سنة ١٢٨٧هـ وتذكرة الاولياء جـ١ ص٢٧٢ س٤ = نكلسن : « في التصوف الاسلامي وتاريخه » مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م ترجمة أبي العلا عفيفي ، ص٢٨] .

(٢) وردت في تذكرة الاولياء ج١ ص٢٧٢ س١٢ بنص ثان وهو : « ان محبة الله شيء لا يكتسب بالتعلم وانما هي هبة من الله وفضل » ، راجع أبا العلا عفيفي ، سبق ذكره ، ص٥ .

(٣) ابو عبدالرحمن السلمي : «طبقات الصوفية» ص٨٩-٩٠ ، نص تذكره الاولياء يختلف ايضا اذ جاء فيه : « يعرف اولياء الله بامور ثلاثة : ان يكون فكرهم في الله وان يقوموا بالله وان يكون شغلهم به » جـ١ ص٢٧١ س١٨ = ابو العلا عفيفي ، نفسه ، ص٥ .

(٤) يترجمها نكلسن بلفظة « غنوصي » GNOSTIC والغنوصي فيلسوف ديني يزعم لنفسه المعرفة الكاملة بطبيعة الله وصفاته وتقارب الغنوصية عقيدة الافلاطونية والمانوية .

(٥) «الرسالة القشيرية» ص٩ ط مصر ١٣٣٠ = ص١١ ط مصر ١٢٨٧ = ابو العلا عفيفي : ص٥ .

(٦) راجع عن معروف الكرخي « الرسالة القشيرية » لعبدالكريم القشيري (ت ٤٦٥هـ) طبعة ١٣٤٦هـ .

ابو سليمان الداراني (١) (ت ٢١٥هـ/ ٨٣٠م)

الاسم العظيم الثاني في تراجم الصوفية هو أبو سليمان (المتوفى سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م) وهو الآخر من واسط، ولكنه هاجر فيما بعد الى الشام واستقر في داريّا وطوّر مبدأ الغنوصية (المعرفة) وبوسع المطلعين على لغة المتصوفة الأوربيين التي يرد فيها ألفاظ من نحو: «الاشراق» ILLUMINATO و «عين القلب» OCULUS CORDIS الخ ان يفسروا بسهولة ويسر أقوالا من نحو :ـ

« لا يخلو بشر عن شهوات هذه الدنيا، الا من كان في قلبه نور يديم اشتغاله بالحياة الآخرة »(٢) .

« اذا انفتحت عين بصيرة العارف، نامت عين بصره، فلا يرى الا الله »(٣) .

« لو تمثلت المعرفة رجلاً لهلك كل من نظر اليها لفرط جمالها وحسنها وطيبها ولطفها، ولبدا كل نور ظلاماً بالقياس الى بهائها »(٤) .

« المعرفة الى السكوت اقرب منها الى الكلام »(٥) .

ذو النون المصري (٦) : (ت ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م)

نأتي الان الى ذي النون المصري (ت٢٤٦هـ/٨٦٠م) الذي يعتبره

(١) راجع عن الداراني «الرسالة القشيرية» ص١٥ و «حلية الاولياء» جـ٩ ص٢٥٤ .

(٢) و (٣) ر.أ. نكلسن : « الصوفية في الاسلام » ترجمة نورالدين شرّيبة (القاهرة، ١٩٥١) ص٩ .

(٤) من المستحيل ألا نعترف بتأثير الفلسفة الاغريقية في هذا الادراك للحقيقة كجمال . [يراجع النص في تذكرة الاولياء، جـ١ ص٢٣٥ س٣ = نكلسن : في التصوف الاسلامي وتاريخه، ترجمة أبي العلا عفيفي، القاهرة، ١٩٤٧، ص٦] .

(٥) ابو طالب المكي : «قوت القلوب» جـ٢ ص١١ س١٦ = نكلسن : الصوفية في الاسلام، ترجمة شريبة، ص١٠ .

(٦) فيما يتعلق بذنون المصري انظر ماسينيون، سبق ذكره، ص١٨٤ وما يليها، والرسالة القشيرية، ص٨-٩ والدكتور زكي مبارك :

المتصوفة انفسهم المؤسس الاول لمبدئهم[1] وقد برهن بقدر كافٍ على انه من بين الاوائل الذين ساعدوا على منحه شكلاً ثابتاً ، على كل حال ، بمجموعة اقواله المحفوظة في « تذكرة الأولياء » للعطار ومؤلفات أخرى من نفس النمط[2] ، ومن الواضح ان نظرية المعرفة التي يبحثها بتفصيل كبير كانت النقطة المركزية في نظامه ، ويبدو انه ادخل مبدأ أَنَّ المعرفة الحقيقية لله لا تكتسب الا (بالوجد) وقد قال : « ان الرجل الذي يعرف الله خير معرفة هو أكثرهم فناءً » وكدايونيسيس[3] DIONYSIUS رفض أن يصرح بشيء إيجابي عن الله : « كل ما تصوَّر في وهمك فالله بخلاف ذلك »[4] واعتبر الحب الالهي غموضاً معصوماً يجب ألا يكشف للدَنِس • كل هذا هو جوهر التصوف المتأخر بالذات ، فمن المرغوب فيه اذن التأكد من الشخصية الحقيقية لذي النون والتأثيرات التي تعرّض لها ، والمعلومات الآتية تعطينا خلاصة موجزة لما استطعت اكتشافه ، والتفصيل الأوفى موجود في المقال المذكور في أعلاه :

هو ابو الفيض ثوبان بن ابراهيم وذو النون [أي صاحب السمكة] لقب يشير الى احدى خوارقه ، وكان والده من اهالي النوبة او اخميم من ارض الصعيد الاعلى ويصف ابن خلكان ذا النون بـ «فريد زمانه» في المعرفة

«التصوف الاسلامي» جـ٢ ص٩٨ـ١٠١ وابو نعيم : «حلية الاولياء» (طبعة مكتبة الخانجي ، مصر ١٣٥٧هـ/١٩٣٨) جـ٩ ص٣٣١ـ٣٩٥ وما يليها في الجزء العاشر •

(١) يقول جامي («نفحة الأنس» طبعة ناساوليز NASSAU LEES) ص٣٦ : «انه رأس هذا المذهب : فهم جميعا ينحدرون منه وينتسبون اليه» •

(٢) انظر «تذكرة الأولياء» للعطار ، طبعة نكلسن ، القسم الاول ، ص١١٤ [نشرها نكلسن مابين ١٩٠٥ و١٩٠٧ من مخطوطة فارسية ، راجع «مقدمة الصوفية في الاسلام» لنكلسن ترجمة نورالدين شريبه ، ص«ز»] و «نفحات جامي» ص٣٥ ، وابن خلكان ، ترجمة دي سلان جـ١ ص٢٩١ •

(٣) ديونيسيس القاضي الآريوپاگي وسيرد ذكره ثانيـة في بعض الهوامش المقبلة •

(٤) الرسالة القشيرية : ص٤ ؛ ابو العلا عفيفي : ص٨ •

والايمان والحال (أو الاتصال بالله) والاطلاع على الأدب ، ويضيف انه كان حكيماً (أي فيلسوفاً) ويتكلم العربية باناقة ؛ وكان اهل مصر الذين يعيش بينهم ، ينظرون اليه كزنديق (او مفكر حر) وقد جيء به الى بغداد ليرد على هذه التهمة ، الا انه اعلن ولياً من الأولياء بعد موته ، ويظهر في «الفهرست» بين « الفلاسفة الذين تكلموا في الكيمياء[1] ويضعه ابن القفطي[2] مع الباطني الشهير جابر بن حيّان[3] وقد اعتاد (على ما يذكر المسعودي)[4] التجول بين الآثار المصرية المهدمة دارساً الكتابات ومحاولاً تفهم الرموز الغامضة التي كانت تظن انها المفتاح لعلوم الاقدمين المفقودة ، واشتغل كذلك بغير اتقان في الطب الذي حشره مع الكيمياء والسحر في صعيد واحد على نحو ما فعل پراسيلْسَس[5] Paracelsus

لننظر الآن أي نور تلقيه هذه الحقائق على اصل الثيوصوفية [أو الاستنارة] الصوفية SUFI THEOSOPHY هل جاءت الى مصر من الهند أو فارس أو اليونان ؟

الأصل الثيوصوفي للتصوف :

بعد ان نأخذ بنظر الاعتبار الزمان والمكان والظروف التي ظهر فيها وبعد ان نمعن النظر في طبيعة الانسان الذي اضطلع بالدور الرئيسي في

---

(١) الفهرست : ص٥١٧ـ٥١٨ وقد جاء عنه انه « كان متصوفا وله أثر في الصنعة ۰۰۰ فمن كتبه ۰۰۰ كتاب الثقة في الصنعة » ۰

(٢) تاريخ الحكماء (وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء) لجمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف القفطي ، تحقيق يوليوس ليپرت (ليبسك ١٣٢٠هـ/١٩٠٣م) ص١٨٥ ويقول عنه القفطي : « ذو النون من طبقة جابر بن حيان في انتحال صناعة الكيمياء وتقلد علم الباطن والاشراف على كثير من علوم الفلسفة » ۰

(٣) راجع الفهرست : « اخبار جابر بن حيان واسماء كتبه » ص٥١٢ ـ ٥١٤ ۰

(٤) مروج الذهب ، جـ٢ ص٤٠١ وما بعدها (٥) كيماوي وطبيب سويسري ولد في آينزِيديلن بسويسرة ويعتبر ابا الطب الرهباني (١٤٩٣ـ١٥٤١) ۰

تطوره لا يسعنا أن نتردد ، على ما أعتقد ، في تأييد كونه نتاج التأمل اليوناني الى حد كبير ؛ فمعروف الكرخي وأبو سليمان الداراني وذنون المصري عاش ثلاثتهم وماتوا في الفترة (١٧٠هـ/٧٨٦م-٢٤٧هـ/٨٦١م) التي تبدأ بخلافة هارون الرشيد وتنتهي بموت المتوكل ؛ وقد تدفق تيار الثقافة الهيلنيّة [اليونانية] خلال الخمس والسبعين سنة هذه بلا انقطاع الى العالم الاسلامي وتُرجم العديد من مؤلفات فلاسفة اليونان وأطبائهم وعلمائهم ودرست بلهفة وشوق ، وهكذا أصبح الاغريق اساتذة العرب وكوّنت حكمة اليونان القديمة ، كما بينا في فصل سبق ، أساس العلم والفلسفة عند المسلمين ، ونتائج ذلك جلية و اضحة في الاتجاه العقلي Rationalism للمعتزلة فضلاً عما نراه في نظام «اِخوان الصفاء» ولكن المسلمين لم يتشبَّعوا بالهيلينية عن طريق الأدب وحده ؛ ففي العراق والشام ومصر وجدوا أنفسهم على تربتها الاصلية التي انتجت ، على وجه التأكيد ، حصاداً وفيراً من الافكار ـ الافلاطونية الجديدة ، والغنوصية ، والمسيحية ، والصوفية ، ووحدة الوجود وما سوى ذلك ـ وقد عاش في بلاد ما بين النهرين ، قلب الامبراطورية العباسية ، قوم غرباء كانوا في الحقيقة وثنيين سوريين ، ولكنهم اتخذوا حوالي مستهل القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد اسم الصابئة ليصونوا أنفسهم من الاضطهاد الذي كان يتهددهم من جانب الخليفة المأمون ؛ والحق أنه في هذا الوقت ذاته اعتنق الكثير منهم الاسلام او المسيحية ولكن أغلبهم تمسك بمعتقداته الوثنية القديمة بينما استمرت الطبقة المثقفة بالأخذ بفلسفة دينية هي كما يصفها الشهرستاني والكتاب المسلمون الآخرون ، مجرد الافلاطونية الجديدة لبروكلس[١] Proclus

(١) بروكلس فيلسوف من فلاسفة الافلاطونية الحديثة · ولد سنة ٤١٢م وتوفي سنة ٤٨٥م · درس الفلسفة في الاسكندرية وقام بتعليمها في اثينا ، وفي الأربعين من عمره ، خلف سريانوس في رئاسة مدرسة أثينا ، وظل في هذا المنصب اكثر من ثلاثين عاما ، وهو بعد أفلوطين أشهر رجال المدرسة الافلاطونية الحديثة ، وله شروح مشهورة على كتب «افلاطون» [راجع «الصوفية في الاسلام» لنكلسن ، ترجمة نورالدين شريبة ، ص١٥ ، هـ٢ ، وكذلك قاموس لاروس «بالفرنسيّة» ، ص١٦٢٥] ·

وآيمبْلِيكَسْ Iamblichus ، واذا ما عدنا الى ذى النـــون المصري اتضح لنا انه من غير المعقول ان يستقي صوفي وفيلسوف طبيعي يعيش في النصف الاول من القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد بمصر مبـدأه مباشـــرة من الهنـــد ؛ وقـــد تـــكون عناصـــر هنـــدية في الافلاطونيـــة الجـــديدة والغنوصيـــة ، غـــير ان هـــذا الاحتمـــال لا يؤثر على وجهة نظري من انه يجب البحث عن المصدر المباشر لمذهـــب الاتصال بالله التصوفي في التاملات اليونانية والسريانية ، وليس تحديد اصله بشكل أضيق أمراً عملياً على ما اعتقد في الوضع الحالي لمعلوماتنا ، على ان ميركس يرجع به الى ديونيسيس[(١)] أو شبيه الاريوپاگي Pseudo-Areopagite او بالاحرى الى استاذه هيروثْيسْ[(٢)] Hierotheus الـذي شـــخصه فروتنهـــام Frothingham بانه المتصوف الشامي ستيفان بارسوديلي Stephen Bar Sudaili (حوالى ٥٠٠ للميلاد)[(٣)] ، وقد كان ديونيسيس

(١) ديونيسيس القـــاضي او ديونيسيس الآريوپاگي منســـوب الى الآريوپاگس ، أو مايعرف بـ « نجد مارس Mars Hill وهو مكان كانت تجتمع عليـه الهيئـة العليـــا للقضا ء في أثينـــا والقديس ديونيسيوس باكورة الفلاسفة الاثينيين الذين آمنوا بالمسيحية وتولوا الدفاع عنها ، والدعوة لها بمجرد ان سمع القديس پولس ، في «مجمع أريوپاگوس» وكان من قبـل عضوا في المحكمة العليـــا . وهو أول أسقف رسم لاثينا كما انه ممن استشهدوا في القرن الاول المسيحي دفاعا عن دينهم (صور من تاريخ القبط ، ص٧ = نكلسن ، «الصوفية في الاسلام» ترجمة نورالدين شرّيبه ، مصر ، ١٩٥١ ص١٥ هـ٤) .

(٢) لقد طبع كتاب «هيروثيس المقدس» بالسريانية لاول مرة «ف.س. مارش» مع ترجمة انكليزية (جمعية النص والترجمة ١٩٢٧) [من فصل الهوامش الملحق بكتاب نكلسن] .

(٣) «هيروثيوس» على رأي فروتنهام هو اصطيفان بن صديلي الغنوصي السرياني الشهير الذي عاصر يعقوب السروجي وقد ولد اصطفان هذا في النصف الثاني من القرن الخامس للميلاد في مدينة الرها او اورفه (Edessa) وكان في مبدأ حياته يعقوبيا وقد رحل في شبابه الى مصر حيث لقن مبدأ «وحدة الوجود» ونسب كثيرا من الآراء الى هيروثيوس الاستاذ المزعوم لديونيسيس القاضي (راجع «تاريخ الادب السرياني =

افلاطونيا جديدا من الطراز المسيحي وقد وضعت مؤلفاته بالتأكيد اسس تصوف القرون الوسطى في اوربا وكانت شائعة كذلك في الشرق في ذلك الوقت عند قيام التصوف .

التصوف مؤلف من عدة عناصر مختلفة :

قلت عند الكلام عن مختلف النظريات الشائعة عن اصل التصوف انها تتضمن جميعا في رأيي قدرا من الحقيقة وليس بوسع سبب واحد ان يفسر بمفرده ظاهرة منتشرة بهذا الاتساع ومتباينة في تجلياتها ، فقد كان التصوف دوما اختياريا اصطفائيا بمعنى الكلمة ، يمتص ويغيّر أية « أضواء متكسّرة » تعترض سبيله وعلى هذا فقد احرز أشياعاً في صفوف أناس من مختلف الآراء المتضاربة كالمعتقدين بوجود الله[١] Theists والحلوليين Pantheists والمعتزلة والكلاميين والفلاسفة والفقهاء[٢] Divines وقد رأينا ما كان يدين به للاغريق غير ان العناصر الفارسية ـ الهندية يجب الا تهمل ومع ان النظرية القائلة بان « التصوف يجب ان يعتبر ردة فعل للعقل الآريّ تجاه دين ساميّ فرض عليه فرضا بالقوة » غير مقبولة ـ فذنون المصري مثلا كان قبطيا أو نوبيا ـ فان حقيقة وجود ردة فعل قوية في حينه ضد الساميين ، معبرة عن نفسها بوعي نوعا ما ، في المتصوفة من الجنس الفارسيّ ، تبقى ثابتة . والى ذلك فان التأثير الادبي للهند على التفكير الاسلامي قبل سنة ١٠٠٠ م كان دون تأثير اليونان بكثير كما يرى كل من يقلب صفحات « الفهرست » غير ان الافكار الدينية الهندية لابد ان تغلغلت في خراسان وشرقي فارس في فترة مبكرة اكثر من هذا بكثير .

= من نشأته الى الفتح الاسلامي » للدكتور مراد كامل ومحمد حمدي البكري ص١٤٣ ، ١٤٤ = نكلسن : «الصوفية في الاسلام» الترجمة العربية ، ص١٦ هـ ٢) .

(١) وهم المؤمنون بالله بصرف النظر عن الوحي . [المترجم]

(٢) أي علماء اللاهوت .

گولدتزيهر وخصائص التصوف :

ترينا هذه الاعتبارات انه لا يمكن الاجابة عن مسألة اصل التصوف بطريقة ثابتة حاسمة فليس بين النظريات المتنافسة نظرية صحيحة تمـــام الصحة وليس بينها نظرية بدون تبرير جزئي وعلى كافة المهتمين بالموضوع ان يضعوا كلمات الدكتور گولدتزيهر الآتية نُصب أعينهم :ـ

« لا يمكن النظر الى التصوف كفرقة منظمة بشكل أصولى داخـل حظيرة الاسلام ولا يمكن لمبادئه ان تجمع بهيئة نظام أصولى فهو يتجـــلى بهيئات متباينة في اقطار مختلفة واننا لنجد اتجاهات متفاوتة حسب روحية تعليم الثيوصوفيين الذين كانوا مؤسسي مدارس مختلفة ويمكن مقارنـــة اتباعها بمراتب الرهبنة المسيحية ؛ وقد كان لمختلف البيئات بطبيعة الحال تأثير على تطور التصوف ، فهنا نجد التصوف وهناك الزهد هو التفـــكير السـائد »[١] •

والمصادر الاجنبية الاربع الرئيسة هي بلاشك المسيحية والافلاطونية الجديدة والغنوصية والزهد الهندي مع الفلسفة الدينية •

ولن احاول هنا تقدير الاهمية النســبية لكـل منهـا ، ولـكن يجب ان يكون مفهوما بوضوح ان الجانب التاملى والثيوصوفي للتصوف الـذي أُحكم تكوينه لاول مرة ، كما رأينا ، في العراق والشام ومصر يحمـــل أمارات التأثير الهلنيني [او اليوناني] الذي لا ينكر •

أبو يزيد البســطامي[٢] :

اهتم المتصوفة الاوائل بصـــورة خاصـة بنظريـة الاتحـاد الصوفي

(١) گولدتزيهر : «اثر البوذية في الاسلام»
The Influence of Buddhism Upon Islam
(بودابست ، ١٩٠٣) وبما ان هذا البحث قد كتب في الاصل باللغـة المجرية لم يمكنني الرجوع اليه مباشرة فاعتمدت على الترجمة الممتـازة للمسترتي • دوكا T.Duka التي ظهرت في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية لكانون الثاني (يناير) ١٩٠٤ ص١٢٥ـ١٤١ •

(٢) راجع الدكتور زكي مبارك : « التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق » مطبعة الرسالة (الطبعة الاولى ، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م) جـ١ ص١٩٣ =

(الفناء والبقاء) وغالبا ما اصطنعوا تعابير يسهل اقترانها (بالحلولية) ، مع ذلك فليس بالامكان ان ننعت بانصاف وعدالة اي واحد منهم « بالحلولي » بالمعنى الصحيح ، ولم يخطُ الحلاج (ت٣٠٩هـ/٩٢٢م) على ما اعتقد الخطوة من الثيوصوفية (اي الاتصال بالله) الى الحلولية ولا ابو يزيد الشهير ، المعروف بالفارسية بايزيد (ت٢٦١هـ/٨٧٤م-٨٧٥م) البسطامي نسبة الى مدينة في اقليم قومس الواقع بالقرب من الزاوية الجنوبية الشرقية لبحر قزوين وعلى حين أن اباه سُرُوشان كان زردشتيا يبدو ان استاذه في التصوف كان مرتبطا بالسند حيث بدأ المسلمون يبعثون بعمالهم منذ ٩٧هـ/٧١٥م وقد حمل أبو يزيد المبدأ التجريبي للفناء (اي الموت بالنسبة للذات) الى اقصى غايته ، ولغته مشوبة بالصور الشعرية الخاصة التي طوّرها فيما بعد الصوفي الخراساني العظيم ، ابو سعيد بن ابي الخير (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٩م)[1] وبوسعي أن أقدم امثلة قليلة من أقواله فحسب ،

[وقد اورد نكلسن الاسم بالرسم الفارسي وهو « بايزيد » فرجحنا الرسم العربي « المترجم »] راجع في ابي يزيد البسطامي كذلك عبدالرحمن بدوي : « شطحات الصوفية » وابا العلا عفيفي : في التصوف الاسلامي وتاريخه : ص٢٢-٢٥ وشرّيبه : الصوفية في الاسلام ص٢٢ و٢٧ الخ ..

(١) بدوي : شطحات الصوفية ، ص٩٣ ونكلسن : « الصوفية في الاسلام» ترجمة شريبه ، ٥٣ ، ٨٨ ، ١١٤ ، دائرة المعارف الاسلامية ١/٣٥٢- ٣٥٤ وهو ابو سعيد فضل الله بن ابي الخير ، شاعر فارسي ولد في « ميهنه » - اهم مدينة في اقليم خابران بخراسان (٣٥٧هـ/٩٦٧م) وتلقى دروسه الاولى في مسقط رأسه ثم رحل الى مرو ، فدرس الفقه على ابي عبدالله المصري الشافعي ، ثم على ابي بكر القفال ، ويقال انه ذهب الى سرخس حيث تلقى العلم على ابي علي ظاهر بن أحمد ، وهناك تعرف على ابي الفضل بن حسن ، تلميذ ابي نصر السراج فاعتنق مذاهب الصوفية ورجع الى ميهنة فاعتزل الناس سبع سنين ثم رحل الى ابي عبدالرحمن السلمي فنال الخرقة من يديه وقفل راجعا الى مسقط رأسه حيث مات في ٤ شعبان سنة ٤٤٠هـ (١٢ كانون الثاني « يناير » سنة ١٠٤٩م) = الصوفية في الاسلام ص٥٣-٥٤ هـ٤ .

ولا تعلو صحة نسبتها فوق الشك ولكنها ترينا انه اذا ما كان الاســاس الثيوصوفي للتصوف اغريقيا بشكل متمايز فان اتجاهه التصوفي المفرط ليس بأقل تمايزا في شرقيته :ــ « للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه محيت رسومه وفنيت هويته بهوية غيره وغيبت آثاره بآثار غيره »[1] .

« خرجت من الحق الى الحق حتى صاح مني فيّ : يامن انت انـا ! فقد تحققت بمقام الفناء في الله »[2] .

« ليس أفضل للرجل من ان يكون بلا شيء : بلا زهــد ولا علم ولا عمل : فانه اذا كان بلا شيء ، كان له كل شيء »[3] .

« انيانا الله ، لا اله الا انا فاعبدني »[4] .

« سبحاني ! ما اعظم شاني ! »[5] .

« لقد انسلخت من بايزيديتي كما تنسلخ الحية من جلدها ، ونظرت فاذا العاشق والمعشوق والعشقواحد ، لان الكل واحد في عالم التوحيد»[6] .

---

(١) عبدالوهاب الشعراني : « الطبقات الكبرى او لواقح الانوار في طبقات الاخبار » ١/٧٦ والقشيري : ط مصر سنة ١٣٣٠ ص١٤١ س١٠ من اسفل = ابو العلا عفيفي : في التصوف الاسلامي وتاريخه ، ص٢٤

(٢) اغفل نكلسن ترجمة الشطر الاخير من الكلام فآثرنا ابقاءه اتمامــا للمعنى · راجع تذكرة الاولياء : ج١ ص١٦٠ س١٣ = ابو العــلا عفيفي : ص٢٤ ؛ قارن شريبه : الصوفية في الاسلام ، ص٢٣ ·

(٣) تذكرة الاولياء : ١/١٦٢ س٢١

(٤) نفسه ، ١/١٣٧ س٦

(٥) نفسه ، ١/١٤٠ س ١٤

(٦) نفسه ، ١/١٦٠ س١١ = عفيفي : ص ٢٥س ١ــ٢ وقــد اورد عبدالرحمن بدوي هــذا القول بشــكل آخر في كتــابه : « شطحات الصوفية » الجزء الاول « ابو يزيد البســطامي » القاهرة ، ١٩٤٩ ص٧٧ و١١٧ اذ أورد : « سمعت ابا يزيد ــ قيل له : « بم نلت ما نلت ؟ » ــ قال : « انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية مــن جلدها ، ثم نظرت الى نفسي فاذا أنا هو » والاقوال التي تروى عنه في هذا الباب مختلفة لاختلاف الاوقات الجارية عليه فيها ولاختلاف =

« انا الشارب والشراب والساقي »[1]

وهكذا أصبح التصوف الذي كان اول امره لا يكاد يعدو التنسك الا قليلا ، خلال قرن من الزمان ، وبصورة متتابعة ، غامضا ثيوصوفيا ، وحتى انه وقع في خطر التباسه « بالحلول » ومن هذه المرحلة فصاعدا يوحّد تعبير « التصوّف » كل هذه الالوان المتباينة ، على انه كقاعدة ، يسيطر عظماء متصوفة القرن الثالث للهجرة (٨١٥–٩١٢م) على تحمسهم من أجل تناقض الشرائع والقوانين ، ويتفق معظمهم مع جنيد البغدادي (ت ٢٩٧هـ/٩٠٩م) رأس الثيوصوفية في زمانه في تفضيل « سبيل الوعي » والبحث عن التوفيق بين (الشريعة) و (الحقيقة) ، وكان سهل بن عبدالله التُسْتَري (ت ٢٨٣هـ/٨٩٦م) يقول : « أصولنا سبعة[2] أشياء :

= المواطن المتداولة بما خص منها » السراج : « اللمع » ص ٣٨٠ وتصل هذه الفكرة ذروتها عند ايكارت Ekhart في احدى عظاته ، فقد اقتبس قول « القديس أوغسطين » (٣٥٤–٤٢٠م) : « الانسان ما أحب » ثم عقب عليه بقوله : « ان هو احب حجرا فهو حجر وان احب انسانا فهو انسان ؛ وان هو احب الله – وحسبي فلن أزيد – فلعلي اذا قلت « هو الله » ان ترجموني » ٠ والقديس أوغسطين الذي ورد ذكره هو اشهر آباء الكنيسة اللاتينية مال الى التدين والتعبد بعد شباب طائش ثم صار لاهوتيا فيلسوفا وعالم اخلاق وجدليا وحاول ان يوفق بين المسيحية والافلاطونية الحديثة واشهر مؤلفاته « الاعترافات » و « مقال عن الغفران » وقد كان اوغسطين اسقف مدينة هيبون القديمة ، بالقرب من مدينة بونه في الجزائر (الصوفية في الاسلام ، لنكلسن ، الترجمة العربية ، ١١٤) ٠

(١) قارن ما يقوله جلال الدين الرومي في كتاب « الصوفية في الاسلام » لنكلسن ، الترجمة العربية ، ص١٠٢ ، تذكرة الاولياء : ١/١٥٩ س ٢ = ابو العلا عفيفي : ٢٢ ٠

(٢) في ترجمة نكلسن « أصولنا (ستة) اشياء : التمسك بكتاب الله والاقتداء بسنة رسول الله (ص) ، واكل الحلال (فقط) وكف الاذى (عن الناس حتى وان آذونا) واجتناب المعاصي ٠٠٠ واداء الحقوق (دون تأخير) » وقد حذف لفظة « التوبة » قبل « واداء الحقوق » راجع النص الذي اوردناه في المتن بدلا من نص نكلسن في « الطبقات الكبرى أو لواقح الانوار » للشعراني ١/٧٧ ٠

التمسك بكتاب الله والاقتداء بسنة رسول الله (ص) ، وأكل الحلال ، وكف الاذى واجتناب المعاصي والتوبة وأداء الحقوق » وان أكثر المسلمين تزمتا يوافق على هذه البنود بابتهاج وسرور • لقـــد كان التصوف في مظاهره النسكيّة والخلقية والتعبدية هو الاسلام وقد جعل روحانيا ولو انه كـان مبايناً له في جوهره جد المباينة وعلى حين انه اعترف اسميا بالدين القـائم فقد حوّر مبادىء الاسلام بشكل جردها من مفهومها الاصلي ؛ وهكـذا فان الله ، اله الرحمة والغضب قد جعل مجـــردا من شـــخصه في بعض مدلولاته وُعبد على انه الواحد الحقيقي المطلق (أو الحق) • هنا يكشف المتصوفة عن رابطة قربي مع المعتزلة ، ولكن المذهبين ليس بينهما الا القليل مما هو مشترك بينهما سوى الفلسفة اليونانية[١] ؛ ويجب الا ننسى ابدا ان التصوّف كان التعبير لشعور ديني عميق ـ « كره الدنيـــا وحب الله »[٢] ويقول جنيد : « التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به »[٣] •

تطـوّر التصوّف :

يمكن بيان التطورات الاخرى للتصوف ببضع كلمات : أن ما كان أول امره شكلا من اشكال الدين تبناه افراد وأُوضِحَ لحلقة صغيرة من الصحابة اصبح بالتدريج نظاما رهبانيا ، مدرسة للاولياء ، مع قواعد للتنظيم والتعبد يتعلمها (المُريد) من موجهه الروحاني (البير أو الاستاذ) الذي

---

(١) لقد اعترف المتصوفة أنفسهم بان مبدأهم مستند في بعض النقاط ، على ما يظهر ، على أسس الاعتزال • راجع الشعراني : « لواقح الانوار » (القاهرة ، ١٢٩٩ هـ) ص ١٤ س٢١ وما يليه •

(٢) هذا هو تعريف ابي الحسين النوري (ت ٢٩٥ هـ/٩٠٧م ـ ٩٠٨م) راجع ترجمة ابي الحسين احمد بن محمد النوري في « الطبقات الكبرى أو لواقح الانوار » لعبدالوهاب الشعراني : ١/٨٦ـ٨٧ وقد سمي « بالنوري »لانه كان اذا دخل مسجد الشونيزية انقطع ضوء السراج من ضياء وجهه » • [المترجم]

(٣) نكلسن : « الصوفية في الاسلام » ترجمة نور الدين شريبه ، ص٣١ والرسالة القشيرية ص١٦٥ س ١٢ •

استسلم لارشاده استسلاما مطلقا ، وقد غدا متضحا بتزايد في القرن الثالث بعد الهجرة[1] ان المتضلع الصوفيّ النموذجيّ للمستقبل لن يكون ناسكا منفردا يتحاشى رؤية الناس بل شيخا عظيما وكاهنا يعلم الامور الدينية ويظهر في مناسبات الاحتفال وخلفه صف طويل من المريدين المعجبين . وسرعان ما بدأ جَمْعُ المبدأ ووضعه في الكتب ، ولقد سبق ذكر طائفة من اشهر المراجع العربية في التصوف ؛ ومن اقدمها « كتاب اللّمع » لأبي نصر السرّاج[2] (ت ٣٧٨هـ/٩٨٨م) و « قوت القلوب » لأبي طالب المكّي[3] (ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م) وشهد القرن الثاني عشر (٤٩٥–٥٩٧هـ) ظهور نظام الدراويش فأسس عديّ الحكّاري (ت ٥٥٩هـ/١١٦٣م) وعبدالقادر الجيلي[4] (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) رابطتي « أخوّة » هما « العدويّة » و « القادريّة » على اسم مؤسسيهما وأعقبت هاتين بتتابع سريع « الرفاعيّة » و « الشاذليّة » و « المولويّة » والاخيرة مدينة بأصلها الى الشاعر الصوفي الفارسيّ جلال الدين الرومي (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م) وفي هذه الفترة احرزت الصوفية لنفسها مكانة ثابتة معترفا بها في العالم الاسلامي وذلك بتأثير الغزالي بصورة رئيسة واضطرت السُنَّةُ الى قبول تقديس الاولياء الشائع والاقرار بمعجزاتهم رغم ان العديد من مُطَهَّري[5] المسلمين رفعوا عقائرهم ضد الاجلال الخرافي لأضرحة الاولياء وضد الصلوات والأضاحي والقرابين التي كان يقدمها الزوار وقد منح الغزالي كذلك المبدأ الصوفي اساسا ميتافيزيقيا [أي مختصا بالفلسفة العقلية] فأفاد لهذه الغاية من المصطلحات التي كان قد استعارها الفارابي (وهو الآخر

(١) في النص الانكليزي : بعد محمد (ص) وهو تعبير غير مألوف في تواريخنا .

(٢) وقد اخرجه وحققه نكلسن سنة ١٩١٨ [المترجم]

(٣) طبع باربعة اجزاء بمصر سنة ١٣٥١هـ/١٩٣٢ [المترجم]

(٤) راجع في ترجمته عبدالوهاب الشعراني : « الطبقات الكبرى او لواقح الانوار » ١/١٢٥–١٣٢ .

(٥) ترجمة لفظة Puritan [المترجم]

صوفي) وابن سينا من الافلاطونية الجديدة واننا لنجد منذ ايامه فما بعد ايماءات مستمرة في كتابات الصوفيين الى نظريات « الفيض » و « الوجد » البلوتينيـّة [أو الفلوطينيـّة][1] .

وكان التصوف اقـرب الى مـزاج الفرس منـــه الى مزاج العرب ، ولا يمكن مقارنة تأثيره على الادب العربي بالفيض السحري الخارق الذي القاه على العقل الفارسي منذ القرن الحادي عشر للميلاد (٣٩٢-٤٩٤هـ) الى يوم الناس هذا ؛ وباستثناءات قليلة فان كبار شعراء الفرس (وبوسعنا أن نضيف الأتراك أيضا) يتكلمون اللغة الرمزية ويستعملون الاستعارات غير المألوفة التي تكاد تقدم لنا رباعيات الصوفي الفارسي أبي سعيد بن أبي الخير[2] أول مثال أدبي لها .

عمر بن الفارض :

ليس للعرب الا شاعر صوفي واحـــد جـدير بأن يقف الى جنب الاساتذة الفرس وهذا هو شرف الدين عمر بن الفارض الـــذي ولد في القاهرة (٥٧٧هـ/١١٨١م) وتوفي فيها سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م) وقام بتحقيق ديوانه سبطه عليّ ؛ وقد استخلصتْ التفاصيل الآتية عن حياة الشاعر من ترجمته في مقدمةديوانه لهذه الطبعة[3] :ـ « كان الشيخ[عمر بن الفارض] معتدل القامة وجهه جميل حسن مشرب بحمرة ظاهرة ، واذا استمع[4] وتواجد وغلب عليه الحال يزداد وجهه جمالا ونورا وينحدر العرق من سائر جسده حتى يسيل تحت قدميه على الارض ولم أر [هكذا يروى

---

(١) نسبة الى فلوطين Plotinus [المترجم]
(٢) راجع البروفيسيور براون : « تاريخ فارس الادبي » ، جـ٢ ص ٢٦١
(٣) ديوان عمر بن الفارض ، طبعة رشيّد الدحداح (مارسيليا ، ١٨٥٣) وما بعدها (النص الانكليزي) .
[= الجزء الاول من شرح ديوان ابن الفارض لجامعه رشيد بن غالب من شرحي الشيخ حسن البوريني وعبدالغني النابلسي ، الطبعة الاولى مصر ١٣٠٦هـ ، ص٤] .
(٤) اي كان تحت السماع أو الموسيقى .

ولده] في العرب ولا في العجم مثل حسن شكله ، وأنا أشبه الناس به في الصورة •••• وكان اذا مشى في المدينة تزدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء ويقصدون تقبيل يده فلا يمكّن احدا من ذلك بل يصافحه [وكانت ثيابه حسنة ورائحته طيبة وكان اذا حضر في مجلس يظهر على ذلك المجلس سكون وهيبة وسكينة ووقار ، ورأيت جماعة من مشايخ الفقهاء والفقراء واكابر الدولة من الامراء والوزراء والقضاة ورؤساء الناس يحضرون مجلسه وهم في غاية ما يكون من الادب معه والا تضاع له واذا خاطبوه فكانهم يخاطبون ملكا عظيما][1] ••

[قال ولده رحمه الله تعالى سمعت الشيخ رضى الله عنه] يقول : كنت في اول « تجريدي » استأذن والدي واطلع الى « وادي المستضعفين»[2] بالجبل الثاني من المقطم ، وأقيم في هذه السياحة[3] ليلا ونهارا ثم اعود الى والدي لاجل بره ومراعاة قلبه وكان والدي يومئذ خليفة الحكم للعزيز[4] بالقاهرة ومصر المحروستين[5] وكان من اكابر اهل العلم والعمل فيجد سرورا برجوعي اليه ويلزمني بالجلوس معه في مجالس الحكم ومدارس العلم ، ثم اشتاق الى التجريد فأستأذنه واعود الى السياحة ، وما برحتُ افعل ذلك مرة بعد مرة الى ان سئل والدي ان يكون قاضي القضاة فامتنع ونزل عن الحكم واعتزل الناس وانقطع الى الله تعالى بقاعة الخطابة[6] في الجامع الازهر الى ان توفي فعاودتُ التجريد والسياحة وسلوك طريق الحقيقة فلم يفتح على بشيء فحضرت يوما من السياحة الى القاهرة ودخلت المدرسة السيوفية[7] فوجدت رجلا شيخا بقالا على باب المدرسة يتوضأ خارجا عن الترتيب الشرعي فنظر الي وقال : « ياعمر ، أنت ما يُفتح عليك في مصر ، وانما يُفتح عليك بالحجاز في مكة ـ شرفها الله تعالى ـ

(١) حذف نكلسن من ترجمته العبارات الموضوعة بين عضادتين •

(٢) علم لموضع (٣) يقصد حياة الراهب المعتكف (٤) قرأها نكلسن خليفة الحكم العزيز والصواب : للعزيز [أي قاضيا في المحكمة العليا] (٥) اى القاهرة القديمة والجديدة (٦) نقلها نكلسن بكسر الخاء والصواب فتحها (٧) قرأها نكلسن « السيفيه » والصحيح ما أثبتناه •

فاقصدها فقد آن لك وقت الفتح » ، فعلمت ان الرجل من اولياء الله تعالى وانه يتستر بالمعيشة واظهار الجهل بلا ترتيب الوضوء ، فجلست بين يديه ، وقلت له : « ياسيدي ، وأين أنا وأين مكة ، ولا أجد ركبا ولا رفقة في غير اشهر الحج » فنظر الى وأشار بيده وقال : « هذه مكة أمامك ! » فنظرت معه فرأيت مكة – شرّفها الله تعالى – فتركته وطلبتها فلم تبرح أمامي الى ان دخلتها في ذلك الوقت وجاءني الفتح حين دخلتها فترادف ولم ينقطع ... [ثم شرعت في لسياحة في اودية مكة وجبالها وكنت استأنس فيها بالوحوش ليلا ونهارا][(1)] ... وأقمت بواد كان بينه وبين مكة عشرة ايام للراكب المجد وكنت آتي منه كل يوم وليلة واصلي في الحرم الشريف الصلوات الخمس ومعي سبُعٌ عظيم الخلقة يصحبني في ذهابي واياَبي وينيخ لي كما ينيخ الجمل ويقول : « ياسيدي ، اركب » فما ركبته قط .

[وتحدث بعض جماعة من كبار المشايخ المجاورين في الحرم في تجهيز مركوب يكون عندي في البرية فظهر لهم السبع عند باب الحرم وراوه وسمعوا قوله : « ياسيدي ، اركب » فاستغفروا الله وكشفوا رؤوسهم واعتذروا اليّ][(2)] .

وعندما انقضت خمس عشرة سنة عاد عمر بن الفارض الى القاهرة ، وقد اجله الناس كقديس ، ورغب العاهل ، الملك الكامل ، في زيارته شخصيا ، ولكن عمر امتنع عن رؤيته ورفض هبته ؛ وقال ولده « كان الشيخ (رض) في غالب أوقاته لايزال دهشا وبصره شاخصا لا يسمع من يكلمه ولايراه ، فتارة يكون واقفا وتارة يكون قاعدا وتارة يكون مضطجعا على جنبه وتارة يكون مستلقيا على ظهره مسجى (مغطى) كالميت ، ويمر عليه عشرة أيام متواصلة واقل من ذلك واكثر وهو على هذه الحالة

(1) ما بين العضادتين محذوف من ترجمة نكلسن .

(2) هذا الجزء محذوف كذلك من ترجمة نكلسن ، وانما أوردناه اتماما للفائدة .

لا ياكل ولا يشرب ولا يتكلم ولا يتحرك »[١] ٠

وفي سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م حج الى مكة وفي هذه المناسبة لقي معاصرة الشهير ، شهاب الدين ابا حفص عمر السهروردي ، وتوفي بعد ذلك باربع سنوات ودفن في مقبرة القرافة في سفح المقطّم ٠

شعر ابن الفارض :

ان ديوان قصائده الصوفية[٢] التي جمعها لاول مرة ونشرها سبطه صغير في حجمه بالمقارنة مع دواوين مماثلة بالفارسية ولكنه ليس مقتضبا بشكل غير معتاد عندما يعد نتاج شاعر عربي[٣] وقد مرّ معنا ذكر شيء من خصائصه العامة في اعلاه[٤] ؛ ولقد مدح الشارح وهو حسن البُوريني (المتوفى سنة ١٠٤٢هـ/١٦١٥م) انسجام النظم وذكر ان ابن الفارض « من عادته انه يتلاعب بالمعاني في قوالب متغايرة ، ويكسوها حللاً فاخرة »[٥] وينم اسلوبه المليء بالخفايا اللفظيّة عن تأثير المتنبي[٦] وأطول

(١) شرح ديوان ابن الفارض للشيخ حسن البوريني وعبدالغني النابلسي (مطبعة ارنود وشركاه في سوق كانيبير عدد ١٠ في مرسيلية ٢٥ نيسان ١٨٥٣) ص١١ [عدة هذا الشرح ٥٧٤ صفحة ومنه نسختان في مكتبة المتحف العراقي ببغداد] ٠

(٢) راجع بحثي عن قصائد ابن الفارض (دراسات في التصوف الاسلامي) (ص ١٦٢-٢٦٦) وفيه ترجمة للخمريّة وثلاثة أرباع التائية الكبرى [من فصل الهوامش الملحق بالكتاب] ٠

(٣) لقد قام بطبع الديوان باستثناء التائية الكبرى رشيّد الدحداح (مارسيليا ، ١٨٥٣) ٠

(٤) ص٣٢٥ من النص الانكليزي [= ص١٠٩ من الترجمة التي بين يديك] ٠

(٥) الديوان ، ص ٢١٩ س١٤ وص ٢١٣ س١٨ ٠

(٦) وكالمتنبي يظهر ابن الفارض ولعا ملحوظا بالتصغير وكما يقول هو في الديوان (ص ٥٥٢) :

ما قلتُ حبيبي من التحقير   بل يعذب اسم الشخص بالتصغير

[الوزن من الرجز ولكن الصدر مضطرب ولعله من خطأ النسّاخ]

قصيدة في الديوان هي ترنيمة العشق الالهي وعنوانها : « نظم السلوك » (قصيدة في تقدم الصوفيّ) وكثيرا ما تُعرف بالتائية الكبرى التي نشرها وترجمها هامر پرگشتال الى الالمانية نظما (ڤينا ، ١٨٥٤) وبسبب هذه القصيدة اتهم الشاعر بمشايعته لمبدأ « الحلول » (أي حلول الله في الكائنات البشرية) والقصيدة الاخرى المشهورة هي الخمريّة (او ترنيمة الخمر)[١] .

ولعل ترجمة الابيات الآتية سيُقدم للقراء الانكليز بعض الانطباع الباهت عن الوجد الحار والتسامي الذي يكاد يكون أثيريا يمنح شعر ابن الفارض مكانا فريدا في الادب العربي :ـ

زدني بفرط الحبّ فيك تحيُّرا ... وارحم حشى بلظى هواك تسعَّرا[٢]
واذا سألتك ان اراك حقيقة ... فاسمح ولاتجعل جوابي لن ترى[٣]
ياقلبُ أنت وعدتني في حبهم ... صبرا فحاذر أن تضيق وتضجرا
ان الغرام هو الحياة فمت به ... صبا فحقك ان تموت وتُعذرا[٤]
قل للذين تقدموا قبلي ومَنْ ... بعدي ومن أضحى لأشجاني يرى
عني خذوا وبي اقتدوا ولي اسمعوا ... وتحدثوا بصبابتي بين الورى
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سرٌّ أرقُّ من النسيم اذا سرى

(١) الديوان : ص ٤٧٢ وما بعدها ويجد القارىء ترجمة فرنسية في الصفحة ٤١ من «الديوان العربي» لجامعة كرانجيريه دي لاگرانج Grangere De Lagrange : "Anthologie Arabe" (باريس ، ١٨٢٨) .

(٢) اللظى : النار ؛ وتسعّر : التهب .

(٣) خطاب الله تعالى لموسى (القرآن : السورة السابعة : « سورة الاعراف » الآية : ١٣٩ : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربه قال : ربّ أرني انظر اليك قال : لن تراني ، ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما افاق قال : سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين » .

(٤) صبّا : عاشقا .

وأبــاح طــرفي نظــرةً أمّلتهـــا فغــدوتُ معــروفا وكنت منكـّـرا
فدهشــت بين جمـــاله وجلالـــه وغدا لسانُ الحالِ عَنّي مخبرا
فأدر لحاظك في محاسن وجهـــه تلقى جميع الحسنِ فيه مصوّرا
لو أنّ كُلّ الحسنِ يكمُلُ صورةً ورآه كان مهـــللاً ومكبّرا[1]

وهنا الابيات الاستهلالية « للتائية الصغرى » التي سميت بهذا الاسم تمييزا لها عن « التائية الكبرى » :—

نَعم بالصَّبــا قلبي صبا لأحبتي فيا حبَّذا ذاك الشــذا حين هبت
سَرتْ فأسَرَّتْ للفؤاد غُديَّةً أحاديث جيران العُذيبِ فسرّت[2]
مهْينمةٌ بالروض لـدنٌ رداؤها بها مرضٌ من شأنه بُرءُ علّتي[3]
لها بأعيشــاب الحجاز تحرُّشٌ به لا بخمر دون صحبي سكرتي[4]
تذكرني العهد القـديم[5] لانّهـا حديثة عهـدٍ من أهيل مودتي !
أيا زاجرا حُمر الاوارك تارك الـ موارك من أكوارها كالاريكة[6]

(١) الديوان : ص٢٥٧ وما بعدها « طبعة رشيد الدحداح » [= ص٩٩ « طبعة محمود توفيق »] .

(٢) غُديّة تصغير غداة والمراد التقريب من زمن الصبح والعذيب اسم ماء .

(٣) الهينمة : الصوت الخفيّ وأراد بالمرض لطف الريح ورقتها .

(٤) التحرش : الاغراء وهذا البيت يذكرنا باسلوب محمد اقبال الشاعر الفيلسوف المعاصر .

(٥) هذه اشارة الى القرآن ، السورة السابعة « سورة «الاعراف » الآية : ١٧١ « واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم : الست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » وهكذا عاهدوا انفسهم ، حسب التفسير الصوفي ، على حب الله الى الابد .

(٦) الزجر : سوق الابل والأوارك : الابل والموارك جمع الموركة او المورك وهو الموضع الذي يثني الراكب رجليه عليه قدام واسطة الرحل اذا مل من الركوب والاكوار جمع كور وهو الرحل والاريكة : السرير .

لكَ الخيرُ انْ أوضحتَ تُوضحَ مَضحيا وجُبْت فيافي خبتِ آرامِ وجرة [1]
ونكبتَ عن كُثب العُرَيضِ معارضا حُزونا لحُزْوى سائقا لسُوَيْقَةَ
وباينت بانات كَذا عن طويلعٍ بسلعٍ فسل عن حلَّةٍ فيه حلَّتَ
وعرّج بذياك الفريق مبلّغا سلِمتَ عُرَيباً ثمَّ عني تحيتي
فلي بين هاتيك الخيام ضنينة عليَّ بجمعي سمحةٌ بتشتتي
محجَّبة بين الأسنة والظُّبى اليها انثنت ألبابنا اذ تثنت
ممنّعةٌ خَلْعُ العذارِ نقابُها مسربلة بردين قلبي ومُهجتي
تبيح[2] المنايا اذ تبيح ليَ المُنى وذاك رخيصٌ مُنيتي بمنيّتي[3]

ينحدر ابن الفارض من أَرُومةٍ عربية خالصة فشعره عربي بشكله وروحه تماما .

الحسين بن منصور الحلاّج :

وليس هذا مكان الحديث عن متصوفة الفرس العظام ولكن الحسين ابن منصور الحلاّج الذي نفذ فيه حكم الموت في خلافة المقتدر (٣١٠هـ/ ٩٢٢م) ما كان ليمكننا اغفاله هنا لولا ان البروفيسور براون قد قدم عنه مسبقا معلومات قيمة ليس بوسعنا ان نضيف اليها اي شيء ذي بال[4] .

(١) أوضحت : أشرفت وتُوضح : اسم بقعة ووجرة : اسم موضع والآرام جمع رئم : الظبى الابيض والخبت : ما اطمأن واتسع من الارض .

(٢) تتيح : تقدر .

(٣) الديوان ، ص١٤٢ وما بعدها [طبعة رشيد الدحداح] = ص١٦-١٧، طبعة محمود توفيق ، مطبعة حجازي بالقاهرة .

(٤) راجع « تاريخ فارس الادبي » [بالانكليزية] : جـ١ ص٤٢٨ وما بعدها ولكن خلال العشرين سنة الاخيرة [اي التي سبقت سنة ١٩٣٠ وهي تاريخ الطبعة الثانية للكتاب الذي بين يديك] القيت اضواء كثيرة على شخصية الحلاّج ومبادئه ؛ فنحن الآن على معرفة افضل بالحلاج منا بأي مسلم صوفي آخر والفضل في ذلك يعود الى الكتاب الخالد : « وَجد الحلاّج » La Passion D'Al-Hallaj لماسينيون ، بمجلدين (باريس ، ١٩٢٢) ويعرض مبدؤه روابط بارزة مع المسيحية وليس فيه آثار الحلولية التي نسبها اليه المتأخرون من الصوفية فضلا عن =

على ان العرب قد أسهموا في تاريخ التصوف باسم خالد آخر ـ هـو محي الدين بن العربي ، الـذي تقع حيـاته في القرن الاخير من الحـكم العباسي فهي لذلك تختم الفصل الحاضر بشكل ملائم(١) .

ولد محي الـدين محمـد بن علي بن العـربي (أو ابن عربي)(٢) في مُرسِيَـه باسبانيا في ١٧ رمضان ٥٦٠هـ = ٢٩ تموز ١١٦٥م وقد سـكن من سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣ الى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م في اشبيليا ثم قصد المشرقَ بطريق مصر الى الحجاز حيث أقام مدة طويلة واخيرا بعد أن زار بغـداد والموصل وآسيا الصغرى استقر بدمشق حيث مات فيها (٦٣٨هـ = ١٢٤٠م) وقد فكر الناس في ان ضريحه على سفح جبل قاسيون(٣) « قطعة من جنان الفردوس » فسمي بحجر الفلاسفة(٤) وهو الآن ضمن مسجد يحمل اسم

= فون كريمر ومن جاء بعده من المؤلفين الاوربيين · قارن الخلاصة التي قدمها الاب جوزيف ماريشال ، سبق ذكره ، ص‌ص٢٤٩ ـ ٢٨١ و « فـكرة الشـخصية في التصوف »
The Idea of Personality In Sufism
(كمبرج ، ١٩٢٢) ص‌ص ٢٦ـ٣٧ ·

(١) خير ترجمة لابن العربي هي في « نفح الطيب » للمقَّري ، طبعـة دوزي وآخرين جـ١ ص‌ص ٥٦٧ـ٥٨٣ وثم معلومات كثيرة اضافيـة في مقال مفصل استخلصته من مخطوطـة قيمـة بحوزتي وهي بعنوان « شذرات الذهب » [الكتاب الآن مطبـوع متـداول « المترجم »] وقد نشر المقال في مجلـة الجمعية الآسيوية الملكيـة لسنة ١٩٠٦ ص‌ص ٨٠٦ـ٨٢٤ ؛ قارن كذلك كتاب فون كريمر : « آراء سائده » (بالالمانية) ص‌ص ١٠٢ ـ ١٠٩ ·

(٢) كان يعرف في الغرب بابن العربي ، غير ان المشـارقة من المسـلمين اغفلوا لام التعريف ليميزوا بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي الاشبيلي (ت ٥٤٦هـ/١١٥١م) ·

(٣) جبل مشرف على غوطة دمشق شمالا بغرب ؛ علوه ينيف عن ١٢٠٠ متر · يذكر مؤرخو دمشق عددا وافرا من الانبياء والشهداء المدفونين بين منحدراته وبين باب قاسيون ·

(٤) الكبريت الاحمر ·

محي الدين وفوقه قبة(١) ولا نعرف الا القليل عن أحداث حياته التي تبدو انها امضيت بصورة رئيسة في الاسفار ومحادثة المتصوفة ووضع مؤلفاته العديدة ، وعدتها حوالي الثلثمائة حسب احصائه ، وقد اشتهر اثنان من هذه المؤلفات بصورة خاصة فعد ابن العربي بسببهما أعظم متصوفة المسلمين قاطبة ـ وهما « الفتوحات المكية » (أي « الايحاءات المكية ») و « فصوص الحكَم » والفتوحات مؤلف ضخم بخمسمائة وستين فصلاً يحوي تنظيما كاملا لعلم التصوف ويروى المؤلف انه رأى محمدا (ص) في عالم الافكار الحقيقية جالسا على عرش وسط الملائكة والانبياء والاولياء وتلقى أمره بالتحدث في الاسرار الالهية وقابل في مناسبة أخرى وهو يطوف بالكعبة ، روحا علويا على هيئة شاب مشغول بنفس الطقوس ، فاطلعه على المعبد الباطني الحي المخفي تحت المظهر الخارجي الذي لا حياة فيه كالمادة الازلية للافكار الالهية المخفية تحت اقنعة الدين الشائع ـ الاقنعة التي يجب ان يخترقها العقل السامي الى ان تشترك ، بعد وصولها الى الجلال الداخلي ، بالطبيعة المقدسة وترى مالا تتحمل اي عين بشرية النظر اليه . فغُشيَ على ابن العربي في الحال وعندما عاد الى وعيه أُمر بان يتأمل الشكل الحلُمي او صورة الرؤيا وان يدون الاسرار التي توحيه لبصره ثم دخل الشاب الكعبة مع ابن العربي فظهر له بعد ان استعاد مظهره الروحي ، جالسا على مقعد ذي ثلاث أرجل ، فنفخ في صدره علم جميع الاشياء وامره مرة اخرى بان يصف الشكل السماويّ الذي تتقمص به جميع الاسرار(٢) . هذا هو الاصل المشهور « للفتوحات المكية » حيث دوّن القسم الاعظم منه في المدينة التي نزل فيها الوحي على محمد (ص) قبل ذلك بستمائة سنة ؛ وقد اعتقد المؤلف ، او تظاهر بالاعتقاد ، بان كل كلمة منها املتها عليه قوة خارقة ؛

---

(١) راجع فون كريمر ، سبق ذكره ، ص١٠٨ وما بعدها .

(٢) لقد استقيت التفاصيل المدونة في أعلاه من خلاصة للفتوحات وضعها عبدالوهاب الشعراني (المتوفى سنة ٩٧٣هـ/١٥٦٥م) وقد وصفها فلايشر Fleischer وصفا كاملا في « سجل مخطوطات مكتبة جامعة لايبزگ » (١٨٣٨) ص٤٩٠ـ٤٩٥ .

ولا تقل « الفصوص » عنها من حيث عظم التقدير وهي مؤلَّف صغير بسبعة وعشرين فصلا اطلق على كل واحد منها اسم نبيّ من الانبياء وقد غدت موضع شروح عديدة في العربية والفارسية والتركية .

ومن الغرابة بمكان ان ابن العربي جمع بين أكثر أنواع التصوف مغالاةً وأضيق انواع الاتجاهات السنيّة . « كان ظاهريّ المذهب في العبادات ، باطنيّ النظر في الاعتقادات »[1] وقد رفض كل تقليد ، فقال في بعض اشعاره [من الخفيف] :

نسبوني الى ابن حزمٍ واني ... لست ممن يقول قال ابن حزم
لا ولا غيره فان مقالي ... قال نص الكتاب ذلك علمي
أو يقول الرسول لو اجمع الخلْـ ... ـقُ على ما اقول ذلك حكمي[2]

وبالرغم من أنه أصرّ على التمسك بحرفية الشريعة المقدسة بدقة ، فبوسعنا أن نشك في أن رفضه اتباع أي سلطة أو قياس أو رأي بشري كان لمجرد التعالي المتعجرف لرائي الغيبيات الذي يعتبر نفسه مستنيرا استنارة الهية ومعصوما ، وقد تقزز الكثير من الفقهاء من التعابير الالحادية في ظاهرها التي ترد في كتاباته وحملوه مسؤولية التعلق بالمبادىء الالحادية «كالحلول» و « الاتحاد » (اي تماثل الانسان مع الله) . وقد مضت قرون ولكن النقاش استمر مضطرماً حوله ووجد مشايعين عديدين متحمسين أصروا على أن اقوال الاولياء يجب الا تفسر حرفيا ولا تنتقد ابدا ؛ على انه اعتُرِف بان

---

(١) المقري : ١/٥٦٩ س١١ [= جـ١ ص٤٠٥ س١٨ من طبعة المطبعة الميرية المصرية] .

(٢) ديوان ابن عربي ، القاهرة ، بولاق ، ١٢٧١ هـ ، ص٤٧ س ١٧ـ١٩ [ولكن ترجمة نكلسن تخالف ما وجدناه في الديوان بعض الشيء اذ جاء فيها : « لست ممن يقول ان ابن حزم قال كذا وكذا وان احمد [ابن حنبل] قال كذا وكذا والنعمان [ابو حنيفة] قال كذا وكذا » فاما ان يكون نكلسن قد تصرف في ترجمته او انه عثر على نص آخر في مخطوط لم يشر اليه ، وهذا من اكبر عيوب نكلسن الذي يترجم النصوص احيانا دون اشارة الى مصادرها] .

مثل هذه الاسرار السامية لا تلائم الاخوان الضعفاء وعلى ذلك فان الكثير حتى من اولئك الذين كانوا يؤمنون بقدسيته ثبطوا الناس عن قراءة كتبه ؛ ومع ذلك فقد قرئت بصورة عامة وخاصة من أقصى العالم الاسلامي الى أقصاه ، واستنسخها الناس لينالوا بركات مؤلفها وكانت المخطوطات تشترى بلهفة ولا يسعنا ان نذكر هنا بين الرجال البارزين الذين كتبوا مدافعين عنه الا مجد الدين الفيروز ابادي (المتوفى سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م) مؤلف « القاموس » العظيم ؛ وجلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م) وعبدالوهاب الشعراني (المتوفي سنة ٩٧٣هـ/١٥٦٥م)[١] والمبدأ الاساسي لنظامه (وحدة الوجود) فليس هناك اختلاف حقيقي بين الجوهر وصفاته او بعبارة أخرى ، بين الله والكون ، وكل الاشياء المخلوقة تبقى ازلية كافكار (أو اعيان ثابتة) في علم الله وما دامت الكينونة متماثلة مع العلم فان خلقها لا يعني الا معرفته اياها ، أو تعني ذاته تحت مظهر الواقعية ؛ والحقيقة ان الكون هو المجموع المادي لعلاقات الجوهر كفاعل مع ذاته وكمفعول .

ويتقنع هذ التوحيد الحلولي بقناع اسلامي في مبدأ (الانسان الكامل) وهو تعبير كان ابن العربي أول من قرنه به[٢] ويصل الوعي الالهي المتطور بطريق سلسلة من « الحضرات » [اي المستويات] الخمسة ، الى تعبير

---

(١) « الطبقات الكبرى أو لواقح الانوار في طبقات الاخيار » ج١ ص ١٨٧–١٨٨ وفيها يذكر انه كان قد تنبأ بفتح القسطنطنية قبل ٢٠٠ عام من فتحها على يد محمد الفاتح جد سليمان بن عثمان الاول فبنى سليمان عليه قبة عظيمة بعد ان كان الجهله يبولون على قبره .

(٢) راجع فيما يتعلق بنظرية الانسان الكامل لابن عربي ، تور أندريه: « شخصية محمد » Die Person Muhammeds ص٣٣٩ وما بعدها ؛ وقارن فيما يتعلق بنفس النظرية كما اوضحها عبدالكريم الجيلي (المتوفى حوالي ٨١٣هـ/١٤١٠م) احد اتباع ابن العربي ، في رسالته الشهيرة الموسومة بـ « الانسان الكامل » ، « دراسات في التصوف الاسلامي » Studies in Islamic Mysticism ص٧٧–١٤٢

كامل في الانسان ، الكائن المايكروكوزمي[1] الذي يوحد الصفات الخالقة والمخلوقة للجوهر وهو في الوقت ذاته صورة الله والنمط الاساسي للكون وبطريقه وحده يعرف الله ذاته ويجعل نفسه معروفا فهو عين العالم الذي يرى الله بها اعماله بالذات ؛ وتتضح المتناقضات الكلامية[2] الجريئة لابن العربي في أبيات من نحو [مجزوء الوافر] :

فيحمدني وأحمدُهُ ويعبدني وأعبُدُهُ

• • • • • • • • • • • • • • • • • •

• • • • • • • • • • • • • • • • • •

فأنّي بالغنى وأنا أُساعده فأسعِدُهُ ؟

لذاك الحقُّ أوجدني فأعلمُهُ فأوجدُهُ

بذا جاء الحديث لنا وحقق فيَّ مقصده[3]

وهكذا فالمهمة الاولى للانسان هي ان يكشف ويتحقق من قدسية ذاته الانسانية ، والرجال الكمَلة هم ، اذا ما اخذناهم فرادى ، الانبياء والاولياء . هنا يتعلق المبدأ – وهو مزاج من المانوية والغنوصية والافلاطونية الجديدة والتاملات المسيحية – بمحمد (ص) « خاتم الانبياء » ؛ وقد تجسم « نور محمد » [اي النور أو الروح التى وجدت منذ الازل] في آدم وبسلسلة كافة الانبياء الذين كان محمد (ص) خاتمهم فمحمد اذن الكلمة

---

(١) اي الذي يمثل العالم الصغير .

(٢) في الاصل Dialectic اي المتعلق بعلوم الكلام .

(٣) «فصوص الحكم» (القاهرة ، ١٣٢١هـ) ص٧٨ والالفاظ المحصورة بين اقواس هي شرح عبدالرزاق الكاشاني الذي نجده مع النص [= « فصوص الحكم » للشيخ الاكبر محي الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ والتعليقات عليه بقلم أبي العلا عفيفي ، دار احياء الكتب العربية ، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦ ، ص ٨٣] وقد حذف نكلسن البيت الثاني والثالث والسادس .

الاله ــ الانسان ، خليفة الله ، الوسيط أو الشفيع ، (١) Logos انحدر الى هذا الجو الارضي ليوضح مجد الذي أوجد الكون •

ولكن فلسفة ابن العربي بطبيعة الحال ، تأخذ به الى ابعد من عالم الدين الايجابي ، فاذا كان الله هو « الذات » لكافة الاشياء العاقلة والمفهومة ، نتج من ذلك انه يتجلى في كل نوع من المعتقد بدرجة متناسبة مع قدرة المؤمن المقدرة مسبقا ، والصوفي وحده الذي يرى انه واحد في كل الهيئات ، لان قلب الصوفي قادر على تسلم الاشياء ، ويتخذ أي شكل يتجلى فيه الله كالشمع الذي يتقبل نقش الختم (٢) :ـ

لقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ (٣)

---

(١) يصطنع ابن العربي عبارة : « حقيقة الحقائق » بموازاة العبارة الاغريقية : Logos Enthiathetos الكلمة الالهية في حين ان « الحقيقة المحمدّية » تماثل التعبير الاغريقي : الكلمة الشفهيّة Logos Prophorikos

(٢) النص العربي لهذه الابيات في مجموعة قصائد ابن العربي الصوفية الموسومة ب « ترجمان الاشواق » الكتاب الذي قمت بطبعه في سلسلة المترجمات الشرقية ، السلسلة الجديدة Oriental Translation Fund, New Series ، المجلد ٢٠ ص١٩ الابيات ١٣ــ١٥ [= طبعة دار صادر ، بيروت ، ١٣٨١هـ/١٩٦١م ص٤٣ــ٤٤] •

(٣) «لقد صار قلبي قابلا كل صورة» : كما قال الآخر : ما سمّي القلب الا من تقلبه فهو يتنوع بتنوع الواردات عليه وتنوع الواردات بتنوع احواله وتنوع احواله بتنوع التجليات الالهية لسره ، وهو الذي كنى عنه الشرع بالتحول والتبدل في الصور ؛ ثم قال « فمرعى لغزلان » ، اي اذا وصفناه بالمرعى كنينا عن السارحين فيه بالغزلان دون غيرها من الحيوانات لان كلا منا بلسان الهوى وبالغزلان يقع التشبيه بالأحبة للمحبين في هذا اللسان ، ولاشك ان عين الفرس سوداء متسعة ولكن ما وقع التشبيه الا بعين الغزلان • وقوله : « ودير لرهبان » ، يقول : اذا جعلناهم رهبانا من الرهبانية جعلنا القلب ديرا للمناسبة لانه منزل الرهبان وموضع اقامتهم •

وبيت لاوثان وكعبة طائف   والواح توراة ومصحف قرآن[1]
أدين بدين الحب أنّى توجهت   ركائبه فالحب ديني وايماني[2]

والى عهد قريب حال الحجم الهائل لكتابات ابن العربي ومصطلحاته التقنيّة [الفنيّة] والكلامية ونماذج تفكيره الغامضة وانعدام الاسلوب في شرحه ، دون اضفاء المستشرقين الاوربيين عليه الاهتمام الذي يستحقه[3] . ان اسمه في تاريخ التصوف يحدد بداية عصر : فبسببه حدث ان ما بدأ كحركة شخصية دينية عميقة في الاسلام ، انتهى كنظام فلسفي صوفي وحلولي بالتأكيد ؛ ويشهد لقب « الشيخ الاكبر » الذي ينعت به عادة ، على تفوقه في عالم التصوف الاسلامي من الغزو المغولي الى الوقت الحاضر ؛ وقد كان

(١) يقول : وهذا القلب صورة بيت الاوثان ، لما كانت الحقائق المطلوبة للبشر قائمة به التي يعبدون الله من اجلها فسمي ذلك أوثانا ولما كانت الروح العلوية حافة بقلبه سمى قلبه كعبة ، وهي الارواح المذكورة له ، اذا مسه طائف من الشيطان فهن اصحاب الملمات الملكية ولما حصل من العلوم الموسوية العبرانية جعل قلبه الواحا لها . ولما ورث من المعارف الاسلامية الكمالية جعلها مصحفا واقامها مقام القرآن لما حصل له من مقام أوتي جوامع الكلم .

(٢) يشير الى قوله : « فاتبعوني يحببكم الله » فلهذا سماه « دين الحب » ودان به ليتلقى تكليفات محبوبه بالقبول والرضى والمحبة ورفع المشقة والكلفة فيها بأي وجه كانت ، ولذا قال : « أنّى توجهت » أي أية سلكت مما يرضي ولا يرضي فهي كلها مرضية عندنا . وقوله : « فالحب ديني وايماني » اي ما تم دين اعلى من دين قام على المحبة والشوق لمن ادين له به وأمر به على غيب . وهذا مخصوص بالمسلمين فان محمدا (ص) له من بين سائر الانبياء مقام المحبة بكمالها مع انه صفيّ ونجيّ وخليل وغير ذلك من معاني مقامات الانبياء وزاد عليهم ان الله اتخذه حبيبا اي محبا محبوبا وورثته على منهاجه .

(٣) لقد درس ابن العربي من قبل آسين پلاثيوس Asin Palacios استاذ العربية في مدريد الذي وضع كتبه بالاسبانية ، ومن قبل هـ.س. نيبرگ الذي ألف « الكتابات الصغرى لابن العربي » Kleinere Schriften Des Ibn al-Arabi ليدن ، ١٩١٩ ويمكن الحصول على نظرة عامة من كتابي : « دراسات في التصوف الاسلامي» ص‌ص ٧٧–١٤٢ وص‌ص ١٤٩–١٦١ .

تأثيره في ايران وتركيا هائلا وقد ارتبط بطريق تلميذه صدر الدين القونيلي بأعظم شعراء الصوفية وهو جلال الدين الرومي صاحب « المثنوي » الذي مات في ما يقرب من ثلاثين سنة بعده وليس جميع الذين استعاروا افكاره كانوا مسلمين فقد أَلْهَمَ من بين كتاب المسيحيين في القرون الوسطى ، العالم المستنير ريموند لول Raymond Lull وربما دانتي ايضا[1] .

---

(١) راجع آسين پلاثيوس « الاسلام والكوميديا الالهية » Islam and the Divine Comedy لندن ، ١٩٢٦ .

[ريموند لول (١٢٣٥ـ١٣١٥م) هو كاتب وكيماوي من كاتالونيا ، ولد في پالما وكان يلقب « بالمستنير » ويعتبر كتابه « الفن العظيم » من أغرب كتب المتكلمين .

ودانتي اليگييري (١٢٦٥ـ١٣٢١) هو شيخ شعراء الطليان ؛ ولد في فلورنسا ولعب دورا سياسيا في مسقط رأسه فعهد اليه بمهام دبلوماسية وقد حكم عليه بالنفي سنة ١٣٠٢ فسكن بعض الوقت في ڤيرونا ومات في راڤينّا . اشتهر بموشحات الحب التي نظمها مصورا فيها عاطفته المثلى التي كادت تكون صوفيه ازاء حبيبته بياتريس ابنة فولكوپورتيناري ، ومن اجلها نظم قصيدته « الحياة الجديدة » ولكنه اشتهر « بالكوميديا الالهية » اكثر من اي اثر ادبي آخر وبسببها اعتبر أبا الشعر الايطالي] .

الفصل الرابع

العــرب في أوربا

انا لنذكر[1] انه قبل نهاية القرن الاول للهجـرة وفي خلافـة الخليفة الاموي الوليد بن عبـدالملك ٨٦هـ/٧٠٥م-٩٧هـ/٧١٥م عبـر المسلمون بقيادة طارق وموسى بن نصير البحر الابيض المتوسط وسرعان ما اخضعوا اسبانيا برمتها لسيطرتهم بعد ان دحروا رودريق الغوطي في معركة عظيمة بالقرب من قادس وبقي مصير الاقليم الجديد مشكوكا فيه لمدة طويلة ؛ ولقد امتد التمرد البربري الذي اضطرم في افريقيا (سـنة ١١٦هـ/٧٣٤-١٢٥هـ/٧٤٢م) الى اسبانيا ، وهدد بابادة العصبة القليلـة من المستوطنين العرب ؛ ولم يكد هذا الخطر يمضي حتى شرع المتصرون بايقاد نيران الحسد والعداوات القديمة التي ورثوها من اسلافهم القيسية والكلبية وهرع الفريقان المتنافسان من الشام واليمـن الى السلاح مرة اخرى وعمت البلاد الفوضى •

عبدالرحمن الأموي [١٣٨هـ/٧٥٥م ــ ١٧٢هـ/٧٨٨م]

وفي الوقت ذاته هرب عبدالرحمن بن معاوية ، أحد أحفاد الخليفة هشام من المجزرة العامة التي قام بها العباسيون ابتهاجا بانتصارهم عـلى الامويين ، وبعد خمس سنوات من تجوال مغـامرات مصحوبا بمعتوقـه المخلص بدر وحده ، شارف « سَبْتَه » حيث وجد ملاذا قلقاً عند القبائل

---

(١) هذا الفصل هو في الحقيقة الجـانب «الأندلسي المغربي» للأدب العباسي الذي لم يكن مقتصرا على المشرق وحده بل عم أثره حتى بلغ اقصى بقاع المعمورة غربـا ، فالآثار العبـاسية في الأدب الاندلسـي واضحة لاتنكر كما سنرى في ثنايا الفصل الذي أمامنا .

[المترجم]

البربرية ؛ وأدرك عبدالرحمن الشاب الطموح المليء بالثقة في مصيره ، الخطة الجريئة لأن يقذف بنفسه الى اسبانيا ويحرز دولة بمعونة العرب الذين كان بينهم ، حسبما كان يعلم جيدا ، العديد من موالي اسرته ، وعلى ذلك فقد بعث سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م ببدر عبر البحر في مهمة سرية وقد انجز الرسول اكثر مما كان متوقعا منه ، اذ كان من السهل كسب الموالي الى جانبه فعبدالرحمن رئيسهم الطبيعي وسيقتسمون ما سيحصل عليه في حالة نجاحه ، على أن عددهم كان ضئيلا نسبيا ولم يكن بوسع المطالب بالعرش ان يأمل في انجاز اي شيء ما لم يسنده أحد الحزبين العظيمين : الشامي او اليماني وقد تزعم الاول في هذا الحين العامل الضعيف يوسف بن عبدالرحمن الفهري ومساعده القاسي ، الذي كان كفأً مع ذلك ، ونعني به الصميل بن حاتم ، وقد امسكا بزمام السلطة وتعقبا خصومهما بضراوة لا ترحم ؛ فأسرع اليمانيون لذلك الى الالتفاف حول عبدالرحمن ، لا لأنهم كانوا مشغوفين بدعواه ، وانما كان يحدوهم مجرد الامل بأخذ ثأر دموي من أهل الشام ، فهؤلاء المسلمون الاندلسيون كانوا من عرق بدوي أصيل !

وبعد اشهر ثلاثة حل عبدالرحمن في الاندلس واحتل اشبيلية ، وبعد ان دحر يوسف والصميل امام أسوار قرطبة أقام نفسه سيداً للعاصمة وأم في المساء ذاته ، كحاكم لاسبانيا ، المواطنين المجتمعين لصلاة الجماعة في المسجد الكبير (١٣٩ هـ/أيار ٧٥٦م) .

وخلال حكمه الطويل الذي دام اثنين وثلاثين عاما كان عبدالرحمن مشغولا في دفاعه وتوحيده للامبراطورية التي بدت اكثر من مرة على وشك الافلات من قبضته اذ كانت المهمة التي امامه شاقة للغاية ، فقد جابهته الارستوقراطية العربية الجموحة التي كانت غيورة على استقلالها اذ اعتبرت العاهل خصمها المشترك ، وما كانت المصالحة الدائمة بينه وبينها أمرا ممكنا وما دام ايقافها عند حدها غير ممكن الا بقوة مسلحة أقوى منها

فقد كان مضطرا الى ان يعتمد على المرتزقة ومعظمهم من البربر الذين جيء بهم من افريقيا . وهكذا بضرورة لا مناص منها اتخذت الامبراطورية الاسلامية في الغرب بصورة تدريجية الصفة الاستبدادية المحوطة بالحرس الامبراطوري الصفةالتي اعتدنا أن نربطها بالحكم العباسي في فترة تدهوره، ولم تكن النتائج في النهاية بأقل ضررا ؛ و كان على الدولة كذلك ان تحسب حسابا لتعصب رعاياها المسيحيين ولحزب اسباني قومي هائل متلهف للتخلص من النيْر الاجنبي فتطلب الوضع الطاقة الخارقة والكياسة لابقاء السيطرة على هذه العناصر القابلة للانفجار ، واذا لم تكن الدولة التي أسسها عبدالرحمن قد دامت قرنين ونصف القرن فحسب بل منحت اسبانيا[٢] عهد رخاء وثقافة اروع مما تمتعت به اطلاقا ، فالفضل يرجع بصورة رئيسة الى المغامر الجريء الذى لم يستطع حتى اعداؤه الامتناع عن الاسهام في اطرائه والثناء عليه ؛ فقد قيل ان الخليفة المنصور سأل رجال حاشيته ذات يوم : « أخبروني من صقر قريش من الملوك ؟ قالوا : ذاك امير المؤمنين الذي راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الاعداء وحسم الأدواء . قال : ما قلتم شيئا . قالوا : فمعاوية . قال : لا . قالوا : فعبدالملك بن مروان . قال : ما قلتم شيئا . قالوا : يا أمير المؤمنين فمن هو ؟ قال : صقر قريش عبدالرحمن بن معاوية الذي عبر البحر وقطع القفر ودخل بلدا اعجميا منفردا بنفسه فمصّر الامصار ، وجند الاجناد ، ودوّن الدواوين ، وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته » .

[« ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه ، وعبدالملك ببيعة ابرم عقدها ، وامير المؤمنين بطلب عترته واجتماع

(٢) فضلنا الابقاء على اسم اسبانيا على نحو ما اختاره المؤلف دون تغييره الى لفظة «الأندلس» لأن الاندلس في الحقيقة جزء من اسبانيا وهي الاخرى غير عربية ثم ان لفظة اسبانيا فضلا عن كونها اعم واشمل من الاندلس لها تأثير خاص في العصر الحديث . [المترجم]

شيعته ، وعبدالرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالاندلس وافتتح الثغور وقتل المارقين واذل الجبابرة الثائرين ، فقال الجميع : صدقت والله يا أمير المؤمنين ! »][3] •

الاسلام في الاندلس

لم يؤلف العرب بين مسلمي الاندلس الا أقلية ضئيلة وقد أظهروا الى ذلك كل امارات عدم الاكتراث تجـاه الدين والاستهانة بشريعـة الاسلام ، وهو ممـا يتوقع من رجال تشبعوا بالتقاليـد البدوية وكان أسلافهم شديدي التعلق بأمويي دمشق المحبين للدنيا ؛ وكان الامر على العكس من ذلك بالنسبة للاسبان الذين اعتنقوا الاسلام وعرفوا «بالمولدين»

Affiliati وكانوا يعيشون «كالموالي» تحت حماية النبلاء العرب ، ومع البربر • وقد أخذت هذه الاجناس دينها الجديد بمنتهى الجدية ، حسب المزاج الحار الرصين الذي كان السمة المميزة لها دائما •

وعلى ذلك فقد شاعت سُنِّيَّة متشددة بين جموع الاسبان المسلمين•

يحي بن يحي :

ويحى بن يحى البربري (المتوفى سنة ٢٣٥هـ/٨٤٩م) مثـال نموذجي ؛ ففي سن الثامنة والعشرين رحل الى الشرق ودرس على مالك ابن انس الذي أملى عليه كتابه المشهور : «الموطأ» وقد كان يحى ذات يوم في محاضرة من محاضرات مالك مع عدد من زملائه الطلاب عنـدما قال قائل : «قد حضر الفيل !» فخرج اصحاب مالك كلهم لينظروا اليه ، ولم يخرج يحي ، فقـال له مالك : «مالك لا تخرج فتراه لانـه لا يكون

(٣) ابن العذاري : « البيان المُغـرِب » طبعة دوزي ، جـ٢ ص٦١ وما بعدها[وقد اضفنا الفقرة المحصورة بين عضادتين ، تلك التي اهمـل ترجمتها نكلسن ، اتماما للفائدة منطبعة مكتبة صادر ، بيروت ، ١٩٥٠ ، ص٨٨ـ٨٩ راجع كذلك الخطيب : اعمال الاعلام ، ص٩ـ١٠ « والاخبار المجموعة » و « العقد » لابن عبد ربه • «المترجم»]

بالاندلس ؟» فقال : «انما جئت من بلدي لانظر اليك واتعلم من هديك وعلمك ، ولم أجيء لانظر الى الفيل» فأُعجب به مالك وسماه «عاقل اهل الاندلس» ؛ وقد عمل يحي بعد عودته الى الاندلس جاهدا لنشر مبادىء استاذه وبالرغم من انه رفض باصرار ، لاسباب دينية ، قبول أي وظيفة من الوظائف العامة ، فان شهرته ونفوذه كانا ، كما يقول ابن حزم ، بدرجة انه لا يلي قاض الا بمشورته واختياره ، ويلي الشخص الذي يفضّله(٤) ؛ وهكذا اصبح المذهب المالكي القائم على الالتزام الوثيق بالحديث قانون البلاد وقد لاحظ مؤلف عالم من القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد ان الاندلسيين لا يعترفون «الا بكتاب الله وموطأ مالك فان ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه وان عثروا على معتزلي أو شيعي ونحوهما ربما قتلوه »(٥) .

ولم يكن الفقهاء الذين كانوا متعجرفين ومتطرفين أشد التطرف وطامحين للنفوذ والسلطان مستعدين أن يلعبوا دورا ثانويا في الدولة ، ووجدوا في هشام (١٧٢هـ/٧٨٨م - ١٨٠هـ/٧٩٦م) خليفة عبدالرحمن أميرا حسب أهوائهم ، فتقاه وانصرافه الى مصالحهم لم يتركا زيادة لمستزيد .

أما الحكم (١٨٠هـ/٧٩٦م - ٢٠٧هـ/٨٢٢م) فقد كان أقل موافقة لهم ، اذ اكرم الفقهاء واحترمهم ولكنه في الوقت ذاته افهمهم انه لن يسمح لهم بالتدخل في الشؤون السياسية .

---

(٤) ابن خلكان ، طبعة وستنفيلد ، رقم ٨٠٢ ، ترجمة دي‌سلان، جـ٤ ، ص٢٩ وما يليها [= رقم ٧٦٣ ، جـ٥ ص١٩٥ من طبعة محمد محي‌الدين عبدالحميد ، القاهرة ، ١٩٤٩] .

(٥) المقدّسي (طبعة دى غويه) بمطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٠٦ ص٢٣٦ ، من اقتباس گولدتزيهر في كتابه : « الظاهرية » Die Zahiriten ص١١٤ وقد اخطأ نكلسن في ترجمته للعبارة الاخيرة اذ نقلها : «كثيرا ما قتلوه» والفرق بين «ربما» «وكثيرا ما» واضح !

ثـورة الربض :

فرد عليه الساخطون وعلى رأسهم يحى بن يحى الناريّ المزاج ، بالتهديدات والاهانات ، ودعوا أهل قرطبة ـ ولا سيما «المرتدين» في الحارة الجنوبية من المدينة (الربض) ـ الى الثورة على الطاغية وجنده الوقح ، وذات يوم في رمضان ١٩٨هـ(٦) (أيار «مايو» ٨١٤م) وجد الحكم نفسه فجأة منفصلا عن حاميته وقد حاصرته الدهماء الغاضبة في بلاطه ، ولكنه ما فقد رباطة جأشه ، فخرج من المحنة التي وجد نفسه فيها بسلام ، ويعود الفضل في ذلك الى مزاجه البارد وستراتيجيته(٧) الحاذقة ، وقد أحرق الربض الثائر حتى القواعد(٨) ومن أفلت من سكانه من المجزرة ، وهم نحو من ٦٠٫٠٠٠ نَسَمة ، كان مصيره النفي والابعاد ، ولم ينل المجرمين الحقيقيين عقاب ؛ ولم يَسَعِ الحكم أن يتمادى في تهييج الفقهاء الذين اخذوا يلحظون من جهتهم انه قد يكون بامكانهم ان يحصلوا من الامير بالعطف ما اخفقوا في اغتصابه منه بالقوة ، ولما كان أغلبهم من العرب أو البربر فقد كان لهم عليه حق كبير في تقديره اياهم وسرعان ما أعيد اليهم

---

(٦) يقول لسان‌الدين بن الخطيب في «كتاب أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام» تحقيق وتعليق ليفي پروفنسال ، دار المكشوف ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٥٦ : «فثار به [أي بالحكم] أهل الربض بقرطبة سنة ٢٠٢ الثورة الشهيرة ، ونابذوه ، وجاهروا بخلعه» ص١٥ (وهي الثورة الثانية) راجع ابن عذاري المراكشي : «البيان المغرب في اخبار المغرب» ص١٠٦ حيث ورد تحت عنوان «مقتل أهل الربض أولا قبل هيجة ثانية» : وفي سنة ١٨٩ صلب الامام الحكم اثنين وسبعين رجلا بقرطبة وكذلك ص١١٣ موضوع : «ذكر هيج أهل الربض ثانية في سنة ٢٠٢» ويبدو ان نكلسن مزج بين الثورتين واعتبرهما ثورة واحدة .

(٧) اي فن قيادته الجيوش او خططه ومناوراته وخدعه الحربية .

(٨) يقول لسان‌الدين بن الخطيب : «واقسم الحكم بمحرجات الايمان ان لا يمشي عن الربض حتى يدعه دكا ، فصيره علـى عِظَمِهِ وهوله واصالة بنائه مزرعة» كتاب اعمال الاعلام ، ص١٦ .

نفوذهم ففي حكم عبدالرحمن الثاني [الأوسـط] (٢٠٧هـ/٨٢٢م - ٢٣٨هـ/٨٥٢م) أدار يحى نفسه ، زعيم حركة العصيان ، دفة السياسة الدينية ونشر الرعاية القضائية كما يهوى ويشاء .

عمر بن حفصون :

لم تكن ثورة الربض الا مشهدا في الصراع الطويل الدامي بين الاسبان أو المسلمين أو النصارى من جهة وسلطان قرطبة من الجهة الثانية ـ وهو صراع تعقّد بسبب القبائل العربية المتنافسة التي كانت تسوّي خلافاتها أحيانا لتدافع عن نفسها ضد وطنيي الاسبان ولكنها لم تُقدِم في أي ظرف من الظروف تأييدها لحكومة بني أمية البغيضة ، وكان بطل حرب الاستقلال هذه عمر بن حفصون وكان ينتسب الى أسرة نبيلة ترجع بأصلها الى الغوط الغربيين وقد اسلمت واستقرت في المنطقة الجبليّة شمال شرقي «مالقة» وسرعان ما وقع الشاب في ورطة لانه كان فوار الدم ميالا الى الخصام ومستعدا للضرب والطعن عند اقل اثارة ، وقد التجأ بادىء ذي بدء الى المعاقل المتوحشة في « رُنده » حيث عاش كقاطع طريق الى ان ألقت الشرطة القبض عليه ؛ ثم عبر البحر الى أفريقيا ، ولكنه ما لبث أن عاد بعد قليل الى موطنه القديم وتزعم عصابة من اللصوص وهنا قاوم لفترة سنتين ، وعندما أرغم على الاستسلام وافق على اقتراح أمير قرطبة بأن يدخل هو وأصحابه في جيش الامارة(٩) ، بيد أن عمر كان قد قيض له مجد أعظم مما كان بوسع الامير (١٠) أن يضفيه عليه ، وقد أصابت ألفاظ اهانة يسيرة من ضابط اعلى منه مرتبة كبرياءه في الصميم ، وعلى ذلك فقد رَمَحَ عاديا ذات يوم جميل مع كافة رجاله في اتجاه «رُندة» ، فوجدوا ملجأ لا يقتحم في قلعة «بوباسترو» Bobastro التى كانت يوما ما حصنا رومانياً . يقول دوزى : « ومنذ هذه اللحظة لم يعد عمر بن حفصون رئيس عصابة ، بل زعيم العنصر الاسباني في الجنوب كافة وتحول

(٩) يسميه نكلسن «بالجيش الامبراطوري» (١٠) يفضل نكلسن ترجمة لفظة «الامير» بـ «السلطان» Sultan

الفوضوي النزق غير المقيد بحزب[١١] الى وطني سامي الفكر اشتهر بعدالته الصارمة التي كان يعاقب بها أقل الاعمال عنفاً ، وأحبه جنده واعتبره مواطنوه بطلا مدافعا عن القضية الوطنية ، وقد وجه في ما تبقى من حياته (٢٧١هـ/٨٨٤م - ٣٠٥هـ/٩١٧م) حرب العصابات بجهد لايني وجعل نفسه مصدر فزع للعرب ، ولكن الحظ فارقه في النهاية فمات ميتة مناسبة سعيدة Felix opportunitate Mortis قبل أن يدرك الخراب الشامل حزبه ببضع سنوات فقط ؛ وأصبح الاسبان المسلمون الذين اضعفت حماستهم بشكل معقول بارتداد زعيمهم الى النصرانية أكثر تشوقا الى المصالحة مع الحكومة لانهم رأوا بوضوح عدم جدوى استمرارهم في الصراع .

عبدالرحمن الثالث (٣٠٠هـ/٩١٢م-٣٥٠هـ/٩٦١)

في سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م خلف عبدالرحمن الثالث الناصر لدين الله جده الامير عبدالله على عرش قرطبة وقد صورت شخصية هذا العاهل العظيم وعبقريته ومشاريعه بشكل بارز في القطعة الآتية وهي بقلم مؤرخ بليغ سيبقى كتابه ، وان كتب قبل نحو خمسين سنة[١٢] فقط ، مصدرا يعتمد عليه دائما[١٣] :

« ان المكان الاول بين امراء بني أمية الذين حكموا اسبانيا هو لعبدالرحمن الثالث دون منازع فان ما أنجزه يكاد يكون معجزا خارقا ، اذ وجد الامبراطورية قد أُسلِمتْ للفوضى والحرب الاهلية ، ومزقتها الاحزاب ، وتناهبها العديد من الامراء المتنابذين ، وغدت عرضة لهجمات

---

(١١) في الاصل Free-Lance وهو الذي يبيع قلمه أو خدماته لاي كان لقاء اجر ، فهو من الانتهازيين المرتزقة !

[المترجم]

(١٢) الكلام سنة ١٩٣٠ [المترجم]

(١٣) دوزى : «تاريخ مسلمي اسبانيا» [بالفرنسية] ليدن ، ١٨٦١ ، جـ٣ ص٩٠ وما بعدها .

لا تنتهي من نصارى الشمال في عشية ابتلاعها من جانب مقاطعة ليون(١٤) أو الافارقة ، وبالرغم من العقبات التي لا تعد ولا تحصى ، انقذ الاندلس من نفسها ومن السيطرة الاجنبية وأضفى عليها حياة جديدة وجعلها أعظم وأقوى مما كانت عليه اطلاقا ، فقد منحها النظام والرخاء في الداخل والاعتبار والاحترام في الخارج ؛ وفاضت خزانة الدولة بمحتوياتها بعد أن وجدها في وضع مؤسف ، وكان يكفي من الواردات الامبراطورية التي بلغت ٦٫٢٤٥٫٠٠٠ قطعة ذهب سنويا ثلثها للنفقات الاعتيادية ، فأبقى ثلثها الآخر احتياطيا وخصص عبدالرحمن ما تبقى لمشاريعه العمرانية ،وقد خمن انه كان ثم في صناديقه سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م مبلغ ضخم لا يقل عن ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ قطعة ذهب بحيث ان رحالة لا ينقصه التفكير في الامور المالية يؤكد لنا أن عبدالرحمن وناصر الدولة الحمداني الذي كان يومها يحكم في أعالي بلاد الرافدين(١٥) كانا أغنى أميرين في ذلك العهد ،وكان وضع البلاد منسجما مع الرخاء المتمثل في الخزانة ، فالزراعة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم ، كلها ازدهرت ... وقرطبة بنصف مليون من السكان وثلاثة آلاف مسجد ؛ بقصورها الفخمة ، وبمائة وثلاث عشرة ألف دار ، وثلثمائة حمام ، وبثمان وعشرين ضاحية ، لم تأت في سعتها وبهائها الا بعد بغداد ، المدينة التي كان القرطبيون يحبون ان يقارنوا مدينتهم بها .... وكان سلطان عبدالرحمن هائلا . وقد ساعده اسطول ضخم على منازعة الفاطميين امبراطورية البحر الابيض المتوسط ، ومكنه من تملك « سبته » مفتاح موريتانيا ، واحرز له جيش كبير منظم خير تنظيم ، ولعله

---

(١٤) مملكة ليون القديمة في شمال غربي اسبانيا اسست في القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد واتحدت مع قشتاله سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م [قاموس لاروس ، طبعة ١٩٤٨ ، ص١٤٩١ «المترجم»]

(١٥) في الاصل : بلاد ما بين النهرين Mesopotamia ولكن الذي نعرفه ان الحمدانيين حكموا الموصل وحلب ولم ينشروا سلطانهم على العراق بأسره .

[المترجم]

كان أفضل جيش في العالم يومذاك ، تفوقا على نصارى الشمال ؛ وقد التمس محالفته أكثر ملوك الدنيا كبرياءً ، وبعث اليه امبراطور القسطنطنية وملوك ألمانيا وايطاليا وفرانسا بسفرائهم •

وهذه بالتأكيد نتائج باهرة غير ان ما يثير دهشتنا واعجابنا عندما ندرس هذا العهد المجيد ليس العمل قدر ما هو العامل : انه قوة ذلك الذكاء الشامل الذي لم يفلت منه شيء والذي تجلى في أدق الدقائق بشكل لا يقل اعجابا عنه في أسمى المدركات ، فهذا الرجل العميق الحكيم الذي يمركز الامور ويوجد وحدة الامة والملكية ويرسخ بمحالفاته نوعا من التوازن السياسي ويدعو بتسامحه العظيم معتنقي عقيدة اخرى الى مجالسه الاستشارية ••• هو ملك عصري أكثر منه خليفة من خلفاء القرون الوسطى(١٦) •

وصاية المنصور بن أبي عامر (٣٦٦هـ/٩٧٦م - ٣٩٣هـ/١٠٠٢م) :

وباختصار جعل عبدالرحمن الثالث مسلمي الاندلس امة واحدة وكوّن من العرب والاسبان شعباً اندلسياً واحداً جرى ،كما سنرى تواً ، بسرعة لا تصدق الى ذروة من الثقافة كانت موضع غبطة اوربا ، ولم تتجاوزها أية دولة معاصرة في الشرق الاسلامي ، على أنه بموته بدا تدهور الدولة الاموية فولده الحكم الثاني (ت٣٦٦هـ/٩٧٦م) خلف لولاية العهد صبياً في الحادية عشرة من عمره هو هشام الثاني الذي لقب بالخليفة على حين ان ادارة الدولة كانت بيد والدته صبح(١٧) ووزيرها

---

(١٦) كان عبدالرحمن الثالث اول من اتخذ هذا اللقب في اسرته في الاندلس •

(١٧) هي صبح البشكنسية نسبة الى البشكنس BASQUE وهي المقاطعات الواقعة في منحدرات جبال البيرنة الشمالية المشهورة بالمضايق التي قتل فيها القائد رولان بطل الملحمة الفرنسية المعروفة باسمه ، والبشكنس أيضا سكان تلك المناطق ناصروا العرب على الفرنجة على ماجاء في الملحمة [المنجد في الادب والعلوم ، ص٧٦] •

الطموح محمد بن ابي عامر[١٨] وكان الاخير ملك اسبانيا الفعلي ومهما يفكر الانسان في الوسائل التي رفعته الى العظمة أو في معاملته للخليفة السيء الحظ الذي حطم قواه العقلية عن قصد والذي اجبره على قضاء حياة عزلة رهبانية فمن المستحيل أن ينكر انه حكم حكماً حازماً ونبيلاً فقد كان رجل دولة عظيماً وجندياً عظيماً كذلك وليس بوسع امرىء ان يتهمه بالمباهاة الفارغة لتلقبه «بالمنصور» فقد اعتاد ان يقود جيشه ضد النصارى كل عام وكان الرعب الذي أوحى به عظيماً لانه لم يكد يخسر معركة واحدة في اكثر من خمسين حملة شنها • لقد توفي سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م ويقول راهب مسيحي سجل الحادث في مدوناته : « لقد دفن في الجحيم » غير ان الايدي المسلمة نقشت البيتين التاليين على قبر حاميها البطل :

آثاره تُنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يحمي الثغور سواه[١٩]

(١٨) هو الحاجب المنصور محمد بن ابي عامر من قبيلة معافر اليمانية تلقب بالمنصور لدين‌الله • انتصر على الاسبان في مقاطعة لاون وقشتالة (كاستيل) وقطلونيا • مات في الخمسين من غزواته • [المترجم]

(١٩) المقري : جـ١ ص٢٥٩ (= ١٨٨ الطبعة المصرية بالمطبعةالميرية) ولما كان كتاب المقري مصدرنا الرئيس للتاريخ الادبي لاسبانيا المسلمة فبوسعنا أن نقدم عنه بصورة ملائمة بعض المعلومات هنا • لقد كتب مؤلفه أحمد بن محمد التلسماني المقري (ت ١٠٤٢هـ/١٦٣٢م) ترجمة لابن الخطيب وزير غرناطة المشهور الحق بها مقدمة طويلة غير مطردة في ثمانية فصول : (١) وصف جزيرة الاندلس (٢) فتح العرب للاندلس (٣) تاريخ الدول الاندلسية (٤) قرطبة (٥) من رحل من علماء الاندلس الى المشرق (٦) من زار الاندلس من المشارقة (٧) مقتطفات ونكات ومقتبسات شعرية منوعة الخ لها علاقة بتاريخ الاندلس الادبي (٨) استرجاع النصارى للاندلس واخراج العرب منها ؛ وعنوان الكتاب الكامل : « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان‌الدين بن الخطيب » وقد قام دوزي وغيره من المستعربين الاوربيين بتحقيق المقدمة التي تضم ذخيرة من المعلومات الغريبة القيمة وهي « مكتبة مصغّرة » تحت عنوان =

وترك موته الجيش الامبراطوري سيّد الموقف فاقتسم البربر والصقالبة[٢٠] المملكة بينهما ووسط الثورة والحرب الاهلية لفظت الدولة الاموية أنفاسها الاخيرة (٤٢٣هـ/١٠٣١م) ٠

ملوك الطوائف :

لقد قيل بصدق إن تاريخ اسبانيا في القرن الحادي عشر للميلاد كبير الشبه بتاريخ ايطاليا في القرن الخامس عشر ، فقد تجزأت امبراطورية عبدالرحمن الثالث الممتازة وقامت على أنقاضها اعتباطاً كتلة من الدويلات يحكمها مغامرون ناجحون[٢١] وكان أقوى ملوك الطوائف ، كما يسميهم المؤلفون المسلمون ، هم بنو عباد في اشبيلية ، ومع انه كان عصر انحطاط سياسي فان رخاء الاندلس المادي لم يتضاءل الا قليلاً في حين انه من الناحية الثقافية وصل مجتمع هذا العهد مستوى لم يضارعه حتى الآن أي مستوى آخر ٠ هنا اذن يسعنا ان نقف لحظة لنستعرض تقدم الأدب والعلم خلال أخصب فترة من احتلال المسلمين لتربة أوربا ٠

أثر الثقافة العربية في الاسبان :

بينما استسلم الفاتحون العرب في آسيا ، على ما رأينا ، لسحر ثقافة قديمة متفوقة على ثقافتهم بصورة غير متناهية ، فانهم لم يلبثوا ان عبروا مضيق جبل طارق حتى انعكست الآية ؛ واذ نشر الغزاة سلطان فتوحاتهم في

Analectes Sur L'Histoire et La Littérature Des Arabes D'Espagne

تحليل لتاريخ العرب وادبهم في اسبانيا (ليدن ١٨٥٥–١٨٦١) ٠

(٢٠) أطلق اسم الصقالبة في الاصل على اسرى الحرب من مختلف الاجناس الشمالية الذين بيعوا من عرب الاندلس غير ان التعبير سرعان ما اتسع ليشمل جميع العبيد الاعاجم الذين كانوا يخدمون مع الحريم أو في الجيش بغض النظر عن قوميتهم، وكالمماليك والانكشارية ألفوا مجموعة ذات امتيازات تحت حماية دار الخلافة وقد تزايد عددهم ونفوذهم باستمرار منذ عهد عبدالرحمن الثالث(قارن دوزي : « تاريخ مسلمي اسبانيا » جـ٣ ص٥٨ وما بعدها) ٠

(٢١) هذه أهم السلالات التي تولت الحكم في الاندلس :

كل جزء من أجزاء شبه الجزيرة وقع بأيديهم الآلاف من النصارى الذين استمروا بصورة عامة على الحياة تحت حماية المسلمين وقد أحسنت الحكومة معاملتهم فتمتعوا بالحرية الدينية وكثيراً ما تسنموا المناصب السامية في الجيش أو دار الخلافة وسرعان ما أصبح الكثير منهم متشبعاً بالحضارة الاسلامية بحيث انه في وقت مبكر لم يَعْدُ منتصف القرن التاسع للميلاد [حوالي ٢٣٦ هـ] نجد الفارو Alvaro مطران قرطبة يتذمر من ان ابناء ملته يقرؤن أشعار العرب وقصصهم ويدرسون كتابات فقهاء المسلمين وفلاسفتهم لا للرد عليها بل ليتعلموا كيف يفصحون عن مكنون ذاتهم بالعربية بصورة صحيحة أنيقة ؛ وانه ليتساءل : « أين يسع أي انسان ان يلتقي في أيامنا هذه بالرجل العِلْماني(٢٢) الذي يقرأ الشروح اللاتينية على الاسفار المقدسة ؟ الذي يدرس الاناجيل والانبياء والرسل ؟ أسفاه ! ان

---

(١) عهد الولاة ٩٢ـ١٣٨هـ بدا بطارق بن زياد وانتهى بيوسف بن عبدالرحمن الفهري ٠

(٢) العهد الاموي ١٣٨ـ٤٢٣هـ بدا بعبدالرحمن الاول وانتهى بهشام الثاني ٠

(٣) عهد ملوك الطوائف ٤٠٣ـ٥٦٣هـ/١٠١٢ـ١١٤١م ٠
- الدولة الزيرية ١٠١٥ـ١٠٩٠ في غرناطة ٠
- الدولة الحمودية ١٠٣٥ـ١٠٥٧ في مالقة
- الدولة الهودية ١٠٣٩ـ١١١٠ في سَرَقُسطة
- الدولة العامرية ١٠٢١ـ١٠٦٥ في بلنسية
- الدولة العبّادية ١٠٢٣ـ١٠٩١ في اشبيلية ٠
- دولة بني الافطس ١٠٢٢ـ١٠٩٢ في بَطَلْيوس
- الدولة الجهورية ١٠٣١ـ١٠٧٠ في قرطبة
- دولة ذي النون ١٠٣٦ـ١٠٨٥ في طليطلة
- دولة المرابطين ٤٤٨هـ/١٠٥٦ـ٥٤١هـ/١١٤٦م اسسها يوسف ابن تاشفين
- دولة الموحدين ٥٢٤/١٢١٩ـ٦٦٧/١٢٦٨م انشأها محمد بن تومرت
- دولة بني الاحمر ٦٦٩هـ/١٢٣١ـ٨٩٨هـ/١٤٩٢ في غرناطة ٠

(٢٢) ترجمة Layman وهو الرجل غير الكهنوتي وقد تطلق اللفظة على أي رجل خارج فنٍ أو مهنة معينة ٠

كافة شباب النصارى من ذوي المواهب الممتازة لا يعرفون غير لغة العرب وكتاباتهم فهم يقرؤن ويدرسون الكتب العربية بمنتهى الحماسة وينفقون المبالغ الطائلة في اقتنائها لمكتباتهم ويعلنون في كل مكان ان هذا الأدب مثير للاعجاب ؛ وبالعكس اذا ما تحدثت اليهم عن الكتب المسيحية ردوا عليك باحتقار بان هذه الكتب غير جديرة باهتمامهم • يا للاسف ! ان النصارى قد نسوا لغتهم ، وبين الآلاف المؤلفة منا قلما تجد واحدا بوسعه أن يكتب رسالة الى صديق بلغة لاتينية مقبولة في حين ان العديد منهم يستطيع التعبير عن نفسه بانافة بالعربية ؛ والنظم بتلك اللغة بمهارة اعظم حتى من العرب أنفسهم »[(٢٣)] •

مهما يكن المطران الصالح مبالغاً فالواضح أنه كان للثقافة الاسلامية قوة اجتذاب عظيمة بالنسبة للاسبان المسيحيين ولنضف الى ذلك : لليهود أيضاً بنفس القدر فقد كانت لهم مساهمات عديدة في الشعر والفلسفة والعلوم بلغتهم فضلاً عن العربية ذات الصلة الوثيقة بلغتهم •

واستعرب المولدون Renegades (أو الاسبان لذين اعتنقوا الاسلام) تماماً خلال بضعة أجيال ، ومن هذا الصنف برزت بعض المفاخر الرئيسة للادب الاسباني ـ العربي [أو ما يعرف بالادب الاندلسي] •

شعر الاندلسيين :

عندما نتأمل بصورة عامة شعر المسلمين في أوربا نجد نفس الخصائص التي سبق أن لوحظت في أعمال معاصريهم المشارقة فقد بقيت التقاليد المعرقلة التي لم يستطع أكابر شعراء بغداد وحلب التحرر منها بمنتهى سلطانها في قرطبة واشبيلية ؛ مع ذلك فكما تحور الشعر العربي في المشرق بتأثيرات الثقافة الفارسية فقد ادخل في اسبانيا كذلك الانصهار التدريجي للآريين مع الساميين عناصر جديدة تركت طابعها على أدب الشعبين • ولعل أكثر مظاهر الشعر الاندلسي امتاعاً هي المشاعر الرومانسية الرقيقة التي

(٢٣) دوزي : سبق ذكره ، جـ٢ ص١٠٣ وما يليها [والزيات : «تاريخ الادب العربي» ، ط٧ ، ص٣٠٧ هـ٢] •

كثيراً ما تظهر في أغاني الحب ، وهي مشـــاعر تسبق أحيـــاناً وضع الفروسية في القرون الوسطى ؛ وفي المكان الثاني ادراك يكاد يكون عصرياً تجاه الجمال في الطبيعة ، وبسبب هذه الخصائص فان القصائد موضوعة البحث تروق لذوق الكثير من الاوربيين الذين لا يدخلون بسهولة في جو المعلقات أو قصائد المتنبي ، ولو ان المجال يسمح لكانت مهمة ترجمة بعض القطع الغنائية والوصفية الساحرة التي قام بجمعها المصنفون مهمة ممتعـة على أن الاعراض عن هذه الناحية تقل خطورته مادام فون شاك Von Schack قد قدم لنا سلسلة من الترجمات الممتازة في كتابه « الشعر والفنون العربية في اسبانيا وصقليا »[٢٤] (الطبعة الثانية ، شتوتگارت ، ١٨٧٧) .

الاغـاني الشعبية :

يقول القزويني مشيراً الى مدينة شِلْب Silves في البرتغال : « ومن عجائبها ما ذكره خلق لا يحصى عددهم أنه قل ان يرى من أهل شلب من لا يقول شعراً ولا يتعانى الأدب ، ولو مررت بالحراث خلف فدّانه وسألته الشعر لقرض في ساعته أيّ معنى اقترحت عليـه ، وأيّ معنى طلبت منه صحيحاً !»[٢٥] .

ومن هذه الأغاني الشعبية كان « ازجل » و « الموشّح » نمطين محبوبين[٢٦] وقد اخترع كلاهما في الاندلس ، وتركيبهمـا جد متماثل يتألف من عدة أدوار Stanzas فيها القوافي مرتبة بحيث ان القـافية الاساسية التي تختم كل دور وتنتظم القصيدة بأكملها كلازمة تقاطعهـا باستمرار سلسلة متتـابعة متباينة من القوافي الثانوية كمـا هو مبين في التخطيط التالي :ـ

---

(٢٤) « شعر العرب وفنونهم في اسبانيا وصقليا » .
Poesie Und Kunst Der Araber in Spanien Und Sicilien .

(٢٥) القزويني « آثار البلاد واخبار العباد » طبعـة وستنفيلد ص٣٦٤ س٥ وما يليه = ص٥٤١ (طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٠) .

(٢٦) راجع شاك ، سبق ذكره ، جـ٢ ص٤٦ وما بعدها .

ا ا

ب ب ب ا

حـ حـ ا

د د د ا

وقد نظم الكثير من هذه الاغاني والقصص الشعرية باللهجة العامية دون اكتراث لقواعد العروض التقليدية ، وكان التراوبادور [أو المطرب] ابن قُزْمان (المتوفى سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م) أول من رفع الزجل الى مرتبة أدبية . وهذا مثال على الموشح [من الوافر] :

اِلَيّ بكاسك الاشهى اِليا ولا تبخل بعسجده عليّا
معتقة تُدار على الندامى
كأن على ترائبها نظاما
من الراح التي محت الظلاما
أضاءت وهي صاعدة الحميّا فقلت عصير عنقود الثريا
أدرها بين الحانٍ وزمر
وخذ بُغياك من خمرٍ وزهر
كأنّ حديثَهُ في كل قطر
حديثُ ندى المؤيّد في يديا يطيب رواية ويضوع ريّا
وغانية تجن بها الجنان
يضيء – اذا تبسمت – المكانُ
خلوت بها وقد سَمح الزمان
فالقيت الحيا عن منكبيا وغافلت الرقيب وقلت هيّا(٢٧)

(٢٧) النص العربي في الفصل الحادي عشر من «حَلْبة الكُميت» وهي مجموعة قصائد في الخمرة والشرب لمحمد بن حسن النواجي (المتوفى سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م) وهو مطبوع كذلك في مجموعة الاشعار العربية لگرانجيرية دي لاگرانج ، ص٢٠٢ :
Grangeret de Lagrange : "Anthologie Arabe"

أبيات لعبدالرحمن الاول :

بدافع اخلاصهم لتقاليد أسرتهم أحب الامويون الاندلسيون الشعر والموسيقى والأدب أكثر من القرآن الى حد كبير ؛ وحتى صقر قريش عبدالرحمن الاول ، اذا صحت نسبة الابيات المشهورة في خطاب نخلة اليه حقيقة ، كان يخفي شيئاً من اللطائف الرقيقة تحت مظهره الخارجي العبوس ، فقد قيل إنه كانت في حدائقه بقرطبة نخلة وحيدة جلبت من الشام وانه نظر اليها ذات مرة فتذكر موطنه الأصلي فشعر بمرارة الاغتراب فأنشد [من الطويل] :

يانخلُ أنت غريبة مثلي	في الغرب نائية عن الأصل(٢٨)
فابكي وهل تبكي ملبّسةٌ	عجماءُ لم تطبع على خبلي ؟
لو انها تبكي إذن لبكتْ	ماءَ الفرات ومنبتَ النخل
لكنها ذُهلت واذهلني	بغضي بني العبّاسِ عن أهلي(٢٩)

زرياب المغني :

وفي بلاط عبدالرحمن الثاني (**٢٠٧هـ/٨٢٢م-٢٣٨هـ/٨٥٢م**) كان

---

(٢٨) انظر كتاب المستشرق دوزي ص : ٣٤ وتاريخ الفكر الاندلسي ، القاهرة ، ص : ٥١ = الدكتور عبدالله الطباع : كتاب « الحلة السيراء » لأبي عبدالله بن الأبّار القَضاعي ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ١٩٦٢ ، ص١٩٧ .

(٢٩) الحلة السيراء لابن الابار ، طبعة دوزي ، وفي البيت الاخير من النصّ الأصلي « بني العباس » بدلا من « الاعداء » [خلافا لترجمة نكلسن] وقد أورد المقّري أبياتا أخرى يخاطب بها عبدالرحمن هذه النخلة ، جـ٢ ص٣٧[وأورد الابيات كذلك ابن عذاري المراكشي : «البيان المُغرِب في أخبار المَغرب» (طبعة مكتبة صادر ، بيروت ، ١٩٥٠) ص٩٠] :

تبدت لنا وسط الرُصافة نخلة	تناءت بأرض الغرب عن بلدالنخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى	وطول التنائي عن بنيَّ وعن أهلي
نشأت بأرضٍ أنت فيها غريبة	فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقاك غوادي المزن منصوبها الذي	يسحُ ويستمرى السماكينبالوبلِ

مغنٍ فارسي هو المفضل في الدرجة الاولى وكان هذا « زرياب » مولى الخليفة المهدي وتلميذ المغني المشهور اسحق الموصلي[٣٠] ، فبعد ان رأى اسحق في الشاب منافساً خطراً له اقنعه على ترك بغداد والبحث عن حظ له في الأندلس فتلقاه عبدالرحمن بذراعين مفتوحتين ووهبه منزلاً فخماً ومرتباً خاصاً بالامراء واضفى عليه كل ما يمكن تخيله من مظاهر التكريم ، فتمتع الفنان القدير المتعدد الجوانب بنفوذ واسع النطاق ؛ اذ وضع الأصول لكل ما يتعلق بالذوق والسلوك ، فحدد اسلوب الزينة ، وأبدى رأيه في أمور الطبخ ، وبيّن انواع الملابس التي ينبغي أن ترتدى في مختلف فصول العام ، واتخذه ملوك اسبانيا نموذجاً وطُلبت أحكامه باستمرار واعترف بها على العموم في ذلك القطر الى آخر أيام الحكم الاسلامي[٣١] ، ولم يكن زرياب الا واحداً من كثير من الموهوبين والعلماء الذين قدموا الى الأندلس من المشرق ، على حين ان قائمة العلماء الاندلسيين الذين رحلوا في طلب العلم الى أفريقيا ومصر والى المدن المقدسة في بلاد العرب والى العواصم الكبرى في سوريا والعراق ، والى خراسان وبلاد ما وراء النهر وحتى في بعض الحالات الى الصين تتضمن كما يمكن أن يرى من تصفح الفصل الخامس للمقّري كافة العلماء البارزين ورجال الادب الذين انجبتهم اسبانيا الاسلامية ، وهكذا كان ثمَّ تبادل أفكار حيوي في حركة دائبة وكانت الاقليمية من الضآلة بحيث ان المعجبين من نقاد المشارقة قد نعتوا مشاهير شعراء الاندلس من أمثال ابن زيدون وابن هانيء ببحتري ومتنبي الغرب .

مكتبة الحكم الثاني :

إن القرن العاشر للميلاد فترة سعيدة ومشهورة في تاريخ اسبانيا ،

---

(٣٠) تجد التفاصيل الوافية عن زرياب في المقّري : جـ٢ ص٨٣ وما يليهـا ؛ قارن دوزي : « تاريخ مسلمي اسبانيا » جـ٢ ص٨٩ وما يليها .

(٣١) المقّري ، سبق ذكره ، ص٨٧ س١٠ وما يليه .

ففي عهد عبدالرحمن الثالث وخليفته الحكم الثاني كرست الامة التي كانت ممزقة حتى الآن بالحرب الاهلية ، طاقاتها الموحدة لتقدم الثقافة المادي والعقلي . وقد كان الحكم من محبي الكتب المتحمسين ، اذ بعث بوكلائه في كل اتجاه لابتياع المخطوطات وجمع ٤٠٠ر٠٠٠ مجلد في بلاطه الذي كان مزدحماً بالوراقين والنساخين والمجلدين ويقال انه قرأ هذه الكتب بنفسه وعلق على معظمها بخط يده ، ولم يعرف كرمه تجاه العلماء حداً ، وقد وهب أبا الفرج الاصفهاني ألف دينار ليحصل على النسخة الأولى التي أخرجت من « كتاب الاغاني » العظيم الذي كان مؤلفه عاكفاً عليه آنذاك[٣٢] ، وفضلاً عن تكريم الحكم وتشجيعه للعلماء فقد اتخذ ما يلزم لنشر فوائد التعليم بين أشد رعاياه فقراً وبهذه النظرة أسس سبعاً وعشرين مدرسة مجانية في العاصمة ودفع مرتبات المدرسين من كيسه الخاص ، وعلى حين ان مبادىء التعليم في أوربا المسيحية كانت مقتصرة على رجال الكنيسة ، كان كل واحد على وجه التقريب في الاندلس يحسن القراءة والكتابة .

جامعة قرطبة :

« كانت جامعة قرطبة في ذلك الوقت من أشهر الجامعات في العالم ففي المسجد الرئيس حيث كانت المحاضرات تلقى كان أبو بكر بن معاوية القرشي يناقش أحاديث محمد (ص) وقد أملى ابو علي القالي البغدادي مجموعة منوعة ضخمة وممتازة تضم قدراً هائلاً من المعلومات الغريبة التي تتعلق بالعرب الاقدمين [عرب الجاهلية] وأمثالهم ولغتهم وشعرهم، ونشر هذه المجموعة فيما بعد تحت عنوان « الامالي » ؛ وقام بتعليم النحو ابن القوطية الذي كان على رأي أبي علي القالي زعيم النحاة في الاندلس ؛ ولم يكن للعلوم الاخرى ممثلون أقل شهرة وعلى ذلك فقد خمّن عدد الطلاب الذين كانوا يحضرون المحاضرات بالآلاف ، وكانت الاغلبية

(٣٢) يبدو أن الاصفهاني رغم ذلك قدم النسخة الأولى لسيف الدولة لقاء ألف قطعة ذهب ، راجع ص٤٠ أعلاه . [المترجم]

طلاب ما يعرف بالفقه (أي اللاهوت Theology والقانون) ، لأن هـذا العلم كان يفتح السبيل يومذاك الى أكثر المناصب نفعاً وربحاً[٣٣] .

وبوسعنا أن نذكر بين مشاهير علماء هذه الفترة ابن عبد ربه (ت ٣٢٩هـ/٩٤٠م) شاعر بلاط عبدالرحمن الثالث ومؤلف مصنف مشهور عنوانه : « العقد الفريد » والشاعر ابن هاني الاشبيلي ، (ت ٣٦٣هـ/٩٧٣م) أحد اشياع الاسماعيلية الذي خاطب الخليفة المعز الفاطمي[٣٤] بأماديح الحادية ؛ ومؤرخي الاندلس أبا بكر الرازي (ت ٣٢٦هـ/٩٣٧م) الذي جاءت اسرته من الريّ في فارس وابن القوطيّة (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م) الذي كان كما يدل اسمه سليل أميرة غوطيّة ،والفلكي الرياضي مسلمة بن أحمد المجريطي [أي المدريدي] (ت ٣٩٨هـ/١٠٠٧م) والجراح العظيم أبا القاسم الزهراوي القرطبي الذي توفي حوالي نفس الفترة والذي عرف في أوربا باسم Albucasis

بنو عبّاد (٤١٤هـ/١٠٢٣م-٤٨٤هـ/١٠٩١م) :

إن سقوط الأمويين الاندلسيين في النصف الاول من القرن الحادي عشر للميلاد (٣٩٢-٤٩٤هـ) ترك قرطبة جمهورية ومجرد مدينة اقليمية، ومع انه كان لا يزال بوسعها أن تطالب باعتبارها العاصمة الأدبية للاندلس فان أمجادها القديمة كسفت بالدول المستقلة التي أخذت الآن تزدهر في اشبيلياوالمرية وبَطَلْيُوس [باداخوز] وغرناطةوطليطلة وملقا وبلنسياومدن أخرى،وكان بلا شك أعظمهذهالامارات المتنافسة منحيث السلاحوألمعها في رعاية الفنون «بنو عبّاد» الذين حكموا اشبيلية ، وقد وضع أسس سلطانهم القاضي أبو القاسم محمد ، « فأحسن السياسة مع الرعية والملاطفة بهم فرمقته القلوب »[٣٤] فعهدت اليه رئاسة القضاة طواعية وبرغبة ، ولكيما

---

(٣٣) دوزي : «تاريخ مسلمي اسبانيا» جـ٣ ص١٠٧ وما يليها .
(٣٤) أنظر الأبيات التي استشهد بها ابن الأثير : جـ٨ ص٤٥٧ .
(٣٥) ابن خلكان ، «وفيات الاعيان» طبعة محمد محي الدين عبدالحميد ، جـ٣ ص١١٢-١١٣ رقم ٦٥٨ .

يحصل القاضي على العرش الذي كان يطمح اليه اصطنع خدعة جريئة فهشام الثاني آخر خلفاء بني أمية ، كان قد اختفى بصورة غريبة وظن الناس بصورة عامة انه بعد أن هرب من قرطبة عندما هاجمها البربر (٤٠٤هـ/١٠١٣م) هرب الى آسيا ومات مجهولاً ، ولكن الكثيرين كانوا يعتقدون انه ما يزال حياً ، وبعد اختفائه بعشرين سنة ظهر فجأة دعي اسمه خلف أعلن انه الخليفة هشام وكان الشبه بين الاثنين من القوة بحيث جعل التحايل موضع تقدير • على كل حال ، كانت للقاضي دواعيه لمناصرته ، فدعا الناس الذين كانوا شديدي التعلق بالاسرة الاموية الى الالتفاف حول عاهلهم الشرعي فاعترفت قرطبة وعدة دويلات أخرى بسلطة الخليفة المزيف الذي اتخذه أبو القاسم آلة صماء • أما ولده عباد الطاغية الغدار السفاح الذي كان مع ذلك هاوياً للادب ، فقد ألقى القناع وحكم باسم المعتضد (٤٣٤هـ/١٠٤٢م-٤٦٢هـ/١٠٦٩م) •

معتمد اشبيلية (٤٦٢هـ/١٠٦٩م-٤٨٤هـ/١٠٩١م) :

وخلفه بدوره ابنه المعتمد الذي يذكرنا تاريخه الغريب الرومانسي وقصته بجملة كثيراً ما ترددت في «ألف ليلة وليلة» : «لو نقشت بالابر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر » وقد وصف بأنه : « أندى ملوك الاندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وأعظمهم ثماداً ، وأرفعهم عماداً ، ولذلك كانت حضرته ملْقى الرحال ، وموسم الشعراء ، وقبْلة الآمال ، ومألف الفضلاء»(٣٦) وكان المعتمد نفسه شاعراً ذا امتياز نادر ، ويقول ابن بسام [في الذخيرة] : « كان للمعتمد بن عباد شعر كما انشق الكمائم عن الزهر ، لو صار مثله ممن جعل الشعر صناعة ، واتخذه بضاعة ، لكان رائعاً معجباً ونادراً مستغرباً»(٣٧) وقد روي العديد

(٣٦) ابن خلكان ، رقم ٦٩٧ [= رقم ٦٥٨ من طبعة محمد محي الدين عبدالحميد] ، ترجمة دي سلان ، جـ٣ ص١٨٦ [وقد نقل ابن خلكان عباراته عن ابي الحسن علي بن القطاع السعدي في كتاب «لمح الملح»] •

(٣٧) ابن خلكان : نفس المكان •

من الحكايات عن حياة المعتمد الباذخة في اشبيليا ، وهيامه على وجهه في الاماسي على شـواطيء الوادي الكبير ، واجتماعات لذاته ، ومغـامراته عندما كان يخرج متنكراً بصحبة وزيره الشاعر ابن عمّار الى شـوارع المدينة النائمة وحبه للجارية اعتماد ، المعروفة بصورة عامة باسم الرميكيّة، تلك التي أحبها طوال حياته باخلاص دائم .

على انه في الوقت ذاته كانت ثَمّ كارثة فظيعة تقترب وقـد أورد الاسباب التي أفضت اليها ابن خلكان على الوجه الآتي[٣٨] :

المرابطون في الاندلس :

« كان الاذفونش قره كند[٣٩] ملك الافرنج بالاندلس قد قوي أمره في ذلك الوقت ، وكانت ملوك الطوائف من المسلمين هنالك يصالحونه ، ويؤدون اليه ضريبة ...

وكان المعتمد بن عباد أكبر ملوك الطوائف وأكثرهم بلاداً وكان يؤدي الضريبة للاذفونش ، فلما ملك طليطلة (**٤٧٨هـ/٢٩ أيار سـنة ١٠٨٥م**) [لم يقبل ضريبة المعتمد طمعاً في أخذ بلاده] وأرسل اليه يتهدده ويقول له : « تنزل عن الحصون التي بيدك ، ويكون لك السهل » ، فضرب المعتمد الرسول وقتل من كان معه[٤٠] ، فبلغ الخبر الأذفونش وهو متوجه لحصار قرطبة ، فرجع الى طليطلة لأخذ آلات الحصار .

معركة الزلاّقة (١٤ رجب ٤٧٩هـ/٢٣ تشرين الاول سنة ١٠٨٦) :

فلما سمع مشايخ الاسلام وفقهاؤها بذلك اجتمعوا وقالوا : « هذه مدن الاسلام قد تغلب عليهـا الافرنج ، وملوكنا مشتغلون بمقاتلة بعضهم بعضا ! وان استمرت الحال مَلَكَ الافرنج جميع البلاد » .

---

(٣٨) نفس المكان ، ص١٨٩ وقد اختصرتُ أو حوّرت ترجمـة دي‌سلان لهذه القطعة بعض الشيء لغرض الجلاء والوضوح .

(٣٩) الفونسو السادس ابن فرديناند عاهل قشتاله .

(٤٠) يقدم دوزي عن هذه الحوادث روايـة مختلفـة نوعاً ما في « تاريخ مسلمي اسبانيا » ج٤ ص١٨٩ وما بعدها .

وجاؤا الى القاضي عبدالله بن محمد بن أدهم وفاوضوه فيما نزل بالمسلمين ، وتشاوروا فيما يفعلونه ، فقال كل واحد منهم شيئاً ، وآخر ما اجتمع رأيهم عليه ان يكتبوا الى ابي يعقوب يوسُف بن تاشِفِين ملك الملثمين[٤١] صاحب مراكش يستنجدونه •

فاجتمع القاضي بالمعتمد واخبره بما جرى ، فوافقه على انه مصلحة ، وقال له : « تمضي اليه بنفسك » ••• فلما وصله خرج مسرعاً الى مدينة سبته [وخرج القاضي ومعه جماعة الى سبتة للقائه واعلامه بحال المسلمين فأمر بعبور عساكره الى الجزيرة الخضراء ، وهي مدينة ببر الاندلس ، وأقام بسبتة ـ وهي في بر مراكش مقابلة الجزيرة الخضراء][٤٢] وأرسل الى مراكش يستدعي من تخلف بها من جيشه ، فلما تكاملوا عنده أمرهم بالعبور ، وعبر آخِرَهُم وهو في عشرة آلاف مقاتل ، واجتمع بالمعتمد وقد جمع أيضاً عسكره ، وتسامع المسلمون بذلك ، فخرجوا من كل البلاد طلباً للجهاد ، وبلغ الاذفونش الخبر وهو بطليطله ، فخرج في اربعين ألف فارس غير ما انضم عليه ، وكتب الأذفونش الى الأمير يوسف كتاباً يتهدده، وأطال الكتاب ، فكتب يوسف الجواب في ظهره : « الذي يكون ستراه » ورده اليه •

فلما وقف عليه ارتاع لذلك ، وقال : « هذا رجل عازم »[٤٣] ، ثم سار الجيشان والتقيا في مكان يقال له الزَّلاَّقة من بلد[٤٤] بَطَلْيَوْس

(٤١) تطلق لفظة « الملثمين » التي تعني حرفياً لابسي اللثام (وهو برقع يغطي القسم الأسفل من الوجه) على القبائل البربرية في الصحراء وهم يعرفون « بالمرابطين » الذين كانوا في هذه الفترة حكام أفريقيا الشمالية •

(٤٢) العبارات بين العضادتين هي مما حذفه نكلسن في ترجمته وقد آثرنا اثباتها ليكون المعنى أكثر وضوحاً •

(٤٣) في النص العربي (طبعة محمد محي‌الدين عبدالحميد ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، جـ٤ ص١٢٠) : عارم بدلاً من عازم • (٤٤) في الترجمة: بالقرب من

Badajoz ، وتصافا ، وانتصر المسلمون وهرب الاذفونش بعد استئصال عساكره ، ولم يسلم معه سوى نفر يسير [وذلك يوم الجمعة في العشر الاول من شهر رمضان المعظم سنة تسع وسبعين واربعمائة ، كذا قال بعضهم ، والصحيح ان هذه الواقعة كانت في منتصف رجب من السنة المذكورة](٤٥) .

وهذا العام يؤرخ به في بلاد الأندلس كلها ، فيقال : عام الزلاقة وهذه الواقعة من أشهر الوقائع وثبت المعتمد في ذلك اليوم ثباتاً عظيماً ، واصابه عدة جراحات في وجهه وبدنه ، وشهد له بالشجاعة](٤٦) .

أسر المعتمد ووفاته :

سرعان ما أدرك المعتمد انه «سعى لحتفه بظلفه» ـ هذا اذا ما اردنا ان نستشهد بألفاظ استعملها هو نفسه بعد سنوات قلائل ـ وذلك عندما طلب العون من المرابطي الغادر . لم يكن بوسع يوسف الا ان يقارن بين جمال الاندلس وغنائها ومواردها العظيمة وصحارى افريقيا الجرداء وحضارتها الفجة ولم يكتف بالاعجاب عن بعد بالمشهد الساحر الذي لوّح له به ، فعاد في السنة التالية الى الاندلس واحتل غرناطة ؛ ومن ثم مضى للبحث عن نزاع مع المعتمد فحاصر جيش البربر اشبيلية ومع أن المعتمد أظهر منتهى الشجاعة لم يمكنه الحيلولة دون سقوط عاصمته (٤٨٤هـ/أيلول ١٠٩١م) فصفد الامير السيء الحظ بالاغلال ونقل الى مراكش ، وقد أبقى يوسف على حياته غير انه جعله سجيناً في أغمات حيث توفى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م فبكى في أسره الشقاء الذي آل اليه أمره والآلام التي غدا حتماً عليه وعلى اهله معاناتها والمصير المؤلم الذي استلب منه على حين غرة الاصدقاء والمال والسلطان ، كل ذلك في قصائد مؤثرة ؛ وقد كتب مؤرخ في القرن الثالث عشر يقول : « ورُزق من الناس حباً ورحمةً ، فهم يبكونه الى اليوم »(٤٧) ، ولم يكن خليقاً بأقل من ذلك لانه كان كما لاحظ دوزي :

(٤٥) و(٤٦) ما بين العضادتين محذوف من ترجمة نكلسن .

(٤٧) ابن الأبّار (دوزي:مظان موثوقة عن بني عبّاد Loci de Abbadids ج٢ ص٦٣) = طبعة الدكتور عبدالله الطباع ص٣٦٠ .

« آخر ملك مولود في الاندلس يمثل بجدارة ، بل بألمعيــة قومية وثقافة تدهورنا ، بل غدتا في الرمق الاخير تحت سلطان الغُزاه البرابرة »[٤٨] .

ابن زيدون :

لا يستسلم « عصر الطغاة » ، اذا ما استعرنا تعبيراً من تاريخ اليونان يليق بوصف مظهره ، الى أي عصر آخر في شهرته الأدبية والعلمية ؟ فقد عمل كل بلاط اندلسي على رعاية الشعر وتنميته ، فاذا كان بوسع اشبيلية ان تشير بكبرياء حقيقية الى المعتمد ووزيره ابن عمّار فقد فاخرت قرطبة باثنين غيرهمـــا يكادان يضارعانهما في الشــــهرة وهمـــا : ابن زيدون (٣٩٤هـ/١٠٠٣م ـ ٤٦٤هـ/١٠٧١م) وولاّدة بنت الخليفــة الأموي المستكفي ، وقد سار ابن زيدون في نهج سياسي وأصبح موضع ائتمان ابن جَهْوَر قاضي قضاة قرطبة ، ولكنه لم يلبث ان سقط وطرد ، وربما كان ذلك بسبب حبه للأميرة الجميلة الموهوبة التي الهمته الالحان الرقيقة التي حملت مترجمي الشــاعر مــن الأوربيين عــلى ربط اسـمه باسـم تيبُولّس[٤٩] Tibullus وبيترارك[٥٠] ؛ ومكث في الزهــراء الضاحيــة الملكية لقرطبة تلك التي بناها عبدالرحمن الثالث ، على أمل رؤيتها رغم انه لم يكن ليجرؤ على الظهور الآن علانية وأخيراً وجد بعد جولات عديدة ملاذاً في اشبيلية حيث استقبل استقبالاً ودياً من لدن المعتضد الذي عامله كصديق حميم ومنحه لقب « ذي الوزارتين »[٥١] والأبيات الآتيــة التي يخاطب بها ولاّدة تصور منظر الزهراء الجميل ، وقد تمثّل فيها الشعور

---

(٤٨) « تاريخ مسلمي اسبانيا » [بالفرنسية] جـ٤ ص٢٨٧ .

(٤٩) شاعر لاتيني وناظم للمراثي اللّطيفة الرقيقة ذات المسحة المؤثرة (عاش حوالي ٥٤ـ١٩ ق٠م) راجع معجـــم لاروس الفرنسي ، ص١٧٢١ .

(٥٠) شاعر ايطالي ولد في اريـّزو ، وهو الى ذلك مؤرخ آثاري وباحث دؤوب عن المخطوطات القديمة وكان أول الانسانيين العظام في عصر النهضــة ، غير ان مجـده يستقر على اشــعاره العــامية وموشــحاته [أو مـــا يسمى بال Canzoni] التي نظمهـــا اكراماً للورا الجميلــة Laure de Noves [ou de Sade] (عاش في ١٣٠٤ـ١٣٧٤) راجع «لاروس» ص١٦٠٤ .

(٥١) أي وزارة السيف والقلم : أنظر ترجمة دي سلان لابن خلكان جـ٣ ص١٣٠ هـ١ .

العميق نحو الطبيعة ، ذلك الشعور الذي هو ، كما قيل ، سمة من سمات الشعر الاندلسي عموما[٥٢] [وهي من البسيط] :

انى ذكرتك بالزهراء مشتاقاً ... والافق طلق ومرأى الارض قدراقا
وللنسيم اعتلال في أصائله ... كأنه رق لي فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم ... كما حللت عن اللبات أطواقا
يوم كايام لذات لنا انصرمت ... بتنالها ، حين نام الدهر ، سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر ... جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه اذ عاينت أرقي ... بكت لما بي فجال الدمع رقراقا
ورد تألق في ضاحي منابته ... فاز داد منه الضحي في العين اشراقا
سرى بنافجة نيلوفر[٥٣] عبق ... وسنان نبهمنه الصبح أحداقا
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا ... اليك لم يعد عنها الصدران ضاقا
لو كان وفى المنى[٥٤] فيجمعنا بكم ... لكان من اكرم الايام اخلاقا
لاسكن الله قلباً عن ذكركم ... فلم يطر بجناح الشوق خفاقا[٥٥]
لو شاء حملي نسيم الريح حين هفا ... وافاكم بفتى أضناه ما لاقى
ياعلقي[٥٦] الأخضر الأسنى الحبيب الى ... نفسي اذا مااقتنى الاحباب اعلاقا
كان التجازي بمحض الود مذ زمن ... ميدان أنس جرينا فيه اطلاقا

(٥٢) النص العربي لهذه القصيدة التي نجدها في «قلائد العقيان» لابن خاقان مثبت في الصفحتين ٢٤ـ٢٥ من كتاب ويرز
Weyers: Specimen Criticum Exhibens Locos Ibn Khacanis De Ibn Zeidouno : ليدن ، ٣١ ، راجع كذلك ابن بسام : الذخيرة : القسم الأول ، المجلد الاول ، ٣١٣ـ٣١٤ .

(٥٣) النيلوفر هو ما يسميه الافرنج بزهرة اللوتس .

(٥٤) ترجم نكلسن « المنى » « بالموت » وهذا وهم منه .

(٥٥) تصرف نكلسن في ترجمة هذا البيت فأورده بمعنى : « وهذا القلب المسكين حيث أنت فيه كل شيء لما خفق الآن بجناح العاطفة » وهو تصرف مخل جاء نتيجة سوء ترجمة لكلمة « المنى » في البيت الذي سبقه !

(٥٦) العلق : النفيس من كل شيء .

فالآن احمد ما كنـــا لعهـدكُم   سلوتم وبقينـــا نحن عشاقا[٥٧]

ابن حزم (٣٨٤هـ/٩٩٤ـ٤٥٦هـ/١٠٦٤) :

ان كبير علماء اسبانيا الاسلامية واكثرهم اصالة في العبقرية هو ابو محمد علي بن حزم الذي ولد في قرطبة سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م وهو في الاصل من اسرة مسيحية ، ولكن كان ابعد ما يكون عن تكريم اسلافه المسيحيين بحيث انه تظاهر بالرجوع بسلالته إلى عبد فارسي ليزيد بن أبي سفيان ، أخي الخليفة الاموى الاول معاوية ، وكان احتقاره للمسيحية متناسباً مع حماسته المتعصبة للاسلام ، وقد شغل والده أحمد منصب الوزير في حكم المنصور بن أبي عامر ، وانغمس ابن حزم بحرارة في السياسة كمـولى ـ بطريق نسبه المزيف ـ لبني أمية الذين كان متعلقاً بهم باخلاص ، وقبل أن يبلغ الثلاثين أصبح رئيساً لوزراء عبدالرحمن الخامس (٤١٤هـ/١٠٢٣مـ ٤١٥هـ/١٠٢٤م) ولكنه اعتزل الحياة العامة بعد سـقوط الدولة الاموية وانقطع للادب بالمره ويقول عنه ابن بَشْكُوال مؤلف الكتاب المشهور في التراجم لاعلام الاندلس الموسوم بـ « الصِلة في أخبار ائمـة الاندلس » ما يلي :

« كان أبو محمد أجمع أهل الاندلس قاطبة لعلوم [أهل] الاسلام ، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ، ووفور حظه من البلاغه والشعر والمعرفة بالسِير والاخبار ، أخبر ولده ابو رافع الفضل انه اجتمع عنده بخط ابيه من تآليفه نحو اربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة[٥٨] . ويروى انه قال [ما معناه] :

---

(٥٧) وردت هذه الأبيات كذلك في كتاب « الشعر الاندلسي » لغارسيا غومس ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، ١٩٥٦ ، ص١٥٤ .

(٥٨) من مقتبسات ابن خلكان في بحثه عن ابن حزم [رقم ٤٢١ جـ٣ ص١٤ طبعة محمد محي‌الدين عبدالحميد] ترجمة دي‌سلان ، جـ٢ ص٢٦٨ [ويذكر المقري في نفح الطيب : جـ١ ص٣٦٤ نفس الفقرة (مع بعض التحوير) مستهلاً اياها بقوله : قال صاعد في تاريخه ....]

(رغبتي الوحيدة في البحث عن العلم الحصول على مرتبة علمية عالية في الدنيا والآخرة)[٥٩] ولم يحصل الاعلى تشجيع ضئيل من معاصرية ، وما كان مجرد حقيقة انتسابه الى المدرسة الظاهرية في الفقة ذا أهمية[٦٠] ، بل ان اسلوبه اللاذع الذي هاجم به اَجَلَّ المؤسسات الدينية الاسلامية قدراً أثار من العداء المرير ما حمل علماء السُنَّة على الحكم عليه بالتحريم فعلياً وحذّر الناس من اي تعامل معه وفي اشبيلية احرقت كتبه بمراسيم ، ويقال انه انشد في هذه المناسبة قائلاً [من الطويل] :

دعونيَ من احراق رقٍ وكاغدٍ وقولوا بعلمٍ كي يرى الناسُ من يدري
فان تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي وينزل إنْ أنزلْ ويدفن في قبري [٦١]

كتاب الملل والنحل :

بعد ان نفي من عدة اقاليم في الاندلس انتبذ ابن حزم في قرية كان يملكها وبقي فيها حتى مات ولم ينج من الدمار من كتاباته العديدة الا القليل ولحسن الحظ اننا نمتلك اعلاها قدرا وهو كتاب «الملل والنحل»[٦٢] الذي

---

(٥٩) المقّري : جـ١ ص٥١١ س٢١ [لم نجد هذا النص الذي اورده نكلسن]

(٦٠) يقول الاستاذ ميكيول كروز : « لم يكن ابن حزم فيلسوفاً بالمعنى الدقيق للكلمة ٠٠٠٠ بل كان مؤرخا للفقة الاسلامي والقانون » (اسلامك ريڤيو ، المجلد : ٥٤ ، العدد ٤ ، نيسان ، ١٩٦٦ ، في مقال بعنوان : « الافلاطونية الجديدة عند ابن حزم القرطبي » ص ٩) في حين ان قدرى حافظ طوقان اعتماداً على عمر فروخ في كتابه : « عبقرية العرب » يعتبره فيلسوفا سبق « كانت » بسبعة قرون ونصف القرن الى نظرية المعرفة القائلة بانها تكون بشهادة الحواس اي بالاختبار (العربي ، العدد ١٠ ايلول ١٩٥٩ ص١٣٤) ٠ « المترجم »

(٦١) المقّري : نفح الطيب جـ١ ص٥١٥ س٥ وما يليه [= جـ١ ص ٣٦٧ س ٤ وما يليه ، من طبعة المطبعة الميرية المصرية] وقد حذف نكلسن البيت الاول من ترجمته فأوردناه هنا اتماماً للفائدة ٠

(٦٢) راجع الصفحة ٣٤١ هـ ١ من النص الانكليزي من كتاب نكلسن «تاريخ العرب الادبي» [= ص ١٣٠ هـ ١ من الترجمة العربية التي بين يديك] ٠

طبع مؤخراً في القاهرة لاول مرة [الكلام بالنسبة لسنة ١٩٣٠] ويعالج هذا الكتاب بطريقة جدلية (اولاً) : الانظمة الدينية غير الاسلامية ولاسيما اليهودية والمسيحية والزردشتية ، (ثانياً) : الاسلام ومبادئه التي تعتبر بطبيعة الحال من وجهة النظر الظاهرية والفرق الاسلامية الاربع الرئيسة : المعتزلة والمرجئة والشيعة والخوارج ، ويعتقد المؤلف ان هذه الفرق مدينة بظهورها الى الفرس الذين ارادوا بهذه الوسيلة ان يثأروا لانفسهم من الاسلام المنتصر(٦٣) .

الأدب الاندلسي في القرن الحادي عشر للميلاد :

فيما يلي اسماء فريق من اشهر كتاب الاندلس لهذه الفترة : المؤرخ ابو مروان ابن حيان القرطبي (ت ٤٦٩هـ/١٠٧٥م) وكتاباه الرئيسان : تاريخ ضخم للاندلس في ستين مجلداً عنوانه :«المتين» وتاريخ أصغر (المُقْتَبِس) وكلاهما على مايبدو يكاد يكون مفقوداً(٦٤) تماماً ، والمشّرع والشاعر أبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ/١٠٨١م) والمحدّث يوسُف بن عبدالبرّ (ت ٤٦٤هـ - ١٠٧١م) والجغرافي البكري من أهل قرطبة حيث توفي فيها سنة ٤٨٧ هـ ١٠٩٤م وأخيراً ينبغي ان نذكر اليهوديين المشهورين سلمان بن جابيرول [المعروف عند الافرنج بـ Avicebron] وصاموئيل هاليفي ، وقد كتب أولهما الذي ولد في «ملقا» حوالي سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م كتابين فلسفيين بالعربية ، ولعب كتابه «ينابيع الحياة» Fons Vitae دوراً خطيراً في تطور الفقه الكلامي في القرون الوسطى .

---

(٦٣) لخص دوزي محتويات كتاب « الملل والنحل » كاملة في فهرست ليدن Leyden Catalogue جـ٤ ص٢٣٠ - ٢٣٧ قارن اسرائيل فريد لاندر : « حول تاليف الملل والنحل لابن حزم » Israel Fridlaender : Zur Komposition Von Ibn Hazm's Milal wa—'l—Nihal.

(گيسن ، ١٩٠٦) جـ١ ص٢٦٧ وما بعدها .

(٦٤) ولم يتايد ، على ما أعلم ، الخبر القائل بان نسخاً منه محفوظة في المسجد الكبير بتونس .

صاموئيل هاليفي :

وكان صاموئيل هاليفي وزيراً لباديس ، أمير غرناطة ، (٤٣٠هـ/١٠٣٨م - ٤٦٦هـ/١٠٧٣م) وقد نسي العرب في غمرة اعجابهم بمؤهلاته الخارقة كل شيء حتى كونه يهودياً واميراً (نغيد) في اسرائيل(٦٥) ؛ ولم يتحرج صاموئيل من جهته عندما كان يكتب رسائل الدولة من اصطناع المصطلحات الاسلامية من نحو : « الحمد لله » و « صلى الله على نبينا محمد » وتمجيد الاسلام على طريقة المسلم الورع تماماً ؛ وقد تملك ناصية اللغتين العبرية والعربية مع اطلاع على خمس لغات أخرى ، وكان متضلعاً في علوم الاقدمين ولاسيما الفلك ؛ والى معارفه كلها كان الدبلوماسي المرن ورجل الدنيا ، ومع ذلك فقد حافظ على سلوك وقور غير متعالٍ ، رغم انه في أيامه (على مايقول ابن العـــذاري) : قوي امر اليهود وتصرفوا بعنجهيـة ازاء المسلمين(٦٦) .

ظهور المرابطين :

لقد حكمت الاندلس خلال القرن الثاني عشر باكمله وشطر غير قليل من النصف الاول من القرن الثالث عشر دولتان افريقيتان : دولة المرابطين ودولة الموحدين وقد ظهرتا كما يدل اسماهما وسط التعصب الديني لقبائل البربر في الصحراء ، ويروي لنا ابن الاثير قيام المرابطين على الوجه الآتي(٦٧) :

(٦٥) الرسم العربي : « اسماعيل بن نغداله » . انظر مقدمة طبعة دوزي لابن العِذاري ، ص٨٤ هـ١ .

(٦٦) يقدم دوزي في كتابه : « تاريخ مسلمي اسبانيا » ج ٤ ص ٢٧ ومايليها نبذة ممتعة عن صاموئيل هاليفي .

(٦٧) الكامل لابن الاثير ، طبعة تور نبرغ ، ج ٩ ص ٤٢٥ وما بعدها ، وتختلف الرواية التالية (التي اختصرت جهد الامكان) في بعض التفاصيل الجوهرية عن المعلومات التي يقدمها ابن خلدون (« تاريخ البربر» ترجمة دى سلان ، ج ٢ ص ٦٤ وما بعدها) وابن أبي زرع (تورنبرغ : « تاريخ موريتانيا Annales Regum Mauritaniae ص ١٠٠ وما بعدها من النسخة اللاتينية) قارن أ . مولر « الاسلام » (بالالمانية) المجلد ٢ ص ٦١١ وما بعدها .

في هذه السنة (٤٤٨هـ/١٠٥٦م) كان ابتداء امر الملثمين(٦٨) وهم عدة قبائل ينسبون الى حمير أشهرها لمتونه ••• وجداله ولمطه ••• فلما كان هذه السنة توجه رجل منهم اسمه الجوهر من قبيلة جداله الى افريقية(٦٩) طالباً للحج وكان محباً للدين واهله فمر بفقيه بالقيروان وعنده جماعة يتفقهون قيل هو ابو عمران الفاسي في غالب الظن ، فأصغى الجوهر اليه واعجبه حالهم ، فلما انصرف من الحج [قال للفقيه : ما عندنا في الصحراء من هذا شيء غير الشهادتين والصلاة في بعض الخاصة فابعث معي من يعلمهم شرائع الاسلام](٧٠) فارسل معه رجلاً اسمه عبدالله بن ياسين الكُزُولي وكان فقيها صالحاً شهماً ، فسار معه حتى اتيا قبيلة لمتونة فنزل الجوهر عن جمله واخذ بزمام جمل عبدالله بن ياسين تعظيماً لشريعة الاسلام ، فأقبلوا الى الجوهر يهنئونه بالسلامة وسألوه عن الفقيه(٧١) ، فقال : « هذا حامل سنة رسول الله (ص) قد جاء يعلمكم مايلزم في دين الاسلام » فرحبوا بهما وانزلوهما ، وقالوا : « أما ماذكرت من الصلاة والزكاة فهو قريب(٧٢) ، واما قولك من قتل يقتل ومن سرق يقطع(٧٣) ومن زني يجلد او يرجم فأمر لا نلتزمه• اذهب الى غيرنا ! » فرحلا عنهم •••فانتهى الجوهر والفقيه الى جداله قبيل الجوهر فدعاهم عبدالله بن ياسين والقبائل الذين يجاورونهم الى حكم الشريعة ، فمنهم من اطاع ومنهم من اعرض وعصى ، [ثم ان المخالفين لهم تحيزوا وتجمعوا](٧٤) ، فقال ابن ياسين للذين اطاعوا : « قد وجب عليكم ان تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وانكروا شرائع الاسلام واستعدوا لقتالكم ، فاقيموا لكم راية وقدموا عليكم اميراً » فقال له الجوهر : « انت الامير » فقال : « لا ، انما انا حامل امانة الشريعة ، ولكن انت الامير »

(٦٨) راجع الهامش في صفحة ٤٢٣ من النص الانكليزي [ص٢٤٠ هـ٤١ من الترجمة العربية] •
(٦٩) اقليم تونس •
(٧٠) ترجم نكلسن ما بين العضادتين بكلام موجز غير مباشر ، فقال « التَمَسَ منه ان يبعث معه معلما يعلم البربر الجهلة شرائع الاسلام » •
(٧١) في الترجمة : عن صاحبه (٧٢) اي هيّن (٧٣) أي يقطع يده
(٧٤) لم ترد في الترجمة •

فقال الجوهر : «لو فعلت هذا تسلط قبيلي على الناس ويكون وزر ذلك علي»

فقال له ابن ياسين : « الرأي ان نولى ذلك ابا بكر بن عمر راس لمتونه وكبيرها وهو رجل سيدمشكور الطريقة مطاع في قومه فهو يستجيب لنا لحب الرياسة وتتبعه قبيلته فنتقوى بهم » فأتيا ابا بكر بن عمر وعرضا ذلك عليه فأجاب فعقدوا له البيعة وسماه ابن ياسين امير المسلمين ، وعادوا الى جداله وجمعوا اليهم من حسن اسلامه وحرضهم عبدالله بن ياسين على الجهاد في سبيل الله وسماهم مرابطين »(٧٥) .

امبراطورية المرابطين : (٤٤٨هـ/١٠٥٦م ـ ٥٤٢هـ/١١٤٧م) .

وسرعان ماتوسعت الجماعة الصغيرة في عَدَدِها وعُدَدِها واسس يوسُف بن تاشفين الذي تقلد الرياسة سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م مدينة مَرّاكُش ومن هذا المركز قام بفتوحات جديدة في كل اتجاه بحيث ان المرابطين حكموا قبل ان يمضي كبير وقت كافة بقاع شمال غربي افريقيا من السنغال الى الجزائر ؛ وقد رأينا كيف ان بني عباد دعوا يوسف لقيادة جيش الى الاندلس وكيف انه دحر الفونسو السادس في الزَّلاَّقة وعندما عاد بعد بضع سنوات فاتحاً هذه المرة لا حليفاً استولى على غرناطة واشبيلية واخضع ما تبقى من الاندلس الاسلامية دون كبير عناء وحيّى العِلمانيون ورجال الدين على حد سواء في شخص العاهل البربري مصلحاً للدين متحمساً وحصناً حصيناً ضد اعدائه المسيحيين . الا ان التوقع المامول لم يتحقق ، فقد شدت المدنية الاندلسية من اعصاب البربر ولكنها لم تهذبهم واصبح التفكير الحر في ظل

(٧٥) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ (الطبعة المصرية) [وقد اوجز نكلسن في ترجمته للاسطر الاخيرة فيما يتعلق بتولية ابي بكر بن عمر الرياسة] « والمرابط » حرفيا هو الذي يعيش في رباط اى دار حراسة او موضع عسكري على الحدود وكان يشغل في الغالب مثل هذه المنشآت ، بالاضافة الى الحامية الاصلية ، افراد يرغبون في المشاركة في الجهاد ضد الكفار بدافع التقى فاتخذت لفظة «مرابط» بالتدريج معنى دينيا خاصا واخذت تدل على «التقي» أو «الولي» [أي القديس] وهو المعنى الذي تظهر فيه بشكلها الحديث ، ولا تزال تحتفظ بمسحة عسكرية واضحة على النحو الذي كانت تطلق على المرابطين الاصليين .

التعصب الضيق ليوسف وخلفائه امراً مستحيلاً وتلاشت الثقافة والعلوم كذلك ، وأصيبت البلاد في الوقت ذاته بالمجاعة واللصوصية وجميع مساوىء ادارة ضعيفة متفسخة •

ابن تومرت :

انتقلت امبراطورية المرابطين الى ايدى دولة افريقية اخرى هي دولة الموحدين(٧٦) وكان مؤسسها محمد بن تومرت من اهالي منطقة سوس(٧٧) الجبلية التي تقع جنوب غربي مراكش وقد حج بيت الله الحرام في شبابه (حوالى ٥٠٢هـ/١١٠٨م) وزار كذلك بغداد حيث درس في مدرسة النظامية ويقال انه التقى بالغزالي الشهير ؟ وعاد الى وطنه ورأسه مليء بالفقة والمخططات الطموحة • لسنا بحاجة للوقوف عند سيرة حياته من هذه النقطة الى ان اعلن نفسه في الاخير « مهدياً » (٥١٥هـ/١١٢١م) ولا ان نصف الاساليب المعروفة ـ وقسم منها سيء الصيت جداً ـ تلك التي حمل بها البربر على الايمان به ؟ على انه يمكن تبيان مبادئه بايجاز ، فبعض مترجميه(٧٨) يقول : « وكان على مذهب ابي الحسن الاشعري في اكثر المسائل الا في اثبات الصفات فانه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها ، وكان يبطن

---

(٧٦) انظر مقالة گولدتزيهر : « مواد لمعرفة حركة الموحدين في شمال افريقيا » [بالالمانية] مجلة جمعية المستشرقين الالمان ، جـ٤١ ص٣٠ وما يليها •

(٧٧) اوردها اطلس التاريخ الاسلامي لهاري هازارد في الصفحة ٢٧ و ٢٩ و ٣١ « السوس » وفي الصفحة ٣٣ «سوسة» ويبدو ان الاول هو الشكل الذي كان عليه في القرن الحادى عشر والثاني عشر والثالث عشر للهجرة والثاني هو ما اصبح عليه في القرن الرابع عشر للهجرة على نحو ما تبين الخرائط •

[المترجم]

(٧٨) محي الدين أبو محمد عبدالواحد بن علي التميمي المراكشي : « كتاب المعجب في تلخيص اخبار المغرب » ص ١٣٥ ، طبعة دوزي ، ليدن ، ١٨٤٧ •

بعض التشيع غير انه لم يظهر منه للعامة شيئاً »[٧٩] وتتضح خلاصة تعاليمه في تسميته «بالموحّد»[٨٠] التسمية التي أضفاها على نفسه واتخذها خلفاؤه لقباً لدولتهم وقد اكّد ابن تومرت وحدة الباري عزوجل ، وبعبارة أخرى رفض افكار المشبهة التي طغت على الاسلام الغربي ، وجاهد للاستعاضة عنها بفكرة روحانية نقية عن الله ، واضاف الى هذا المبدأ الرئيس مبدأً ثانياً وهو مبدأ (الامام المعصوم) واكد بطبيعة الحال ان الامام هو محمد بن تومرت ، سليل علي بن ابي طالب .

الموحّدون (٥٢٥هـ/١١٣٠م - ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) :

انتقلت القيادة العليا عند موت المهدي (٥٢٥هـ/١١٣٠م) الى مساعده وموضع ثقته ، عبدالمؤمن الذي استأنف الجهاد ضد المرابطين بنجاح متزايد الى ان استطاع في سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م « ان يوحّد تحت لوائه الساحل برمته ، من حدود مصر الى المحيط الاطلسي بالاضافة الى الاندلس »[٨١] ، وقد كانت الدولة الجديدة اكثر استنارة واكثر رعاية للثقافة بكثير مما كانت عليه دولة المرابطين ، وقد وصف يوسف بن عبدالمؤمن كعالم ممتاز اختزن في ذاكرته أيام العرب وتقاليدهم وتاريخهم قبل الاسلام وبعده ، غير انه وجد اسمى لذته في دراسة الفلسفة ورعايتها وكان ابن طفيل الاريسطوطاليسي العظيم ،وزيره وطبيب بلاطه ،وتلقى ابن رشد شارات تكريم تندى إطراءً ، منه ومن خليفته يعقوب المنصور الذي كان يطيب له الحديث مع الفيلسوف في الموضوعات العلمية ، ولو انه في نوبة من نوبات التعصب السني نفاه لفترة من الزمن[٨٢] ، وكان هذا المزاج الغريب من التسامح وعدم التسامح سمة من سمات الموحدين ، فمهما شجعوا التأملات في مواضعها الملائمة ، كانت

---

(٧٩) كان البربر في هذا الوقت على مذهب اهل السنة وضد الدولة الفاطمية .

(٨٠) Almohade وهو الشكل الاسباني للفظة .

(٨١) ستانلي لين پول : « الاسر الاسلامية المالكة » [بالانكليزية] ص ٤٦ .

(٨٢) رينان : « ابن رشد وطريقته Averroes et l'Averroisme ص ١٢ وما بعدها .

شريعتهم وفقههم وفق النمط الظاهري البسيط ، « فالقرآن والحديث — او السيف ! »[٨٣] من أقوال عاهلهم الذي مر ذكره اخيراً[٨٤] والذي احيى حكم العنف Autos—da—fe الذي حرمه جدّه ، فيما يتعلق بكتب المالكية وسواها من الكتب المقيتة[٨٥] ، وتنعكس روحية الموحدين بروعة في قصة ابن طفيل الفلسفية المشهورة الموسومة باسم بطلها « حيّ بن يقظان »[٨٦] التي يقدم عنها المستر دنكان بي • مكدونلد الملخص الآتي في كتابه الممتاز : « الفقه الاسلامي » (ص٢٥٣) :

قصة حي بن يقظان :

«فيها يتصور [المؤلف] جزيرتين: احداهما مأهولة والاخرى غير مأهولة، ففي المأهولة أناس تقليديون يحيون حياة تقليدية ويقيدهم دين تقليدي يتضمن الثواب والعقاب ، وقد سما رجلان هناك هما سلامان وآسال[٨٧] بنفسيهما الى مستوى أعلى من الضبط الذاتي عمن سواهما ، ويلائم سالامان نفسه ظاهرياً للدين الشائع ويحكم الشعب ، اما آسال فيبحث عن المزيد للوصول بنفسه

---

(٨٣) النص الاصلي هو : « فقال لي وقطع كلامي : يا أبا بكر ليس الا هذا واشار الى المصحف أو هذا وأشار الى كتاب سنن ابي داود وكان عن يمينه او السيف » (عبدالواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، طبعة دوزي ، ١٨٤٧ ، ص ٢٠٣) [المترجم] •

(٨٤) يقصد به يعقوب المنصور • [المترجم]

(٨٥) راجع في كتاب عبدالواحد ، المعجب ، [يسميه نكلسن : بتاريخ الموحدين] ص ٢٠١ س ١٩ وما يليه الفقرة المترجمة في كتاب گولدتزيهر الموسوم بـ «الظاهرية» ، ص١٧٤ والمقصود بالتعبير البرتغالي أعلاه : « أحكام محاكم التفتيش » •

(٨٦) لقد نشر ئي • پوكوك النص العربي مع ترجمة لاتينية سنة ١٦٧١م وفي سنة ١٧٠٠ تحت عنوان الفلسفة المستنبطة ذاتيا Philosophus Autodidactus ، وظهرت ترجمة انكليزية بقلم سايمون او كلي سنة ١٧٠٨ أعيد طبعها مرارا •

(٨٧) الشكل الصحيح لهذا الاسم هو ابسال على نحو ماهو في قصيدة «جامي» المشهورة ، قارن دى بوير : « تاريخ الفلسفة في الاسلام » ترجمة ئي • آر • جونز ، ص ١٤٤ [بالانكليزية] •

الى درجة أكمل ، عن طريق الوحدة والخلوة فيرحل الى الجزيرة الثانية ، ولكنه يجد هناك رجلاً اسمه حي بن يقظان قد عاش وحيداً منذ الطفولة ، وتطور تدريجياً بقوى العقل الداخلية غير المتفسخة حتى بلغ أعلى مستوى فلسفي وأدرك الرؤيا القدسية ، ومرَّ بجميع مراحل المعرفة حتى غدا الكون واضحاً أمامه ، فيجد الآن فلسفته التي توصل اليها بهذه الصورة بلا نبيّ أو وحي ، ودينَ آسال التقيَّ سيَّين ، ولكن القصة التي يرويها آسال عن سكان الجزيرة الاخرى القابعين في الظلام تقلق روحه فيذهب إليهم مبشراً ، بيد انه سرعان ما يدرك ان اسلوب محمد (ص) هو الصائب لسواد الجمهور فلا سبيل الى الوصول اليهم والحفاظ عليهم الا بطريق الرموز الحسيَّة والمدركات المادية ، فيعود الى جزيرته كرة اخرى ليحيا حياة العزلة .

الادب تحت حكم المرابطين والموحدين (٤٩٤هـ/١١٠٠م ـ ٦٤٨هـ/١٢٥٠م)

قليلون هم الكتاب الذين عاشوا تحت حكم دولتي البربر من ذوي المكانة ليكونوا جديرين بذكر في كتاب من هذا النوع ؛ على ان الفلاسفة يقفون في صنف لوحدهم ، فقد أثر ابن باجه (Avempace) وابن رشد (Averroes) وابن طفيل وموسى بن ميمون (Maimonides) بشكل محسوس خارج نطاق الاندلس بمدى بعيد ، فهم مرتبطون بشكل من الاشكال بأوربا ، وقد لاحظنا في موضع آخر الصوفي العظيم محي الدين بن العربي (ت ٦٣٨هـ/١٢٤٠م) ومواطنه ابن سبعين (ت ٦٦٩هـ/١٢٦٩م) وهو مفكر من نفس النمط كتب رسائل في موضوعات فلسفية الى فردريك الثاني من آل هو هنشتاوفن ، ووضع ابن خاقان (ت ٥٢٩هـ/١١٣٤م) وابن بسام (٥٤٢هـ/١١٤٧م) وابن بَشْكُوال (ت ٥٧٩هـ/١١٨٣م) كتباً قيمة في تاريخ الادب الاندلسي ، ولقد ولد العالم الجغرافي الادريسي (المتوفى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م) في سبتة ودرس في قرطبة ووجد حامياً له في شخص الملك الصقلي روجر الثاني ، ونشر ابن جبير معلومات ممتعة عن حجته من

غرناطة الى مكة ورحلة عودته الى غرناطة خـلال السنوات (٥٧٩هـ - ٥٨١هـ/١١٨٣ - ١١٨٥م) وكان ابن زهـر (Avenzoar) الـذي أصبح وزيراً تحت حكم المرابطين رأس اسرة كاملة من اطباء بارزين ، وألّف ابن البيطار المَلَقِي (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) بعد أن زار مصـر واليونان وآسيا الصغرى لتوسيع معلوماته في علم النبات ، كتاباً في المفردات الطبيّة ، أهداه الى سلطان مصر ، الملك الكامل •

استعادة اسبانيا على يد فردناند الثالث :

لقد استعرضنا الآن بسرعة الامبراطورية الاسلامية في الاندلس منذ قيامها في القرن الاول للهجرة/الثامن للميلاد الى آخر ايام الموحدين التي شهدت السلاح المسيحي منتصراً في كل مكان ،وفي سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م كان الموحدون قد أخرجوا من شبه الجزيرة رغم انهم استمروا في حكمهم لافريقيا نحواً من اربعين سنة بعد هذا التاريخ •

بنو نصر في غرناطة : (٦٣٠هـ/١٢٣٢م - ٨٩٨هـ/١٤٩٢م)

بقيت بقعة واحدة بين الانقاض العامة وجد فيهـا المسلمون مـلاذاً وملجأً • كانت هذه غرناطة ! هنا وفي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢ اتخذ محمد بن الاحمر اللقب العظيم : « الغالب بالله » ، وأسس الدولة النصرية التي أوقفت النصارى عند حدها خلال قرنين ونصف القرن من الزمن ، ولم تعش الدولة الاسلامية الصغيرة هذه المدة الطويلة لقوتها بل لمناعتها وموقعها الذي لايكاد يخترق ، ولاختلافات المتنصرين فيما بينهم ، وجدد الازدهار الاخير للثقافة العربية في أوربا الذكريات المجيدة لقرطبة واشبيلية ان لم يضارعها ، وفي هذه الفترة شخصت «حمراء» ملوك بني نصر مشهورةً عبر الدنيا وسط العديد من الآثار الممتازة الاخرى التي ماتزال بقاياها ماثلة للعيان ، على انه يجب الا يخرجنا حتى موضوع ساحر كموضوع الفن المعماري في الاندلس عن الصدد أما معلوماتنا الادبية فأضأل مما كان من المحتمل ان تكون عليه

نظراً لما قام به النصارى من العبث والتخريب[٨٨] عندما استولوا على غرناطة ، وليست اسطورةً مشكوكاً فيها كقضية حرق مكتبة الاسكندرية المشهورة بامر من الخليفة عمر[٨٩] بل حقيقة مؤكدة تماما ان المطران خيمينيث Ximenez اقام عرضاً نارياً بحرق كافة المخطوطات العربية التي امتدت اليها يده . لقد اراد ان يمحو سجل سبعة قرون[٩٠] من الثقافة الاسلامية في يوم واحد .

ابن الخطيب (٧١٣هـ/١٣١٣م ـ ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)

ويمثل اسم ابن الخطيب وابن خلدون أرفع الانجازات الأدبية والادراك التاريخي الذي كان بوسع هذا العصر ؛ والاخير بالتأكيد لا نظير له بين مؤرخي الشرق[٩١] .

وقد لعب لسان‌الدين بن الخطيب[٩٢] دورا عظيما في سياسة عصره ؛ وتقدم لنا سيرته مثالا بارزا للاسلوب الوثيق الذي يرتبط به الشعر والادب الاسلامي بالحياة العامة و « لم يشاطر العرب الرأي الشائع في أيامنا هذه من حيث إن الموهبة الشعرية تزدهر على أفضل وجه بمعزل عن ضجيج العالم ؛ او انها تعكر صفو الرؤية الواضحة التي يحتاج اليها في تسيير

---

(٨٨) استعمل نكلسن لفظة Vandalism اي تخريب الآثار القديمة .

(٨٩) على ان جورجي زيدان يميل الى ان القصة لاتخلو من اساس راجع مناقشته الممتعة للتدليل على ذلك في كتابه : «تاريخ التمدن الاسلامي» القسم الثالث ، ص ٤٠ ـ ٤٦ .

(٩٠) بل ثمانية قرون على وجه الدقة والضبط ، اذ امتدت من من ٩٢هـ الى ٨٩٨هـ [المترجم] .

(٩١) والغرب كذلك لو انصف المؤلف ! [المترجم]

(٩٢) لقد ترجم لابن الخطيب صديقه ومعاصره ابن خلدون («تاريخ البربر» ، ترجمة دي‌سلان ، جـ٤ ص٣٩٠ وما بعدها) ويؤلف الموضوع الرئيس «لنفح الطيب» للمقري (جـ٣و٤ من طبعة بولاق) .

الشؤون العامة ، بل على العكس فان امراءهم عهدوا بمراكز الدولة الرئيسة الى الشعراء وكثيرا ما كان الشعر وسيلة للحصول على نتائج أبرع مما كان بوسع الملاحظات الدبلوماسية(٩٣) فشاب نظير ابن الخطيب تملك ناصية الادب وارتجل القصائد والرسائل المسجعة باناقة وسهولة لا مثيل لهما كان ينظر اليه كانسان اثير عند الملوك فأصبح وزيرا في بلاط بني نصر ، واحتل مركزه هـذا مع فترة قصيرة من الانخذال ، الى سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م عندما حملته دسائس اعدائه على الهرب من غرناطه ، فالتجأ الى فاس فتلقاه سلطانها الحاكم عبدالعزيز باكرام ، بيد انه عند ارتقاء ابي العباس العرش سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م اعتقل الوزير المنفي وحوكم بتهمة الزندقة ، وفيما كانت هيئة التحقيق تقوم بعملها اذ هجم فريق من الرعاع المتعصبين على السجن وقتلوه ؛ ويروي المقّري ان ابن الخطيب كان يعاني من الأرق وان معظم مؤلفاته كتب في الليل فسمي لذلك بـ «ذي العمرين»(٩٤) وكان كاتبا غزير الانتاج في مختلف فروع الأدب ولكنه ككثير من مواطنيه امتاز في التاريخ ؛ وتقدم أبحاثه في ملوك غرناطة وعلمائها (ويتضمن أحدها ترجمة ذاتية) تفاصيل ممتعة عن هذه الفترة الغامضة .

ابن خلدون (٧٣٣هـ/١٣٣٢م ـ ٨٠٩هـ/١٤٠٦م) :

ربما نحتاج لتقديم بعض الاعتذار لوضع ابن خلدون ، اعظم مفكر تاريخي في الاسلام ، في الفصل الحاضر ، كما لو كان أندلسيا بمولده أو سكنه . صحيح انه انحدر من اسرة بني خلدون التي أقامت في الأندلس طويلا ، في «كرمونه» أولاً وفي اشبيلية بعد ذلك ، غير انها هاجرت الى افريقيا حوالي منتصف القرن الثالث عشر للميلاد (حوالي ٦٤٩هـ) ، وولد ابن خلدون في تونس . فضلا عن ذلك فان حياته كلها

(٩٣) شاك ، سبق ذكره ، جـ١ ص٣١٢ وما يليها .

(٩٤) ورد ذلك في «شذرات الذهب» مخطوطة في حوزتي . راجع مجلة الجمعية الآسيوية الملكية لسنة ١٨٩٩ ص٩١١ وما بعدها وسنة ١٩٠٦ ، ص٧٩٧ .

تقريبا أمضيت في افريقيا ـ ومرجع ذلك المصادفة أكثر من الميل الشخصي ، ذلك لأنه دخل في سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م خدمة سلطان غرناطة ، أبي عبدالله ابن الأحمر ، وربما كان سيتخذ تلك المدينة سكنا له لولا ان حسد صديقه السابق ، الوزير ابن الخطيب ، جعله يترك الأندلس وراءه ظهريا .

ليس بوسعنا ان نقدم أي معلومات عن سيرته المضطربة المليئة بالأحداث التي أنهاها قاضياً في القاهرة سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م . عاش ابن خلدون مع رجال الدولة والملوك : كان سفيراً في بلاط پيدور بقشتاله(٩٥) ، وضيفاً معززاً مكرماً عند تيمورلنك(٩٦) الجبار ؛ وتتجلى نتائج خبرته الناضجة ، بشكل مدهش في «مقدمته» التي تؤلف الجزء الأول من تاريخ عام ضخم عنوانه : «كتاب العبر»(٩٧) وقد أوضح هو نفسه فكرته عن مهمة المؤرخ في الكلمات الآتية :

ابن خلدون مؤرخا فلسفيا :

« اعلم انه لما كانت حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك

(٩٥) پيدرو الظالم ملك قشتاله من ١٣٥٠ الى ١٣٦٩م (لاروس ص١٦١٠) .

(٩٦) مؤسس الامبراطورية المغولية الثانية ، ولد بالقرب من سمرقند (١٣٣٦م) وانتصر على السلطان بايزيد فاتح انقره (١٤٠٢م) وتوفي في اللحظة التي زحف فيها لفتح الصين (١٤٠٥م) [لاروس : ص١٧٠٨] .

(٩٧) لقد نشر كاترمير النص العربي للمقدمة في « ملاحظات وخلاصات لمخطوطات المكتبة الامبراطورية» [بالفرنسية] جـ١٦ـ١٨ ؛ وفي بيروت (١٨٧٩و١٨٨٦و١٩٠٠) وظهرت ترجمة فرنسية بقلم دي‌سلان في «ملاحظات وخلاصات» جـ١٩ـ٢١ .

العمران بطبيعته من الأحوال »[٩٨] ؛

ويناقش ابن خلدون مسألة أن التاريخ الذي يفهم على هذه الصورة عرضة للقوانين العامة ، ويجد في هذه القوانين المعيار الأكيد الوحيد للحقيقة التاريخية .

قواعده في النقد التاريخي :

« فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الاخبار بالامكان والاستحالة ان ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العُمران ونميزَ ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لا يُعتد به ، وما لا يمكن أن يعرِضَ له ، واذ فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الاخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه [فاذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العُمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه] وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه[٩٩]

هنا في الحق يزعم الكاتب كثيراً ويجب ان نعترف بانه طبق احياناً مبادئه بأسلوب متحذلق مسوقاً باعتبارات مسبقة تفضي به الى نتائج ليست جائزة دائماً على هذا الشكل كما كان يعتقد . هذه مسألة جد تافهة بالمقارنة مع قيمة واصالة المبادىء ذاتها ؛ ويؤكد ابن خلدون محقاً ، انه اكتشف اسلوباً جديداً في كتابة التاريخ وليس ثمة مسلم أبدى نظرة شاملة كل هذا الشمول وفلسفيةً الى هذه الدرجة في نفس الوقت اطلاقاً ، ولم يحاول أحد ان يستقصي دوافع الحوادث المخفية بعمق والكشف عن القوى الأخلاقية والروحانية العاملة تحت المستوى السطحي أو استشفاف القوانين

(٩٨) المقدمة (طبعة بيروت ، ١٩٠٠) ص٣٥ س٥ وما يليه = ترجمة دي‌سلان للمقدمة ، جـ١ ص٧١ [بالفرنسية] .

(٩٩) المقدمة : ص٣٧ س٤ من الاسفل = ترجمة دي‌سلان ، جـ١ ص٧٧ [العبارة بين العضادتين محذوفة من ترجمة نكلسن] .

الثابتة للتقدم والتدهور القومي ؛ ولم يكن ابن خلدون مديناً الا بالقليل لأسلافه ولو انه يذكر بعضهم باحترام وتقدير •

لقد وقف فوق مستوى عصره بكثير ، وامتدحه مواطنوه اكثر مما اتبعوه ؛ ومن سلالته المنحدرة منه فكرياً مؤرخو اوربا العظام في القرون الوسطى والقرون الحديثة ، أمثال : ماكيا ڤيللي ، وڤيكو Vico ، وگيبون GIBBON

نظرية ابن خلدون في التطور التاريخي :

من المفيد أن نوضح بايجاز الخطوط الأساسية لنظرية التطور التاريخي الغريبة التي يقدمها ابن خلدون في مقدمته ـ وهي نظرية قائمة على دراسة الأحوال والحوادث الواقعية الماضية أو التي تجري أمام عينيه(١٠٠) وقد أثارت انتباهه قبل كل شيء الحقيقة الطبيعية [أي الجغرافية] وهي اختراق اراض بور شاسعة من الرمال والهضاب الحجرية القاحلة وغير القابلة للفلاحة مقاطعات خصبة من الأراضي المزروعة ، وكانت الأولى آهلة بالقبائل البدوية منذ عهود سحيقة والاخيرة بقوم زراعيين أو صناعيين ، وقد رأينا في حالة بلاد العرب أن مدناً كمكة والحيرة استمرت على اتصال حيوي مع البدو وكان لها تأثير حضاري عليهم ؛ ولوحظ نفس التفاوت في افريقيا بقوة ؛ فليس غريباً إذن أن يقسم ابن خلدون البشرية الى صنفين ـ البدو والحضر ؛ والحياة البدوية بطبيعة الحال تسبق الأخرى وتنتجها ؛ ومن خصائصها البساطة ونقاوة السلوك والروح الحربية ، وفوق كل ذلك ، الولاء المخلص لمصالح الأسرة والقبيلة ، وعندما يصبح البدو اكثر تحضراً يستقرون ويكوّنون

---

(١٠٠) لقد ناقش الفون كريمر آراء ابن خلدون بصورة أوفى مما هو ممكن هنا في مقالة مؤيدة له بشكل يثير الاعجاب وعنوانها : «ابن خلدون وتاريخه الثقافي للدولة الاسلامية» المنشورة في «جلسات الاكاديمية الامبراطورية للعلوم» [بالالمانية] المجلد : ٩٣ (ڤينا ، ١٨٧٩) وقد افدت من كثير من ملاحظاته وأود ان اعبر عن امتناني الحار لما أنا مدين به في هذا المجال وفي مجالات أخرى لا تحصى •

دولاً ويقومون بالفتوحات ، ويصلون ذروة تطورهم ؛ وسرعان ما يكتسحهم قوم اكثر خشونة ، بعد أن يتهرؤا بالبذخ ويفقدوا الفضائل التي رفعتهم الى السلطة . هذا هو مجرى التاريخ بخطوطه العريضة كما يراه ابن خلدون ، ولكن ينبغي لنا أن نحـــاول تقديم معلومات اكثر عن الأفكار الفلسفية الكامنة تحت فكرته هذه ، فهو يميز في حياة القبائل والامم على حد سواء بين قوتين مسيطرتين تكيفان مصيرهما . ويسمي القوة البدائية الرئيسة « بالعصبيّة » العنصر الرابط في المجتمع ، الشعور الذي يوحـد أعضاء الاسرة أو القبيلة أو الأمة أو الامبراطورية الواحدة وهي التي توازي في اوسع مدلولاتها لفظة « الوطنية » المحدثة . انها تظهر وتزدهر بصورة خاصة بين الأقوام البدوية حيث غريزة حفظ الذات توفظ شعورا حاداً بالقربى وتحمل الناس على خلق قضية مشتركة بينهـــم ؛ وهذه العصبية هي الطاقة الحيوية للدول وبها تقوم وتنمو ، وعند ضعفها تتفسخ ؛ فانحلالها نذير بسقوطها؛ وثاني القوتين اللتين اشير اليهما هو الدين ، وقلما يعزو ابن خلدون الى الدين كبير تأثير على نحو ما كنا نتوقع من مسلم ، على انه يعترف بانه قد يكون الوسيلة الوحيدة لايجاد ذلك التماسك الذي لا يمكن لدولة ان تعيش بدونه ؛ وهكذا فهو يقدّم في الفصـــل السابع والعشرين رأيه « في ان العـــرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو اثر عظيم من الدين على الجملة[١٠١] .

ويرى في التاريخ دورة في التقدم والتقهقر لا نهاية لها مماثلة لمظاهر الحياة البشرية ، فالممالك تولد وتبلغ النضج وتموت خلال فترة معينة قلما تتجاوز الثلاثة اجيال ، أي ١٢٠ سنة[١٠٢] وتمر خلال هذه الفترة بخمس

---

(١٠١) المقدمة ، ص١٥١

(١٠٢) المقدمة ، طبعة بيروت ، ص١٧٠ = ترجمة دي‌سلان ، ج١ ص٣٤٧ وما يليها [لا نرى صحة هذا الرأي ، فقد عاشت الدولة العباسية ٥٠٨ سنوات والدولة الاموية في الاندلس ٢٧٥ سنة ودولة بني نصر في غرناطة ٢٦٠ سنة والدولة العثمانية ٥٠٠ سنة !] .

[المترجم]

مراحل من التطور والتدهور[١٠٣] ومن الجدير بالذكر ان ابن خلدون يعترف بالتفوق الخلقي للبدو ؛ فالحضارة في رأيه تتضمن بالضرورة الفساد والانحطاط ، فاذا لم يعتقد بالتقدم التدريجي للبشرية نحو هدف اسمى ، فان تشاؤمه كان له ما يبرره من دروس الخبرة وكارثة العالم الاسلامي المحزنة التي تقيدت بها نظرته[١٠٤] .

سقوط غرناطة (٨٩٨هـ/١٤٩٢م) :

في سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م فتح آخر معقل من معاقل العرب الأوربيين أبوابه لفرديناند وايزابيلا " وأخذ الصليب مكان الهلال على أبراج غرناطه » واظهر المنتصرون تعصباً بربرياً ازداد فظاعة لخرقهم عهودهم الوثيقة باحترام عقيدة المسلمين وممتلكاتهم ولقلبهم تماماً المعاملة المتسامحة الحرة التي تمتع بها نصارى الأندلس تحت حكم المسلمين ؛ وعندما أرغم المسلمون على الخيار بين الردة والنفي فضل الكثيرون البديل الأخير . أما الذين مكثوا فقد اصبحوا عرضة لاضطهاد فظيع الى ان نفوا جميعاً من الأرض الاسبانية سنة ١٠١٩هـ/١٦٠٩ بامر من فيليب الثالث[١٠٥] .

العرب في صقلية :

لم تكن الأندلس النقطة الوحيدة التي انتشرت منها الثقافة الاسلامية في الديار المسيحية ، فقد فتح أغالبة تونس صقليه في أوائل القرن التاسع للميلاد ومع ان الجزيرة سقطت في قبضة النورمان سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م فقد احتفظ بلاط باليرمو بمسحة شبه شرقية ؛ فهنا في حكم فردريك الثاني

---

(١٠٣) المقدمة ، ص١٧٥ = ترجمة دي‌سلان ، جـ١ ص٣٥٦ وما يليها .

(١٠٤) في كتاب روبرت فلنت : «تاريخ فلسفة التاريخ» جـ١ ص١٥٧ـ١٧١ تقدير ممتاز لابن خلدون مؤرخا علميا .

(١٠٥) ملك اسبانيا (١٥٧٨ـ١٦٢١) وهو ابن فيليب الثاني وآن ابنة مكسمليان الثاني ، ورث عقيدة أبيه دون نشاطه . امضى حياته في حفلات البلاط وممارسة التقى الصبياني ويقال انه يصعب ان يكون قد ارتكب اثما [المعلمة البريطانية (١٩٤٨) جـ١٧ ص٧٢٢] .

من آل هوهنشتاوفن[١٠٦] (٥٩١هـ/١١٩٤ - ٦٤٨هـ/١٢٥٠م) يمكننا ان نرى « فلكيين من بغداد بلحاهم الطويلة وجببهم الخفاقة ، ويهوداً يقبضون رواتب الأمراء مترجمين للكتب العربية ؛ وراقصين وراقصات عربيات[١٠٧] ومغاربة ينفخون في أبواق فضية في الأعياد »[١٠٨] وكان

(١٠٦) راجع فيما يتعلق بآل هوهنشتاوفن [المعلمة البريطانية ، ج١١ ص٦٢٨] وفيما يتعلق بفردريك الثاني [المعلمة البريطانية ، ج٩ ص٧١١-٧١٣] وقد كان فردريك الثاني يحمل لقب الامبراطور الروماني المقدس وملك صقلية وبيت المقدس وهو ابن الامبراطور هنري السادس.

(١٠٧) يستعمل نكلسن هنا لفظة SARACEN نقلا عن المستشرق «شاك» وقد طال الجدل حول هذه اللفظة واصلها فالمعاجم الافرنجية لم تقطع برأي مقنع ، وقد تطرق الى اللفظة الأمير شكيب ارسلان في كتابه «تاريخ غزوات العرب في فرانسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط» (منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٦) ص٣٠ هـ٢ اذ قال : «وهو يعبر (والكلام عن رينو) عن المسلمين بلفظة «سارازين» التي قيل انها اطلقت على العرب لكونهم غالبا سمر الالوان اشبه بالحنطة السمراء التي يقال لها «سارازين» وقيل بل هي محرفة عن «سراكنو» التي هي المسلمون بلغة الروم وهذه محرفة عن SCHARAKA أي شرقي أو «شراقة» أي شرقيين بالجمع ، وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته ان ملك القسطنطينية سأل عنه هل هو سراكنو ؟ أي مسلم » .

ويقول رينو في كتابه : «غزوات السارازين» (الذي ترجم معظمه شكيب آرسلان في كتابه الآنف الذكر) ص٣٩ : عندنا اغلاط كثيرة منها ما وقع فيه بعض مؤرخي ذلك الوقت مثل تلقيبهم المسلمين (السارازين) بلفظة «بايين» PAYENS أي وثنيين ، وفي الصفحة ٤٠ : «ثم انه كان المجر قد جاءوا من شرقي أوربا وعاثوا في نواحي فرانسا فاختلط على الناس ما عاثه بما عاثه العرب ، بحيث كثيرا ما كان اولئك القصاص يسمون المجر «سارازين» ويسمون الفاندال «سارازين» اهـ . ويقول بعضهم انها جاءت من لفظة «سرّاقين» العربية لاشتغالهم بالقرصنة البحرية.

على انه يسرنا ان نقول اننا اكتشفنا اصل هذه اللفظة واستطعنا ان نضع حدا لهذه البلبلة وذلك اعتمادا على كتاب «التنبيه والاشراف» للمسعودي (القاهرة ، ١٩٣٨) الصفحة ١٤٣ اذ جاءفيها: «وأنكر(نقفور)على الروم تسميتهم العرب «ساراقينوس» . تفسير ذلك عبيد ساره طعنا منهم على هاجر وابنها اسماعيل ، وأنها كانت أَمَةً لساره وقال تسميتهم

فردريك نفسه وولده « مانفريد » محبين للعرب بحماسة ، وقد اخجلوا العالم المسيحي باتخاذهم عادات « وثنية » (كذا) فضلاً عن انصرافهم الى الفلسفة والعلوم الاسلامية ، وتحت رعايتهم انتقلت العلوم العربية الى المدن المجاورة من ايطاليا الجنوبية •

«عبيد ساره» كذب ، والروم الى هذا الوقت تسمي العرب ساراقينوس » [SARAKENOS]

وعلى هذا فاللفظة تعني «العرب» خاصة وربما عُمم مدلولها فشمل المسلمين عامة وهي من دون شك من اصل يوناني ، واقدم ذكر لها في العربية هو في كتاب « التنبيه والاشراف » للمسعودي المتوفي سنة ٣٤٥هـ وأصلح تعريب لها هو «اقنان ساره» لان لفظة « قن » العربية مماثلة للفظة «كينو» اليونانية ، وربما اشتقت منها ؛ راجع مع ذلك علي المزاهيري : « الحياة اليومية للمسلمين في القرون الوسطى » [بالفرنسية] ص٧ـ٨ حيث يقول : « كانت لفظة ساراكينوس تدل على جميع مواطني الجمهورية البحرية التجارية لـ CHARACENE الواقعة في دلتا دجلة والتي تضم بضع جزر في الخليج العربي كجزيرة «خارج» وغيرها وكان اهلوها يعتنقون دين الصابئة » اهـ •
[المترجم]

(١٠٨) شاك : سبق ذكره ، جـ٢ ص١٥١ •

الفصل الخامس

من الغزو المغولي الى الوقت الحاضر(*)

خصائص عامة للفترة :

بوسعنا ان نقدم بعض الملاحظات التمهيدية عن السمة العامة للفترة التي سنقوم باستعراضها بايجاز في هذا الفصل الختامي قبل الشروع بالكلام عن النكبة الفظيعة التي ملأت آسيا الغربية برمتها بالخراب والفناء ؛ وعلينا أن نعترف بانه يؤلف خاتمة محزنة لتاريخ مجيد ، فالخلافة التي كانت ترمز الى سمو أمة محمد (ص) قد اكتُسحت ؛ واخذ المغول والأتراك والفرس كل بدوره يبني امبراطوريات اسلامية عظيمة ولكن العرب فقدوا حتى ظل دور رئيسي ولايظهرون الا ممثلين ثانويين على مسرح اقليمي والمركزان الرئيسان للحياة العربية ، على نحو ما هي عليه ، هما منذ الآن فصاعداً الشام ومصر اللتان كانتا في قبضة مماليك الترك حتى سنة ٩٣٢هـ/١٥١٧م عندما اصبحتا تحت حكم العثمانيين • وفي شمالي افريقيا فسحت الدول البربرية الصغرى (كالدولة الحفصية والزيانية والمرينيّة) المجال في القرن السادس عشر (٩٠٧ ـ ١٠٠٩هـ) للاتراك العثمانيين ، ولم يحتفظ العرب باستقلالهم السياسي الا في الاندلس حيث بقي النصريون في غرناطة حتى سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م وفي مراكش حيث الشرفاء (من سلالة علي بن ابي طالب) لبسوا طيلسان السلطنة سنة ٩٥١هـ/١٥٤٤م والى حدما في بلاد العرب ذاتها ؛ وقد يكون من العبث في مثل هذه الظروف البحث عن أي تطورات عظيمة في الأدب والثقافة جديرة بالوقوف عندها على نحو ما وجدناه في الماضي ؛ فهذا عصر محاكاة وتصنيف ؛ فالعلماء كُثْر" وتشمل نطاق معرفتهم كل موضوع تحت الشمس ، ولا ترينا

(*) هذا فصل متمم « لتاريخ الأدب العباسي » ولا سيما فيما يتعلق بدولة المماليك التي انتقلت فيها الخلافة العباسية ـ ولو بشكل صوري ـ من بغداد الى القاهرة • [المترجم]

مجموعة الكتابات تضاؤلاً ملحوظاً والكثير منه عمل قيم جدير بالتقدير ، وباستثناء حالة أو حالتين بارزتين ـ كالمؤرخ ابن خلدون والمتصوّف الشعراني لا يمكننا أن نشير الى أي تحول جديد وأي أفكار مثمرة وأي اثر لتفكير اصيل نيّر وقد شهد القرنان الخامس عشر والسادس عشر للميلاد [اي ٨٠٤ـ١٠٠٩هـ] قيام تلك الحركـة المدهشة المعروفة « بالرينيسانس » [اي الانبعاث] وانتصارها غير انه لم تصل سواحل العالم الاسلامي أية موجة من هذا الانقلاب العظيم الذي غيّر مجرى الحياة العقلية والخلقية في الغرب بأسره (١) واحتفظ العربي بنظرته وطريقة تفكيره القروسطيّة (٢) ولم يكن اكثر استفادة بأي حال من اجداده الذين عاشوا في ظل الخلافة العباسية ، وذلك الى عهد قريب نسبيا عندما اصبحت مصر والشام مفتوحتين للحضارة الاوربية لاول مرة ، واخشى ان يكون لزاماً القول انه منذ الغزو المغولي كان ضغط الحوادث التي لا مردّ لها تضطره على التقهقر ؛ وقد اعمل المغول يد التخريب شرقي الفرات بصورة تامة بحيث لـم يتركوا بذوراً لازدهار حضـارة جديدة ، والى ذلك ـ سرعان ما كسفت شمس اللغـة الفارسية انوار العربية ؛ وفي الاندلس كما رأينا ، كانت قوى العرب قد بدأت بالتدهور وطغى على افريقيا سلطان البربر وهم جنس فظ غير متعلم وعلى مصر والشام وباء الاستبداد العسكري للاتراك ؛ ولايسعنا ان نجد في مكان ما من تاريخ هذه الحقبة احد العنصرين اللذين هما اشد ما يكونان انتاجا للعظمة الادبية وهما التأثير المعجل لثقافة أعلى ووحي حياة قومية حرة نشيطة (٣) .

---

(١) ئي٠جي٠گب : « تاريخ الشـعر العثمـاني » ج٢ ص٥ [ويلاحظ ان ئي٠جي٠دبليو٠گب المتوفى هو غير هـ٠ا٠ر٠ گب الـذي لا يزال على قيد الحياة فقد اختص الأول بالادب التركي والثاني بالأدب العربي والدراسات الاسلامية ٠ « المترجم »]

(٢) نسبة الى القرون الوسطى وهي تقابل لفظة Mediaeval الافرنجية ٠

(٣) يجب استثناء القرن التاسع عشر عمّا يتعلق بتأثير الحضارة الحديثة في الأدب العربي ٠

الغزو المغولي :

بين منتصف القرن الحادي عشر للميلاد ونهاية القرن الرابع عشر انطلقت القبائل البدوية المتجولة في ما وراء نهر سيحون الى آسيا الغربية في ثلاث موجات متعاقبة ، فقد اقبل اولاً السلاجقة الاتراك ثم المغول بقيادة جنكيزخان وهولاكو ثم حشود تيمور التي كانت على الاكثر من الاتراك ؛ وقد ذكرنا في فصل سبق كل ما نحتاج اليه بصدد السلاجقة ، وفتوحات تيمور قصة مرعبة نُعذر لحذفنا إياها من هذا التاريخ لأن نتائجها الثابتة (بصرف النظر عن الخراب الهائل الذي احدثته) كانت غير عظيمة ، ومع ان الامبراطورية الهندية للمغول العظام التي اسسها بابور سليل تيمور في النصف الاول من القرن السادس عشر تمتعت بفترة رخية متألقة فان ثقافتها كادت تكون مستعارة كلها من النماذج الفارسية وهي لا تدخل ضمن نطاق الكتاب الذي بين أيدينا ، لذلك سنقصر نظرتنا على الموجة الثانية للهجرة الآسيوية العظيمة التي حملت المغول بزعامة جنكيز خان وهولاكو من سهوب الصين وبلاد التتار الى البحر الابيض المتوسط .

جنكيزخان وهولاكو :

في سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م اتجه جنكيز خان بعد ان رّص قواه وعززها في الشرق الاقصى ، غرباً وتقدم فجأة الى بلاد ما وراء النهر التي كانت تؤلف في ذلك الوقت اقليماً من المقاطعات الشاسعة لشاهات خوارزم (خيوه) ولم يكن بوسع العاهل الحاكم ، علاء الدين محمد القيام بمقاومة فعالة ، ورغم ان ولده الشجاع جلال الدين استمر في حرب عصابات يائسة لمدة اثنتي عشرة سنة فان الغزاة غمروا خراسان وفارس وراحوا يقتلون السكان المذعورين بالجملة تاركين وراءهم خراباً ، ولم تكن بغداد حتى الآن قد هددت تهديداً جدياً الا انه في ذي الحجة ٦٥٤هـ الموافق لليوم الاول من كانون الثاني (يناير) ١٢٥٦م — وهو يوم تاريخي — عبر هولاكو حفيد جنكيز خان نهر سيحون قاصدا احتلال حاضرة الدولة العباسية، واننا نترجم الرواية التالية من مخطوطة في حوزتنا بعنوان « تاريخ الخميس » للديار

بكري [٤] (ت ٩٨٢هـ/١٥٧٤م):

هولاكو امام بغداد (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) :

« وفي سنة اربع وخمسين وستمائة خرج الطاغية العنيد مبيد الامم هولاكو فاخذ قلعة الموت من الاسماعيلية[٥] وقتلهم واخرب نواحي الري [وبذلت السيوف على عوائدهم فتوجه الكامل محمد صاحب ميافارقين الى خدمة هولاكو فأعطاه الفرمان ثم نزل هولاكو بأذربيجان واخذها][٦] وفي سنة خمس وخمسين وستمائة ثارت فتنة مهولة ببغداد بين السنية والرافضة ادت الى نهب عظيم وخراب وقتل عدة من الرافضة فغضب لها وتنمر ابن العلقمي الوزير وجسّر التتار على العراق ليشتفي من السنية[٧] وفي اول سنة ست وخمسين وستمائة وصل الطاغية هولاكو بن تولي بن جنكيزخان المُغْلي بغداد بجيوشيه وبالكرج وبعسكر الموصل ، فخرج

---

(٤) طبع الكتاب بمطبعة عثمان عبدالرزاق سنة ١٣٠٢هـ بجزئين تحت عنوان : « تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس » للشيخ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري ويضم الجزء الاول ٥٦٥ صفحة ويبدأ بمولد الرسول وينتهي بالسنة الخامسة من الهجرة أما الثاني فيضم ٤٣٧ صفحة ويبدأ بالسنة السادسة للهجرة وينتهي بسنة ٩٨٢هـ/١٥٧٤م وهي سنة وفاة المؤلف . [المترجم]

(٥) هؤلاء الاسماعيلية هم الذين يعرفون بالحشاشين الفئة المريعة التي نظّمها الحسن بن صبّاح (راجع براون : تاريخ فارس الادبي ، حـ٢ ص٢٠١ وما بعدها) وابيدت في النهاية على يد هولاكو وكانت لها حصون عديدة أشهرها « الموت » في اقليم الجبال بالقرب من قزوين .

(٦) حذف نكلسن ما بين العضادتين من ترجمته . [المترجم]

(٧) يجب ان نحذر القارىء من ان هذه المعلومات وما يليها من أعمال غدر ابن العلقمي وخيانته قد ناقضها مؤرخو الشيعة تماما فمؤلف الفخري مثلا (طبعة ديرنبرغ ، ص٤٥٢) يمثل الوزير وطنيا بعيد النظر حاول عبثا ان يوقظ سيده الضعيف التفكير ليرى خطورة الموقف .

الدويدار[٨] بالعسكر فالتقى طلائع هولاكو وعليهم باجُو[٩] فانكسر المسلمون لقلتهم ثم اقبل باجو فنزل على بغداد من غربيها ونزل هولاكو من شرقيها ، فقال الوزير ابن العلقمي للخليفة المستعصم بالله : « اني اخرج الى القاآن[١٠] الاعظم في تقرير الصلح » •

نهب بغداد :

فخرج الكلب[١١] وتوثق لنفسه ورجع فقال : « ان القاآن قد رغب في ان يزوج بنته بابنك وان تكون الطاعة له كالملوك السلجوقية ويرحل عنك » فخرج المستعصم في اعيان دولته وأكابر الوقت ليحضروا العقد فضربت رقاب الجميع وقتلوا الخليفة،رفسوه حتى مات[١٢]، ودخلت التتار بغداد واقتسموها ، وكل اخذ ناحية وبقي السيف يعمل اربعة وثلاثين يوما وقل من سلم فبلغت القتلى الف الف وثمانمائة الف وزيادة ، فعند ذلك نادوا بالامان [ثم أمر هولاكو بضرب عنق باجو لكونه كاتب الخليفة وارسل الى صاحب الشام يهدده ان لم يخرب اسوار بلاده، كذا في دول الاسلام[١٣]] ••• وانقرضت الخلافة من بغداد [بقتل المستعصم هذا وبقيت الدنيا بلا خليفة سنين الى ان أقام الملك الظاهر بيبرس البندقداري بعض بني العباس في الخلافة] •••• وزالت الخلافة من بغداد [كما] قال الشاعر [من الكامل] :

خلت المنابر والاسرة منهمُ ... فعليهمُ حتى الممات سلام[١٤]

---

(٨) فيما يتعلق بالوظائف المختلفة للدّويدار (ومعناها الحرفي «حامل الدواة») أو «الدّوادار» على نحو ما تكتب بشكل أصح ، راجع كاترمير ، «تاريخ سلاطين المماليك» [بالفرنسية] حـ١ ص١١٨هـ٢ •

(٩) في المخطوط ياجوناس [وفي النسخة المطبوعة ياجُونوس «المترجم»]

(١٠) اي الخان الاعظم •

(١١) لفظة «الكلب» العربية توازي لفظة «سگ» الفارسية ، وهو حيوان يعتبره المسلمون نجساً •

(١٢) في الترجمة : «باستثناء الخليفة الذي رموه حتى مات» •

(١٣) لشمس الدين الذهبي (المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) •

(١٤) الدياربكري : تاريخ الخميس ، جـ٢ ص٤٢٠ـ٤٢١

[واما الوزير العلقمي فلم يتم له ما أراد من ان التتار يبذلون السيف في اهل السنة فجاء بخلاف ما اراد وبذلوا السيف في اهل السنة والرافضة كلهم وهو في منصبه مع الذل والهوان وهو يظهر قوة النفس والفرح وانه بلغ مراده فلم يلبث ان امسكه هولاكو بعد قتل المستعصم بأيام ووبخه بالفاظ شنيعة معناها انه لم يكن له خير في مخدومه ولا في دينه فكيف يكون له خير في هولاكو ثم انه قتلة شر قتلة في اوائل سنة سبع وخمسين وستمائة ...][١٥] .

معركة عين جالوت (٦٥٩هـ/ايلول ١٢٦٠م) :

لقد بدا كما لو ان آسيا الاسلامية اصبحت تحت قدمي الفاتح الوثني ، فبعد ان استانف هولاكو زحفه احتل بلاد ما بين النهرين ونهب حلب ثم عاد الى الشرق مخلفا مساعده « كتُبغا » لاكمال اخضاع سوريا على انه في الوقت ذاته كان جيش مصري بقيادة مظفر قُطز [١٢٥٩ - ١٢٦٠م] سلطان المماليك يسرع الخطى لمجابهة الغزاة ، وفي يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/١٢٥٩م جرت معركة فاصلة في عين جالوت Goliath غربي نهر الاردن فهزم التتار هزيمة منكره بعد مذبحة عظيمة ، وباءت محاولاتهم التالية لاغتصاب سوريا من المماليك بالفشل ، ولم يكن اخضاع آسيا الصغرى الا اسميا ، ولكن الايلخانيين ، أخفاد هولاكو في فارس ، حكموا امبراطورية عظيمة اعيدت الى حظيرة الاسلام باعتناق احدهم الاسلام وهو غازان (٦٦٥هـ/١٢٩٥م ٧٠٤هـ/١٣٠٤م) ولايهمنا هنا القسم التالى من تاريخ المغول في فارس ، ولاتاريخ الفرس انفسهم .

لم تعد العربية لغة العالم الاسلامي بأسره :

ومنذ أيام هولاكو افترقت البلاد الواقعة شرقي وغربي نهر دجلة عن بعضها البعض بفجوة متزايدة الاتساع ، فالشعبان الفارسي والعربي اللذان بقي عالم القرون الوسطى من سمرقند الى اشبيلية مديناً لتضامنهما

(١٥) حذف نكلسن الفقرة الاخيرة فأثبتناها اتمـــاما للفائدة .
[المترجم]

بأسمى ثقافته الأدبية والعلمية لعهد طويل فصما الآن شركتهما نهائيا ! صحيح ان الانشقاق بدأ قبل هذا بعدة قرون ، وقد افصحت العبقرية الفارسية عن ذاتها بأدب قومي ممتاز قبل ان تسقط بغداد بايدي المغول ؛ ولكن اصطناع الفرس للغة العربية يكاد يقتصر منذ هذا التاريخ فما بعد على التآليف الفقهية والفلسفية فقد أقصت اللغة الفارسية منافستها من الميدان ، وعلى ذلك فان لمصر والشام الآن حقاً بمطالبتنا بالقسط الاوفى من اهتمامنا ، ولاسيما انه سبق ان عالجنا تاريخ العرب في غرناطة ذلك التاريخ الذي يؤلف جزءاً من هذه الفترة بصورة صحيحة .

مماليك مصر (٦٤٨هـ/١٢٥٠م-٩٢٣هـ/١٥١٧م) :

أسست دولة المماليك(١٦) في مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م على يد أيبك ، المملوك التركي الذي استهل حياته بخدمة الملك الصالح نجم الدين الايوبي ، وحكم خلفاؤه(١٧) مصر والشام الى ان فتحهما العثمانيون ، وكان المماليك جنوداً امتازوا بالخشونة وقلما عكفوا على اي ثقافة لاطائل فيها ولكن كان لهم ذوق رفيع في الهندسة المعمارية على نحو ما يرى الزائر للقاهرة إلى يوما هذا ، واتسمت إدارتهم ، رغم ما شابها من حركات التمرد والقتل المتكررة ، بالرخاء المعتدل بصورة عامة ، وقد منحت انتصاراتهم على جموع المغول ، فضلاً عن الضربات القاصمة التي وجهوها إلى الصليبيين ، امتيازاً جديداً للاسلام .

السلطان بيبرس (٦٥٩هـ/١٢٦٠م-٦٧٦هـ/١٢٧٧م) :

واقواهم جميعاً هو بيبرس الذي استحق لقبه : الملك الظاهر [أي

(١٦) تعني لفظة «المملوك» العبد الرقيق ، وكانت تطلق على الجنود المرتزقة من الاتراك والاكراد على الاكثر وكانوا يؤلفون الحرس الخاص للامراء الايوبيين .

(١٧) هناك اسرتان من المماليك تسميان على التوالي بالمماليك البحرية والمماليك البرجية ، وقد حكمت الاولى من ٦٤٨هـ/١٢٥٠م الى ٧٩٢هـ/١٣٩٠م والثانية من ٧٨٤هـ/١٣٨٢م الى ٩٢٣هـ/١٥١٧م .

المنتصر] بجدارة ؛ وقد غدا اسمه في اساطير القوم ، ودخلت انجازاته الحربية في الروايات المدونة باللهجة العامية ، تلك التي يتلوها القاصون الى يوم الناس هذا[١٨] ، وجعلته اعماله العنيفة القاسية التي كان يرتكبها أحياناً - اذ انه لم يحجم عن اي جريمة عندما كان يوجس خطراً - مصدر فزع للنبلاء الطموحين حواليه ولكنها لم تسيء الى سمعته حاكما عادلاً ، ومع انه وصل الى العرش بقتل سلفه بيده فقد التمس اضفاء مظهر الشرعية على اغتصابه هذا .

خلفاء بني العباس في مصر :

وعلى ذلك فقد اعترف بالخلافة لشخص اسمه ابو القاسم احمد ، زعم انه سليل العباسيين ، فدعاه الى القاهرة واقسم له يمين الولاء حسب الاصول المرعية ، واضفى الخليفة على السلطان بدوره السيادة على مصر والشام وبلاد العرب وجميع الاقاليم التى قد يفتحها في المستقبل . كان احمد هذا الملقب بالمستنصر بداية سلسلة طويلة من الخلفاء المصطنعين الذين كان يعينهم سلاطين المماليك والذين كانوا على العموم تحت مراقبة شديدة في قلعة القاهرة ، ولا سند للدعوى التي كان موراد كي دوسون Mouradgea D' Ohsson اول من اطلقها سنة ١٧٨٧م وكثيرا مارددت منذ ذلك الحين وهي ان آخر افراد هذه السلالة تنازل عن حقوقه في الخلافة

(١٨) لين : « المصريون المُحدَثون » الفصل الثاني والعشرون [وبيبرس الاول هذا هو رابع السلاطين المماليك البحريين غلب المغول والافرنج في وقعة عين جالوت بسوريا وحطم قوى الصليبيين في الساحل وغزا قواده بلاد النوبه والبربر وقصة بيبرس من قصص الفروسية العربية تجمع الى التاريخ المغامرات الخيالية في حياة السلطان بيبرس . ظهرت في خمسين جزءا (القاهرة ١٩٠٨-١٩٠٩) وربما ارتقى عهد أحد قصاصيها محمد بن دقيق العيد الى النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، وعهد اقدم مخطوطاتها المعروفة الى اواخر القرن السابع عشر للميلاد [المنجد في الادب والعلوم ، ص٩٣]

للخليفة العثماني سليم الاول[19] فأعان سلاطين تركيا على ادعاء لقب الخلافة وهيبتها بصورة شرعية[20] •

الشعر العربي بعد الغزو المغولي :

يكاد شعراء هذه الفترة يكونون مجهولين في اوربا ومن التسرّع ان نؤكد انه ليس بينهم من يرتفع فوق المستوى الاعتيادي الا اذا درسوا باهتمام كاف ، وانطباعي في نفس الوقت (ويجب ان اعترف بانه قائم على اطلاع غير مترابط وغير متكامل على أعمالهم) أن خير من فيهم مجرد فنان انيق كامل يتلاعب بالالفاظ والعبارات ببراعة ولا شيء سوى ذاك،وليس من شك في ان الصنعة المتناهية قد توجد مع العبقرية الشعرية ذات المستوى الرفيع شريطة ان تسندها قوة المتنبي او جدية المعري أو حماسة ابن الفارض ، فعلينا في حال انعدام هذه الخصائص ان نقنع بالاعجاب بالمهارة الفنية التي تُنوّع بها الالحان القديمة وتُنعش •

صفي الدين الحلّي :

لنأخذ مثلاً صفي الدين الحلي الذي ولد في الحلة وهي مدينة كبيرة[21] على الفرات سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م وأصبح شاعر بلاط الدولة الارتقية في ماردين وتوفى ببغداد حوالى سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م وقد وصف بانه « شاعر عصره على الاطلاق » واذا ما حكمنا عليه بمقتبسات من « فوات الوفيات »[22] للكتبي فقد جمع دقة الخيال مع منتهى اليسر والعذوبة في

---

(١٩) تاسع سلاطين بني عثمان (١٥١٢-١٥٢٠م) هزم قنصو الغوري سلطان المماليك في وقعة مرج دابق بالقرب من حلب (١٥١٦) وفتح سوريا ومصر وكان يلقب بياوز سليم أي العنيف الضاري [المنجد ولاروس] •

(٢٠) راجع السر تي• دبليو• أرنولد : «الخلافة “The Caliphate” ص١٤٦ •

(٢١) لا نعتقد انها بالسعة التي تصورها نكلسن • [المترجم]

(٢٢) طبعة بولاق(١٢٨٣هـ) ص٣٥٦-٣٦٦

النظم ، على ان الكثير من مقطوعاته عرض براعة كقصيدته في النبي (ص) التي استخدم فيها ١٥١ صورة بلاغية او كما في قصيدة أخرى حيث الاسماء كلها مصغرة[٢٣] والنموذج الآتي من شعره اوجز من ان يبيّن مكانته :

كيف صبري وأنت للعين قُرَّه ... وهي ما ان تراك في العام مَرَّه
وبماذا يُسَرُّ قلبي اذا غبْـ ... ـتَ اذا كُنتَ للقلوب مَسَرَّه
قسماً بالذي أفاض على طلـ ... ـعتكَ النورَ فهي للشمس ضَرَّه
انَّ يوماً أرى جمالك فيه ... هو عندي في جبهة الدهر غُرَّه
أيها المُعرِضُ الذي هان عندي ... تعبي فيه واحتمالُ المضرَّه
راقبِ اللهَ في حشاشة نفسي ... اِنَّهُ لايُضيعُ مثقالَ ذرَّه[٢٤]

الشـعر الشعبيّ :

سبق ان اشرنا الى الاغاني الشعبية (كالموشح والزجل) التي ظهرت في الاندلس ، بيدان المدرسة الكلاسية وتضم على وجه التقريب جميع المسلمين الذين يدعون اي قدر من العلم احتقرت هذه الاغاني البسيطة باوزانها الجديدة ولغتها غير الصحيحة ولكن شيوعها كان الى حدان شعراء البلاط انفسهم تنزّلوا أحياناً للنظم بهذا الاسلوب ، وبوسعنا ان نضيف الى الزجل والموشح ، الدوبيت والمواليا والكان وكان والحماق ، تلك التي تؤلف مع الشعر الاعتياديّ (الفنون السبعة) ويذكر صفيّ الدين [الحلي] الذي وضع رسالة خاصة في الاغاني الشعبية العربية نوعين آخرين هما ، على مايقول ، من اختراع البغداديين يغنونه وقت السحور في رمضان[٢٥]

(٢٣) نفس المصدر ، ص٣٥٨

(٢٤) وردت هذه الابيات في «حديقة الافراح» (راجع بروكلمان : تاريخ الادب العربي ، جـ٢ ص٥٠٢ «النسخة الالمانية») ، كلكتا ١٢٢٩هـ ص٢٨٠ ، وفي البيت الاخير اشارة الى الآية ٤٠ من السورة الرابعة «سورة النساء» من القرآن الكريم : «ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها» [ذكر نكلسن رقم الآية ٤٤ وهو سهو منه] [تراجع الابيات التي ترجمها نكلسن في الديوان : ص٣٠١ «طبعة دمشق» ١٢٩٧هـ]

(٢٥) هارتمان : «الموشّح» Das Muwashshah (ڤيمار ، ١٨٩٧). ص٢١٨ .

ومن الممتع ان نلاحظ ان قلة ضئيلة من الأدباء حاولت ، ولو بشكل متردد ، تحرير الشعر العربي من النظام الاكاديمي المخدّر الذي كان مسيطراً عليه ، لدفع حياة جديدة في شرايينه ، والمثال الواضح لهذا الاتجاه هو « هزّ القحوف »[٢٦] للشربيني الذي الف وكتب سنة ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م هنا نجد قصيدة باللهجة العامية المصرية ، ولكن ماهو اكثر غرابة هو المؤلف نفسه ، فعلى حين انه يهجو العادات الفظة واللغة الخشنة للفلاحين ، يقوم بهجوم مرير على علم فقهاء المسلمين واخلاقهم[٢٧] ، فيقدم لهذا الغرض ، فلاحاً نموذجياً اسمه « أبو شادوف » يشبه دوره پييرز Piers الفلاح في قصيدة « رؤيا » Vision للشاعر لونگلند Longland ، وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، على كل حال ، لم تذهب هذه التفرعات المنعزلة بعيداً لتؤسس مدرسة حية في الشعر الشعبي ، وبوسع المستقبل وحده ان يرينا ما اذا كان العرب قادرين على انجاب عبقري ينجح في ان يعمل في مجال الاغاني الشعبية القومية ما عمله « برنز » Burns للاغاني الاسكتلندية

ابن خلّكان (٦٠٨هـ/١٢١١م-٦٨١هـ/١٢٨٢م) :

لقد رعى علماء مصر والشام « التراجم » و «التاريخ» بحماسة ونشاط، ولا يسعنا ان نتردد في تقديم مكانة الشرف الاولى بين مؤلفات هذا الطراز العديدة «لوفيات الايمان» تأليف شمس الدين بن خلّكان ، وهو الكتاب الذي كثيراً ما اقتبسنا منه في الصفحات السالفة من كتابنا ، والمؤلف من اسرة شهيرة تنحدر من يحي بن خالد البرمكي[٢٨] .

(٢٦) كناية عن رقص الفلاحين .

(٢٧) راجع فولرز : بحث في معرفة اللغة العربية الحية في مصر [بالالمانية] «مجلة جمعية المستشرقين الالمان» المجلد : ٤١ (١٨٨٧) ، ص٣٧٠ .

(٢٨) راجع الصفحة ٢٥٩ وما بعدها من النص الانكليزي = ص٢٩ من الترجمة العربية التي بين يديك [وقد أنكر عليه هذا النسب فرد هذا الانكار بقوله : « أما النسب والكذب فيه فاذا كان لا بد منه كنت انتسب الى العباس أو الى علي بن ابي طالب أو الى أحد من الصحابة ،وأما النسب =

وقد ولد في اربل[٢٩] سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م وتلقى تعليمه في حلب ودمشق (٦٢٧هـ/١٢٢٩م – ٦٣٦هـ/١٢٣٨م) ثم رحل الى القاهرة حيث اتم النسخة الاولى من كتابه : « وفيات الاعيان » سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م ، وبعد خمس سنوات ولاه السلطان بَيْبَرس وظيفة قاضي القضاة في الشام ، وقد احتفظ بهذا المنصب الرفيع (باستثناء فترة سبع سنوات كرسها لدراسة الادب والتراجم) حتى قبيل وفاته ، ويذكر ابن خلكان في مقدمة الوفيات انه سار على النهج الابجدي لانه اكثر ملاءمة من التسلسل التاريخي . اما فيما يتعلق بنطاق مؤلفه وخصائصه فيقول :

« ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء والملوك او الامراء والوزراء والشعراء ، بل كل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه ذكرته واتيت من احواله بما وقفت عليه ، مع الايجاز كيلا يطول الكتاب، واثبتُ وفاته ومولده ان قدرتُ عليه ، ورفعت نسبه على ما ظفرت به ، وقيدّتُ من الفاظ ما لايؤمَنُ تصحيفه ، وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة او نادرة او شعر او رسالة ليتفكه به متأمله ولايراهُ مقصوراً على أسلوب واحد فيملّه ، والدواعي انما تنبعث لتصفح الكتاب اذا كان مفَنَّناً »[٣٠] .

= الى قوم لم يبق منهم بقية واصلهم قوم مجوس فما فيه فائدة» ، (وفيات الاعيان) طبعة محمدمحي‌الدين عبدالحميد ،القاهرة ، ١٩٤٨ ، ج١ص٨]

(٢٩) وقد قال هو نفسه : « ومولدي يوم الخميس بعد صلاة العصر حادي عشر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستمائة ، بمدينة اربل بمدرسة سلطانها الملك المعظم مظفرالدين بن زين‌الدين رحمهما الله تعالى [راجع الترجمة رقم ٢٣٧ في الجزء الثاني ، ص٩٢ من «وفيات الاعيان»] .

(٣٠) الاصل في هذه المادة الفنن – بفتح الفاء والنون – وهو الغصن من الشجرة ، وجمعه أفنان ، واخذوا منه قولهم : « فنن فلان كلامه» إذا جعله ضروباً والواناً ولم يجر به في ميدان واحد ؛ وقالوا : «اخذ فلان في أفانين الكلام» و «افتن في الحديث» و «تفنن فيه» [وفيات الاعيان : ٣/١] – يُراجع كذلك ابن خلكان : ترجمة دي‌سلان ، ج١ ص٣

كان بوسع ابن خلكان ان يضيف انه اول مؤلف مسلم يضع معجماً للتراجم القومية Dictionary of National Biography

اذ لم يفكر احد ممن سبقوه بجمع تراجم مشاهير المسلمين من كل صنف في كتاب واحد(٣١)

لقد اعترف بمزايا الكتاب مواطنو المؤلف والعلماء الاوربيون اعترافاً كاملاً ، فلغته بسيطة انيقة ، وهو دقيق غاية الدقة ، ويشمل قدراً مدهشاً من المعلومات التاريخية والادبية المنوعة التى لم تسجل بجفاف بل قُدّمت بألطف أسلوب ، محفوفة بالنكات والمقتبسات التى تصور كل ناحيـــة من نواحي الحياة الاسلامية ، واننا نميل الى موافقة السر وليم جونز على رأيه القائل بأنه افضل كتاب تراجم عام كتب اطلاقا ، واذا ماتسامحنا في اختلاف الدرجة والنطاق فانا نعتقد بانه يقبل الموازنة مع كتاب انكليزي مشـــهور يشبهه من عدة وجوه ـ ونعني به كتاب بوزويل الموسوم بـ «جونسون»(٣٢).

مؤرخو عصر المماليك :

لكيما نقدم معلومات وافيـــة عن مؤرخي عصر المـــاليك العديدين الموهوبين نحتاج الى مجال اوسع بكثير مما يمكنهم ان يطالبونا به بشكل معقول في استعراض من هذا النوع ، وقد تحدثنا بتفصيل عن ابن خلدون الذي

(٣١) ينبغي لنا ان نقول ان كتاب «وفيات الاعيان» بعيد كـل البعد عن استيعاب كل التراجـــم فمجموع التراجم التي يضمها ٨٦٥ ترجمة ، وقد حذف المؤلف العديد من الشخصيات المهمة فضلا عن الخلفاء والصحابة والتابعين لانه لم يستطع العثور على سني وفاتهم وقد ألف ابن شاكر الكتبي (ت٧٦٥هـ/١٣٦٣م) كتابا نافعا هو بمثابة مستدرك وتكملة «لوفيات الاعيان» بعنوان «فوات الوفيات» [أردفه الصفدي «بالوافي بالوفيات» اتماما «لفوات الوفيات» واستدراكا له . «المترجم»]

(٣٢) لقد طبع وستنفيلد النص العربي «لوفيات الاعيان» مـــع اختلاف روايات المخطوطات ، ومـــع الفهارس (گوتنكن ، ١٨٣٥ـ١٨٥٠) وهناك ترجمة انكليزية ممتازة بقلم البارون ماك‌گوكين دي‌سلان في أربعة مجلدات (١٨٤٢ـ١٨٧١) .

كان استاذاً وقاضياً في القاهرة على عهد السلطان برقوق[٣٣] (٧٨٤هـ/١٣٨٢م ٨٠١هـ/١٣٩٨م) وقد اكتشف هذا العبقري اصولاً واساليب كان من المتوقع ان تحدث ثورة في العلم التاريخي ، فلاهو استطاع ان يضعها موضع العمل ولا اوحت الى الذين جاء وابعده ، كما دلت الحوادث ، بترك الطريقة التقليدية ولا يمكنني أن أتخيل أيّ ظاهرة أكثر حسماً وفصلاً في البطء الذهني والكسل العقلي اللذين غرق فيهما الاسلام الآن ولا مثالاً أوضح يبرهن لنا على انه حتى اعظم الكتاب يجاهدون عبثاً ضد الروح السائدة في عصرهم. بيد انه كان هناك الكثير من العلماء الذين صنّفوا مؤلفات تاريخية محلية وعامة ، وعلينا ان نعجب بهؤلاء المؤلفين المجدين الواسعي الاطلاع اكثر من أن نتذمر من عجزهم عن الابتعاد عن الطريقة المقررة ، وذلك باعتبار المواد القيمة التي حفظت لنا بفضل جهودهم .

المقـريزي :

لعل أشهرهم هو تقي الدين المقريزي[٣٤] (٧٦٦هـ/١٣٦٤م-٨٤٦هـ/١٤٤٢م) وهو قاهريّ الاصل كرس نفسه لتاريخ مصر وآثارها القديمة فكتب في هذا الموضوع عدة مؤلفات يُعتمد عليها «كالخطط»[٣٥] و«السلوك»[٣٦] ورغم انه كان غير شاعر بالمسؤولية وغير متحر تحرياً انتقادياً وكثيراً ما كان يستنسخ بدون اعتراف او تعليق وينغمر في سرقات على مقياس واسع عندما يخدم ذلك غرضه ، فان هذه العيوب التي اتسم بها عصره يمكن التغاضي عنها بسهولة ، اذ جمع ولخص قدراً عظيماً من المعلومات ضمن مدى معين

(٣٣) هو الملك الظاهر سيف الدين أول المماليك البرجيين المصريين . فتح دمشق وغزة وانتصر على المغول . كان متدينا كريما .

(٣٤) نسبة لحارة «المقارزة» في بعلبك . [المترجم]

(٣٥) العنوان الكامل : «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» وقد طبع في بولاق سنة ١٢٧٠هـ .

(٣٦) «السلوك لمعرفة دول الملوك» وهو تاريخ للايوبيين والمماليك، وللقسم المتعلق بالدولة الثانية ترجمة فرنسية ممتازة بقلم كاترمير (تاريخ سلاطين المماليك في مصر ، باريس ، ١٨٤٥) .

من النظام ولولاه لضاعت في أغوار النسيان ، وهو على العموم حريص ودقيق[٣٧] ويرجع دائما الى الاسانيد المعاصرة ، ان وجدت ، وله كذلك اسلوب لطيف سلس ويكتب بلا تحيز وعلى ما يظهر بحياد ممتاز »[٣٨] والكتب المشهورة الاخرى لهذا العصر هي : « الفخرى » لابن الطقطقى وهو كتاب يدوى مبهج في السياسة الاسلامية [٣٩] الف في الموصل سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م وخلاصة التاريخ العام لابى الفداء امير حماة (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) « وتاريخ الاسلام » الضخم للذهبى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) وسيرة تيمورلنك ذات الاسلوب المزخرف والموسومة بـ « عجائب المقدور » لابن عربشاه (ت ٨٥٤هـ/١٤٥٠م) وكتاب « النجوم الزاهرة » لابى المحاسن ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩) الذى يضم تاريخ مصر الاسلامية ، وقد ذكرنا (في الفصل السابق من هـذا الكتاب) التاريخ السياسى والادبي لاسبانيا الاسلامية للمقرى التلمسانى (ت ١٠٤٢ هـ ١٦٣٢م)[٤٠] .

جلال الدين السيوطي (٨٤٩هـ/١٤٤٥م-٩١١هـ/١٥٠٥م) :

لو سئلنا ان نختار شخصا واحدا يعكس فى ذاته الاتجاهات الادبية للعصر الاسكندري[٤١] فى الحضارة العربية بشكل تام قدر المستطاع ،

(٣٧) هذا كلام للمستشرق گيست وهو يناقض ما ذكره نكلسن قبل قليل من انه كان غير شاعر بالمسؤولية وغير متحر تجريا انتقاديا . [المترجم]

(٣٨) ا.ر.گيست : «قائمة الكتاب والكتب والمصادر التي يذكرها المقريزي في خططه» مجلة الجمعية الآسيوية الملكية لسنة ١٩٠٢، ص ١٠٦ [بالانكليزية]

(٣٩) قام بطبع «الفخري» أهلورت (١٨٦٠م) وديرنبرگ (١٨٩٥م) وقد جعلته بساطة اسلوبه والمتعة المنوعة في محتوياته شائعا بجدارة واستحقاق ، ولا أعرف اي كتاب افضل منه ، باستثناء القرآن ، يكون مدخلا للادب العربي .

(٤٠) راجع ص٤١٣ ، هـ١ (من النص الانكليزي) .

(٤١) عصر البطالسة .

لوقع اختيارنا بالتأكيد على جلال الدين السيوطي المولود في سيُوط (أو أُسيوط) في صعيد مصر[٤٢] سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م وقد نزحت أسرته في الاصل من ايران ولكنه كالذهبي وابن تغرى بردي والعديد من مشاهير كتاب هذا العصر اختلط فيه ، عن طريق والدته ، مزاج من الدم التركي ، ولما مات والده وعمره اذ ذاك خمس سنوات وسبعة اشهر ، كان الصبي الذي جاوز نضجه العقلي سنّه قد بلغ سورة التحريم ، وهي السورة السادسة والستون من القرآن وقد حفظ المصحف باكمله قبل ان يبلغ الثامنة من عمره ، ومضى في دراساته تحت اشراف اشهر الاساتذة في كل فرع من فروع المعرفة الاسلامية وعندما انهى مرحلة التعليم تسنم كراسي الاستاذية بالتعاقب في القاهرة حتى سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م عندما جرد من منصبه نتيجة سوء تصرف بالاموال التي كانت بعهدته والمخصصة للطلاب ، وتوفي بعد اربع سنوات في جزيرة « الروضة » الصغيرة في النيل التي اعتزل فيها بدعوى تكريس ما تبقى من حياته لله ، ولدينا عناوين اكثر من خمسمائة مؤلف مستقل مما كتبه ، وقد يكون هذا العدد بعيدا عن التصديق لو لا ان العديد منها كراريس مختصرة تعكس اطلاع المؤلف الغريب الواسع في مختلف انواع الموضوعات الشاذة ـ من نحو : ما اذا كان الرسول (ص) يرتدي السراويل وما اذا كانت عمامته مدببة وما اذا كان ابواه في الجنة ام لا ، وقد تجول قلم السيوطي الذي لا يكل ولا يني في حقل واسع من المعرفة ـ القرآن والحديث والشريعة والفلسفة والتاريخ واللغة والبلاغة ، ويبدو انه كان يباهي كبعض العلماء الاسكندريين القدامى[٤٣] ، باشتهاره بتعدد مناحي

---

(٤٢) اي في مصر العليا ، واسيوط مسقط رأس افلوطين الفيلسوف ويوحنا الليقوبوليتاني القديس القبطي .

(٤٣) اشتهروا في عهد البطالسة ، وظهرت مدرسة اغريقية في الشعر في ذلك العهد اشتهر من افرادها كاليماك وهيروندا س وابولونيوس الروديسي وليكوفرون واراتوس وثيوكريت [لاروس ، ص١١٦٣] وانشأ البطالسة في الاسكندرية مكتبة عظيمة اتهم العرب بحرقها زورا وبهتانا =

معرفته ، واعلن خصومه أنه استغل بحرية كتب الاخرين التي اعتاد ان يجرى فيها تغييرات طفيفه وينتحلها . أما السيوطى من جهته فقد قدم لشيخ الاسلام اتهاما رسميا بسرقة ادبيه ضد القسطلاني[٤٤] ، احد الفقهاء البارزين من معاصريه ، وقد روى ان غروره وعجرفته حمـــلاه على الكثير من المنازعات وانه قوطع من لدن اخوانه العلماء ، ومهما يكن الامر فقد رأى ما كان يطلبه الجمهور ، فاشتهرت ملخصاته وكتبه اليدوية المقروءه فى العالم الاسلامى باسره ، على ما يباهى هو ، من الهند الى مراكش ، وقـد عمل كثيرا لاشاعة ثقافة عصره العلمية ، ويكفى ان نذكر هنا « الاتقان فى علوم القرآن » و« تفسير الجلالين » الذى شرع به جلال الدين المحلى وانجزه سميه [جلال الدين] السيوطى ، « والمُز هِر » (المِز ْهَر) فى اللغة ، . وحسن المحاضرة » (تاريخ القاهرة القديمة والجديدة) ، و« تاريخ الخلفـاء » .

علماء الفترة الآخرون :

ان الامعان فى الوقوف عند أدب هذه الفترة لن يكون اكثر من تأكيد السمة العلمية غير الاصيله ، على انه من الضرورى ان نذكر ذكرا عابرا الموسوعيين من نحو النويرى (ت ٧٣٣ هـ/١٣٣٢م) مؤلف « نهاية الارب » وابن الوردى[٤٥] (ت ٧٥٠هـ/١٣٤٩م) وقد صنف الصفدى (ت ٧٦٥هـ/

= لأن المكتبة المذكورة أحرقها يوليوس قيصر سنة ٤٨ ق٠م٠ ثم نشأت على انقاضها مكتبة جديدة دمرت حوالي ســـنة ٣٨٩م بأمر من الامبراطور ثيودوسيوس وكان اول من أشاع هـــذه الفرية عبداللطيف البغدادي في «الافادة والاعتبـــار» (اوكسفورد ، ١٨٠٠) ص١١٤ وقد توفي عـام ٦٢٩هـ/١٢٣١م فتابعه عليها القفطي في «تاريخ الحكماء» وابن العبري في « تاريخ مختصر الدول » والمقريزي ٠ راجع كذلك بتلر وكيبون : « انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » طبعة بيوري ، ٥/٤٥٢ ـ ٤٥٥

(٤٤) هو احمد القسطلاني (١٤٤٨ـ١٥١٧م) المحـــدث ومـن مؤلفاته : «ارشاد الساري الى شرح صحيح البخاري» ٠

(٤٥) هنـــا كان ينبغـــي ان يذكـــر ابن بطوطـــة الطنجي =

١٣٦٣م) معجما ضخما للاعلام هو « الوافي بالوفيات » في ستة وعشرين مجلدا وترك المحدث العالم ابن حجر العسقلاني[٤٦] (ت ٨٥٣هـ/١٤٤٩م) عددا كبيرا من المؤلفات ويكفي ان نذكر بينها : « الاصابة في تمييز الصحابة » وهو في موضوع تراجم صحابة الرسول (ص)[٤٧] . وسنختم هذا القسم من موضوعنا بتعداد بضع مؤلفات مشهوره قد تنعت بالتعبير العصري بمراجع دراسية يعتمد عليها في مدارس الاسلام وجامعاته ، ولعلنا وسط الجمهرة من الكتب اليدوية في الفقه والتشريع مع سلسلتهما التى لاتنتهى من المختصرات والشروح وشروح الشروح نجد أشهرها عند الطلاب الأوربيين تلك التى وضعها ابو البركات النسفى[٤٨] (ت ٧١٠هـ/١٣١٠م) وعضد الدين

= (ت/١٣٧٧م) ، رغم انه خارج هذه المجموعة الاكاديمية ، وقد وصف آخر مترجم له وهو هـ٠١٠و٠گب قصة اسفاره الصريحة الممتعة التي تكاد تشمل العالم بأسره والموسومة بـ « تحفة النظّار » بانه «مصدر للتاريخ الاجتماعي والثقافي للاسلام بعد عصر المغول » [من فصل الفهارس الملحق بالكتاب ، ص٤٧٦ من النص الانكليزي] .

(٤٦) هو ابن حجر العسقلاني الشافعي المولود سنة ١٣٧١م في مصر العتيقة . أخذ الحديث في الشام ومصر والحجاز والعراق على الائمة. قاضي القضاة . له «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» وكتاب «الاصابة في تمييز الصحابة» الذي ذكرناه اعلاه اكمل كتاب في تراجمهم .

(٤٧) طبعه شپرينكر وآخرون بعنوان :

A Biographical Dictionary of Persons who Knew Mohammad

(كلكتا ، ١٨٥٦-١٨٧٣)

« معجم تراجم للأشخاص الذين عرفوا محمد (ص) » .

(٤٨) معروف «بحافظ الدين» امام وفقيه ومحدث . دخل بغداد . له «عمدة عقيدة اهل السنة والجماعة» طبع باعتناء كورتن (لندن ، ١٨٤٣)، و «كشف الإسرار وشرح المصنف على المنار» في الاصول و «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» ويعرف بـ «تفسير النسفي» .

الايجي[٤٩] (ت ٧٥٦هـ/١٣٥٥م) وسيدي خليل الجندي[٥٠] (ت٧٦٧هـ/١٣٦٥م) والتفتازاني[٥١] (ت٧٩٢هـ/١٣٨٩م) وشريف الجرجاني[٥٢] (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م) ومحمد بن يوسف السنوسي[٥٣] (ت٨٩٢هـ/١٤٨٦م)، وعندنا في عالم اللغة والمعاجم «الالفية»، وهي قواعد نحو منظومة، لابن مالك الجيّاني[٥٤] (ت ٦٧٢هـ/١٢٧٣م) والاجرومية في مبادىء النحو، وهي خلاصة مشهورة للصنهاجي[٥٥] (ت ٧٢٤هـ/١٣٢٣م) ومعجمان عربيان

---

(٤٩) ولد في ايج (قلعة في فارس) ولي القضاء والتدريس في فارس. توفي سنة ١٣٥٥م. له عدة رسائل وكتاب: «المواقف في علم الكلام».

(٥٠) مالكي مصري تعلم في القاهرة وعلم فيها وتولى الافتاء. له كتاب «المختصر» مخطوط في غوطا، نقل الى الفرنسية.

(٥١) ولد سعدالدين التفتازاني سنة ١٣٢٢م في تفتازان (خراسان) وتوفي سنة ١٣٨٩م في سمرقند. كان حجة في البلاغة والمنطق وما وراء الطبيعة والكلام والفقه وغيرها من العلوم وله كتب مدرسية كثيرة؛ ومن مؤلفاته: «شرح التصريف العربي» و «الارشاد» و «المطوّل» و «تهذيب المنطق» و «المقاصد» و «المفتاح».

(٥٢) علي بن محمد الشريف الجرجاني (١٣٣٩-١٤١٣م) ولد في تاجو قرب استراباد متكلم وفيلسوف. علم في شيراز ونقله منها تيمور الى سمرقند. كتب عدة رسائل في الفلسفة منها باللغة العربية ومنها بالفارسية وشروحا على أهم الكتب في اصول الفقه والفلسفة وعلم الهيئة.

(٥٣) ابو عبدالله السنوسي: عاش في تلمسان. نبغ في العلوم الاسلامية وبعث النهضة الدينية في زمانه. من مؤلفاته: «ام البراهين في العقائد» أو «السنوسية الصغرى» وهو مختصر لعقائد التوحيد. توفي في تلمسان.

(٥٤) ابو عبدالله محمد بن مالك (حوالي ١٢٠٣-١٢٧٣م) ولد في جيّان (الاندلس). تعلم في دمشق على ابن الحاجب السخاوي وكاد ينازع سيبويه شهرته. من مؤلفاته «الكافية الشافية» أرجوزة لخصها بالالفية.

(٥٥) نسبة الى صنهاجه وهي قبائل البربر في المغرب في القرون الوسطى جاء ذكرهم في كتاب ديوان العبر لابن خلدون؛ منهم الطوارق والملثمون وغيرهم ممن مثلوا دورا خطيرا في حروب المغرب.

مشهوران : «لسان العرب »[٥٦] لجمال الدين بن مُكَرَّم (ت ٧١١هـ/١٣١١م) وقاموس الفيروزآبادي[٥٧] (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م) ولا يسعنا ان نهمل المفهرس العظيم الحاجي خليفه[٥٨] (ت١٠٦٨هـ/١٦٥٨م) رغم انه كان تركيا فمصنَّفُه « كشف الظنون » يضم عناوين جميع الكتب العربية والفارسية والتركية التي كانت معروفة عنده ، مرتبة ترتيبا ابجديا[٥٩].

الف ليلة وليلة :

منح عهد المماليك الشكل النهائي لكتاب « الف ليلة وليلة » وهـــو

---

(٥٦) كتاب في اللغة وهو اتم ما صنف فيها . يقع في عشرين جزءا وقد رتب المؤلف مواده على نسق الصحاح للجوهري [اي على طريقة القوافي] الفه ابن منظور الذي ترجم للشاعر ابي نواس . طبع في بولاق سنة ١٨٩٠ .

(٥٧) محمد الفيروز آبادي (١٣٢٩ـ١٤١٤م) ولـد في كارزين قرب فيروز آباد . من ائمة مؤلفي القواميس العربيـة ؛ تعلم في شيراز وواسط وبغداد ودمشق . علّم في القدس . كان يسافر وبصحبته عدة احمال من الكتب . من اشهر مؤلفاته : «القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العـــرب شماطيط» لخصه المطـران جرمانوس فرحات في كتاب «باب الاعراب» رتبه على نسق ابجدي حـديث بطرس البستاني في كتاب : «محيط المحيط» .

(٥٨) ويعرف كذلك باسم «كاتب جلبي» . راجع زيدان : «تاريخ آداب اللغة العربية» جـ٣ ص٣٤٠ـ٣٤١ وذيل كشف الظنون : جـ٢ ص٢٤ ودائرة المعـــارف الاسلامية ، وبروكلمان : « تاريخ الادب العـربي » جـ٢ ص٤٢٧ .

(٥٩) الاسم الكامل للكتاب هو : «كشف الظنون في أســـامي الكتب والفنون» وقد ورد فيه ذكر ١٤ر٥٠٠ اسم كتاب وقد الحق الكتاب باسم المؤلف وسنة وفاته وموضوع الكتاب مع ذكر الشروح والترجمات ان وجدت . وقد نشر الكتاب المستشرق فلوغل في لايبزگ وليدن (١٨٣٥ـ١٨٥٨) مع ترجمة لاتينية في سبعة مجلدات ، وذكر المؤلف خمسا وعشرين مكتبة في القاهرة ودمشق وحلب والاستانة ورودس مما كان معروفا في زمـانه بلغ عدد كتبها حوالي الثلاثين الف كتاب . طبع الكتاب بمصر سنة ١٢٤٧هـ وفي الاستانة بمجلدين سنة ١٣١١ [زيدان : ٣/٣٤٠] .

الكتاب الذى اشتهر في اوربا اكثر من القرآن[٦٠] أو أي كتاب خالد آخر في الادب العربى ، والعنوان العصرى Arabian Nights « الليالى العربية » لاينبئنا الا بجانب من الحقيقة ، ويذكر المسعودى (ت ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م) كتابا فارسيا هو « هزارأفسانه » (ألف خرافه) الذي يعرف بصورة عامة بألف ليلة وليلة ، انه حكاية الملك ووزيره وابنة الوزير وجاريتها شيرازاد ودينازاد[٦١] ويفتتح مؤلف « الفهرست » الذي وضع كتابه سنة ٣٧٧هـ/٩٨٨م فصله : « في اخبار المسامرين والمخرفين واسماء الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات بالقطعة الآتية (ص ٣٠٤)[٦٢]:ـ

الأصل الفارسي «لألف ليلة وليلة » :

« اول من صنف الخرافات ، وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على السنة الحيوان ، الفرس الاول ، ثم اغرق في ذلك ملوك الاشغانيه [أى البارثيين] وهم الطبقة الثالثة[٦٣] من ملوك الفرس[٦٤] ثم زاد ذلك واتسع في ايام ملوك الساسانية ، ونقلته العرب الى اللغة العربية ، وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه ، وصفوا في معناه ما يشبهه .

هزار أفسان :

فاول كتاب عمل في هذا المعنى : كتاب هزار أفسان ، ومعناه الف

---

(٦٠) وهو امر يؤسف له ؛ ان دل على شيء فانما يدل على اسفاف في الذوق بلا ريب . [المترجم]

(٦١) مروج الذهب ، طبعة باربيير دى مينارد ، جـ٤ ص٩٠ ومن الواضح ان الاسمين شيرازاد ودينازاد فارسيان ومن المحتمل ان الاول تصحيف لـ «جهرازاد Chihrazad » وتعني الأصيلة [أي ذات «الجنس النبيل»] في حين «دينازاد» تعني المتدينة [أي ذات العقيدة النبيلة] وبوسع قرائي ان يشخصوا بسهولة الاسمين المألوفين Scheherazade و Dinarzade

(٦٢) ص٤٣٦ـ٤٣٧ من طبعة المطبعة التجارية بمصر .

(٦٣) أي الاسرة الثالثة [المترجم]

(٦٤) في ترجمة نكلسن : «اظهرت منتهى الحماسة في هذا الشأن » وهي زيادة غير موجودة في النص العربي .

خرافه ، وكان السبب فى ذلك أن ملكا من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد ، فتزوج بجارية من أولاد الملوك ممن لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد فلما حصلت معه ابتدات تخرفه واتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، وسألها فى الليلة الثانية عن تمام الحديث ، الى ان اتى عليها الف ليلة وهو مع ذلك يطؤها الى ان رزقت منه ولدا أظهرته ، واوقفته على حيلتها عليه فاستعقلها ومال اليهـا واستبقاها ، وكان للملك قهرمانة يقال لها دينارزاد ، فكانت موافقة لها على ذلك • وقد قيل ان هذا الكتاب الف لحمانى ابنة بهمن وجاءوا فيه بخبر غير هذا [قال محمد بن اسحق](*) والصحيح ، ان شاء الله ، ان اول من سمر بالليل الاسكندر ، وكان له قـوم يضحكونه ويخرفونه ، لا يريد بذلك اللذة ، وانما كان يريد الحفظ والحرس(٦٥) ، واستعمل لذلك بعده الملوك كتاب هزارافسان ، ويحتوى على الف ليلة وعلى دون المائتى سمر ، لان السمر ربما حدث به فى عدة ليال ، وقد رأيته بتمامه دفعات ، وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث(٦٦) • [قال محمد بن اسحق](*) ابتدأ أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشيارى(**) صاحب كتاب الوزراء تأليف كتاب اختار فيـه الف سمر من اسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كـل جزء قائـم بذاته لا يعلق بغيره ، وأحضر المسامرين ، فأخذ عنهم احسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة فـى الاسمار والخرفات ما يحلو بنفسه ، وكان فاضلا(٦٧) ، فاجتمع له من ذلك اربعمائة ليلة وثمانون ليلة ، كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة ، واقل واكثر ، ثم عاجلته المنيّة قبل استيفاء ما فى نفسه من تتميمه الف سمر •

(*) محذوف من ترجمة تكلسن •

(٦٥) ترجمها نكلسن «الاختزان فى الذاكرة» والظاهر انالاسكندر كان يسهر الليل لئلا يؤخذ غيلة وهو نائم • [المترجم]

(٦٦) يمثل هذا النقد على ما فيه من غرابة وجهة نظر علمـاء المسلمين كافة ممن قرأوا « الف ليلة وليلة »(**) ت ٣٣١هـ/٩٤٢م-٩٤٣م

(٦٧) ترجمها نكلسن : وكان ماهر الصنعة •

مصادر مختلفة للمجموعة :

يتضح اذن أن « هزارأفسان » كانت نواة كتاب « الليالى » ومن المحتمل أن هذا الأصل الفارسى ضم اكثر الحكايات الخيالية رقة فى المجموعة كحكاية : « الصياد والجنى » و« قمر الزمان وبدور » و« الحصان المسحور » ، ومع مضى الزمن تلقت النواة الاصلية اضافات ضخمة يمكن تقسيمها الى مجموعتين رئيستين كلتاهما سامية الخصائص ، احداهما تتعلق ببغداد وتتألف فى جوهرها من نكات فكاهية وحكايات غرامية وكثيرا ما يظهر فيها الخليفة المشهور هارون الرشيد ، ومركز الثانية القاهرة ، وتتميز بلطافة تهكمية فجة ، فضلا عن الخوارق الميكانيكية المصورة تصويرا تاما فى « علاءالدين والفانوس السحرى » ، ولكن بصرف النظر عن هذه المصادر الثلاثة فقد ضم كتاب« الليالى » وامتص خلال العصور عددا « هائلا » من القصص الشعبى الشرقى من كل صنف متباينا على حد سواء فى اصله واسلوبه ، واقدم ترجمة له بقلم كالان (باريس ، ١٧٠٤ - ١٧١٧) ترجمة تفسيرية ساحرة هى فى بعض مظاهرها أقرب الى روحية الاصل من الترجمتين العلميتين ل « لين » و« برتن »(٦٨) ٠

سيرة عنتر :

تنسب « سيرة عنتر » تقليديا الى اللغوى الكبير الاصمعى(٦٩) الذى عاش فى عصر هارون الرشيد ، ولكن هذا يجب ان يعتبر اختراعا من الرواة المتهنين الذين يجلسون امام المقاهى الشرقية ويسلون الجمهور بخطبهم

(٦٨) من خيرة ما ظهر من بحوث فى هذا الموضوع بعد زمن نكلسن هو كتاب : « الف ليلة وليلة » للدكتورة سهير القلماوي ، الكتاب الذى احرزت به درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة ٠

ويراجع كذلك «اصول الادب» للزيات و «تاريخ الادب العربي» للزيات ايضا (القاهرة ، ١٩٣٩) ص٣٩٣-٣٩٤ و« دراسات في الادب المقارن والمذاهب الادبية» للدكتور صفاء خلوصي ٠

(٦٩) يُروى الكثير من الحوادث بسند من الاصمعي وابيعبيدة ووهب بن منبه ٠

الحماسية ذات الحيوية (٧٠) ، وعلى رأي بروكلمان ان تاريخ الكتاب بشكله الحاضر يرجع في الظاهر الى ايام الصليبيين(٧١) وبطل القصة هو الشاعر والفارس الجاهلي(٧٢) المشهور عنترة بن شداد الذي سبق ان قدمنا عنه معلومات(٧٣) كأحد اصحاب المعلقات السبع ، ومع ان القصة تعرض جميع التناقضات في التسلسل التاريخي ومبالغات الاساطير الشائعة ، فهي مع ذلك تصور مظاهر الحياة البدوية التي لاتتبدل بصدق وقوة يثيران الاعجاب ، وبحق يبين فون هامر الذي كانت ملاحظته في « مناجم الشرق » Mines De I'Orient (١٨٠٢) وسيلة لتقديم«سيرةعنتر» الىالقراءالاوربيين انه لا يمكن ترجمتها كاملة لطولها الهائل ؛ وهي موجودة بنسختين تعرفان على التوالي «بالحجازيّة» «والشامية» والثانية مقتضبة جداً(٧٤) .

السنّة والتصوف :

في حين ان حالة الادب العربي المتدهورة خلال هذه العصور كافة قد جاءت بصورة مباشرة نتيجة اوضاع اجتماعية وسياسية غير ملائمة فقد كان مصدر الداء الحقيقي اعمق ، ويجب ان يُرجع ، على ما أرى ، الى

---

(٧٠) يُسمى اولئك الذين يروون (سيرة عنتر) «بالعناترة» ومفردها «عنتري» ، راجع لين : «المصريون المحدثون» [بالانكليزية] الفصل : ٢٣ .

(٧١) يبدو ان وجوده بشكل ما قبل سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م أمر لا يقبل الشك ؛ قارن المجلة الآسيوية [بالفرنسية] لسنة ١٨٣٨ ص٣٨٣، ووستنفيلد : «تاريخ الطب العربي» [بالالمانية] رقم ١٧٢

(٧٢) في النص الانكليزي «الوثني»

(٧٣) يقصد في القسم الاول من «تاريخ الادب الادبي» (النص الانكليزي) ص١١٤ــ١١٥

(٧٤) راجع «عنتر ، قصة بدوية» [بالانكليزية] ترجمة عن العربية بقلم ليتريك هاملتن (لندن ، ١٨٢٠) جـ١ ص٢٣ وما يليها ؛ انظر مع ذلك فهرست فلوغل : Kais. Kon. Bibl. في ڤينا ، جـ٢ ص٦ وتجد تفاصيل اخرى عن«قصة عنتر» فيكتاب ثوربيكه : «عنتره» (لايبزغ،١٨٦٧) ص٣١ وما يليها ؛ وقد طبع الكتاب بأكمله في القاهرة باثنين وثلاثين مجلدا .

الشلل الروحي الذي كان يزحف على الأسلام منذ أمد والذي افصح عن ذاته بالانتصار الكامل للاشعرية أو اصحاب الفلسفة الكلامية حوالي سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م فقد كان الاتجاه العقلي والفلسفي أقرب الى الموت منهما الى الحياة؛ وبقي في الميدان حزبان : السنة والمتصوفة ؛ وكان الحزب الاول بطبيعة الحال غير متسامح مع أي شيء يقارب التفكير الحر ؛ ووجد في مبدأ الاجماع (الذي كان على وجه التقريب تحت سيطرته) سلاحا فعالا ضد الالحاد ؛ وبوسعنا ان نرى الى أي حد استعمله احيانا بدون رحمة من القطعة الآتية في «يواقيت» الشعراني ؛ فبعد أن يقدم أمثلة من الاضطهاد الذي تعرض له قديما المتصوفة من أمثال بايزيد وذي النون وآخرين على يد اعدائهم الالداء من العلماء ؛ يمضي الى التحدث عما حدث في وقت متأخر (٧٥) :ــ

اضطهاد الملاحدة :

« وأخرجوا الامام ابا بكر النابلسي مع فضله وكثرة علمه واستقامته في طريقه من الغرب الى مصر وشهدوا عليه بالزندقة عند سلطان مصر فأمر بسلخه منكوسا فصار يقرأ القرآن وهم يسلخونه بتدبر وخشوع حتى قطع قلوب الناس وكادوا ان يفتتنوا به وكذلك سلخوا النسيمي بحلب (٧٦)

---

(٧٥) الشعراني : اليواقيت (طبعة القاهرة ، ١٢٧٧هـ) ص١٨
[= عبدالوهاب الشعراني : «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الاكابر» ، وبهامشه الكبريت الاحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر ، الطبعة الاخيرة ، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م شركة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، جـ١ ص١٥ والمراد بالكبريت الاحمر اكسير الذهب ، وبالشيخ الاكبر محي الدين بن العربي ، والكبريت الاحمر يتحدث به ولا يرى لعزته ، والكلام هنا عن كتاب «الفتوحات المكية» وهو يعني ان مرتبة علوم هذا الكتاب بالنسبة لغيره من كلام المتصوفة كمرتبة اكسير الذهب بالنسبة لمطلق الذهب . «المترجم»]

(٧٦) سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م ويجد القارىء معلومات كاملة وجد ممتعة عن النسيمي الذي كان ممتازا بنفس المرتبة كشاعر تركي ومتصوف =

وغملوا له حيلة حين كان يقطعهم بالحجج ، وذلك انهم كتبوا سورة الاخلاص[٧٧] وارشوا من يخيط النعال وقالوا هذه ورقة محبة وقبول فضعها لنا فى اطباق النعل ، ثم اخذوا ذلك النعل واهدوه للشيخ من طريق بعيدة فلبسه وهو لا يشعر ثم طلعوا لنائب حلب وقالوا له : بلغنا من طريق صحيحة ان النسيمي كتب : «قل هو الله احد» وجعلها فى طباق نعله وان لم تصدقنا فأرسل وراءه وانظر ذلك ففعل فاستخرجوا الورقة فسلم الشيخ لله تعالى ولم يُجب عن نفسه وعلم انه لا بد ان يقتل على تلك الصورة واخبرني بعض تلامذة تلامذته انه صار ينشد موشحات فى التوحيد وهم يسلخونه حتى عمل خمسمائة بيت وكان ينظر الى الذي يسلخه ويبتسم ... وكذلك اخرجوا الشيخ ابا الحسن الشاذلي[٧٨] من الغرب الى مصر وشهدوا عليه بالزندقة وسلمه الله من كيدهم ورموا الشيخ عزالدين بن عبدالسلام[٧٩] بالكفر وعقدوا له مجلسا فى كلمة قالها فى عقيدته وحرشوا السلطان عليه ثم حصل له اللطف ... ورموا الشيخ تاج‌الدين السبكي[٨٠] بالكفر وشهدوا عليه انه يقول باباحة الخمر

= على مذهب الحروفيـة في كتاب المستر ئي ٠ جَيْ ٠ دبليو ٠ گِبْ : «تاريخ الشعر العثماني» [بالانكليزية] جـ١ ص٣٤٣ـ٣٦٨ ومن غير المحتمل الى حد كبير ان القصة المدرجة هنا تقدم السبب الحقيقي الذي أدين من أجله ، فتصريحاته في وحدة الوجود تقدم سببا كافيا ، ويثبت مترجمة التركي «لطيفي» البيت الذي كلفه حياته ؛ ويمكنني ان اضيف ان مؤلف «شذرات الذهب» [ابن عماد الحنبلي] يسميه نسيم‌الدين التبريزي (ويقال بصورة عامة انه من أهالي «نسيم» فى منطقة بغداد) ويذكر انه سكن حلب حيث كثر اشياعه وانتشرت مبادئه الالحادية على نطاق واسع ٠

(٧٧) السورة ١١٢ من القرآن الكريم ٠ انظر ص١٦٤

(٧٨) مؤسس مرتبة الدراويش الشاذلية ٠ توفي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ٠

(٧٩) فقيه وعالم ممتاز اضفي عليه لقب «سلطان الفقهاء» تكريما له ٠ توفي في القاهرة سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م ٠

(٨٠) مشرع بارز (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠م) ٠

[واللواط][٨١] وانه يلبس في الليل الغار[٨٢] والزنار[٨٣] وأتوا بـه مغلولا مقيدا من الشام الى مصر » هـ •

هذه صورة مفرطة التلاوين ؛ ويجب ان نعترف من جهة العلماء انهم قلما التجأوا الى العنف ، فقد انقذ الاسلام ، لحسن الحظ ، من فظائع محاكم تفتيش منظمة ، ومن الجهة الثانية فان سلطانهم كان الآن راسخا الى حد ان كل تقدم نحو الحرية الخلقية والعقلية قد توقف على ما يظهر ، أو على أي حال لم يفصح عن ذاته الا في انطلاقات متقطعة ؛ وقد مثلت الصوفية الى حد ما حركة من هذا النوع ، غير ان المتصوفة اشتركوا في انتصار الفلسفة الكلامية واسهموا في ردة الفعل التي نجمت ، ولم يعودوا أقلية مضطهدة تجاهد للحصول على التسامح فقد وجدوا انفسهم جنبا الى جنب مع علماء محترمين على منصة عريضة تتسع لجميع الاحزاب ، ورأوا أبطالهم المشهورين قد استحالوا الى (اولياء) عند اهل السنة ، ولم تعمل المصالحة عملها برفق دائما ـ فقد كان في الحقيقة ثمّ احتكاك مستمر ـ ولكن يبدو على العموم انها قد تحملت الارهاق والتوتر بصورة حسنة تدعو الى الدهشة ، فاذا كانت النفوس التقية قد فزعت من فقدان النظام عند الدراويش ، واذا كان المتطرفون يسرّون بحرق كتب ابن العربي وابن الفارض فان الفقهاء على العموم اظهروا ميلا لايقاف الحكم في أمور تخص الاولياء واعتبارهم فوق النقد البشري •

ابن تيمية (٦٦٢هـ/١٢٦٣م-٧٢٩هـ/١٣٢٨م)

بوسعنا ان نأخذ رجلين من معسكرين متضادين تمام التضادد ، نموذجين يمثلان الحياة الدينية لهذه الفترة ، وهما تقي الدين بن تيمية

(٨١) اللفظة بين العضادتين محذوفة من ترجمة نكلسن •

(٨٢) اورد نكلسن لفظة «الغيار» بدلا من «الغار» وترجمها بـ « شعار الكافرين » •

(٨٣) كان من عادة الزردشت (وحسب العقيدة الاسلامية ، المسيحيين وبقية الكفار) [التعبير لنكلسن] التمنطق بالزنار •

وعبدالوهاب الشعراني ؛

ولد ابن تيمية في حران سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م وقدم به والده بعد بضع سنوات الى دمشق هاربا من وجه المغول ، وهناك تثقف ثقافة ممتازة في حينه ، وقد قيل انه لم ينس اي شيء كان يتعلمه مرة واحدة وكانت معلوماته في الفقه والقانون واسعة الى حد انه كاد يبرر قول من يقول : « إن الحديث الذي لا يعترف به ابن تيمية ليس بحديث » وقد كان حنبليا قحاً - اي انه كان بعبارة اخرى يتمسك بان القرآن يجب ان يفسر حرفيا وليس في ضوء العقل - كرس حياته للاصلاح الديني بشجاعة نادرة ؛ وكان هدفه باختصار أن يعيد التوحيد البدائي الذي جاء به محمد (ص) وان يطهر الاسلام من الالحاد والتفسخ اللذين هددا بتدميره . بوسع المرء ان يتصور أي وكر للزنبار كان يهاجم ؛ وقد سقط المتصوفة والفلاسفة والفقهاء الكلاميون جميعا على حد سواء تحت سياط اتهاماته . لم ينحن لأي سلطان ولكنه استمد مناقشاته من الحديث وسنة الاسلام الاولى وعبر عن معتقداته بأقوى التعابير دون النظر الى النتائج ومع أنه ألقي به في غياهب السجن عدة مرات لم يمكن ايقافه عند حده طويلا ، وقد بلغ الذروة عندما رفع عقيرته ضد خرافات العقيدة الشائعة - عبادة الأولياء ، وزيارة الاضرحة ، والنذر والادعية والابتهالات ؛ وكانت هذه الامور التي استهجنها المطهر المتحمس كمجرد وثنية ، جزءاً من عبادة محترمة احيطت بهالة من التقاليد القديمة ، وقد ركبت نفسها في نمو طفيلي باذخ في الاسلام ؛ فقد كان اغلب المسلمين يعتقدون ، وما زالوا يعتقدون ضمنياً ، في الأولياء ويتقبلون معجزاتهم ويقدسون آثارهم ويزورون أضرحتهم ويبتهلون لشفاعتهم ؛ وبلغ بابن تيمية الامر الى ان صرح بانه من الخطأ التماس شفاعة النبي (ص) او زيارة ضريحه ، غير ان ذلك كان احتجاجا لا طائل فيه ، فأنهى أيامه في الأسر بدمشق ؛ ويشهد على عمق الاحترام الذي كان سائدا بصورة عامة ازاء المصلح الجريء الجمهور الحاشد الذي اشترك في تشييع جنازته - فقد قيل انه كان بين الحاضرين

٢٠٠،٠٠٠ رجل و١٥٠،٠٠٠ امرأة ؛ ومن الغرابة بمكان انه دفن فى مقبرة الصوفية الذين هاجم مبادئهم بمنتهى المرارة ، وقدست الكثرة الكاثرة ذكراه – كولي من الاولياء ! ولم تتهافت المبادىء التى الهمت ابن تيمية ، رغم ان تأثيرها المباشر اقتصر على حلقة جد صغيرة ؛ إذ سنراها تعود الى الظهور منتصرة فى الحركة الوهابية فى القرن الثامن عشر للميلاد •

الشعراني (ت٩٧٣هـ/١٥٦٥م) :

بالرغم من محاولة الغزالي البارعة للتوفيق بين الفقه التعليمي والتصوف سرعان ما اتضح ان الفريقين فى جوهرهما لا يمكن المصالحة بينهما ، فعلماء السنة الذين تمسكوا بسلطة القرآن والحديث بقوة رأوا خطرا هائلا بالنسبة لهم فى الايحاء الباطني الذي كان المتصوفة يزعمون تملكه ، فى حين ان الاخيرين رغم اتفاقهم ظاهريا مع الشريعة الاسلامية كانوا ينظرون باحتقار الى ان الفكرة الحقيقية لله يمكن ان تستمد من الفقه أو من أي مصدر سوى النور الداخلي للايحاء السماوي ، ومن ثم كان التباين بين فكرتي الفقيه (أي اللاهوتي) والفقير (أي الدرويش) فصنف الفقهاء ألف سلطة دينية قوية متحالفة تحالفاً وثيقا مع الحكومة ، على حين ان المتصوفة وجدوا سندهم الرئيس بين جماهير الشعب ، ولا سيما الفقراء ، ولا حاجة بنا لنا للوقوف اكثر عند الخصومة الطبيعية التى كانت قائمة دائما بين هذه «التعاونيات» المتنافسة والتى هى مظهر بارز فى تاريخ الاسلام الحديث ، فمن المفيد اكثر قضاء بضع لحظات مع آخر ثيوصوفي عظيم فى الاسلام ألا وهو عبدالوهاب الشعراني الرجل الذى كان رغم نقاط ضعفه كافة ، مفكرا اصيلا ذا تأثير بقي قويا الى هذا اليوم كما هو واضح من الطلبات المستمرة لمؤلفاته • لقد ولد حوالي مفتتح القرن السادس عشر للميلاد ؛ وليس لدينا الا القليل من المعلومات فيما يتعلق بحياته الظاهرية خارج نطاق كونه نساجا يسكن القاهرة ؛ وكانت

مصر في هـــذا الوقت اقليما من أقاليم الامبراطورية العثمانية ؛ ويوازن الشعراني بين الحالة التعيسة للفلاحين تحت الحكم الجديد ورخائهـــم النسبي على عهد المماليك ، فقد كان ابتزاز جباة الضرائب فظيعا بحيث ان الفلاح كان يرغم على بيع كل انتاج أرضه وحتى - في بعض الاحيان - ثوره الذي يحرثها ، لينقذ نفسه واسرته من السجن ، وقد حُطِّم كل عمل يدر ربحا بالمصادرة ، على انه يجب ألا يظن ان الشعراني منح مثل هذه الامور الدنيوية اهتماما جديا ، فقد عاش في دنيـــا الرؤى والتجارب المدهشة ، وتحادث مع الملائكة والانبياء ، شأنه في ذلك شأن سلفه الذي فاقه شهرة : محيالدين بن العربي ، وقد درس «فتوحاته المكية» ولخَّصها؛ وتعكس ترجمته الذاتية : «لطائف المِنن» صورة الكاهن الذي يعلم الامور الدينية بكامل هيكله ، فهي سجل للمواهب الروحانية والفضائل الفريدة التي أغدقت عليه ، وقد كادت تكون قطعـــة خالدة في مدح الذات بلا خجل ، لو لم يؤكد لنا المؤلف مرة بعد أخرى ان كافة صفاته الخارقة نِعَم الهية ؛ وقد أفصح عنهـــا بامتنان مَنْ تلقّاها بتمجيد عظيـــم . إننا لنعامل الشعراني معاملة جد بعيدة عن الانصاف اذا ما حكمنا عليـه بهذا الكتاب وحده ، فقد كان تاجرُ المعجزات المتعجرف من أعلم رجال زمانه ، وكان بوسعه أن يدحر الفقهاء المتكلمين بأسلحتهم ؛ والحق انـه اعتبر الفقه الخطوة الأولى نحو التصوف ، وحاول أن يبين أنهمـا في الحقيقة مظهران مختلفان لنفس العلم ؛ وحاول كذلك ان يوفق بين مدارس الشريعة الاربع المقدسة التي برر اختلافها بقول مشهور ينسب الى الرسول (ص) : «اختلاف امتي رحمة» ، وقد احتفظ الشعراني ، كسائر المتصوفة العرب عموما ، بتصوفه ضمن حدود ضيقة ، وصرح بانه من اشياع الفريق المعتدل الذي يتبع الجنيد البغدادي[٨٤] (ت ٢٩٧-٢٩٨هـ/٩٠٩م-٩١٠م)

(٨٤) الجنيد (ابو القاسم الخراز أو الزجاج) : زاهد بغدادي حج الى مكة ثلاثين حجة على الاقدام . عرف بسيد الطائفة الجنيدية و «طاووس العلماء» . من اقواله : «التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى واصلـه الصرف عن الدنيا » و« الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار » . توفي =

ورغم جميع ادعاءاته المسرفة واعتقاده الصبياني بالخوارق ، لم يفقد صلته بالدين الاسلامي •

محمد بن عبدالوهاب وخلفاؤه :

لقد حاول ابن تيمية فى القرن الثالث عشر للميلاد اجتثاث المساوىء التى أحاطت العقيدة الاسلامية البسيطة بالغموض ، فأخفق ، غير ان آخرين استأنفوا عمله فتوّج هذا العمل ، بعد فترة طويلة ، بحركة الاصلاح الوهابية(٨٥) •

ولد محمد بن عبدالوهاب(٨٦) الذى اشتق اسم الحركة منه حوالي سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠م فى نجد ، هضبة بلاد العرب ، وقد زار فى شبابه المدن الرئيسة في الشرق « وهو عمل متعارف عليه عند مواطنيه حتى فى الوقت الحاضر »(٨٧) ، وقد اقنعه ما لاحظه خلال اسفاره أن الاسلام متفسخ تماما ، فصمم ابن عبدالوهاب على اعادة تأسيس دين محمد (ص) النقي بشكله الاصلي بعد ان الهبت حماسته امثولة ابن تيمية الذى استنسخ كتاباته بيده(٨٨) ، وعلى ذلك فقد عاد الى وطنه واعتزل مع

= سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م [الاب فردينان توتل : « المنجد فى الادب والعلوم » معجم لاعلام الشرق والغرب ، ١٩٥٦ ، ص١٤٢-١٤٣] •

(٨٥) راجع : جى·ايل·بوكهارت : «مواد لتاريخ الوهابية» نشر فى المجلد الثاني من كتابه : «ملاحظات عن البدو والوهابية» [بالانكليزية] (لندن ، ١٨٣١) وكان بوركهارت فى بلاد العرب عندما كان الاتراك منشغلين باستعادة الحجاز من الوهابيين ، وقد اختصر دوزى روايته التخطيطية المتعة للغاية : «مقالة عن تاريخ الاسلام» الفصل ١٣ [بالفرنسية] •

(٨٦) يسميه معظم الكتاب الاوربيين «عبدالوهاب» فحسب ، متبعين فى ذلك أمثولة بوركهارت ، وللاطلاع على موجز لمبادىء الوهابية وتاريخها راجع مقال : «الوهابية» للبروفيسور دي·اس·مارغوليوث فى « موسوعة هيستنگز للدين والاخلاق » [من فصل الهوامش الملحق بالكتاب]

(٨٧) بوركهارت ، سبق ذكره ، جـ٢ ص٩٦

(٨٨) لا تزال مخطوطات ابن تيمية التى استنسخها ابن عبدالوهاب موجودة (گولدتزيهر فى مجلة جمعية المستشرقين الالمان ، المجلد : ٥٢ ص١٥٦) •

اسرته في الذرعيّة في الوقت الذى كان فيه محمد بن سُعود الشخصية الرئيسة في المدينة فأصبح هــذا الرجل اول اشياعه وسرعان ما تزوج ابنته ؛ ولكن الوهابيين لم يحرزوا انتصاراتهم الاولى العظيمة الا في نهاية القرن الثامن عشر وذلك بقيادة عبدالعزيز بن محمد بن سعود ؛ وفي سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م نهبوا مدينة الامام الحسين(٨٩) ، وهي مدينـة قريبة من بغداد(٩٠) ، وقتلوا خمسة آلاف شخص وحطموا قبة ضريح الحسين وكان تقديس الشيعة كافة لذلك الضريح ، كما يقول بوركهارت، سببا كافيا لاجتذاب غضب الوهابيين اليه ؛ ونصبوا انفسهم بعـــد عامين أسيادا لبلاد الحجاز برمتها ، بما فيها مكة والمدينة ، وبعد وفاة عبدالعزيز الذى اغتيل في العام نفسه استأنف ولده البكر ، سعود ، اعمال النصر ووضع القسم الاعظم من بلاد العرب تحت حكم الوهابيين ؛ واخيرا في سنة ١٨١١م بعثت تركيا بأسطول وجيش لاستعادة الحرمين الشريفين • وقد انجز هذه المهمة محمدعلي باشا ، والي مصر ، (١٨١٢-١٨١٣م) وانتهت الحرب ، بعد قتال خمس سنوات ضارية ، بانتصار الاتراك الذين الحقوا بالوهابيين سنة ١٨١٨م هزيمـة منكرة واستولوا على عاصمتهـم «الذرعية» بهجوم صاعق ؛ على ان المذهب لا يزال يحتفظ بقوته في بلاد العرب الوسطى وقد احرز في السنوات الأخيرة أهمية سياسية(٩١) •

الاصلاح الوهـّابي :

لقد اعتُبـر الوهابيون في نظر الاتراك كفارا ومبتدعي دين جديد ، وكان من الطبيعي ان يظهروا في هذا الضوء ، فقد قطعوا سبيل قوافل الحـّج وخرّبوا القباب والأضرحة المزخرفة لأكثر الأولياء قدسية (دون أن يستثنوا ضريح النبي «ص» نفسه) وحطموا الحجر الاسود في الكعبة

(٨٩) هذه هي المدينة التي تسمى عادة كربلاء او مشهد الحسين •
(٩٠) يقول نكلسن «بجوار بغداد» وهو كلام تعوزه الدقة •
(٩١) الكلام في سنة ١٩٣٠ (تاريخ الطبعة الثانية للكتاب)

ولم يفعلوا كل هذا [في زعمهم] مبتـدعين بل مصلحين ، ولـــم يشبهوا القرامطة إلا في أفعالهم ويقول بوركهارت بكل حق : « لم يوجـد تعليم واحد جديد في قانون الوهابية ، فقد اتخذ عبدالوهاب دليلا وحيدا لـه يتألف من القرآن والسنة (أو القوانين التي قامت على أحاديث محمـــد «ص») والفرق الوحيد بين هذه الطائفة والاتراك السُنّة ، مهما كانت تسميتهم على هذا الشكل بعيدة عن الدقة ، هـــو أن الوهابيين يتبعون بصرامة نفس القوانين التي يهملها الآخرون أو التي توقفوا عن مراعاتها بالمرة »[(٩٢)] ويقول دوزي : « لقد هاجم الوهابيون عبادة محمد (ص) عبادة وثنية ، رغم انه في نظرهم نبي بعث ليعلن إرادة الله ، ولكنه لـــم يكن كانسان يختلف عن سواه ، وان هيكله الفاني أبعد ما يكون عن الصعود الى السماء ، اذ استقر في ضريح في المدينة ؛ وقد حاربوا عبادة الأولياء بنفس القوة ، واعلنوا ان الناس جميعا سواسية امام الله ولا يمكن حتى لاتقاهم واكثرهم فضيلة ان يشفع عنده ، فمن الاثم الابتهال الى الاوليـاء وعبادة آثارهم وبقاياهم[(٩٣)] وبنفس الروح البيوريتانية [أي النزعـــة التطهريّة] منعوا التدخين وارتداء الثيـــاب المزوقة ، والدعاء بالمسبحة ، « وقد روي أنهم حظروا شرب القهوة كذلك ، على ان هذا ليس حقيقة فقد استعملوها الى درجة بعيدة عن الاعتدال »[(٩٤)] .

السنوسيون في افريقيا :

ولقد قورنت الحركة الوهّابية بحركة الاصلاح البروتستانتي في اوربا، ولكن على حـين ان الاخيرة اعقبتهـــا الثورتان الانكليزية والفرنسية فان الأولى لم تنتج حتى الآن أيّ نتائج سياسية عظيمة . لقد افضت الى انعاش ديني عام في العالم الاسلامي ولا سيما في حركة «الاخوّة السنوسيّة»

(٩٢) نفس المكان : جـ٢ ص١١٢
(٩٣) «مقالة عن تاريخ الاسلام» [بالفرنسية] ص٤١٦
(٩٤) بوركهارت : نفس المكان ، ص ١١٥

الغامضة التي لها تأثير عظيم في طرابلس والصحراء ، وفي كافة أرجاء المنطقة الداخلية للشمال الافريقي ، ويعد اعضاؤها بالملايين ، وقد ولد محمد بن علي بن سنوسي مؤسس هذا التنظيم الواسع الهائل في الجزائر سنة **١٧٩١**م وعاش لعدة سنوات في مكة ومات في جغبوب في الصحراء الليبيّة ، بين مصر وطرابلس ، سنة **١٨٥٩**م ويجب ان نشير على القارىء فيما يتعلق بالاهداف الحقيقية للسنوسية ، بمراجعة بحث [بالانكليزية] للأب ئي٠سيل («مقالات في الاسلام» ص**١٢٧ وما بعدها)** وليس من شك في انهم يعارضون تماما كل الوان الحضارة الغربية والتمدن الحديث ويحاولون ابتعاث الاسلام بتأسيس دولة ثيوقراطية مستقلة على غرار تلك التي اوجدها النبي (ص) وخلفاؤه في المدينة في القرن السابع للميلاد ٠

الاسلام والمدنية الحديثة :

منذ أوضح نابوليون معالم الطريق بحملته على مصر سنة **١٧٩٨**م أصبح المسلمون في ذلك القطر كما في الشام وشمال افريقيا تحت التأثير الاوربي اكثر فأكثر[٩٥] ، فمحمدعلي الذي اوردنا ذكره في اعلاه ، والذي وضع اسس الاسرة الخديوية كان هو وخلفاؤه شاعرين تمام الشعور بالفوائد العملية التي يمكن الحصول عليها من ثقافة الغرب المتفوقة ، ومع أن سياستهم في هذا المجال كانت متسمة بالحماسة اكثر من التعقل فانهم لم يجهدوا انفسهم عبثا ، وكان ادخالهم الطباعة الى البلاد سنة **١٨٢١** نقطة تحول ؛ فمن ناحية ، اذا كان نشر العديد من الكتب الكلاسية[٩٦] التي كادت تُنسى قد الهب حماسة العرب لأدبهم القومي ، فان

(٩٥) لا يسعنا الدخول في تفاصيل هذا الموضوع فقد كتب بروكلمان استعراضا للادب العربي الحديث في كتابه : «تاريخ الادب العربي» جـ٢ ص٤٦٩ـ٥١١ وهيوار في كتابه : « الادب العربي » ص٤١١ـ٤٤٣

(٩٦) لويس شيخو : «الادب العربي في القرن التاسع عشر» =

دعوة التقدم ـ وانا استعمل الكلمة بلا تحيز ـ قد اتسعت بالعـــديد من المجلات السياسية والادبية والعلمية التي تظهر الآن بانتظام في كل قطر يتكلم بالعربية[٩٧] ، وفضلا عن هذه الصحائف الموسمية ، فقد ضاعفت المطابع المحلية والاوربية في القاهرة وبولاق[٩٨] وبيروت انتاج الكتب من مختلف الانواع القديمة والحديثة ؛ وأصبح علم أوربا وثقافتها بمتناول اليد في مترجمات ومؤلفات منقولة بتصرف وتكوّن قائمة اسمائها مجلدا قائما بذاته ، فبوسع العربي ان يقرأ بلغته مآسي راسين وملاهي موليير[٩٩] واساطير لافونتين ؛ و «پول وفرجيني» و «الطلسـم» «ومونت كريستو» (فضلاً عن عشرات الروايات الأقل اهمية) وحتى إلياذة أوميروس[١٠٠] ؛ وبمحاذاة هذه الفعالية التقليدية نجد حركة نشطة نامية بعيدة عن نماذج الماضي الادبية « فليس الادب العربي الحديث وريثـا للادب العـربي الكلاسي القديم الا بقدر محدود ، بل انه ليُظهر جنوحا لرفض تراثـه بالمرة ، وزعماؤه في الاغلب رجال ارتووا من ينابيع أخرى وهم ينظرون الى العالم بعيون مختلفة ؛ ولكن الماضي لا يزال مع ذلك يلعب دورا في

= [بالفرنسية] (بيروت ، ١٩٠٨ـ١٩١٠) وهو كتاب يعالج بصورة رئيسة الادب الذى انتجه العرب المسيحيون في الشام ويستحق ان يذكر كواحد من الكتب القليلة في الموضوع مؤلف بلغة اوربية ، ويمكن دراسة أثر الافكار الغربية في الفقه الاسلامي في «رسـالة التوحيد» للفقيه المصري العظيم محمد عبده (١٨٤٢ـ١٩٠٥) المترجمة الى الفرنسية بقلم ب٠ميشيل ومصطفى عبدالرّزاق (باريس ، ١٩٢٥) [من فصـل الهوامش الملحق بالـكتاب] ٠

(٩٧) راجع ايم٠هارتمان : « الصحافة العـربية في مصـر » [بالانكليزية] (لندن ، ١٨٩٩) ٠

(٩٨) حي في القاهرة على ضفّة النيل ، فيه مطبعة بولاق الرسميّة جاء بها نابوليون من الفاتيكان في حملته على مصر (١٧٩٨م) ٠

(٩٩) بروكلمان : نفس المكان ، ص٤٧٦

(١٠٠) ترجمها سليمان البستاني الى العربيـة نظما (القاهرة ، ١٩٠٤) راجع ملاحظة البروفيسور مارغوليوث الممتعة عن هذا الكتاب في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية لسنة ١٩٠٥ ص٤١٧ وما بعدها ٠

رواسبهم العقلية ، وهناك فريق بينهم لا يزال ذلك الماضي ممسكا اياهم في قبضته التى لا تكاد المؤثرات الجديدة تزعزعها ، ولعشـــرات السنين انغمر انصار «القديم» و «الجديد» فى صراع من اجل روح العالم العربي، وهو صراع لم يتأكد فيه حتى الآن انتصار جانب على آخر ؛ فالمتاحرون (اذا ما صنفناهم بصورة تقريبية لأغراض عملية) هم الطبقات المثقفـــة ثقافة أوربية من المصريين والسوريين من جهة ، واولئك الذين نجدهم فى مصر والبلاد العربية الاقل تقدما ، ممن ترسمت ثقافتهم الخطـوط التقليدية من الجهة الثانية ؛ ومهما تكن النتيجة النهائية فليس ثمة شك فى ان الصراع قد انتزع العالم العربي من مراسيه القديمـــة ، وأن الادب المعاصر فى مصر والشام يتسم فى تطوراته الأكثر جدّة روحا أجنبيـة بالنسبة للتقاليد القديمة »(١٠١) .

ولم تمس الثقافة الغربية حتى الآن الا سطح الاسلام ، فهل ستدق فيما بعد جذورا اعمق وتتغلغل فى الحواجز العميقة الغور لذلك التنظيم الكلامي والتقليد الادبي اللذين ترسخا بثبـــات فى عواطف الشـعوب الاسلامية ، أم هل ستبقى دائما انجازا خارجيا ذا قيمة عالية للقلة المستنيرة المتحررة وهدف احتقار وكره للمسلمين عموما ــ هذه معضلات قد لا يمكن حلها تماما لعصور قادمة(١٠٢) .

---

(١٠١) هـ٠ا٠ر٠ گب : «دراسات فى الادب العـربي المعاصر» ، مجلة معهد الدراسات الشرقية المجلد : ٤ القسم : ٤ ص٧٤٦ ؛ قارن كذلك المجلد : ٥ القسم : ٢ ص٣١١ وما بعدها ، وقد ذكر السيد گب المراجع الرئيسة فى الموضوع ، ومن المؤمل انه سيستأنف استعراضه ويكمله ، ذلك الاستعراض الذى لا مثيل له فى الانكليزية ، وذلـــك لفـائدة من لا يحسن العربية أو الروسية .

(١٠٢) هكذا نجد ان الحركة التى بدأت ببشار وابي نواس لم تكن حركة عنصرية بحتة كما تصورها بعض مؤرخي الادب انما كانت بداية صراع الجديد مع القديم ــ الصراع الذي استمر الى يومنا هذا فى أرض الوطن الام ، ولاسيما مصر ولبنان وكذلك في أرض المهجر حيث بدأنا =

والماضي – في الوقت ذاته – يقدم مجالا واسعا ممتازا للدراسة ، مصداقا لقول الشاعر [من السريع] :–

من لم يعِ التاريخَ في صدرهِ   لم يدرِ حلو العيش من مُرِّهِ
ومن وعى أخبارَ من قد مضى   أضاف أعمارا الى عمرهِ



== نسمع من الشعراء المغتربين نغمات أشبه بما حفظه لنا تاريخ العصر العباسي الأول ، فها هو فوزي المعلوف مثلا يقول [من الكامل] :

خل البداوة رمحها وحسامها   والجاهلية نوقها وخيامها

فيرد عليه الياس فرحات بنفس الوزن والقافية قائلا :

حي البداوة نوقها وخيامها   والجاهلية رمحها وحسامها
حيتك اشباح القديم وسلمت   فمن العدالة ان ترد سلامها
قد تبلغ النفس الطموح اشدها   ويظل يذكرها الولاء فطامها

[ديوان فرحات ، طبع سان باولو ، ص٢٥٥ = محمد عبدالغني حسن ، «الشعر العربي في المهجر» (فصل : «بين القديم والجديد» ص٢٦–٢٧] . « المترجم »

المصـــادر الأوربيّة

لقد اعدت القائمة الآتية لتقدم لطـــلاب العربيـــة ولأولئك الذين لا يسعهم ان يقرأوا بتلك اللغة ، وسيلة الحصول على المزيد من المعلومات في مختلف الموضوعات التي تقع ضمن نطاق كتاب كهذا ؛ وما دام من غير الممكن تقديم شيء قريب من البيليوغرافيا الكاملة فقد اقتصرنا على ذكر عدد قليل من اهم المترجمات من العربيـة الى الانكليزية والفرنسية والالمانية واللاتينية ، وقد حذفنا (١) البحوث القصيرة عن بعض الكتاب العرب الذين ذكرت اسماؤهم مشفوعة بالمؤلفات الأدبية الرئيسة المتعلقة بهم في « تاريخ الأدب العربي » العظيم لبروكلمان و (٢) عددا عظيما من الكتب والمقالات التي تهم المختصين اكثر من الطلاب ، وهناك معلومات اضافية يقدمهـــا ئي• جي° • براون في كتابه : «تاريخ فارس الأدبي» [بالانكليزية] ج١ ص٤٨١–٤٩٦ و د• ب• ماكدونالد في كتـابه : «تطور الفقه الاسلامي» الخ •• (لندن ، ١٩٠٣) ص٣٥٨–٣٦٧ في حين أن ملحق «الادب العربي» تأليف هـ • ا•ر•گب (مطبعة جامعة اكسفورد ، ١٩٢٦) يضم قائمـــة مختارة احسن اختيار مـن كتب المراجع والمترجمات ، وبوســـع الذين يحتاجون الى مصادر اكثر تفصيلا ان يراجعوا : «فهرست الكتب العربية أو ذات الصلة بالعرب المطبوع في اوربا المسيحية مـن ١٨١٠–١٨٨٥» ، تصنيف ڤي • شوڤان (ليبج ، ١٨٩٢–١٩٠٣) «بالفرنسية» و «الفهرســت الشرقي» [بالالمانية] تصنيف ا• مولر ، وئي كوهن ، ول• شيرمان (برلين ٨٨٧) والـكتاب اليدوي في الادب الاســـلامي [بالالمانية] تصنيف دي• بفانمولر (برلين ولايبزغ ، ١٩٢٣) و «فهرست الكتب العربية في المتحف البريطـــاني» [بالانكليزية] تصنيف أي • جَي° • ايلس ، بمجلديـن (لندن ١٨٩٤–١٩٠٢) مع «الفهرست التكميلي» ، تصنيف ا•س• فولتُن واي • جَي° أيلِس° (لندن ، ١٩٢٦) •

وكقاعدة لم نكرر عناوين الرسائل والكتب ذات الصبغة الاختصاصية التي سبق ذكرها في الهوامش •

(١)

PHILOLOGY فقه اللغة

١ ـ ث. نولدكه : « **اللغات السامية** » [بالألمانية] (الطبعة الثانية ، لايبزغ ، ١٨٩٩) .

اعادة طبع منقحة وموسّعة للاصل الالماني لبحثه الموسوم بـ «اللغات السامية» [الانكليزية] في الموسوعة البريطانية (الطبعة التاسعة) .

٢ ـ وليم رايت : « **قواعد اللغة العربية** » الطبعة الثالثة تنقيح دبليو . روبرتسن سمث وايم . جَيْ . دى غويه ، بمجلدين (كمبرج، ١٨٩٦–١٨٩٨) .

افضل قواعد اللغة العربية للطلبة المتقدمين ؛ وقد يفضل المبتدئون استعمال مختصره الذي وضعه ف. دوپري ثورنتون وهو : « **مبادىء اللغة العربية : كتاب قواعد** » (مطبعة جامعة كمبرج ، ١٩٠٥) .

٣ ـ ئي. دبليو. لين : « **المعجم العربي الانكليزي**» بثمانية اجزاء (لندن ، ١٨٦٣–١٨٩٣) .

من المؤسف ان هذا العمل الرائع غير كامل ، ومما يستحق من المعاجم ذكراً خاصاً معجم اه دى بِبِرْ شتاين كازميرسكي ، (« المعجم العربي–الفرنسي) ، بمجلدين ، باريس ، ١٨٤٦–١٨٦٠ وباربعة مجلدات، القاهرة ، ١٨٧٥) ودوزي : « مستدرك المعاجم العربية » بمجلدين (ليدن ، ١٨٨١) وقد صنفت معاجم أصغر تفي بالاغراض الاعتيادية من قبل بيلو («معجم عربي – فرنسي» بيروت ، ١٩٢٨) وورتابيت وپورتر («معجم عربي – انكليزي» الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٩١٣) .

٤ ـ اگناتز گولدتزيهر : «**بحوث في اللغة العربية**» [بالالمانية] ، القسم الاول ، (ليدن ، ١٨٩٦) .

ويضم دراسات ممتازة في أصل الشعر العربي وأموراً أخرى تتعلق بتاريخ الأدب .

٥ ـ ا. ف. ميهرن : «**بلاغة العرب**» (كوبنهاغن ، ١٨٥٣)

(٢)

كتب عامة في تاريخ العرب والتراجم والجغرافية والادب الخ...

٦ ـ دائرة المعارف الاسلامية (ليدن ، ١٩١٣) لقد اسهم عدد كبير من المستشرقين في هذا الانتاج الجليل الذي ظهر منه حتى الآن النصف الاول (من الحرف أ ـ الحرف ل)[١] .

٧ ـ هـ . زوتنبرغ «**تاريخ الطبري**» [بالفرنسية] مترجم عن النسخة الفارسية للبلعمي ، باربعة مجلدات (باريس ، ١٨٦٧–١٨٧٤) .

٨ ـ المسعودي : «**مروج الذهب**» النص العربي مع الترجمة الفرنسية بقلم باربييردى مينار وپاڤيت دى كورتي ، بتسعة مجلدات (باريس ، ١٨٦١–١٨٧٧) .

كتابا الطبري والمسعودي هما اقدم واشهر كتب التاريخ العامة في اللغة العربية .

٩ ـ جي . جي . رايسكه : «**تاريخ ابي الفداء**» ، النص العربي مع الترجمة اللاتينية ، بخمسة مجلدات (هافنياي ، ١٧٨٩–١٧٩٤) .

١٠ ـ اوغست مولر : «**الاسلام في المشرق والمغرب**» [بالالمانية] بمجلدين (برلين ، ١٨٨٥–١٨٨٧) .

١١ ـ كليمنت هيوار : «**تاريخ العرب**» [بالفرنسية] بمجلدين

---

(١) هذا الكلام ينطبق على سني العشرينات « فدائرة المعارف الاسلامية» كاملة وقد بوشر باخراج نسخة جديدة لها أنجز منها حتى الآن مجلدان ، كما ان نصفها قد ترجم الى العربية [الحرف أ ـ ص] = = باربعة عشر مجلدا (الى مادة الصين) باشراف احمد الشنتناوي وابراهيم زكي خورشيد وعبدالحميد يونس وهي حافلة بالملاحظات القيمة والانتقادات ولا سيما انتقادات المرحوم أمين الخولي ، وزكي مبارك ومهدي علام ؛ على ان ما يؤخذ على النسخة العربية عدم اناقة طبعها ورداءة ورقها والتهاون في ضبط بعض الفاظها المهمة بالشكل الكامل ، وفوق كل ذلك بطء اخراجها فقد بوشر بها سنة ١٩٣٠ وهي ما تزال بعد في منتصف الطريق ، وكان بالامكان توزيع فصولها المختلفة على اكبر عدد ممكن من مترجمي البلاد العربية واخراجها في سنوات معدودة ... اما الآن وبهذا المعدل فلا يتوقع الفراغ من الترجمة قبل سنة ٢٠٠٢م فتأمل !

(باريس ، ١٩١٢) .

١٢ ـ سيد أمير علي : «**تاريخ مختصر للعـرب**»(٢) [بالانكليزية] (لندن ، ١٩٢١) .

١٣ ـ ر. دوزي : «**مقالة عن تاريخ الاسلام**» [بالفرنسية] مترجمة عن الهولندية بقلم فكتور شوڤان (ليدن وباريس ، ١٨٧٩) .

١٤ ـ تي. دبليو. أرنولد : «**تعاليم الاسلام ، وتاريخ انتشار العقيدة الاسلامية**» [بالانكليزية] (٣) (الطبعة الثانية ، لندن ، ١٩١٣) .

١٥ ـ ث. نولدكه : « **خطوط اساسية من التـاريخ الشـرقي** » [بالانكليزية] مترجم بقلم جي. أس. بلاك (لندن ، ١٨٩٢) .

١٦ ـ ستانلي لين پول : «**الاسر المالكة المسلمة**» [بالانكليزية] (لندن ، ١٨٩٤) وهو كتاب لا يستغني عنه أي باحث في التاريخ الاسلامي .

١٧ ـ ف. وستنفيلد : « **جداول انساب القبائل والاسر العربية مع ملاحظات تاريخية وجغرافية في مدونة ابجدية واحدة** » [بالالمانية] (كوتنكن ، ١٨٥٢-١٨٥٣) .

١٨ ـ البارون ماك گوكن دي سلان : « **وفيات الاعيان لابن خلكان** » [بالانكليزية](٤) مترجم عن العربية ، باربعة مجلدات ، (على نفقة الترجمات الشرقية ، ١٨٤٢-١٨٧١) .

الكتاب احد كتب الادب العربي الاكثر امتيازا وتثقيفا وامتاعا .

١٩ ـ رينو وگويارد : «**جغرافية ابي الفداء**» [بالفرنسية] مترجم عن العربية ، بمجلدين (١٨٤٨-١٨٨٣) .

٢٠ ـ سي. ايم. دوتي : «**اسفار في البادية العربية**» [بالانكليزية] بمجلدين (كمبرج ، ١٨٨٨) ، والكتاب يقدم لنا صورة صادقة حية عن حياة البدو وعاداتهم .

---

(٢) اصطنع المؤلف هنا لفظة : Saracens التي أشرنا اليها بالتفصيل في آخر هامش لفصل «العرب في اوربا» .

(٣) ترجم الكتاب الى العربية الدكتور عبدالمجيد عابدين بعنوان : «الدعوة الى الاسلام» (بالاشتراك) مع الدكتور حسن ابراهيم حسن واسماعيل النحراوي (مطبعة الشبكشي بالقاهرة ، ١٩٤٧) .

(٤) وقد جعل المترجم عنوان الكتاب «معجم التراجم لابن خلكان» .

٢١ ـ السر ريچارد ف· برتن : «**قصة شخصية لحجة الى المدينة ومكة**» [بالانكليزية] بمجلدين (لندن ، ١٨٩٨) ٠

٢٢ ـ دي· جي· هوگارث : «**التغلغل في بلاد العرب : سجل لتطور الاطلاع الغربي على شبه الجزيرة العربية**» [بالانكليزية] (لندن ، ١٩٠٥)

٢٣ ـ حاجي خليفة : «**معجم موسوعي للمطبوعات**»(٥) (النص العربي مع الترجمة اللاتينية بقلم جي٠فلوگل) ٧ مجلدات (لايبزگ ولندن ، ١٨٣٥-١٨٥٨) ٠

٢٤ ـ ف· وستنفيلد : «**مؤرخ العرب ومؤلفاته**» [بالالمانية] (من المجلد الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من مداولات الجمعية العلمية الملكية في گوتنگن) «گوتنگن ، ١٨٨٢» ٠

٢٥ ـ جي· ٠ فون هامر پرگشتال : «**التاريخ الادبي للعرب الى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة**» ٧ مجلدات [**بالالمانية**] (ڤينا ، ١٨٥٠-١٨٥٦) ٠

كتاب واسع النطاق ولكنه غير علمي ، وعديم الدقة للغاية ٠

٢٦ ـ كارل بروكلمان : «**تاريخ الادب العربي**» [**بالالمانية**] بمجلدين(٦) (فايمار ، ١٨٩٨-١٩٠٢) ٠

---

(٥) هكذا ترجم الى اللاتينية في حين ان اصل العنوان بالعربية هو : «كشف الظنون في اسامي الكتب والفنون» [راجع زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، جـ٣ ص٣٤٠] ٠

(٦) ظهر بعد ذلك مجلدان آخران بالالمانية وتم ترجمة قسم من الكتاب الى العربية (بثلاثة اجزاء) بقلم المرحوم الدكتور عبدالحليم النجار [دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩ و١٩٦١ و١٩٦٢ ويضم الجزء الاول « ادب اللغة العربية من اوليته الى سقوط الامويين » والجزء الثاني « عصر النهضة العربية منذ نحو سنة ٧٥٠م الى سنة ١٠٠٠م » وفيه بحوث عن شعراء بغداد والجزيرة العربية وحلقة سيف الدولة وشعراء مصر والمغرب والاندلس وبحث عن النثر الفني وعلم العربية وقد قسم البحث الى مدرسة البصرة والكوفة وبغداد ، وعلم العربية في فارس وبلدان المشرق ، اما الجزء الثالث والاخير الذي توفر على ترجمته المرحوم النجار فيشمل على «التاريخ» : سيرة الرسول وتاريخ المدائن وتاريخ العرب القديم وتاريخ الامم والدول وتاريخ الحضارة والثقافة ، وتواريخ مصر وشمالي افريقية=

عظيم القدر من حيث فهارس الكتب والتراجم •

٢٧ ـ ئي٠ جي٠ ٠ براون : « **تاريخ فارس الادبي** » [بالانكليزية] الجزء الاول : من اقدم الازمنة الى الفردوسي (لندن : ١٩٠٢) والجزء الثاني : الى الغزو المغولي (لندن : ١٩٠٦) •

يضم الجزء الاول من هذا الكتاب المشهور بصورة خاصة معلومات وافرة عن التاريخ الادبي للعرب •

٢٨ ـ كليمنت هيوار : «**تاريخ للادب العربي**» (لندن ، ١٩٠٣) سيجد الطالب هذا الكتاب اليدوي نافعا لاغراض المراجعة •

٢٩ ـ هـ٠ ا٠ ر٠كب : «**الادب العربي : مقدمة**» (لندن ، ١٩٢٦)

٣٠ ـ جي٠ ٠ دبليو٠ فريتاغ : «**الامثال العربية**» النص العربي مع الترجمة اللاتينية : ٣ مجلدات (بون : ١٨٣٨-١٨٤٣) •

٣١ ـ جي٠ ٠ ال٠ بوركهارت : «**الامثال العربية**» [بالانكليزية] (الطبعة الثانية ، لندن ، ١٨٧٥) •

ـ ٣ ـ

تاريخ العصر الجاهلي وادبه وعقيدته

٣٢ ـ اي٠ پي٠ كوسان دي پيرسيڤال : «**بحث في تاريخ العرب قبل الاسلام**» [بالفرنسية] ٣ مجلدات (باريس ، ١٨٤٧-١٨٤٨) يقدم استعراضا ممتازا للاساطير والتقاليد الجاهلية •

٣٣ ـ ثيودور نولدكه : «**تاريخ الفرس والعرب ايام الساسانيين**» مترجم عن تاريخ الطبري (ليدن ، ١٨٧٩) •

التعليقات الوافرة التي شفعت بها الترجمة قيمة ومهمة الى اقصى حد•

٣٤ ـ ثيودور نولدكه : « **المعلقات الخمس مترجمة ومفسرة** » (فينّا ، ١٨٩٩-١٩٠١) •

المعلقتان المحذوفتان هما معلقتا امريء القيس وطَرَفَة •

٣٥ ـ «**مذهبات الجاهلية السبع**» مترجمة عن الاصل العربي بقلم

= واليمن والاندلس ، وأدب السمر والثقافة العامة وعلم الحديث وكتب المسانيد وعلم الفقه : فقه الحنفية والمالكية والشافعية والمذاهب الاقل شهرة ، ثم مذاهب الشيعة : الزيدية والامامية والقرامطة والاسماعيلية والعلوية •

السيدة آن بلنت ومنظومة بالانكليزية بقلم ولفريد سكاون بلنت (لندن ، ١٩٠٣) .

٣٦ ـ فريدريش روكيرت : الحماسة أو الاغاني الشعبية العربية القديمة مترجمة وموضحة [بالالمانية] بمجلدين (شتوتكارت ، ١٨٤٦) .

مترجمات شعرية رائعة للشعر العربي القديم .

٣٧ ـ شارلس جي . لايل : «**مترجمات للشعر العربي القديم**» ولا سيما الشعر الجاهلي ، مع مقدمة وهوامش [بالانكليزية] (لندن ، ١٨٨٥) .

٣٨ ـ ثيودور نولدكه : « نبذة عن معرفة الشعر العربي القديم » [بالالمانية] (هانوفر ، ١٨٦٤) .

٣٩ ـ جي . ياكوب : «**دراسة في الشعر العربي**» المجلد الثالث ، « **الحب البدوي العربي القديم من عيون التواريخ** » [بالالمانية] (برلين ١٨٩٧) .

٤٠ ـ دبليو . روبرتسن سمث : « **النسب والزواج في بلاد العرب القديمة**» [بالانكليزية] (الطبعة الثانية ، لندن ، ١٩٠٣) .

٤١ ـ دبليو. روبرتسن سمث : السلسلة الاولى من «محاضرات في عقيدة الساميين» ، الطبعة الثالثة ، منقحة بقلم اس. أي. كوك (لندن ، ١٩٢٧) .

٤٢ ـ جي. ڤيلهاوزن : « بقايا عبادة الاوثان عند العرب » (الطبعة الثانية ، برلين ، ١٨٩٧) .

محمد والقرآن

٤٣ ـ جي ڤايل : «**حياة محمد**» [بالالمانية] ترجمة لسيرة ابن هشام، بمجلدين (شتوتكارت ، ١٨٦٤) .

٤٤ ـ جي. ڤيلهاوزن : « **محمد في المدينة** » [بالانكليزية] (برلين ، ١٨٨٢) .

ترجمة مختصرة لكتاب « **المغازي** » للواقدي .

٤٥ ـ اي. شپرينگر : «**حياة محمد وتعاليمه**» [بالالمانية] ٣ مجلدات (برلين ، ١٨٦١-١٨٦٥) .

٤٦ ـ السر وليم ميور : «**حياة محمد**» [بالانكليزية] طبعة تي· ايج· ڤاير (ادنبره ، ١٩٢٣) ·

٤٧ ـ ثيودور نولدكه : «**حياة محمد من المصادر الشائعة المتوفرة**» [بالالمانية] (هانوڤر ، ١٨٦٣) ·

٤٨ ـ سيد أمير علي : «**روح الاسلام**» [بالانكليزية] (لندن ، ١٩٢٢)

٤٩ ـ هـ· گرِمْ : « **محمد** » بمجلدين (مُنستر ، ١٨٩٢ـ١٨٩٥)

٥٠ ـ هـ· گرِمْ : سلسلة «**اهمية العرب في التاريخ العالمي**» : محمد [بالالمانية] (ميونخ ، ١٩٠٤) ·

٥١ ـ د· س· مارگوليوث : «**محمد وظهور الاسلام**» في سلسلة «ابطال الامم» [بالانكليزية] (لندن ونيويورك ، ١٩٠٥) ·

٥٢ ـ ا· ا· بيڤان : «**محمد والاسلام**» في تاريخ كمبرج للقرون الوسطى ، جـ٢ ، الفصل العاشر [بالانكليزية] (كمبرج ، ١٩١٣) ·

٥٣ ـ تور اندريه : « **شخصية محمد في رأي واعتقاد مجتمعه** » [بالالمانية] (اپسالا ، ١٩١٨) ·

٥٤ ـ ر· بيل : «**اصل الاسلام في بيئته المسيحية**» [بالانكليزية] (لندن ، ١٩٢٦) ·

٥٥ ـ ليوني كايتاني ، أمير «تيانو» : «**حوليات الاسلام**» [بالايطالية] جـ١ (ميلان ، ١٩٠٥)(٧) ·

ويضم هذا الكتاب الفخم علاوة على مقدمة تاريخية جديدة ضافية وسهلة المطالعة ، معلومات تفصيلية عن حياة محمد خلال السنوات الست الاولى بعد الهجرة (٦٢٢ـ٦٢٨م) ·

٥٦ ـ جي· سيل SALE (٨) : «**القرآن**» مترجما الى الانكليزية مع هوامش وبحث تمهيدي (لندن ، ١٧٣٤) ·

---

(٧) لهذا الكتاب ترجمة تركية قيمة بقلم المرحوم حسين جاهد يالچين · وللمرحوم معروف الرصافي تعليقات بارعة على هذه الترجمة في كتابه : «رسائل التعليقات» · [المترجم]

(٨) من الممتع ان نثبّت هنا دعوى بعض الباحثين بان اسم SALE هو «صالح» العربي وقد حذفت الهاء للتخفيف ، مع ذلك فقد كان من اقسى المستشرقين على الاسلام ونبيه الكريم · [المترجم]

لا تزال ترجمة سيل التي كثيرا ما اعيد طبعها ، صالحة للمراجعة ؛ وبوسعنا كذلك ان نذكر الترجمات الانكليزية بقلم جي° ايم• رودويل (لندن وهير تفورد ، ١٨٦١) وئي• ايج• بالمر (افضلها من وجهة النظر الادبية) في المجلد ٦ و٩ من «كتب الشرق المقدسة» (اكسفورد ، ١٨٨٠) اعيد طبعها في سلسلة «كتب العالم الكلاسيكية» المجلد ٣٢٨ •

٥٧ ـ ثيودور نولدكه : «**تاريخ القرآن**» ، الطبعة الثانية ، مراجعة ف• شفالي [بالالمانية] (لايبزگ ، ١٩٠٩–١٩١٩) •

قارن مقالة نولدكه : «**القرآن**» في كتابه «**خطوط رئيسة في تاريخ الشرق**» ص٢١–٥٩ او مقالته في الموسوعة البريطانية (الطبعة الحادية عشرة) •

٥٨ ـ ايج• دبليو• ستانتن : « **تعاليم القرآن** » [بالانكليزية] (لندن ، ١٩٢٠) •

تاريخ الخلافة

٥٩ ـ تي• دبليو• آرنولد : « **الخلافة** » [بالانكليزية] (اكسفورد ١٩٢٤) •

٦٠ ـ جي° ڤايل : «**تاريخ الخلافة**» [بالالمانية] ٣ مجلدات (مانهايم، ١٨٤٦–١٨٥١) •

وقد اتم المؤلف نفسه كتابه هذا ب «تاريخ الخلفاء العباسيين بمصر» [بالالمانية] بمجلدين (شتوتگارت ، ١٨٦٠–١٨٦٢) •

٦١ ـ السر وليم ميور : «**حوليات ايام الخلافة الاولى**» [بالانكليزية] (لندن ، ١٨٨٣) •

٦٢ ـ السر وليم ميور : «**الخلافة ، ظهورها ، انحلالها وسقوطها** » [بالانكليزية] (الطبعة الثانية ، لندن ، ١٩٢٤) •

٦٣ ـ اي • جي° بتلر : «**فتح العرب لمصر والثلاثون سنة الاخيرة من حكم الرومان**» [بالانكليزية] (لندن ، ١٩٠٢) •

٦٤ ـ يوليوس ڤيلها وزن : «**الدولة العربية وسقوطها**» [بالالمانية] (برلين ، ١٩٠٢)[٩] •

تاريخ ممتاز للدولة الاموية يستند على تاريخ الطبري •

---

(٩) ترجم الاستاذ يوسف العش هذا الكتاب الى العربية •

٦٥ ـ هـ٠ ف٠ أميدروز ، و د٠س٠ مارگوليوث : « **كسوف الخلافة العباسية**» [بالانكليزية] ٧ مجلدات (اكسفورد ، ١٩٢٠ـ١٩٢١) ٠

نصوص وترجمات عربية قيمة في تاريخ القرن الرابع للهجرة ٠

٦٦ ـ هـ٠ باون BOWEN : «**حياة علي بن عيسى الوزير الصالح وعصره**» [بالانكليزية] (كمبرج ، ١٩٢٨) ٠

٦٧ ـ ف٠ وستنفيلد : «**تاريخ الخلافة الفاطمية من المصادر العربية**» [بالالمانية] (گوتنگن ، ١٨٨١) ٠

ـ ٦ ـ

تاريخ التمدن الاسلامي

٦٨ ـ البارون ماك گوكين دي‌سلان : «**مقدمة ابن خلدون**» ترجمة فرنسية للمقدمة التي وضعها ابن خلدون لتاريخه العام ، ٣ مجلدات (في سلسلة ملاحظات ومستخلصات من مخطوطات المكتبة الامبراطورية ، المجلدات : ١٩ـ٢١ ، باريس ، ١٨٦٣ـ١٨٦٨) ٠

٦٩ ـ أي٠ فون كريمر : «**التاريخ الثقافي للشرق تحت حكم الخلفاء**» [بالالمانية] بمجلدين (ڤينا ، ١٨٧٥ـ١٨٧٧) ٠

٧٠ ـ أي٠ فون كريمر : «**التاريخ الثقافي للبعثات من الاقاليم الاسلامية**» [بالالمانية] (لايبزگ ، ١٨٧٣) ٠

ترجم صلاح‌الدين خدابخش هذا الكتاب الى الانكليزية بعنوان «**مساهمات في تاريخ التمدن الاسلامي**» (كلكتا ، ١٩٠٥ ، الطبعة الثانية ، ١٩٢٩) ٠

٧١ ـ أي٠ فون كريمر : « **تاريخ الافكار السائدة في الاسلام** » [بالالمانية] (لايبزگ ، ١٨٦٨) ٠

كتاب شهير ومصدر استنارة عظيمة ٠

٧٢ ـ غوستاف لِبون : « **الحضارة العربيــة** » [بالفرنسية](١٠) (باريس ، ١٨٨٤) ٠

٧٣ ـ اگناتز گولدتزيهر : «**دراسات محمّدية**» [بالانكليزية] (هالّه،

---

(١٠) نقل هذا الكتاب الى العربية الاستاذ اكرم زعيتر (وطبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الرابعة ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) وعدة صفحات الترجمة : ٦٥٦ وهو كتاب مزين بالصور الايضاحية وجليل القدر حقا ٠ [المترجم]

١٨٨٨-١٨٩٠) ·

هذا الكتاب الذي كثيرا ما اشير اليه في الصفحات السالفة من الكتاب الذي بين يديك ينبغي ان يقرأه كل طالب جدّي من طلاب « الحضارة الاسلامية » ·

٧٤ ـ سي· ايچ· بيكر : « **دراسات اسلامية** » [بالالمانية] جـ١ (لايبزگ ، ١٩٢٤) ·

٧٥ ـ د· س· مارگوليوث : «**الامويون والعباسيون**» [بالانكليزية] وهو ترجمة القسم الرابع من كتاب جرجي زيدان : «تاريخ التمدن الاسلامي» (سلسلة ئي· جي· دبليو · گب التذكارية جـ٤ ، ١٩٠٧) ·

٧٦ ـ آدم ميتز : «**بعث الاسلام**» [بالالمانية](١١) (هايدلبرگ ١٩٢٢) ·

٧٧ ـ گاي لسترانج : «**بغداد ايام الخلافة العباسية**» [بالانكليزية] (اوكسفورد ، ١٩٠٠) ·

٧٨ ـ رويبن ليڤي : « **احداث بغداد المتسلسلة** » [بالانكليزية] (كمبرج ، ١٩٢٩) ·

٧٩ ـ كاي لسترانج : « **بلدان الخلافة الشرقية** » [بالانكليزية] (كمبرج ، ١٩٠٥) · [هناك ترجمة عربية للكتاب لبشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ص‌ص٥٩٠ مطبعة الرابطة ـ بغداد ١٩٥٤] ·

٨٠ ـ گاي لسترانج : « **فلسطين تحت حكم المسلمين** » [بالانكليزية] (لندن ، ١٨٩٠) ·

٨١ ـ تي· دبليو· ارنولد : « **التصوير في الاسلام** » [بالانكليزية] (اكسفورد ، ١٩٢٨) ·

٨٢ ـ جي· تي· ريڤويرا : «**الفن المعماري الاسلامي**» [بالانكليزية] ترجمة جي· ايم· رشفورث (اكسفورد ، ١٩١٩) ·

٨٣ ـ ئي· دبليو· لين : « **المجتمع العربي في القرون الوسطى** » [بالانكليزية] اشرف على طبعه ستانلي لين پول (لندن ، ١٨٨٣) ·

---

(١١) ترجم الكتاب الى العربية الاستاذ عبدالهادي ابو ريده بعنوان : « **حضارة الاسلام في القرن الرابع الهجري** » (بجزئين) طبع القاهرة ، ١٩٤٦ · « المترجم »

٨٤ ـ جي٠ ديركز G.Diercks : « **العرب في القرون الوسطى وآثرهم في الثقافة الاوربية** » [بالالمانية] (الطبعة الثانية ، لايبزك ، ١٨٨٢) ٠

٨٥ ـ ئي٠ دبليو٠ لين : «**نبذة عن سلوك المصريين المحدثين وعاداتهم**» [بالانكليزية] (الطبعة الخامسة ، لندن ، ١٨٧١) ٠

ـ ٧ ـ
العقيدة والفقه والشريعة والفلسفة والتصوف في الاســلام

٨٦ ـ دنكان بي٠ مكدونالد : « **تطور الفقــه والشريعة والنظرية الدستورية في الاسلام** » [بالانكليزية] (لندن ، ١٩٠٣) ٠

افضل تخطيط عام للموضوع ٠

٨٧ ـ تي٠ هاربروكر T.Haarbrucker : « **المذاهب الدينيــة والمدارس الفلسفية للشهرستاني** » [بالالمانية] مترجـم عن العربيـة(١٢) (هالـه ، ١٨٥٠ـ١٨٥١) ٠

٨٨ ـ الفريد گيوم : « **علم الحديث في الاسلام** » [بالانكليزية] (اوكسفورد ، ١٩٢٤) ، راجع كذلك رقم ٧٣ ، القسم الثاني ٠

٨٩ ـ أو ٠ هوداس O. Houdas : ووليـم مارسيه : « **الاحاديث الاسلامية مترجمة عن العربية** » [بالفرنسية] (باريس ١٩٠٣ـ١٩١٤) ٠

ترجمة لاحاديث «صحيح البخاري» المشهورة ٠

٩٠ ـ أي٠ جي٠ ڤينسنك : « **كتـاب يدوي في الاحـاديث الاسلامية الاولى** » (ليدن ، ١٩٢٧) ٠

٩١ ـ سي ٠ سنوك هرگرونيه : «**الاسلام**» Mohammedanism (سلسلة المحاضرات الاميركية في تاريخ الاديان ، ١٩١٦) ٠

٩٢ ـ اگناتز گولدتزيهر : « **محاضرات في الاسلام** » [بالالمانية] (هايدلبرگ ، ١٩١٠ ؛ الطبعة الثانية ، ١٩٢٥) ٠

٩٣ ـ د٠ س٠ مارگوليوث : « **الاســلام في مســتهل تطـوره** » [بالانكليزية] (لندن ، ١٩١٤ ، اعيد طبعه سنة ١٩٢٧) ٠

٩٤ ـ هـ٠ لامانز : « **الاسلام ، عقائده ومؤسساته** » [بالفرنسية]

---

(١٢) وهو كتاب « الملل والنحل » للشهرستاني ٠

(بيروت ، ١٩٢٦) الترجمة الانكليزية بقلم ئي• دينيسن روس (لندن ، ١٩٢٩) •

٩٥ ــ تي• دبليو• ارنولد : « **العقيدة الاسلامية** » [بالانكليزية] (مكتبة بين BENN ذات الست بنسا ت، رقم ٤٢) •

٩٦ ــ تي• جي• دي بَور : « **تاريخ الفلسفة في الاسلام** » [بالانكليزية][١٣] ترجمة ئي• آر• جونز (لندن ١٩٠٣) •

٩٧ ــ هـ• شتاينر : H. Steiner « **المعتزلة أو ذوو التفكير الحر في الاسلام** » (لايبزگ ١٨٦٥) •

٩٨ ــ ف• ديتريصي F.Dieterici « **الفلسفة العربية في القرن العاشر كما تصوّرها رسائل اخوان الصفا** » [بالالمانية] (برلين ولايبزگ، ١٨٦١-١٨٧٩) •

٩٩ ــ ئي• رينان : «**ابن رشد وطريقته**» [بالفرنسية] (باريس ، ١٨٦١) •

١٠٠ ــ س• مُنك MUNK «**أمشاج الفلسفة اليهودية والعربية**» [بالفرنسية] (باريس ١٨٥٩) •

١٠١ ــ س• گويارد : «**نصوص متفرقة تتعلق بمذهب الاسماعيلية**» [بالفرنسية] (باريس ، ١٨٧٤) •

١٠٢ ــ سلفستر دى ساسي : «**ايضاح لدين الدروز**» [بالفرنسية بمجلدين (باريس ، ١٨٣٨) •

١٠٣ ــ رينولد آلن نكلسن : « **متصوفة الاسلام** » [بالانكليزية] (لندن ، ١٩١٤)[١٤] •

١٠٤ ــ د• ب• مكدونالد : « **الوضع الديني والحياة في الاسلام** » [بالانكليزية] (شيكاغو ، ١٩٠٩) •

١٠٥ ــ لويس ماسنيون : « **بحث في اصول المصطلحات اللغوية لمتصوفة الاسلام** » [بالفرنسية] (باريس ١٩٢٢) •

١٠٦ ــ لويس ماسينيون : « **وَجْدُ الحلاّج** » [بالفرنسية]

---

(١٣) نقله الى العربية وعلق عليه محمد عبدالهادي ابو ريده ، القاهرة ، ١٩٤٨ • « المترجم »

(١٤) نقله الى العربية نورالدين شريبه بعنوان « الصوفية في الاسلام » ، مصر ، ١٩٥١ • « المترجم »

بمجلدين (باريس ، ١٩٢٢) •

١٠٧ ـ ريچارد هارتمان : «**عرض القشيري للمتصوفة**» [بالالمانية] (برلين ، ١٩١٤)[١٥] •

١٠٨ ـ هـ• س• نيبرگ H.S.Nyberg : «**المؤلفات الصغرى لابن العربي**» [بالالمانية] (ليدن ، ١٩١٩) •

١٠٩ ـ رينولد آلن نكلسن : «**دراسات في التصوف الاسلامي**»[١٦] [بالانكليزية] (كمبرج ، ١٩٢١) •

١١٠ ـ رينولد آلن نكلسن : « **فكـــرة الشخصية في التصوف** » [بالانكليزية] (كمبرج ، ١٩٢٣) •

١١١ ـ جون پي• براون : « **الدراويش او الروحانية الشرقيــة** » طبعة هـ• ا• روز (لندن ، ١٩٢٧) •

١١٢ ـ أو• ديپـــونت O.Depont وايكـس • كـــوّپولاني X.Coppolani « حركات الاخوة الدينيــة الاسلامية » [بالفرنسية] (الجزائر ، ١٨٩٧) •

ـ ٨ ـ

تاريخ الاندلس وادبه

١١٣ ـ ر• دوزي : «**تاريخ مسلمي اسبانيا حتى دخول المرابطين الى الاندلس**» (٧١١ـ١١١٠م) [بالفرنسية] بأربعة مجلدات (ليدن ، ١٨٦١) ترجم الى الانكليزية بعنوان : « **الاســلام الاسباني** » بقلـم ف• جي• ستوكس (لندن ، ١٩١٣) •

١١٤ ـ اس• پي• سكوت : «**تاريخ الامبراطورية المراكشيّة فياوربا**» [بالانكليزية] بثلاثة مجلدات (نيويورك ، ١٩٠٤) •

---

(١٥) هذا ترجمة «الرسالة القشيرية» المشهورة •

(١٦) نقل الاستاذ «ابو العلا عفيفي» هذا الكتاب الى العربية بعنوان: «في التصوف الاسلامي وتاريخه» ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة : ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م وعدد صفحاته ١٧٤ وهو يضـــم المقالات الآتية : نظرة تاريخية في اصل التصوف وتطوره ، والزهد في الاسلام ، والتصوف و «هدف التصوف الاســلامي» و «فكـرة الشخصية في التصوف» •

١١٥ ـ ايج· سي· لي H.C..Lea : « **العـرب المتدجنون**(١٧) **فياسبانيا ، ارتدادهم عندينهم وطردهم**» [بالانكليزية] (فلادلفيا ، ١٩٠١)٠

١١٦ ـ پاسكوال دي گايانگوس : «**تاريخ الدول الاسلامية فياسبانيا**» [بالانكليزية] مترجم عن «نفح الطيب» للمقـري ، بمجلدين (لندن ، على نفقة سلسلة الترجمات الشرقية ، **١٨٤٠-١٨٤٣**) ٠

١١٧ ـ ئي· فاگنان : « **تاريخ الموحدين** » لعبدالواحد المراكشي [ترجمة انكليزية] (الجزائر ، **١٨٩٣**) ٠

١١٨ ـ ر· دوزي : «**دراسات في تاريخ الادب الاندلسي في القرون الوسطى**» [بالفرنسية] بمجلدين (الطبعة الثالثة ، ليدن ، ١٨٨١) ٠

١١٩ ـ ا· ف· فون شاك : «**شعر العرب وفنونهم فياسبانياوصقلية**» [بالالمانية] بمجلدين ، (الطبعة الثانية ، شتوتكارت ، **١٨٧٧**) ٠

١٢٠ ـ ا· ف· كلاڤيرت : «**البقايا العربية في اسبانيا**» [بالانكليزية] (لندن ، **١٩٠٥**) ٠

١٢١ ـ م· أماري : «**تاريخ مسلمي صقلية**» [بالايطالية] (فلورنسه، **١٨٥٤-١٨٧٢**) وهناك نسخة منقحة تحت الطبع [الكلام في سنة **١٩٣٠**]٠

ـ ٩ ـ

تاريخ العرب من الغزو المغولي في القرن الثالث عشر للميلاد الى الوقت الحاضر

١٢٢ ـ م· كاترمير : «**تاريخ السلاطين المماليك في مصـر**»(١٨) ، لتقيالدين احمد المقريزي ، مترجما الى الفرنسية ، بمجلدين (على نفقة وقف الترجمة الشرقية ، باريس ، **١٨٣٧-١٨٤٥**) ٠

١٢٣ ـ السر وليم ميور : « **دولة المماليك في مصر** » [بالانكليزية] (لندن ، **١٨٩٦**) ٠

١٢٤ ـ سي· هيوار : «**تاريخ بغداد من حكم خانات المغول الى مجزرة المماليك**» [بالفرنسية] (باريس ، ١٩٠١) ٠

---

(١٧) ويعرفون عند الافرنج «بالموريسكو» ٠

(١٨) هذا كتاب : «السلوك لمعـرفة دول الملوك» (راجع زيدان : «تاريخ آداب اللغة العربية» ، جـ٣ ص١٩٢ اعلاها) ٠

تصويبات واضافات

الصفحة	
٥	يوضع الهامش الآتي تعليقا على البيتين المنسوبين الى مطيع ابن اياس : «في هذين البيتين عيب يعرف بالتضمين لاعتماد البيت الاول على الثاني من حيث التركيب والمعنى » •
٥	س١٥ و١٦ يوضع لعبارة : ثورة الحضارة على البداوة الهامش: يراجع الدكتور طه حسين : حديث الاربعاء ج٢ في موضوع: القدامى والمحدثين •
٧	يوضع الهامش الآتي تعليقا على عبارة « اهل العدل والتسوية » س١٢ : مفهوم الشعوبية في العصر الاموي المساواة بين العناصر العربية وغير العربية وفي العصر العباسي ترجيح غير العرب على العرب •
٨	يوضع الهامش الآتي تعليقا على عبارة : « كذّاب أشرٍ ليس غير » س٣ من الاسفل : « هذا حكم لا يخلو من قسوة ! »
٢١	الترجمة الشعرية لابيات شكسبير لمترجم الكتاب •
٢٥	يوضع للسطرين الاخيرين من الصفحة عنوان : «الوزير»
٢٩	س ٢-٤ تقرأ العبارة كما يلي : « وكان برمك في الاصل على ما يقول المسعودي ، لقبا يحمله سادن معبد النار المجوسي العظيم في بلخ واشغل خالد ابن احد هؤلاء الاشراف •• » الخ••
٢٩	س٣ من الاسفل : [من السريع]
٢٩	هامش ٤ : تنسب هذه الابيات الى محمد بن يسير الرياشي ، «الشعر والشعراء» (طبعة دار الثقافة) ص٧٥٧

الصفحة	
٣٢	سقطت العبارة الآتية من السطر الخامس : (الثاني) القول بخلق القرآن (الثالث) تحليله المتعة •
٣٢	الهامش : [يعتقد الدكتور مصطفى جواد وكذلك الدكتور عبدالعزيز الدوري ان البياض هو شعار العلويين والخضرة شعار الزنادقة] •
٣٦	س١٦ يُقرأ : « الذين حكموا فارس والعراق خلال مائة السنة التالية ••• »
٣٧	س٥ يقرأ : « رئيس وزراء ابي نصر بهاء الدولة »
٣٩	س١٧ يوضع الهامش الآتي تعليقا على عبدالله بن حمدان : « راجع شجرة النسب للاسرة الحمدانية ، في ختام ص٤٨٠ من ديوان ابي فراس الحمداني ، الجزء الثاني ، القسم الثالث ، تحقيق سامي الدهان ، بيروت ، ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م» •
٤٠	س٦ يقرأ البيت على الوجه لآتي : في كل أرضٍ وطئتَها أُمَمٌ تُرعى بعبدٍ كأنهمُ غنم ويضاف تعليقا على لفظة «كأنهم» الهامش الآتي : « شرح العكبري : ج٤ ص٥٩ س٣ وفي شرح البرقوقي (كأنها) »
٤٢	يضاف الى السطر الاول ما يلي : « من الاهواز تشبع بكره عنيف للعرب » •
٤٣	س٧ من الاعلى « وكان من السهل عليه ان يظنه القوم قديسا » س٧ من الاسفل : « الفقه الاسلامي الذى يخلف فيه محمد ابن اسماعيل مؤسس الاسلام » •
٤٦	يراجع في موضوع «السلاجقة» اطروحة الدكتور حسين أمين وهي بعنوان : « تاريخ العراق في العصر السلجوقي » رسالة دكتوراه حازت درجة الشرف الاولى من جامعة الاسكندرية ، منشورات المكتبة الاهلية بغداد ، مطبعة الارشاد ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م وعدتها ٤٨٧ صفحة •

الصفحة

٥٠ يضاف الى السطر الاخير : [من البسيط]

٥١ فى نهاية هـ٢ : « بشكل خاص »

٥١ يضاف الى الهامش (٤) ما يلي :

« والظاهر ان كلمة (شعوب) قد استعملت فى اللغة العربية للدلالة على القبائل غير العربية (لسان العرب ، جـ١ ص٤٨٢ س١٢) ومن ثم فقد استعمل هذا التعبير اولئك الاعاجم الذين أبوا ان يروا للعرب فضلا عليهم ... وقد تجلت هذه النظرة بصور شتى فكانت فى الشرق عند الفرس والخوارج ، أمرا يتعلق بالاسر الحاكمة والسياسة ، وكانت ايضا بالنسبة للفرس شيئا يصطبغ بصبغة الدين وينطوي على المروق والزندقة ... أما عند الانباط فكان يتمثل فيها الصراع القديم بين الارض المزروعة وبين الصحراء ... على ان الشعوبية فى الاندلس قد تقبلت الحضارة العربية جميعا ، وفاخرت بامتلاكها ناصية العربية واعتناقها الاسلام على مذهب اهل السنة ، ولكنها انكرت القول بفضل العرب على غيرهم ، ولذلك كان لهذه الحركة صلة قربى بالقومية المنبعثة من الاسلام فى الوقت الحاضر » (دي. بي. مكدونالد ، مادة «شعوبية» فى دائرة المعارف الاسلامية ، ترجمة خورشيد ، جـ١٣ ص٣١٦) .

٥٨ س٣ من اسفل الهوامش ، يوضع الرقم (٧) ديوان ابي نواس..

٥٩ س٢ : « وكان ابن قتيبة المتوفى فى اواخر القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد [اي سنة ٢٧٦هـ] .

ص٦٥س٨ يضاف الى القصيدة البيت الآتي الذي سقط من الطبع سهوا :

وبرغمي أن اصبحتْ لا تراها ال‍ العين منّي وأصبحت لا تراني

ويضاف الى الهامش ٣ س١ فى نفس الصفحة ما يأتي :

فريتاغ : «الامثال العربية» جـ١ ص٤٦ وما يليها حيث يجد القارىء النص العربي للابيات ، وقد قدّم رُكرت ترجمة المانية

للابيات ذاتها فى «الحماسة» جـ١ ص٣١١ وهناك نص اكمل للقصيدة فى الاغاني جـ١٢ ص١٠٧ وما يليها .

ص٦٦س١ يوضع له الهامش الآتي : اورد ابن العماد الحنبلي ترجمته فى «شذرات الذهب» ١/٣٤٥-٣٤٧ فى وفيات سنة ست وتسعين ومائة ، اذ قال : « وفيها توفي ابو نواس الحسن بن هاني الحكمي الاديب شاعر العراق . قال ابن عيينة هو اشعر الناس ، وقال الجاحظ : ما رأيت اعلم باللغة منه . قال ابن الاهدل : كان ابوه من جند مروان الصغير الاموي ، فتزوج امرأة بالاهواز فولدت أبا نواس فلما ترعرع اصحبته ابا اسامة ، الشاعر فنشأ على يديه وقدم به بغداد فبرع فى الشعر ، وعداده في الطبقة الأولى من المولدين وشعره عشرة انواع ... وتوفي وعمره ٥٢ سنة ، والحسن احد المطبوعين ... وقال الحصري فى كتابه : «قطب السرور» : قال ابن نوبخت توفي ابو نواس فى منزلي فسمعته يوم مات يترنم بشيء فسألته عنه فانشدني [من المنسرح] :

باح لساني بمضمر السرِّ   وذاك أني أقول بالدهر

ص٦٧س١ : من دمه الفارسي : [من البسيط]

ويضاف قبل البيت الاخير من الصفحة نفسها البيت الآتي :

من خشوع أزينه بنحول   واصفرار مثل اصفرار الجراده

ويقرأ السطر الثاني من الهامش ٤ فى الصفحة ذاتها كما يلي :

« وما بعدها [= ص٣١٩ من طبعة مصطفى محمد ، ١٩٣٢]

ويضاف الى السطر الاخير من الهامش : «والبيت الرابع اورده ابن قتيبة فى «الشعر والشعراء» ولكنه غير وارد فى ديوان ابي نواس » .

ص٦٨ يضاف الهامش الآتي برقم «٦» تعليقا على كلمة «متحولة» فى

بداية السطر الاخير من المتن :

« اوضح المعري في (رسالة الغفران) «ص٣٥٢-٣٥٣» عقيدة ابي نواس الدينية فقال : « وقد اختلف في ابي نواس ؛ أُدُّعي له التاله [أي التدين] وانه كان يقضي صلوات نهاره في ليله ، والصحيح انه كان على مذهب غيره من أهل زمانه ، وذلك ان العرب جاءها النبي (ص) وهي ترغب الى القصيد وتقصر هما عن القصيد فاتبعه منها متبعون والله اعلم بما يدعون ، فلما ضرب الاسلام بجرانه واتسق ملكه على أركانه مازج العرب غيرهم من الطوائف وسمعوا كلام الاطباء واصحاب الهيئة واهل المنطق فمالت منهم طائفة كثيرة » .

ص٦٩س٣ تضاف عبارة : فقال : [من الوافر]

ص٧٠ يوضع الهامش الآتي تعليقا على كنية ابي العتاهية في السطر الاول : «لقب بذلك لان المهدي قال له : «اراك متخلطاً متعتهاً» وكان قد تعته بجارية للمهدي ... وقيل لقب بذلك لانه كان طويلا مضطربا ، وقيل لانه يُرمى بالزندقة» [الاغاني : ٤/٢هـ٤]

ص٧٢س٤ تُقرأ العبارة الاخيرة من السطر على الوجه الآتي : « اذ يبدو لي فيه رفعٌ للرجل » .

ص٧٠هـ(١): تضاف العبارة الآتية في نهاية السطر الاول من الهامش : [وكذلك العقيدة والشريعة في الاسلام : ص١٥٩]

ص٧٠هـ(٢)س٣: [من الكامل]

ويُضاف في نهاية الهامش ما يلي : وقد سبق هذا البيت ببيت يقول فيه :

يا من ترفع للدنيا وزينتها ليس الترفع رفع الطين بالطين

ص٧٥س٢: هي دنيا كحية تنفث السُّمْ مَ وان حية بلمسك لانتْ

ص٧٧ يضاف بعد السطر السابع : [من الرجز المزدوج]

الصفحة

ص٧٧هـ٢: يضاف الى السطر الاول منه : [وراجع وفيات الاعيان : ترجمة الخليل] •

ص٧٧هـ٥ : س٥ من الهامش :

والمقادير لا تناولها الاو   هام منا ولا تراها العيون

ص٨٠هـ(١) س٣ تصحح عبارة : «تاريخ الاردب العربي» ب « تأريخ الادب العربي »

ص٨١: س٣ من الاسفل :

أقل أنل اقطع احمل علّ سلّ أعد ••••

ص٨١س٧ يوضع الهامش الآتي تعليقا على عبارة : « لقب فيما بعد بالمتنبي » :

وحدثتُ انه كان اذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال : هو من النَبْوة أي المرتفع من الارض (رسالة الغفران : ص٣٥٠)

وقد دلت اشياء في ديوانه انه كان متألهاً [أي متديناً] ومثلَ غيره من الناس متدلهاً فمن ذلك قوله : [ولا قابلا الا لخالقه حكما]

وتمام البيت :

تغرب لا مستعظماً غير نفسه   ولا قابلاً الا لخالقه حكما

وهو من مرثيته في جدته ، ومطلعها [من الطويل] :

ألا لا أرى الاحداث حمداً ولا ذماً   فما بطشها جهلا ولا كفها حلما

وقوله :

ما اقدر الله أن يُخزي بريته   ولا يصدق قوماً في الذي زعموا

والبيت هو آخر القصيدة الميمية التى هجا بها كافور ومطلعها :

من اية الطرق ياتي نحوك الكرم   اين المحاجم ياكافور والجلم؟

[رسالة الغفران : ص ٣٥١]

ص٨١س٨ يوضع الهامش الآتي تعليقاً على عبارة : « وحثّ جمعاً غفيراً من الناس على الايمان به » :

« يبدو ان عقيدته بنبوته بقيت كامنة فى نفسه بدليل ما اورده المعرى فى « رسالة الغفران » من معجزاته من حيث ركوبه ناقة صعبة وبرؤه للجروح وتنبؤه بموت كلب ، إذ يقول : إن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جُرحاً مفرطاً ، وإن أبا الطيب تفل عليها من ريقه ، وشد عليها غير منتظر لوقته ، وقال للمجروح : « لا تحلها فى يومك » وعدله اياماً وليالي وان ذلك الكاتب قبل منه ، فبرىء الجرح فصاروا يعتقدون فى ابى الطيب اعظم اعتقاد ، ويقولون : « هو كمحيي الموتى » ؛ وحديث رجل ـ كان ابو الطيب قد استخفى عنده فى اللاذقية [وهى مدينة من ثغور الشام عتيقة فيها ابنية اثرية جنوبي انطاكية] او فى غيرها من السواحل ـ انه اراد الانتقال من موضع الى موضع ، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ولقيهما كلب الح عليهما فى النباح ثم انصرف ، فقال ابو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : « انك ستجد ذلك الكلب قد مات » فلما عاد الرجل الفى الأمر على ما ذكر ، ولا يمتنع ان يكون اعد له شيئاً من المطاعم مسموماً والقاه له وهو يخفى عن صاحبه ما فعل ـ والخَرْبَقُ سم الكلاب معروف [وهو نبات ورقه كلسان الجمل ابيض واسود]

ص٨٢ س٥و٦ من اسفل الصفحة ، يوضع الهامش الآتي تعليقاً على عبارة : « قدم له كل الاماديح الفخمة » :

ويبدو ان سيف الدولة اقطعة اقطاعاً بصِفّ وهي ضيعة بالمعرة كانت اقطاعاً للمتنبي من سيف الدولة ومنها هرب الى دمشق ثم الى مصر ، وقد ذكر ذلك المعرى فى رسالة الغفران فى مجال الشك في عقيدته [وبعد ذكره للزنادقة مباشرة] ص٣٥٤-٣٥٥ : «وحدثتُ ان ابا الطيب ابام كان اقطاعه

بصفّ رؤي يصلي بموضع بمعرة النعمان يقال له : « كنيسة الاعراب » وانه صلى ركعتين ، وذلك في وقت العصر ، فيجوز ان يكون راى انه على سفر ، وان القصر له جائز ، وحدثني الثقة عنه حديثاً معناه : انه لما حصل في بني عَدي وحاول ان يخرج فيهم ، قالوا له وقد تبينوا دعواه : « ههنا ناقة صعبة ، فان قدرت على ركوبها اقررنا انك مرسل » وانه مضى الى تلك الناقة وهي رائحة في الابل ، فتحيل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت ساعة وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ، ومشت مشي المسمحة ، وانه ورد بها الحلة [اي المحلة والمجتمع] وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب ، وصار ذلك من دلائله عندهم •

ص٨٥س١١ : تقرأ العبارة على الوجه الآتي : ويقول ابن خلكان : « واما شعره فهو في النهاية »

ص٨٦س١٣ : يوضع الهامش الآتي تعليقاً على عبارة : « ما ينعى على أبي الطيب من معائب شعره » :

وقد آخذه بعضهم لاكثاره من صيغة التصغير ، فرد المعرى في (رسالة الغفران) ص ٣٤٥ بقوله فاما ما ذكره [اى ابن القارح] من قول ابي الطيب : « اذم الى هذا الزمان اهيله » فقد كان الرجل مولعاً بالتصغير لا يقنع من ذلك بخلسة المغير •

ص٨٩س ٩ يوضع الهامش الآتي تعليقاً على عبارة : « وفي سلاسة بلاغته وامتيازها » :

والى ذلك فقد كان شاعراً مطبوعاً سريع النظم ، اذ جاء في «الخصائص» لابن جني جـ١ ص٣٢٧ ما يلي : «ان من المحدَثين ايضاً من يسرع العمل ولا يعتاقه بطء ، ولا يستوقف فكره ، ولا يتعتع خاطره [اي يقلقه ويزعجه] فمن ذلك ما حدثني به من شاهد المتنبي وقد حضر عند ابي علي الاوارجي ، وقد

وصف له طرداً [مزاولة صيد] كان فيه واراده على وصفه ، فاخذ الكاغد والدواة واستند الى جانب المجلس ـ وأبو علي يكتب كتاباً ـ فسبقه المتنبي في كَتْبِ الكتاب ، فقطعه عليه ثم أنشده : « ومنزل ليس لنا بمنزلِ » وهي طويلة مشهورة في شعره » انظر كذلك معاهد التنصيص ج٢ ص٤٨ .

ومثل هذا يروى عن الشاعر شكسبير وعن المستشرق لسترانج الذى وصف سوق الوراقين ببغداد بدقة دون ان يكون قد رأى بغداد اوزار العراق !

ص٨٩ س١٥ يوضع الهامش الآتي تعليقاً على عبارة : « وهذه ناحية يقارنه فيها بيوريبيديس » :

يوريبيديس هو آخر الشعراء اليونانيين المأساويين الثلاثة العظام المولودين فى سلامين Salamine ؛ عاش حوالى ٤٨٠-٤٠٦ق٠م وقد الف العديد من المسرحيات من نحو : أندروماك والسيزت ومديي ، وهيبوليت ، وكوروني ، وايون وايفيجيني واليكترا .

ص ٩٠ يضاف ما يلى فى ختام الهامش (٣) :

وقد اخذ المتنبي بعض معاني من سبقه من المتصوفة ، واخذ عنه من جاء بعده منهم بعض معانيه ، مما يدل على وجود آثار تصوفية في شعره ، فمن ذلك قوله [من الخفيف] :

ما مقامي بأرض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود
انا فى امة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

اخذه ابن العربي فقال [من الخفيف ايضاً]

انا في العالم الذي لا اراكم كمسيح النصارى بين اليهود
فاذا ما رايتكم نُصبَ عيني انا والله في جنان الخلود

[والشطر الثاني من البيت الاول مختل الوزن] يراجع ديوان

ابن العربي : ص ٩١

ص٩١س ٣ و ٤ : يوضع الهامش الآتي تعليقاً على عبارة : « الفيلسوق والاديب ابو العلاء المعري » :

يفرق طه حسين بين تشاؤم أبي العلاء وابي نواس بقوله : والناس يذهبون في التشاؤم مذهبين : مذهب الاستخفاف والاستهانة والاستعانة على الحياة بما فيها من الطيبات .... ومذهب البغض والخوف والضيق والاستعانة على الحياة بالزهد فيها والانصراف عنها ... فأبو نواس متشائم يقيم تشاؤمه على الاستخفاف والعبث، وأبو العلاء متشائم يقيم تشاؤمه على الجد والحذر » [خصام ونقد ، ص ٢٦٠]

ص٩١س ٧ : يوضع الهامش الآتي تعليقاً على عبارة : « وفي النهاية الى عمى تام » : راجع « رسائل أبي العلاء المعري » شرح شاهين عطيه اللبناني (بنفقة خليل الخوري) « بيروت ، المطبعة الادبية ، ١٨٩٤ » ص٣ من فصل «ترجمة المؤلف» إذ يقول : «وعمي من الجدري اول سنة ٦٧ ... وكأني انظر اليه الساعة والى عينيه ، احداهما نادرة والاخرى غائرة جدا » .

ص٩٢س١٨ تضاف لفظة [الدهريين] في نهاية السطر ؛ ويوضع الهامش الآتي تعليقا على لفظة «البوذيين» في منتصف السطر ذاته : يقول گولدتزيهر في كتابه : (العقيدة والشريعة في الاسلام ص١٥٨): ان بعض المؤلفات البوذية نقلت الى العربية في القرن الثاني للهجرة ، ومن ذلك ترجمة عربية معدّلة لكتاب : «بيلاوهر وبوداسِفْ » وكذلك كتاب : « البُدّ » ، الفهرست : ص١١٨ و١١٩ و١٣٦

ص٩٢ يوضع الهامش الآتي للسطر الاخير من الصفحة :
ورد في ترجمة المؤلف في مقدمة «رسائل ابي العلاء المعري»

شرح شاهين عطيه الذي سبق ذكره ، انه « دخل بغداد سنة ٣٩٨ ودخلها ثانية سنة ٩٩ واقام بها سنة وسبعة اشهر » (عن تاريخ ابن خلكان)

ص٩٣س٣ يوضع الهامش الآتي تعليقا على عبـارة : « واصبح نباتياً » : الامتناع عن تناول اللحم من الزهد يرجع الى عصر الصحابة ، (الطبري : جـ١ ص٢٩٢٤ ، واسد الغابة ، ٥/٢٨٦) فزياد بن ابي زياد من موالي بني مخزوم صورته الروايات رجلاً ناسكاً يزهد في الدنيا ويديم العبادة ويرتدي الخشن من ثياب الصوف ويحرم اللحم على نفسه حتى اصبح في عهد عمر بن عبدالعزيز انموذجاً ممثلاً لجماعة الزهاد (ابن سعد : ٥/٢٢٥) ولا شك ان الحديث : «من ترك اللحم اربعين يوماً ساء خلقه » (الطبرسي في كتابه «مكارم الاخلاق» ص٦٦ وقد اتى الطبرسي في هـذا الموضوع بأحاديث كثيرة رفع فيها الرسول «ص» من قدر اللحم كثيراً لنفعه الجسم نفعاً كبيراً) قصد به اشباه زياد [گولدتزيهر: «العقيدة والشريعة في الاسـلام» ، تاريخ التطـور العقَدي والتشريعي في الدين الاسلامي ، نقله الى العربية وعلق عليـه الدكتور محمد يوسف موسى والدكتور علي حسن عبدالقـادر والاستاذ عبدالعزيز عبدالحق ، الطبعة الثانية ، مطبعة دار الكتاب العربي بمصر ، ١٩٥٩ ، ص١٤٩] .

ص٩٤س١٣ تُقرأ العبارة الاولى كما يلي : يقول البروفيسور مارغوليوث كان غير دارٍ بقيمة مقترحاته .

ص٩٥س٧ تضاف عبارة : [من الطويل] .

ص٩٧س٦ يقرأ الشطر الاول كما يلي : «تاه الحنيفة والنصارى ما اهتدت» ويوضع الهامش الآتي تعليقاً على كتاب « الفصول والغايات » في نهاية الصفحة :

الصفحة

« لقد كان هذا الكتاب مفقوداً ، حتى ان اكثر من ترجم لابي العلاء لم يذكره ؛ اما من ذكره منهـم فادعى انه عارض به القرآن الكريم ، واحسب ان من ذكر ذلك لم ير الكتاب .. لانه يمجد فيه الله احسن تمجيد وأروعه ، ويقر له بالعبودية والعجز » هذا ما قاله الدكتور حسن زناتي الذي قام بطبع الجزء الاول من كتاب : «الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ» الطبعة الاولى ، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م (مطبعة حجازي بالقاهرة) وعدة الكتاب ٤٧٨ صفحة .

ص٩٨س٧ يعلق على اسم «لوسيان» بالهامش الآتي :

لوسيان كاتب اغريقي من القـرن الثـاني للميلاد ولد في ساموسيت Samosate ووضع رسائل عديدة منها : «محاورات الموتى» و «طريقة كتابة التاريخ» الخ ... وهو مليء بالشكوك وهيجان النفس والحيوية . ولعل رسالته « محاورة الموتى » اقرب شيء الى « رسالة الغفران » للمعرّي وقـد سبق ابن شُهيد الاندلسي ابا العلاء الى هذه الفكرة في رسالة «التوابع والزوابع» التي صور فيهـا رحلة شاعر الى الجنة [راجـع غارسياغوميس ، «الشعر الاندلسي» ص٣٩] .

ص١٠١س٥ يوضع الهامش الآتي تعليقاً على عبارة : « وسم من وجهـة النظر السنيّة بالكفر بحق وحقيق » :

« قال ابن قاضي شهبة : زنادقة الدنيا اربعة : بشار بن برد وابن الراوندي وابو حيـان التوحيدي وابو العـلاء المعري » [العماد الحنبلي : «شذرات الذهب» ١/٢٦٥ (في احداث سنة سبع وستين ومائة)] .

ص١٠٣ في عجز البيت الثاني : « العظامَ » بفتح الميم والصحيح « العظامِ » بكسر الميم .

ص١٠٣هـ(١)س١ : تضاف لفظة «جمعية» بعد «مجله» •

ص١٠٤ السطر الثاني من اسفل الصفحة : يوضع الهامش الآتي تعليقاً على عبارة : «ويحيط به ما ينوف على المائتي تلميذ» •

وقد بلغت مؤلفاته نحو مائتي كتاب وقد فقد معظم تآليفه في حملة الصليبيين الاولى على الشام وسقوط المعرة في ايديهم سنة ٤٩٢هـ وقد قتلوا اهلها المسلمين وأبادوا كل ما بهـا [مقدمة كتاب : «الفصول والغايات» تحقيق محمود حسن زناتي ، الصفحة : د]•

ص١٠٤هـ(٢)س٣ من الاسفل يضاف الى عبارة : «وكان قوته نصف مَنّ من خبز الشعير» ما يلي : ذكر ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ في كتابه «تلبيس ابليس» (القاهرة ، ١٩٢٨) : ان ابليس يوهم الزهاد ان الزهـد ترك المباحات فمنهـم من لا يزيد على خبز الشعير ومنهم من لا يذوق الفاكهة ، ومنهم من يقلل المطعم حتى ييبس بدنه ، ويعذّب نفسه بلبس الصوف ويمنعها الماء البارد ••• وقد كان رسول الله يأكل اللحم ويحبه ويأكل الدجاج ويحب الحلوى ، ويستعذب له الماء البارد ، ويختار الماء البائت فان الماء الجاري يؤذي المعدة ولا يروي •

ص١٠٦ السطر الاخير : يوضع الهـامش الآتي تعليقـاً على « ديوان الحماسة » : « ويعرف البحتري كذلك مبتدعاً لفن رثاء الدول في سينيته المشهورة ، ونظيرها في الادب الاندلسي رائيـة ابن عبدون في زوال ملك بنى الافطس اصحاب بَطَليوس وقصيدة ابي البقاء الرندي في رثاء الاندلس وان كانت كلتا القصيدتين دون سينية البحتري قوة واحساساً ••• ويمكننا ان نعتد من هذا الصنف رثاء ابن اللبانة لبني عباد في اشبيلية [كارسياكوميس ؛ الشعر الاندلسي ، ص١٠٦ و١٠٩-١١٠] •

ص١٠٧ يضاف الى نهاية الهامش (١) ما يلي : « وقد أحب علوة الحلبية

فتغزل بها ، ويذكر ابن القفطي في « تاريخ الحكماء » ص٢٩٦ نقلاً عن ابن بطلان ان دارها كانت لا تزال قائمة وسط حلب في القرن الخامس للهجرة ، اذ قال : « وفي وسط البلد دار علوة صاحبة البحتري » .

ص١٠٨ السطر الاخير : تستبدل عبارة : « كم مصطنع كل هذا ! » بعبارة : « أي فنان يموت بموتي ! » .

ص١١٧ الهامش (٢) السطر الاول منه : تضاف لفظة « الرها » قبل « ايديسا » .

ص١٢٢س٤: «مجزوء المتقارب» يصبح : «مشطور المتقارب» .

ص١٢٦س١٥–١٦ «طبقات الصوفية» يوضع لها الهامش : طبع بتحقيق محمود حسن زناتي .

ص١٣٠ س٣ يوضع « لابن حزم القرطبي » الهامش : شهرته في الغرب قائمة على انه مؤسس علم الاديان المقارن (راجع «تراث الاسلام» مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ج١ ص١٦٦) فصل الادب : لجب ، ترجمة عبداللطيف محمود حمزه .

ص١٣٤،الهامش٢ : يضاف اليه : و« فنون النثر المهجري » للدكتور عبدالكريم الاشتر ، لبنان ، ١٩٦٥ ، ص٢٤٦–٢٦٦ .

ص١٤٠س٥ يوضع هامش لسنة ٢٥٥هـ [سنة وفاة الجاحظ] كما يلي : وقيل سنة ٢٥٦هـ ، راجع المسعودي (طبعة دار الاندلس) ج٤ ص١٠٨ ... وكان يقول بالعثمانية وانحرافه مشهور .

ص١٤٠ السطر الاخير : يوضع الهامش الآتي «لكتاب البيان والتبيين» : وله كذلك كتاب الطفيليين وكتاب البخلاء ... وكان غلام ابراهيم بن سيار النظام وعنه اخذ ومنه تعلم ... وقال انه يموت وعمره نيف وسبعون سنة ... وكان يطلي نصفه الايمن

بالصندل والكافور لشدة حرارته ، والنصف الآخر لو قرض بالمقاريض ما شعر به من خدره وبرده (المسعودي ، ٤/١٠٩) وقد صنف كتاب «إمامة ولد العباس» يحتج فيـــه لهذا المذهب (نفسه ، ٣/٢٣٧) وانتصر لمعاوية من علي في كتابه : «امامـة أمير المؤمنين معاوية بن ابي سفيان» وقد نقضت الشيعة والمعتزلة بعض كتبه ككتاب العثمانية •

ص١٥٤س٣ : يوضع الهامش الآتي : «لاحسن التقاسيم في معرفةالاقاليم»: «الف الكتاب سنة ٣٧٥هـ ، راجع جرجي زيدان : (تاريخ آداب اللغة العربية) جـ٢ ص٣٧٩» •

ص١٨٠س٦ : يوضع الهامش الآتي بعد عبارة : «وانقطع الجبائي» : « اورد هذه القصـة ديدرو في بعض كتاباته واستشهد بهـــا فيلسوف الوجودية جان پول سارتر في كتـــابه : « الوجود والعدم» بحث فى الانطولوجيا الظاهراتية ، ترجمة عبدالرحمن بدوي ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، الطبعة الاولى ، آب ، ١٩٦٦ ، ص٨٥٠ •

خلفاء بني العباس

خلفـاء مستقلون

السنة الهجرية			السنة الميلادية
١٣٢	(١)	**السفاح [عبدالله بن محمد بن علي ابن عبدالله بن العباس]** (ت) امه ريطة الحارثية. مات بالجدري. **مات في زمانه :** عبدالحميد الكاتب	٧٥٠
١٣٦	(٢)	**المنصور [عبدالله بن محمد بن علي ابن عبدالله بن العباس]** (ت) امه سلامه البربرية ام ولد مات في زمانه : **ابن المقفع** وحماد الراويـة وابو حنيفـة وابو عمرو ابن العلاء	٧٥٤
١٥٨	(٣)	**المهدي** [**بن المنصور**] (ت) امه ام موسى بنت منصور الحميرية كان مليح الشكل . **مات فيزمانه :بشار بنبرد** والخليل ابن احمد الفراهيدي وسفيان الثوري وابراهيم بن ادهم الزاهد **وصالح ابن عبدالقدوس .**	٧٧٥
١٦٩	(٤)	**الهادي [بن المهدي]** (ق) امه ام ولد بربرية اسمها الخيزران **مات في زمانه :** نافع قارىء اهـل المدينة .	٧٨٥
١٧٠	(٥)	**الرشيد [بن المهدي]** (ت) امه ام ولد بربرية اسمها الخيزران وكان ابيض طويلاً جميلاً مليحاً فصيحاً له نظر في العلم والادب . **مات في زمانه :** سيبويه والكسائي	٧٨٦

السنة الهجرية			السنة الميلادية
		ومروان بن ابي حفصه وابن السماك الواعظ **والعباس بن الاحنف** .	
١٩٣	(٦)	**الأمين [بن الرشيد]** (ق) امه زبيده الهاشمية . وكان من احسن الشباب صورة : ابيض طويلاً جميلاً ذا قوة مفرطة وبطش وشجاعة حتى انه قتل اسداً بيده . **مات في زمانه :** مؤرج السدوسي **وابو نواس** وشقيق البلخي الزاهد.	٨٠٩
١٩٨	(٧)	**المأمون [بن الرشيد]** (ت) امه ام ولد فارسية اسمها مراجل. **مات في زمانه :** سفيان بن عيينه والشافعي **وابو العتاهية** والاصمعي وابو عبيده وقطرب وابو سليمان الداراني ومعروف الكرخي .	٨١٣
٢١٨	× (٨)	**المعتصم [بن الرشيد]** (ت) امه ام ولد تركيةمنمولدات الكوفة. **مات في زمانه :** ابراهيم بن المهدي وابو عبيد القاسم بن سلاّم .	٨٣٣
٢٢٧	× (٩)	**الواثق [بن المعتصم]** (ت) امه ام ولد رومية اسمها قراطيس . **مات في زمانه : ابو تمام** ومحمد بن سعدكاتب الواقدي وابن الاعرابي.	٨٤٢
٢٣٢	(١٠)	**المتوكل [بن المعتصم]** (ق) امه ام ولد اسمها شجاع . **مات في زمانه : ديك الجن ودعبل الخزاعي** وابن السكيت واسحق الموصلي واحمد بن حنبل وذوالنون المصري .	٨٤٧

خلفاء تحت النفوذ التركي

السنة الهجرية			السنة الميلادية
٢٤٧	(١١)	**المنتصر [بن المتوكل]** (ت) أمه ام ولد رومية اسمها حبشية ٠ وكان مليح الوجه ، اسمر ، اعين ، أقنى ربعة ، جسيماً بطيناً ٠	٨٦١
٢٤٨	(١٢)	**المستعين [بن المعتصم]** (١) (*) (ق) امه ام ولد اسمها مخارق ٠ كان مليحاً ابيض بوجهه اثر جدري ألثغ ٠ **مات في زمانه : الجاحظ** وابو حاتم السجستاني ٠	٨٦٢
٢٥٢	(١٣)	**المعتز [بن المتوكل]** (*) (ق) امه ام ولد رومية تسمى قبيحه ٠ كان بديع الحسن وقال علي بن حرب احد شيوخ ابن المعتز في الحديث: مارأيت خليفة أحسن منه ٠ **مات في زمانه** : الدارمي صاحب المسند وسري السقطي ٠	٨٦٦
٢٥٥	(١٤)	**المهتدي [بن الواثق]** (*) (ق) امه ام ولد تسمى ورده ٠ كان اسمر رقيقاً ، مليح الوجه ، متعبداً عادلاً ، بطلاً ، شجاعاً بلا ناصر ٠	٨٦٩
٢٥٦	× (١٥)	**المعتمد [بن المتوكل]** (*) (ق) امه رومية اسمها فتيان ٠ قيل مات مسموماً ٠ **مات في زمانه** : البخاري ومسلم والترمذي وابو داود وابن ماجه والزبير بن بكار وحجاج بن يوسف الشاعر وداود الظاهري **وابن قتيبه** وابو حاتم الرازي ٠	٨٧٠
٢٧٩	× (١٦)	**المعتضد [بن الموفق طلحه بن**	٨٩٢

المتوكل] (*) (ت)
امه ام ولد اسمها صواب وقيل حرز
وقيل ضرار ٠
مات في زمانه : البحتري والمبرد
وابو العيناء ٠

٢٨٩ (١٧) **المكتفي [بن المعتضد]** (ت) ٩٠٢
امه تركية اسمها چيچك وكان
يضرب بحسنها المثل ٠ مات شاباً ٠
مات في زمانه : احمد بن حنبل
وثعلب والترمذي ٠

٢٩٥ (١٨) **المقتدر [بن المعتضد]** (*) (ق) ٩٠٨
امه رومية وقيل تركية اسمها غريب
وقيل شغب ٠
مات في زمانه : الجنيد **وابن بسام**
الشاعر والنسائي والجبائي وابن
جرير الطبري والزجاج والاخفش
الصغير وقدامه الكاتب ٠

٣٢٠ × (١٩) **القاهر [بن المعتضد]** (*) (س) ٩٣٢
امه ام ولد اسمها فتنة ٠
مات في زمانه : ابن دريد ٠

٣٢٢ × (٢٠) **الراضي [بن المقتدر]** (١) (*) (ت) ٩٣٤
امه ام ولد رومية اسمها ظلوم ٠
مات في سن الحادية والثلاثين ٠
مات في زمانه : ابن عبد ربه
والاصطخري والانباري ونفطويه ٠

٣٢٩ (٢١) **المتقي [بن المقتدر]** (*) (ت) ٩٤٠
امه أمة اسمها خلوب وقيل زهره٠
مات في زمانه : الفرغاني الصوفي

---

(١) الراضي آخر خليفة له شعر مدوّن ومن شعره [من مجزوء الخفيف]:

كل صفو الى كدر — كل امر الى حذر
ايها الآمل الذي — تاه في لجة الغرر
اين من كان قبلنا ؟ — ذهب الشخص والأثر!

السنة الهجرية		السنة الميلادية
	وابن ولاد النحوي .	
٣٣٣	(٢٢) **المستكفي [بن المكتفي]** (*) «مخضرم»(ت) امه ام ولد اسمها املح الناس .	٩٤٤

خلفاء تحت النفوذ البويهي

٣٣٤	(٢٣) **المطيع [بن المقتدر]** (*) (ت) امه ام ولد اسمها شغلة . **مات في زمانه :** ابو بكر الصولي وابو نصر الفارابي والزجاجي والدينوري والقاضي التنوخي **والمسعودي والمتنبي وابو الفرج الاصفهاني** وابو علي القالي .	٩٤٦
٣٦٣	(٢٤) **الطائع [بن المطيع]** (ت) امه ام ولد اسمها هزار . **مات في زمانه : الرفاء الشاعر** والسيرافي النحوي وابن خالويه والازهري امام اللغة وابو ابراهيم الفارابي صاحب ديوان الادب وابو علي الفارسي النحوي .	٩٧٤
٣٨١	(٢٥) **القادر [بن المتقي]** (٢) (*) (ت) امه امة اسمها تمني وقيل دمنة . **مات في زمانه : الصاحب بن عباد وابن جني والجوهري** وابن فارس **وبديع الزمان وابو حيان التوحيدي** والوأواء وابن الفارض و**الباقلاني** وابن نباته الخطيب **والشريف الرضى** وابو عبدالرحمن السلمي .	٩٩١
٤٢٢	(٢٦) **القائم [بن القادر]** «مخضرم» (ت) امه ام ولد ارمنية اسمها بدر الدجى وقيل قطر الندى . كان جميلاً مليح الوجه ، ابيض مشرباً حمرة ، حسن الجسم . **مات في زمانه :** ابن سينا شيخ الفلاسفة **ومهيار الديلمي** وابن حزم	١٠٣١

الظاهري وابو نعيم (صاحب حلية الاولياء) **وابو العلاء المعري** والبيهقي وابن سيده **والخطيب البغدادي** وابن رشيق وابن عبدالبر .

خلفاء تحت النفوذ السلجوقي

٤٦٧ (٢٧) **المقتدي [بن محمد بن القائم]** (٣) (*) ١٠٧٥

أمه أم ولد اسمها أرجوان وتلقب بقرة العين . مات مسموماً بيد جاريته شمس النهار .

مات في زمانه : عبدالقادر الجرجاني .

٤٨٧ × (٢٨) **المستظهر [بن المقتدي]** (ت) ١٠٩٤

وكان شاعراً ، ومن شعره قوله :

اذاب حر الهوى في القلب ما جمدا
لما مددت الى رسم الوداع يدا

مات في زمانه : الخطيب التبريزي والغزالي والابيوردي اللغوي والشاشي الذي صنف له كتاب «الحليه» وسماه «المستظهري» .

٥١٢ (٢٩) **المسترشد [بن المستظهر]** (ق) ١١١٨

أمه ام ولد . خرج الناس حفاة مخرقي الثياب يوم مقتله لانه كان محبباً فيهم لبره .

مات في زمانه : الطغرائي والحريري والميداني صاحب الامثال وابن السيد البطليوسي وابو بكر الطرطوشي وابو الحجاج السرقسطي .

٥٢٩ (٣٠) **الراشد [بن المسترشد]** (ق) ١١٣٥

امه ام ولد . قتل بالسكاكين وهو في اشد حالات المرض .

خلفاء مستقلون

السنة الهجرية		السنة الميلادية
٥٣٠	(٣١) **المقتفي [بن المستظهر]** (*) «مخضرم» (ت)	١١٣٦
	وامه حبشية . وكان من سروات الخلفاء لا يجري امر الا بتوقيعه . **مات فيزمانه:الزمخشري** والجواليقي وابن الشجري وابن العربي وناصحالدين الارجاني الشاعر والقاضي عياض والرفا الشاعر والشهرستاني (صاحب المللوالنحل) والقيسراني الشاعر .	
٥٥٥	× (٣٢) **المستنجد [بن المقتفي]** (ت)	١١٦٠
	امه ام ولد كرجية اسمها طاووس. **مات فيزمانه** : عبدالقادر الجيلي .	
٥٦٦	(٣٣) **المستضيء** [**بن المستنجد**] (ت)	١١٧٠
	امه ام ولد ارمنية اسمها غضة . **مات في زمانه : حيص بيص** وملك النحاه ابو نزار .	
٥٧٥	(٣٤) **الناصر** [**بن المستضيء**] ت	١١٨٠
	امه ام ولد تركية اسمها زمرد . **مات فيزمانه:** ابن بشكوال وابو بكر ابن زهير والقاضي الفاضل وابن الجوزي والعماد الكاتب وابو السعادات ابنالاثير وابن ابياصيبعه.	
٦٢٢	(٣٥) **الظاهر** [**بن الناصر**] (ت)	١٢٢٥
٦٢٣	(٣٦) **المستنصر** [**بن الظاهر**]	١٢٢٦
	وامه جارية تركية **مات في زمانه** : ياقوت الحموي والسكاكي (صاحب «المفتاح») ويحي ابن معطى (صاحب الالفية) والحافظ ابو بكر بن نقطة وعزالدين بن الاثير (صاحبالتاريخ) وابن عتبى الشاعر وابن فضلان **وعمر بن الفارض**	

والشهاب السهروردي صاحب (عوارف المعارف) وابن الشواء الشاعر والضياء بن الاثير صاحب « المثل السائر » وابن عربي صاحب « الفصوص » .

٦٤٠-٦٥٦ (٣٧) **المستعصم [بن المستنصر] (ق)** ١٢٤٢-١٢٥٨

امه ام ولد اسمها هاجر .

مات في زمانه : سبط ابن الجوزي صاحب «مرآة الزمان» وابن يعيش وابن النجار مؤرخ بغداد والقفطي صاحب « تاريخ النحاة » .

ملاحظة : تعنى هذه الاشارة (×) ان الخليفة كان شاعراً ، و (*) ان تسلسل الخليفة ليس بصورة مباشرة ، وتعنى (ق) انه قتل و «س» سُمل و «ت» مات ميتة طبيعية .

(١) اخطأ السيوطي في « تاريخ الخلفاء » حين جعل المستعين بن المعتصم والصحيح انه ابن محمد بن المعتصم .

(٢) اخطأ السيوطي كذلك في « تاريخ الخلفاء » حين جعل القادر بن المقتدر والصحيح انه ابن المتقي .

(٣) اخطأ السيوطي ايضاً في « تاريخ الخلفاء » حين جعل المقتدي بن القائم والصحيح انه ابن محمد بن القائم .

(٤) يقول فيليب حتّي : ان سيطرة السلاجقة على الخلافة العباسية استمرت حتى سنة ١١٩٤م في خلافة الناصر (ص٤٧٩) بينما يقول في موضع آخر (ص٤٧٨) ان الامبراطورية السلجوقية انقسمت الى امارات مستقلة وبقي للقسم المركزي في ايران السلطان الاسمي عليها حتى سنة ١١٥٧م والصحيح ان العراق تحرر من ربقة السلاجقة سنة ٥٤٧هـ على يد الخليفة المقتفي ، وقد أيد هذا الرأي العلامة الدكتور مصطفى جواد في مداولة شفهية .

(٥) الأرجح ان الجاحظ توفي سنة ٢٥٥هـ وعلى ذلك تكون وفاته في عهد المهتدي لا المستعين كما وهم السيوطي في «تاريخ الخلفاء» .

(٦) ذُكِر في من مات على عهد المكتفي : احمد بن حنبل والصحيح عبدالله بن احمد بن حنبل وذكر كذلك الترمذي والمقصود به : ابو جعفر الترمذي شيخ الشافعية .

(٧) يضاف الى من مات في زمن المقتدر : المتصوف الشهير الحسين بن منصور الحلاج الذى قتله الوزير حامد بن العباس سنة ٣٠٩هـ .

كشاف الاعلام والموضوعات

(ب)

(س)

(ش)

(ض)

(ط)

الصفحة

(غ)

(ف)

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة	الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

(و)

الصفحة

الصفحة

(ى)

ملاحظة : تعني هذه العلامة (*) ان اللفظة غير واردة فى فهرست نكلسن الابجدى وانما هى من اضافات المترجم ٠

تاريخ الأدب العباسي ترجمة الدكتور صفاء خلوصي المكتبة الأهلية

ABBASSIDE LITTERATURE HISTORY

By

Professor Renold. A. Nicolson

TRANSLATED & REVISED

By

Dr. Safa Khulusi

Professor at the university of Baghdad

The Publisher : Al-Ahliyah Library

1967

ABBASSIDE LITTERATURE HISTORY

By

Professor Renold. A. Nicolson

TRANSLATED & REVISED

By

Dr. Safa Khulusi

Professor at the university of Baghdad

The Publisher : Al-Ahliyah Library

1967